مِسَكُ الخِطَاب

فضيلة الشيخ الدكتور / أسامة بحر

الطبعة الثانية

1437هـ - 2016 م

مِسكُ الخِطَاب

خواطر ومقالات في الإيمان والأخلاق والحياة

فضيلة الشيخ الدكتور أسامة بحر

مستشار شرعي

الطبعة الثانية

١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

مسك الخطاب

تأليف: الشيخ الدكتور أسامة بحر

الطبعة الثانية ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

osamabahar.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



المحتويات

مقدمة الطبعة الثانية ١٧
مقدمة الطبعة الأولى ١٩

الباب الأول: في رحاب الإيمان والعبادة ٢١

خير الزاد ٢٢
اللهم اجعلنا من عباد الرحمن ٢٣
الورع ٢٤
أين الجواب؟ ٢٥
بادر قبل أن تُبادَر ٢٧
توبة تحتاج إلى توبة ٢٨
سر بين العبد وربه ٢٩
أسباب الرزق ٣٠
البطاقة المنجية ٣١
ثمرة الاستغفار ٣٢
﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ ٣٤
قد أفلح المؤمنون ٣٥
وفي الذنوب ظُلمة ٣٦
ولربك فاصبر ٣٧
يا الله ٣٨
يا سبحان الله! ٣٩
من أين يأتي الشيطان؟ ٤١
بمن أثق؟ ٤٢
ذئب الإنسان ٤٣
القدر سر الله في خلقه ٤٤

ميزان حذيفة ٤٥
ذكريات تائب ٤٦
أنا ضيف عندك ٤٧
لا تشرب الماء حتى أسألك! ٤٨
ميلاد جديد ٤٩
لا تبشرهم يا معاذ ٥٠
القائد ٥١
ذئب يتكلم ٥٣
درس هام في الاستعانة ٥٤
في اللحظات الأخيرة ٥٥
إلا صلاتي ٥٧
لذة الخلوة ٥٨
من؟ ٥٩
ربي اشرح لي صدري ٦٠
نحن المتوكلون ٦١
أرحنا بها يا بلال ٦٢
انتبه فأنت مراقب ٦٣
إن شاء الله ٦٥
كيف أعبد؟ ٦٦
لو كان قلبك حجراً ٦٧
وهل يعجز اللسان؟ ٦٨
يا رجائي ٦٩

الباب الثاني: مكارم الأخلاق وآداب الإسلام ٧١

ارحموا من في الأرض ٧٢
عثرات عمر تتبع ٧٣
ولذلك خلقهم ٧٤
حتى لا يمنع الماعون ٧٥
خصلتان يحبهما الله ٧٧

خلق التغافل ٧٨
رجل من أهل الجنة ٧٩
أدبيات ضرورية ٨٠
الأمانة يا أخا العالية ٨٢
الدين النصيحة ٨٣
العجلة من طبع الإنسان ٨٥
الكنز الذي لا يفنى ٨٦
إن الله يحب المحسنين ٨٧
أنزلوا الناس منازلهم ٨٨
إياك والكبر ٩٠
تجنب المزاح وعليك بالجد ٩٢
جميل يحب الجمال ٩٣
في مدرسة الحب ٩٤
يا أهل المعروف أين أنتم؟ ٩٥
ما هي الفضيلة؟ ٩٧
فضول الكلام ٩٨
فيم يختصمون ٩٩
قاتلها الله من سيوف ١٠١
كل معروف صدقة ١٠٢
لو كنت معاتبا ١٠٣
ما نقص مال من صدقة ١٠٥
موعظة للصغار والكبار ١٠٦
هموم ومذلة ١٠٧
التمس لأخيك عذرًا ١٠٨
صدقة السر ١١٠
هذا أوردني الموارد ١١١
منعا للإحراج ١١٢
من حسن إسلام المرء (1) ١١٣
من يستطيع أن يكون كأبي ضمضم ١١٤

إياكم والظن ١١٥
كن كالشمس ١١٧
كن مؤثرا ١١٨
دفء الحياة ١١٩
من أيقن بالخلف جاد بالعطية ١٢٠
المسألة مسألة ذوق ١٢٢
أحسن الناس ١٢٣
وجوه وأقنعة ١٢٤
هذه الزكاة لا نقبلها ١٢٥
نهاية الطامعين ١٢٦
من حسن إسلام المرء (2) ١٢٨
الناس معادن ١٢٩
أنا بنتُ حاتِم طيّئ ١٣٠
سباق الفورمولا ١٣١
الحب الذي نريد ١٣٢
بين الحوار والمجادلة ١٣٣
بين الإيثار والأثرة ١٣٥
كتمان الأسرار ١٣٦
البخل أنواع ١٣٧
الظلم ظلمات ١٣٨
إنها أمانة ١٣٩
بين الصواب والخطأ ١٤١
ما خاب من استشار ١٤٢
هدية مني إليك ١٤٣

الباب الثالث: وقفات مع النفس والحياة ١٤٥

جريمة قتل ١٤٦
حساب الحسنات والسيئات ١٤٧
احذروا «سوف» ١٤٨

الوقت الضائع ١٥٠
أيها الأمل ١٥١
حديث في الجمال ١٥٢
حساب قبل الحساب ١٥٣
ساعة وساعة ١٥٥
سُئلت: كم الساعة؟ ١٥٦
سياسة النفس ١٥٧
وفي الحياة بقية ١٥٩
كنوز لا تفنى ١٦٠
لكل وقت عمل ١٦١
لو كنا نسمع أو نعقل ١٦٢
يا أُمّاه جاء حالِبُ الشاة ١٦٣
لا تقلق ١٦٥
في لحظات العسرة ١٦٦
قوة الإرادة ١٦٧
الهم من جنود الله ١٦٨
حديث السفينة ١٧٠
كم بقي لي من العمر ١٧١
نهاية الأسبوع ١٧٢
رفع المعنويات ١٧٣
مضى زمن النوم يا خديجة ١٧٤
ما مضى قد فات ١٧٥
بحر التمني ١٧٧
سئمت تكاليف الحياة ١٧٨
الصبر والنجاح توأمان ١٧٩
الخسارة الحقيقية ١٨٠
الزمن ثلاثي الأبعاد ١٨١
حب من طرف واحد ١٨٢
لا حد لطموحاتنا ١٨٤

الباب الرابع: الموت والآخرة ١٨٦

أريد الجنة ١٨٧
ذكر الموت هكذا ١٨٨
بيت العنكبوت ١٨٩
قبور تتنفس ١٩٠
سلع للبيع ١٩١
يا ليتني منهم ١٩٢
في ضيافة الله ١٩٣
حسن الخاتمة ١٩٥
عمارة المجالس ١٩٦
عند الاحتضار ١٩٧
كل الذي فوق التراب تراب ١٩٨
مثل الدنيا والموت ٢٠٠
ما هذه القصور؟ ٢٠١
رجعت فاعمل ٢٠٢
تخيل ٢٠٣
وفي الآخرة امتحان ٢٠٤
يتبع الميت ثلاثة ٢٠٥
دعني دعني ٢٠٧
فقط تذكر ٢٠٨
عند باب الجنة ٢٠٩
الحفرة ٢١٠
فجأة ٢١٢
يقينٌ أشبه بالشك ٢١٣
من رائعةٍ للإمام زين العابدين ٢١٤

الباب الخامس: رمضان والعيد ٢١٦

أهلا رمضان ٢١٧

مرحبا رمضان ٢١٨
اللهم كما بلغتنا رمضان..... ٢١٩
ما هو رمضان؟..... ٢٢٠
لماذا رمضان؟ ٢٢١
كيف نعيش أيام رمضان؟..... ٢٢٢
لعلكم تتقون ٢٢٤
ثمار الصيام..... ٢٢٥
ومن يمنعك عن الطعام والشراب؟ ٢٢٦
لو كنت صائما ٢٢٧
لعبة الحسنات ٢٢٨
في رحاب القرآن..... ٢٢٩
الذي أُنزل فيه القرآن ٢٣٠
لمن هجر القرآن ٢٣٢
ألم وأمل ٢٣٣
ماذا حصل في رمضان..... ٢٣٤
العشر الأخيرة..... ٢٣٥
فضائل ليلة القدر..... ٢٣٦
ليلة القدر ٢٣٧
أَطِلّي ليلةَ القدرِ..... ٢٣٩
سياسة القبول ٢٤٠
وماذا بعد رمضان..... ٢٤١
عرفتَ فالزم ٢٤٣
يا ليلة العيد..... ٢٤٤
وفي العيد فرحة ٢٤٥
باقة عيد الفطر..... ٢٤٦
عيدية وهدية..... ٢٤٧
العيد حياة وتجديد ٢٤٨
في رمضان وغير رمضان..... ٢٥٠

الباب السادس: الحج ومواسم العام ٢٥١

بركة الزمان ٢٥٢
نداء إبراهيم ٢٥٣
مع موكب الحجيج ٢٥٤
الحج صناعة ٢٥٧
حج مبرور ٢٥٨
دروس في الحج ٢٥٩
هنا تسكب العبرات ٢٦٠
طموحات وأحاسيس حاج ٢٦١
بأي حال عدت يا عيد ٢٦٢
الرحيل ٢٦٤
ورحل عام ٢٦٥
حصاد العام ٢٦٦
مرحبا بهذا العام ٢٦٧
التقويم الهجري ٢٦٨

الباب السابع: في رحاب السيرة النبوية ٢٧٠

من هو؟ ٢٧١
الثاني عشر من ربيع ٢٧٢
ولد الهدى ٢٧٣
الربيع تشعشع ٢٧٤
محمد المثل الأعلى ٢٧٥
أحبك يا محمد ٢٧٦
أنت مع من أحببت ٢٧٨
مهر حواء ٢٧٩
إلا الرسول ٢٨٠
كلمات ٢٨٢
كان معي في الجنة ٢٨٣

ذريني أتعبد الليلة ٢٨٤
يا بني ٢٨٥
حجر لا يضر ولا ينفع ٢٨٦
حكمة الإسراء والمعراج ٢٨٨
لقد رأى من آيات ربه ٢٨٩
درس من الإسراء والمعراج ٢٩١
على طريق الهجرة ٢٩٢
طلع البدر علينا ٢٩٣
اللهم اخلف جعفرًا في ولده ٢٩٤
وأزواجه أمهاتهم ٢٩٦
إن عبدًا خيره الله ٢٩٧
إلى الرفيق الأعلى ٢٩٨

الباب الثامن: من سير الصحابة والسلف الصالح ٣٠٠

سباق الصالحين ٣٠١
من يسبق أبا بكر ٣٠٢
مع الفاروق عمر (1) ٣٠٣
مع الفاروق عمر (2) ٣٠٥
مع الفاروق عمر (3) ٣٠٦
من أين لك هذا؟ ٣٠٧
خطبة للفاروق ٣٠٨
التقوى ها هنا ٣٠٩
أعز الناس صعلوك يساوي الملوك ٣١٠
أريد رجالا كأبي عبيدة ٣١٢
من أين لي ثمن الحلوى؟ ٣١٣
بين علي والحسن ٣١٤
خطبة لسيدنا علي ٣١٥
هذه صفات المتقين ٣١٦
يا دنيا غُرّي غيري ٣١٨

الحسين أمة وحده ٣١٩
مصعب الخير (1) ٣٢٠
مصعب الخير (2) ٣٢١
ليتني مثل مصعب (3) ٣٢٣
اهتز عرش الرحمن لموته (1) ٣٢٤
اهتز عرش الرحمن لموته (2) ٣٢٥
بناء شامخ ٣٢٦
دعوة لحضور حفل زفاف ٣٢٧
ذو البجادين ٣٢٩
غدا نلقى الأحبة ٣٣٠
يرحم الله أبا ذر ٣٣١
هذا فتى من اليمن ٣٣٢
ليتني أقبّل هذا الرأس ٣٣٤
حتى لا يشمت في الإسلام وأهله ٣٣٥
من رعي الغنم إلى قيادة الأمم ٣٣٦
أمي صاحبة الضفيرة ٣٣٧
أنا ابن صاحبة الشكال ٣٣٨
حوار هادئ ٣٤٠
إذا لقيت أويس القرني ٣٤١
صبرًا يا أمتي ٣٤٣
ومن يتق الله ٣٤٤
سعيد ابن جبير والحجاج ٣٤٥
ميثاق العلماء ٣٤٦
ما تقولون في هذا الرجل ٣٤٨
خطبة تاريخية ٣٤٩

الباب التاسع: الأسرة والمرأة والشباب ٣٥١

أترضاه لأمك ٣٥٢
الرسالة الأخيرة ٣٥٣

التربية قبل التعليم ٣٥٤
شبابنا والفراغ ٣٥٦
المرأة الصالحة من هي؟ ٣٥٧
إلى شبابنا مع التحية ٣٥٨
بين رجلٍ وامرأته ٣٥٩
كن أسدًا لا ذئبًا ٣٦٠
عروس اليوم مطلقة الغد ٣٦٢
وصية أم ٣٦٣
جهاد المرأة ٣٦٤
كونوا عونا لإخوانكم ٣٦٦
إليكِ أيتها الزوجة مع التحية ٣٦٧
الميثاق الغليظ ٣٦٨
همسة ٣٧٠
قصة حب ٣٧١

الباب العاشر: العلم والدعوة وقضايا الأمة ٣٧٣

الأدب قبل الطلب ٣٧٤
أي هَمّ هذا؟ ٣٧٤
دعوا الدين كما هو ٣٧٦
استعينوا بالصبر والصلاة ٣٧٧
اقرأ ٣٧٨
الصديق الذي لا يمل ٣٨٠
العلم يرفع أقواما ويضع آخرين ٣٨١
بين القوة والحق ٣٨٣
في حب الوطن ٣٨٤
موسم جديد ٣٨٥
يا خليفة الله أين أنت؟ ٣٨٧
يا وطني! ٣٨٨
وقل ربي زدني علما ٣٨٩

وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ٣٩٠
رصيد الفطرة ٣٩١
تجارة مع الله ٣٩٣
الإسلام هو الحل ٣٩٤
الصياد الماهر ٣٩٥
قائد الروم يباع بكلب ٣٩٦
ما لي لا أرى الهدهد ٣٩٨
دعوها فإنها منتنة ٣٩٩
ما هذا يا ابن الخطاب؟ ٤٠٠
دور القصة في الدعوة ٤٠١
ما هي العزة؟ ٤٠٢
النصر قادم ٤٠٤
الدعوة الصامتة ٤٠٥
الحق قديم ٤٠٦
الوثيقة العمرية ٤٠٧
أمانة الدعوة ٤٠٨
شراب الأمن ٤١٠
غضب الأرض ٤١١
فالحق والحق أقول ٤١٢
لا ما أقاموا فيكم الصلاة ٤١٣
يا أهل الغرب هذا إسلامنا ٤١٥

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين وبه نستعين على أمور الدنيا والدين، ونسأله تعالى العمل بالكتاب المبين وبسنة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد النبي الكريم وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين وبعد:

فهذه هي الطبعة الثانية من كتاب مسك الخطاب ظهرت بعد نفاد الطبعة الأولى، وكان لظهور هذه الطبعة الثانية قصة جعلتني أتحفز وأسرع في استخراج الطبعة الثانية لا سيما وأن عوارض الدنيا لا تكاد تهمل أحدا، أو تمنحه فسحة أو فرصة، والقصة أن أحد النقاد لا أعرفه اتصل عن طريق صديق ليخبرني بأن الكتاب كان له مفعول في شد القارئ وزيادة تعطشه، حيث ما إن يمسك بحبل الكتاب حتى يستمر بشد الحبل حتى يصل إلى نهايته، فقلت في نفسي هذا يكفي، وهذه هي الغاية من كتابي هذا، وهو أن تكون مواضيعه تشد الناظرين قبل القارئين، ثم إن القارئ سيجد الفائدة التي تتضمنها مواضيع الكتاب هذا بكل اختصار، وكما أنني لم أغفل قدرة القارئ على الإضافة والتعليق إن هو أراد ذلك، فما عليه سوى أن يُبحر في خيالات فكره، ويزيد على ما تضمنه الكتاب من أفكار وكلام، وكما ذكرت سابقًا فإن هذا الكتاب يضع لبنة، أو بعض لبنات، ومن يقرأه يضع لبناته ليكتمل البنيان ويرتفع.

أمر آخر أسعدني كثيرًا وهو أن أحد الإخوة اتصل بي طالبا مني الإذن له بتسجيل الكتاب صوتيا، ويعرضه على قناة يوتيوب، فأذنت له، وقام بالتسجيل فأبدع في إخراج العمل صوتيا أكثر مما توقعت، وهذا هو رابط الحلقات:youtu.be/x3HTjlQ9Ybo،

فالحمد لله، هذه نعمة ساقها الله لي، وصار هذا العمل مقروءا ومسموعا، وعقدت العزم أن أعمل على إصدار الطبعة الثانية، وقد سرت على ذات المنوال الذي سرت عليه في الطبعة الأولى، إلا أنني رأيت أن أضيف مواضيع جديدة لم تخرج عن نطاق الاختصار أو عن زبدة الكلام، فتلك أساسيات في دستور هذا الكتاب الذي لم يكن للمطولات فيه نصيب أو مكان، بل هو مما قل ودل، وأهم ما يميز شخصية هذا الكتاب أنه يعطي الموعظة والفائدة باختصار شديد، دون إطالة أو إسهاب ممل، مما يجعل بعض القارئين تغفو أعينهم وسط زحمة السطور، وكثرة الأفكار التي تشتت تركيزهم، وهذا يحدث في زمن غلبت فيه السرعة والتكنولوجيا والرسائل القصيرة التي تُرسل عبر وسائل التواصل الاجتماعي، وعبر الهاتف الجوال التي لا تتعدى أسطرا معدودة، هذا الزمان الذي أماتت فيه التكنولوجيا لذة التواصل مع أدوات الدنيا وأغراضها، وقطعت الصداقة الحميمية بين الكتاب وصفحاته الجميلة، وبين القارئ الذي لا يجد متعة القراءة إلا بلمس الكتاب، وتحسس أوراقه وتقليب صفحاته.

أسامة بحر

مقدمة الطبعة الأولى

يجمع هذا الكتاب خواطر إيمانية كانت تمر في الخيال والخاطر، فجمعتها ونظمت كلماتها، وكانت تنشر في مجلة أسبوعية، وقد لقيت استحسانا من البعض، حتى قال البعض ما أجمل هذه الخواطر لو أنها جمعت في كتاب ظريف سهل وخفيف، فقلت في نفسي هذا علم والعلم يجب نشره، ولا يمكن نشر هذه المقالات والخواطر إلا من خلال جمعها في كتاب، ثم إنني وجدت من الإخوة من أعانني على ذلك وأبوا إلا أن يخرج الكتاب في حلة جميلة وتنسيق بديع وتنظيم رائع، فكان ولله الحمد أن خرج هذا الكتاب بين يديك أيها القارئ، فجمع مقالات شتى وعناوين عدة، ومن يقرؤها يجدها ممتعة ومؤنسة له في وقت فراغه وفي حله وترحاله، وهي تصلح لمن يخاطب الناس ويوجه لهم موعظة أو حتى خطبة جمعة، أو حتى درسًا من دروس المساجد أو حتى كلمة في المجالس، فيستطيع أن يأخذ منها فكرة ليبني عليها فكرة، فتكون كلبنة وضعت عليها لبنات حتى اكتمل بنيان الخطاب، وقد تضمنت هذه المقالات ما يصيد الخواطر ويرققها ويحدث فيها رقة، وامتازت بما قل ودل وبالاختصار والذي أرجو أن يكون مفيدًا لا مخلا، لا سيما وأن المقالات الطويلة قلما يقرؤها أحد إلا من شحذ همته وفرغ نفسه وفكره ووجد لها وقتا مناسبا، وكل ذلك مما يصعب تحقيقه اليوم، فكانت هذه المواضيع المختصرة تجذب القارئ وتغريه بعناوينها إلى المتابعة والمطالعة بحيث يقرأ السطر الأول فيجد نفسه مستمرا متعطشا للمتابعة إلى أن يصل إلى نهاية المقال دون جهد أو كلل أو ملل فيجد الفائدة في أقصر طريق وأقل وقت ممكن، وهذا والله مما يصعب على الخطباء

تحقيقه فالاختصار المفيد أصعب من الاسترسال الطويل، وجمع الموضوع من كل جوانبه في كلمات معبرة لا يتيسر إلا لمن عرف فنون اللغة وأخذ منها من كل صوب.

وقد بدأت الكتابة وأخذ القلم يخط من محبرة عتيقة بحبر أسود مظلم كأنه بحر دامس فكانت كل كلمة وعبارة تُحبك وكأنها وشْيٌ محبوك بالثياب ومخلوط بالألوان، حتى جاء الثوب جميلا بألوان زاهية، وكذلك نسج الكلام إذا نسج لون بلون فهو ينبت في القلوب زهورًا وخواطر، كانت صحارى فاخضرت بالكلام وارتوت بالزلال وأنبتت العشب والكلأ الكثير.

فأرجو أن يكون هذا الكتاب صديقًا وأنيسًا، ومحبوبًا لقارئه من خلال ما تضمنه من عناوين ومقالات ولا أدعي فيه الكمال بل الكمال لله تعالى ولا أدعي أنه كتاب بكر ولكنه جهد مقل يرجو الأجر والثواب والدعوة الخالصة لكل من ساهم في ظهور هذا الكتاب وطباعته.

أسامة بحر

الباب الأول

في رحاب الإيمان والعبادة

(٤٢ مقالة)

خير الزاد

قال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧]، والزاد هو ما يأخذه المسافر معه من أغراض ومتاع في سفره، وكلنا في حال سفر إلى الله سبحانه، وخير ما نتزود به لهذا السفر التقوى، والتقوى هي أساس الفضائل بل هي منبع كل خير، فلا يأتي خير إلا من ينبوع التقوى، فالكروب والمحن إنما تزول بالتقوى، قال الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وسعة الرزق كذلك تأتي من التقوى يقول الله تعالى ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣]، وعمل الإنسان لا يقبل إلا إذا كان معلقا على التقوى، يقول تعالى ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]، ولا ينجح الإنسان ويوفق في سداد الرأي إلا بالتقوى، يقول تعالى ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وحسن العاقبة إنما تكون بالتقوى، يقول تعالى ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠]، فالتقوى هي الأساس، والمسلم مطالب بالتقوى في كل شؤون حياته، فعندما ينام وعندما يقوم وعندما يأكل وعندما يشرب، وعندما يقوم بأي عمل لا بد أن يتقي الله في عمله كله، إن التقوى تجعل الإنسان متحفزًا دائمًا وهو يسير في طرق الحياة الوعرة، فهو لا يضع قدمه حتى يدرس خطوته، هذه هي التقوى، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كعبا رضي الله عنه، فقال له: ما التقوى؟ فقال كعب يا أمير المؤمنين أما سلكت طريقا فيه شوك؟ قال: نعم، قال: فماذا فعلت؟ فقال عمر رضي الله عنه: أشمر عن ساقي، وأنظر إلى مواضع قدمي، وأقدم قدمًا وأؤخر أخرى مخافة أن تصيبني شوكة، فقال كعب: تلك هي التقوى. إن التقوى ميزة من مزايا الإيمان، تجعل المؤمن في أعلى مراتب الخلق، وسُئل صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان، قالوا صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: هو التقي النقي لا إثم فيه ولا بغي ولا غل

ولا حسد»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن»، فإذا علمت أن التقوى هكذا، فما رأيك أن تسأل الله أن يجعلك من المتقين.

اللهم اجعلنا من عباد الرحمن

من هم عباد الرحمن؟ إنهم المنتسبون إلى الله المتحققون بالعبودية له، وهذه صفاتهم أنهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، أي متواضعين في سكينة ووقار، ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ﴾ [الفرقان: ٦٣] بما يكرهون ﴿قَالُوا سَلَامًا﴾، أي قالوا لهم قولًا فيه رحمة وسلام، ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٤] أي يقومون الليل بعيدين عن مظنة الرياء، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان: ٦٥] أي ادفع عنا عذاب جهنم فعذابها هلاك، ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٦٦] أي بئس المكان مكانها وبئس المحل مُقامها ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] أي إذا أنفقوا اعتدلوا في الإنفاق، وكان إنفاقهم وسطًا بين الإسراف والتقتير ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الفرقان: ٦٨] أي لا يعبدون ولا يشركون مع الله إلهًا آخر لأنه تعالى هو المستحق للعبادة وحده، ﴿وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان: ٦٨] أي لا يرتكبون جريمة الزنا لما ينجم عنها من فوضى وأمراض وهلاك، ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: ٦٩]، أي يخلد فيه أبد الآبدين ذليلا مهانا محتقرا، ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، أي إلا من تاب منهم توبة نصوحا وآمن بالله وعمل صالحا فالله يغفر ذنبه ويمحو سيئاته ويبدلها إلى حسنات، ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٧١]،

أي أن رحمة الله تعالى تشمل كل من أناب إليه ورجع إليه رجوعا حسنا مرضيا، ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢]، أي لا يحضرون مجالس الزور ولا يخوضون فيما لا خير فيه بل يمرون بذلك مرور الكرام، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣]، أي إذا ذكروا بآيات الله لم يعرضوا عنها غافلين كالأصم والأعمى بل متدبرين خاشعين، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤]، أي يدعون الله أن يجعل لهم من أزواجهم وذرياتهم ما تقر به أعينهم، ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ [الفرقان: ٧٥]، أي يجزون الجنة وأعلى الدرجات بصبرهم على فعل الطاعات واجتناب المنهيات ويلقون من الله تعالى والملائكة الكرام التحية والسلام، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الفرقان: ٧٦]، أي يخلدون فيها أبد الآبدين ونعمت الجنة دار استقرار وإقامة، فهؤلاء هم عباد الرحمن، فاللهم اجعلنا منهم.

الورع

الورع مساحة من الحيطة يقف فيها المؤمن أمام ما استشكل عليه من الحلال والحرام، وهو صفة المتقين الذين إذا حاك في نفوسهم شك في أمر، أو ريبة توقفوا، وقالوا بل ندع ما به بأس خوفا مما به بأس، والورع هو الإمساك عما يضر من المحرمات والشبهات، وقد جمع النبي صلى الله عليه وسلم الورع في كلمة واحدة، فقال من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، فهذا يعم الترك لما لا يعنيه من الكلام، والنظر والاستماع والبطش والمشي والفكر وسائر الحركات الظاهرة والباطنة، والورع كلمة كافية شافية وقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أبا هريرة: كن ورعًا تكن أعبد الناس.، ولن يبلغ

العبد حقيقة التقوى حتى يدع كل شبهة قد تجره إلى الحرام وهو لا يدري، فيكون الورع منهجه في الفعل والترك، وقال بعضهم: «كنا ندع سبعين بابًا من الحلال مخافة أن نقع في الحرام»، فمن يفعل ذلك الآن والمغريات في كل جهة، والمحرمات في كل صوب، والمتورعون قليل، والمفرطون كثر، الورع لا يمكن أن يتحقق إلا بالعلم، فكم من إنسان تورع على جهل، فكان تورعه كمن يسلك طريقًا خاطئًا، ويظن أنه على الجادة، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلامًا مهمًا في هذا، قال: تمام الورع أن يعلم الإنسان خير الخيرين وشر الشرين، ويعلم أن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية فقد يدع الواجبات ويفعل المحرمات، ويرى ذلك من الورع. فالورع من العبادات العظيمة، وملاك الدين الورع، والفقيه الورع الزاهد المقيم على سنة النبي صلى الله عليه وسلم له أجره العظيم يوم الدين، والإنسان ينبغي أن يضع نفسه في الموضع الصحيح في مسألة الورع، كما قال الأوزاعي: كنا نمزح ونضحك فلما صرنا يُقتدى بنا خشيت أن لا يسعنا التبسُّم، والإنسان إذا تورّع لن يعدم الحلال، ولا يظن أنه بالورع يحرم نفسه، بل إنه يضع بينه وبين الحرام خطوة يقف خلفها فإن تقدم وقع في الحمى، وإن تأخر استبرأ لدينه وعرضه.

أين الجواب؟

كم يمر على الإنسان من لحظات وهو غافل، إسأل نفسك هل أنت مستعد للحساب، هل حاسبت نفسك قبل أن تحاسب، هل جربت نفسك وأنت تعيش اللحظات الأخيرة، هل تخيلت ملك الموت عند رأسك، هل أحصيت حسناتك وأحصيت سيئاتك، هل لجأت إلى الله منيبا تائبا؟، أسئلة كثيرة تحتاج منك أن تضع لها جوابا في

الدنيا قبل الآخرة، لأن الإجابة في الدنيا تستطيع أن تغيرها فالفرصة مواتية وقائمة، ولكن الفرصة في الآخرة معدومة، والإجابة أخيرة لا تستطيع أن تغيرها، قد تقول إنك تريد أن تكون على أهبة الاستعداد للامتحان؟ ولكن أين المسير؟ وكيف أسلك الطريق؟ قد تقول إنني أطلب السعادة والنجاح لنفسي، وأروم النجاة، وأرجو المغفرة، ولكني أجهل الطريق إليها، ولا أعرف كيف أبدأ؟ فأنا كالغريق يريد من يأخذ بيده، وكالتائه يتلمس الطريق وينتظر العون، وأريد بصيصًا من أمل، وشعاعًا من نور، ولكن أين الطريق؟ والطريق أخي الحبيب واضح كالشمس، ظاهر كالقمر، واحد لا ثاني له، إنه طريق التوبة، طريق النجاة، طريق الفلاح، طريق سهل ميسر، مفتوح أمامك في كل لحظة، ما عليك إلا أن تطرق الباب، وستجد الجواب: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢]، هذا هو الجواب، بل إن الله تعالى دعا عباده جميعًا مؤمنهم وكافرهم إلى التوبة، وأخبرنا الله سبحانه وتعالى أنه يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب منها ورجع عنها مهما كثرت، ومهما عظمت، وإن كانت مثل زبد البحر، فقد قال سبحانه وتعالى ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وأجاب الله تعالى عبده، فقال الله تبارك وتعالى: يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان فيك ولا أبالي، يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة، هذا هو الجواب، ولكن أين التطبيق؟

بادر قبل أن تُبادَر

بادر قبل أن تُبادر، بادر بنفسك ولا تنتظر مصيرك، فإنك لا تدري متى يكون، ولا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت، إنه الله الجليل الأكبر، الخالق البارئ والمصوِّر والمنتقم، الأول المبدئ بلا ابتداءٍ، والآخر الباقي بلا انتهاءٍ، من نظر إلى عظمة الله وجلاله عظَّم حُرُماته، وقَدَرَه حقَّ قَدْرِه، وأجَلَّ أمره ونهيه، وعَظُم عليه ذنبه ولو كان صغيرًا فهو كالجبل يخشى أن يقع عليه فيهلكه، فقلبه كأنه بين جناحيْ طائر، تجده منكسر القلب، غزير الدمع، له في كل واقعة عبْرَة، فبادر وإياك ومحقِّرات الذّنوب؛ فإن لها من الله طالبًا، بادر وردَّ المظالم إلى أهلها، أو تحلَّلْ منهم، واطلب المسامحة؛ لا تتم التوبة إلا بذلك، وقد صحَّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لتُؤدُّنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقاد للشاة الجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء، وقال صلى الله عليه وسلم: من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها اليوم، قبل ألا يكون درهمٌ ولا دينار، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مَظْلَمَتِه، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه، فطرحت عليه، وفي الحديث القدسي يقول الله يوم القيامة: أنا الملك، أنا الدَّيَّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة، ولأحد عنده مظلمة حتى اللطمة، قال الله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: ٣١]، ولما حضرت عبادة بن الصامت رضي الله عنه الوفاة قال: أخرجوا فراشي إلى صحن الدار، فأخرجوه قال: اجمعوا لي مواليَّ وخدمي وجيراني ومن كان يدخل عليَّ، فجمعوهم له، فقال: إني لأرى يومي هذا آخر يوم يأتي عليَّ من الدنيا، وليلتي هذه أول ليلة من الآخرة، وإني لا أدري لعلّه فَرَطَ مني إليكم شيء بيدي أو بلساني، هو والذي نفس عبادة بيده القصاص يوم القيامة، أحرِّج على أحد منكم في نفسه عليَّ شيء من ذلك إلا اقتص مني قبل أن تخرج روحي، فبكوا جميعًا وضجُّوا وقالوا: بل كنت والدًا، وكنت مربيًا، وكنت مؤدبًا،

ولم تكن تقول لخادم قط سوءًا، قال تجودون لي بالدمع، وما يغني الدمع أغفرتم لي؟، فضجُّوا وقالوا: نعم، قال اللهم اشهد، اللهم اشهد، اللهم اشهد، أشهد أن لا إله إلا الله، ثم لقيَ الله، فليت الناس اليوم وذممهم كلها مليئة بالمظالم، ينظرون كما نظر عبادة بن الصامت، إذن هي المبادرة قبل أن يحل الأجل، فبادر بالتوبة ورد المظالم إلى أهلها قبل أن تبادر، فهذه نصيحة لوجه الله.

توبة تحتاج إلى توبة

إن التوبة فرض على المسلمين، يقول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، ويقول صلى الله عليه وسلم كل بني آدم خطاء وخير الخاطئين التوابون، ولكن التوبة لها شروط يجب أن تلازمها وأي إخلال بهذه الشروط إفساد للتوبة، ومن شروطها رد المظالم والندم، وعدم الإصرار على المعصية، والحياء من الله تعالى، ولكن توبتنا اليوم فيها من النقائص ما يجعلها محل نظر، فالبعض يتوب خوفا من البشر لا من الله تعالى، ويتوب دون أن يرد المظالم إلى أهلها والبعض يتوب ويعاهد الله تعالى أن لا يعود إلى الذنب ولكنه يكذب فيعود، مما جعل التوبة تعد استهزاء بالله تعالى، وبالتالي تجد الإنسان يذهب ليتوب فإذا به يعصي الله بتوبته هذه، فتكون توبته نفسها تحتاج إلى توبة، يقول الحسن البصري رحمه الله: إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار، وتلك مصيبة عظيمة عندما يظن الإنسان أن توبته قبلت وهي مردودة عليه، وهذا ما سيحدث يوم القيامة عندما يأتي الإنسان بصحف مختومة باسمه، وترى الملائكة فيها خيرا، فيقول الله تعالى ألقوا هذه الصحف، وخذوا هذه الصحف، فتقول الملائكة بعزتك يا رب لم نر فيها إلا خيرا، فيقول الله تعالى وهو أعلم، إن هذه الصحف فيها أعمال كانت لغيري - أي لم تكن خالصة لله - وإني اليوم لا أقبل من العمل إلا

ما أبتغي به وجهي. وهكذا التوبة إن لم تقع صحيحة لم تقبل، وقد كان رجل يصلي بالقرب من سيدنا علي رضي الله عنه وكرم الله وجهه، فلما فرغ الرجل من صلاته، قال اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك مسرعا، فلما سمعه رضي الله عنه قال يا هذا إن سرعة الاستغفار باللسان توبة الكذابين، وتوبتك هذه تحتاج إلى توبة، فقال الرجل فما هي التوبة، فقال سيدنا علي رضي الله عنه، هي كلمة تقع على ستة معان: الندم على الماضي من الذنوب، ورد المظالم، وإعادة ما ضيعت من الفرائض، وأن تذيب نفسك في الطاعة كما أذبتها في المعصية، وإذاقة النفس مر الطاعة، كما أذقتها حلو المعصية، وأن تتزين للطاعة كما كنت تتزين للمعصية، وأن تبكي على كل ضحك ضحكته.

فما أخشاه أن توبتنا اليوم تحتاج إلى توبة!

سر بين العبد وربه

يروي النبي صلى الله عليه وسلم أن بني إسرائيل قحطت، فخرج موسى عليه الصلاة والسلام بسبعين ألفًا من قومه فيهم الشيوخ الركع والأطفال الرضع والبهائم الرتع، ودعا الله وتضرع فما زادت السماء إلا تقشعًا وصفاءً، ثم دعا وتضرع فما زادت السماء إلا تقشعًا وصفاءً، فأوحى الله إلى موسى أن بينكم عبدا يحاربني بالمعاصي منذ أربعين سنة، لا أسقيكم حتى يخرج من بينكم، -لقد منعوا قطر السماء بسبب معصية أحد منهم، ليتنا نعلم أن الذنوب تتعدى بآثارها على الآخرين، لذلك كل عاص هو سبب من أسباب ضعف هذه الأمة -، فقال موسى كيف أعرفه، قال يا موسى نادِ وعلينا البلاغ، فنادى موسى في قومه إن من بيننا عبدًا يعصي الله، ويحارب الله بالمعاصي منذ أربعين سنة، ولن يسقينا الله حتى يخرج هذا العاصي من بيننا، فوصل البلاغ، وسمع قوم موسى، ما قال لهم موسى، فعرف هذا الذي يعصي الله نفسه تلفت يمنة ويسرة يريد أن

يخرج أحد غيره فما خرج أحد، وإن خرج هو فهذه فضيحة له أمام الملأ أجمعهم، فماذا صنع؟ غطى رأسه بثوبه، ودعا ربه، وتضرع قال يا رب سترتني أربعين سنة، فلا تفضحني اليوم بين العباد، أنا أستغفرك وأتوب إليك، فما هي إلا لحظات حتى تلبدت الغيوم في السماء، وأمطرت عليهم مطراً غزيراً، وفاضت منه الأرض، وامتلأت منه الطرقات، وسالت منه الأودية، فقال موسى متعجباً يا ربي ما خرج من بيننا أحد، فكيف سقيتنا، فقال الله تبارك وتعالى وحياً إلى عبده موسى به منعتكم القطر وبه سقيتكم، فقال موسى ربي فمن هو هذا العبد الذي منعتنا بسببه وسقيتنا بسببه؟، فقال الله يا موسى سترته عاصياً فكيف أفضحه بعد أن تاب.

قصة كم نحن اليوم بحاجة إلى مضامينها، أما يكفينا أن الله يحب التوابين، ويحب المتطهرين، فتوبوا إلى الله جميعاً فما نزل بلاء إلا بذنب ولا رفع إلا بتوبة.

أسباب الرزق

إن من الهموم التي تسيطر على كثير من الناس، مسألة الرزق، والبحث عن لقمة العيش، وأعظم أسباب الرزق التوبة إلى الله، والرجوع إليه واستغفاره قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات، أي إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه وأطعتموه كثر الرزق عليكم، وسقاكم ربكم من بركات السماء، وأنبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأدرّ لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين - أي أعطاكم الأموال والأولاد -، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها، ومن أسباب الرزق كذلك، بل ومن أعظم أسباب الرزق تقوى الله عز وجل في السر والعلن والخوف منه

وامتثال أمره واجتناب نهيه والبعد عن المعاصي، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، قال ابن كثير رحمه الله أي ومن يتق الله فيما أمره به وترك ما نهاه عنه يجعل له من أمره مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، أي من جهة لا يخطر بباله. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إن أكبر آية في القرآن فرجًا ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]، وأيضًا من الأسباب المؤدية إلى كثرة المال والرزق في الدنيا صلة الرحم، والمقصود بالرحم هم الأقارب، وهم كل من بينك وبينهم نسب من جهة الولادة سواءً كان ذلك من طريق الأب أو الأم، وصلة الرحم معناه تقديم الإحسان بكل أنواعه حسيا ومعنويا، وسواءً كانوا صغارًا أو كبارًا، نساءً أو رجالًا، يسكنون في بلدك أو بعيدين عنك، روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من سره أن يبسط له في رزقه، وأن ينسأ له في أثره فليصل رحمه، فهكذا الأرزاق تساق للناس بأعمالهم، فاعمل عملا صالحا يرضي الله، تُرزق رزقا حسنا يرضيك.

البطاقة المنجية

قد يتساءل القارئ وما هي هذه البطاقة المنجية، خصوصًا ونحن نعيش عصر البطاقات المتعددة، والتي منها بطاقات الائتمان والبطاقات الذكية والهوية وغيرها، ولكن عندما نقرأ حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه الترمذي وحسنه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي

الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: أفلك عذر أو حسنة فيها؟ فيقول الرجل: لا، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة. إذن هذه هي البطاقة، كلمة التوحيد، قالها يوما بإخلاص ونية صادقة، كانت هي الفاصلة والمنجية لصاحبها، يقول ابن القيم رحمه الله: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض، وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدّ البصر تثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب، ومعلوم أن كل مُوحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه. لكنه لا يخلد فيها، كلام عظيم قلما يفهمه أحد من الناس، إن ذلك يعني أنك أيها الإنسان قد تعمل أعمالا أثقل من الجبال في نظرك، ولكن قد يشوبها شيء من الرياء، فتذهب في مهب الريح، بينما قد تعمل عملا بسيطا بإخلاص ونية صادقة، قد يكون هذا العمل مثلا إماطة الأذى عن الطريق، فيصبح هذا العمل عند الله تعالى أثقل من الجبال، هكذا تعمل البطاقات يوم القيامة، فما رأيك أن تشترك في عضوية هذه البطاقة، وتكون أحد المستفيدين من خدماتها.

ثمرة الاستغفار

الفقر آفة يعاني منها الكثير من الناس، ولا تعجب يا هذا عندما نقول بأن الذنوب تمحق البركة، وتجلب الفقر، وتؤخر الرزق إلى أن يتوب المذنب ويستغفر، فيجد الله غفارا ينزل من السماء بركات وأرزاقا تدر على صاحبها الخير، وقد جاء رجل إلى الحسين بن

علي رضي الله عنهما فقال له: استغفر الله، فقال له رجل: يا ابن بنت رسول الله، شكا إليك أناس كثيرون فهلا عندك دواء غير الاستغفار، قال أما سمعتم قوله تعالى ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا﴾ [نوح: ١٠-١١]، أي لمن اشتكى قلة المطر، وقوله تعالى ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: ١٢]، لمن اشتكى الفقر، وقلة الولد، وقوله تعالى ﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٢]، لمن اشتكى جدب الأرض وقلة ريعها. ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من أكثر الاستغفار، جعل الله له من كل هم فرجا، ومن كل ضيق مخرجا، ورزقه من حيث لا يحتسب، وقال عليه الصلاة والسلام: ثلاثة أصوات يحبها الله، وذكر منها صوت المستغفرين بالأسحار، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه: العجب لمن يقنط، والنجاة معه، قيل وما هي يا أمير المؤمنين، قال: الاستغفار. غير أنه ليس كل مستغفر يغفر له، كما أنه ليس كل سائل يجاب إلى ما سأل، فإن لمغفرة الله شروطا، وهي أن تندم على ما فرطت في جنب الله، وأن تعزم على ترك العود إليه أبدا، وأن تؤدي ما عليك من حقوق المخلوقين، وأن تؤدي كل فريضة فائتك حتى تأتي ربك وليس عليك تبعة، ثم تلتزم طاعة الله، فتفعل ما أمر به، وتجتنب ما نهى عنه، وأن تعامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، ذلك طريق المغفرة، يتفضل الله به على من أحبه، ومن أحبه الله أجاب سؤاله وحقق له أمله.

فالاستغفار ينقي الإنسان، وهو ذكر لله تعالى، وتطهير للإنسان من شوائب الذنوب وأثرها وشؤمها، فاسأل نفسك أيها المؤمن، كم تستغفر في اليوم، وهل تعلم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان يستغفر الله في اليوم مائة مرة، فكيف بالعبد الضعيف الذي تكثر أخطاؤه وذنوبه، فإنه لمن الحري به والجدير أن لا يغفل ساعة عن الاستغفار.

﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾

يقول تعالى ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]، ويقول تعالى ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٠]، وقال تعالى ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾ [التين: ١]، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنَّه من شجرة مباركة، وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: كُلُوا الزَّيْتَ وَادَّهِنُوا بِهِ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ، تلك نصوص شرعية تتحدث عن أهمية شجرة الزيتون وزيتها ووصفها بأنها مباركة، أي كثيرة العطاء والفائدة، ولذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ومن بعدهم جميع المسلمين بتناول زيت الزيتون، ولقد اكتشف العلم الحديث فوائد هائلة لزيت الزيتون، حيث يحتوي على الأحماض الدهنية غير المشبعة وحيدة الرابطة المزدوجة، وهو ما يميزه عن بقية الزيوت، وتوصل علماء بريطانيون إلى أدلة جديدة تثبت المنافع الوقائية لزيت الزيتون في علاج سرطان الأمعاء والذي يذهب ضحيته حوالي 20 ألف شخص سنويًا في بريطانيا وحدها، كما أثبتت الدراسات أن زيت الزيتون مفيد لعلاج أمراض القلب، حيث جاء في تقرير لمعهد تكساس لأمراض القلب: «إن المجتمعات التي تستخدم الدهون اللا مشبعة الوحيدة وأشهرها زيت الزيتون في غذائها كمصدر أساسي للدهون تتميز بقلة حدوث أمراض شرايين القلب التاجية»، فزيت الزيتون عند سكان اليونان وإيطاليا وأسبانيا يشكل المصدر الأساسي للدهون في غذائهم، وهم يتميزون بأنهم الأقل تعرضا لمرض شرايين القلب وسرطان الثدي في العالم أجمع، ولزيت الزيتون فائدة لمرضى السكر، فقد أوصى الاتحاد الأمريكي المصابين بمرض السكر بتناول حمية تعطى فيها الدهون بنسبة 30 % على ألا تتجاوز نسبة الدهون المشبعة (كالدهون الحيوانية) عن 10 %، وأن تكون باقي الدهون على شكل زيت زيتون.

وبعد فهذا غيض من فيض حول فوائد زيت الزيتون وتأكيد على الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، فطوبى لمن نال من خيرات هذه الشجرة المباركة، وصدق الله تعالى إذ يقول ﴿مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال: «كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة»، فهنيئا لمن نال تلك البركات.

قد أفلح المؤمنون

هذه آيات من سورة المؤمنون اجعلها مرآة ترى فيها نفسك، وميزانا تزن به أعمالك، ولتحاسب نفسك على ضوء معانيها، كما قال صلى الله عليه وسلم: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا. فقد قال الله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] فانظر إلى نفسك ومقامك، هل أنت من ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٢] هل أنت خاشع لله خاضع لجبروته وعظمته؟، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣] فهل إذا سمعت اللغو أعرضت عنه؟ أم أنك تميل إليه وتخوض فيه؟، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٤] فهل تزكي نفسك بطاعة الله تعالى ومجانبة معاصيه؟ وهل تطهر مالك بإخراج حق الله فيه؟، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧] فهل تلتزم حدود الله في ذلك، وترعى عرض إخوانك كما ترعى عرضك؟، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ فهل تؤدي الأمانة كما ينبغي أن تؤدى، فيما بينك وبين الله وفيما بينك وبين نفسك، وفيما بينك وبين الناس؟ وهل تحافظ على العهود بالوفاء لها وعدم الغدر بها؟، ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المؤمنون: ٩] برعاية أركانها وآدابها والمحافظة على أدائها في أوقاتها كاملة الأركان والسنن،

فهل أنت من هؤلاء جميعا؟ فإن كنت كذلك فأبشر، ثم أبشر بأنك من الذين يقول الحق فيهم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠-١١]، تلك آيات عظيمة تصف المؤمنين وتحدد وظيفتهم وتبين منزلتهم وثوابهم عند الله، فيا من تبحث عن الفلاح، فهلم فقد أفلح المؤمنون، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنزل الله عشر آيات، من أقامهن دخل الجنة. ثم قرأ ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [المؤمنون: ١] حتى ختم عشر آيات. وهي بين يديك الآن، فخذ منها ما يجعلك من المؤمنين فلعلك تكون في منزلتهم ومقامهم.

وفي الذنوب ظلمة

يقول ابن القيم رحمه الله مما ينبغي أن يُعلم أن الذنوب والمعاصي تضر ولا بدّ، وأن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان، وهل في الدنيا والآخرة شر وداءٌ إلا بسبب الذنوب والمعاصي؟ نعم هي المعاصي فيها ظلمة وشؤم ومحق للبركة وزوال للرزق، وإن العاصي لله تعالى حين يعصيه فإنه هان على الله وما له من مكرم، عن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص فرّق بين أهلها، فبكى بعضهم إلى بعض، فرأيت أبا الدرداء جالسًا وحده يبكي فقلت يا أبا الدرداء، ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله، فقال: ويحك يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذ أضاعوا أمره، بينما هي أمة قاهرة ظاهرة لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ما ترى. تلك عاقبة الله تعالى للعصاة الظالمين، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من الإجهار أن يستر على العبد ثم يصبح يفضح نفسه، ويقول يا فلان عملت يوم كذا وكذا وكذا فيهتك نفسه، وقد بات يستره ربه. ومن شؤم المعاصي أن الناس والدواب يحرمون الخير بشؤم ذنبه، عن ابن عباس رضي الله عنهما

قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسودته خطايا بني آدم، ومن أقوال السلف الصالح في ظلمة المعاصي وآثارها ما قاله مجاهد رحمه الله إن البهائم تلعن عصاة بني آدم إذا اشتدت السنة وأمسك المطر تقول: هذا بشؤم معصية ابن آدم، وقال عكرمة رحمه الله: دواب الأرض وهوامها حتى الخنافس والعقارب يقولون منعنا القطر بذنوب بني آدم، وقال كعب رحمه الله إنما تزلزل الأرض إذا عُمل فيها بالمعاصي، فَتَرعد فرقًا من الرب جل جلاله أن يطّلع عليها، وكان من دعاء بعض السلف اللهم أعزني بطاعتك، ولا تذلني بمعصيتك. ومن أعظم آثار المعصية أن الذنوب إذا تكاثرت طبع على قلب صاحبها، فكان من الغافلين وقد قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤]، قال بعض السلف هو الذنب بعد الذنب، فاحذر أيها العاصي ظلمة المعاصي ونور حياتك بالعلم والطاعة ولا تنس دعاء سيد الخلق عليه الصلاة والسلام: اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقل من ذلك.

ولربك فاصبر

كم هي جميلة هذه الآية ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ٧]، كأنها تقول دع الدنيا بما فيها وراء ظهرك ولا يهمك إلا ربك عز وجل، وكم هي محفزة هذه الآية مشجعة للصبر فكأنها تقول إذا واجهتك المصائب فعليك بالصبر فهو قوة تحمُل كبيرة، وكم هي صارمة هذه الآية في الركون المطلق لله تعالى فكأنها تقول: دع الناس جميعًا عند الشدة والجأ إلى الله وحده، إن الشدائد محكُّ الرجال، والشدائد تفرز الأشخاص تصنّفهم إلى مؤمنين صادقين، وإلى مؤمنين ضعفاء، فهذا الذي فرزته المصيبةُ، وجعلته مؤمنا ضعيفا عليه أن يجِدَّ في السير، عليه أن يجدّد إيمانه، عليه أن ينهض من كبوته، يقول الإمام عليٌّ كرَّم

الله وجهه وقد أراد أن يعزّي رجلا لوفاة ابنه فقال له: «يا فلان إنك إن صبرتَ نفذت فيك المقادير، ولك الأجر، وإن جزعت نفذت فيك المقادير وعليك الوزر». ويقول أحد الحكماء: «إن أنت صبرت إيمانًا واحتسابًا كنت عند الله من الصابرين، وإلا سلَوت سلْوَ البهائم». وحكيم آخر يقول: «العاقل يفعل أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهلُ بعد أيام». والصبر صفة من صفات الله عز وجل فالله تعالى صبور، صبور على عباده وما يقترفونه من ذنوب وشرك وإنكار للنعمة ومع ذلك يصبر الله عليهم ويمهلهم لعلهم يتوبون فهو تعالى خلقهم وهو الذي يصبر عليهم ويرحمهم، وقد ورد في بعض الآثار أنه: ما من يوم إلا ويستأذن البحر ربه، يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم فإنه أُكل رزقك، وعُبد غيرك، وتقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فإنه أُكل رزقك، وعُبد غيرك، وتقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم، فإنه أُكل رزقك، وعُبد غيرك، فيقول الله عز وجل: دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم. فالله تعالى هو الصبور، فكيف لا تتخلق بخلق الصبر.

يا الله

إن صدق الاعتماد على الله تعالى والتوكل عليه أساس متين يدل على صدق الإيمان، والتفريق بين من يلجأ إلى غير الله ويظن أنه به قادر على نفعه وضره، وبين من يلجأ إلى الله، كالتفريق بين الكافر والمؤمن، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كلما مررنا بسيرته، رأينا صدق اعتماده وتوكله على الله، أرأيته صلى الله عليه وسلم وهو قافل من الطائف بعد أن لقي ما لقي من الأذى ما الذي صنعه؟ ما الذي سعى إليه لينفس من كربه؟ من الذي توجه إليه ليذهب حزنه؟ لقد لجأ النبي صلى الله عليه وسلم إلى الله عز وجل وهو يناديه في تضرع خاشع «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي

وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي». فينزاح الهم والكرب، ويزول الحزن، ويقوى اليقين، ويعظم الإيمان، وتنقشع الغمة، وتعلو العزيمة، ويوم بدر واجه النبي صلى الله عليه وسلم أضعاف من معه من المؤمنين في جيش قريش، فتوجه عليه الصلاة والسلام إلى الله جل وعلا متضرعا: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض، فما زال يهتف بربه مادًا يديه، مستقبلًا القبلة حتى سقط رداؤه من منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، فقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك إنه سينجز لك ما وعدك، أليس هذا التجاء في أعظم وقت، وفي أحرج موقف، وعند التقاء الصفوف، وعند مواجهة الخطوب، يستعين النبي صلى الله عليه وسلم برب الأرض والسماء، أما رأيناه يوم خيبر حين توجه صلى الله عليه وسلم لقتال فلول اليهود المتجمعة فيها، لقد سار باسم الله، واستعان بقوة الله، وصاح وهو مقدم عليهم، ومقبل على ديارهم (الله أكبر، الله أكبر، خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين)، هكذا يستصحب المؤمن قوة الله، هكذا يكون معه دائمًا بصدق الالتجاء إلى الله، فكلما حزبك أمر فقل يا الله صادقا مؤمنا بها سيكفيك الله كل هم وكرب.

يا سبحان الله!

سبحان الله! تجد الإنسان يعمل عملا صالحا ثم يختم له بخاتمة سيئة، وتجد آخر يعمل عملا فاسدا ثم يختم له بعمل صالح، فمن آمن بذلك فعليه أن يداوم على الصلاح ولا يغفل عنه طرفة عين، فالعبرة بالخواتيم، وأعجب لإنسان نفع غيره ولم ينفع نفسه، فصار

يحمل الذنوب بينما غيره يحملون الحسنات، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أندم الناس رجلان، عالمٌ دخل الناس بعلمه الجنة، ودخل هو بعلمه النار، وغنيٌ دخل ورثته بماله الجنة، ودخل هو بماله النار. فهل أدرك الإنسان ذلك وانتبه لنفسه، فأنت بنفسك أولى لا بغيرك، وكلٌّ سيُسأل عن نفسه، وهذا حوار بين الله تعالى وبين عبد مؤمن وآخر مرتاب، قال الله تعالى لعبده المؤمن أعطيتك مالًا فماذا صنعت فيه؟ قال: يا رب أنفقته على كل محتاج ومسكين، لثقتي بأنك خيرٌ حافظًا، وأنت أرحم الراحمين، فقال تعالى أنا الحافظ لأولادك من بعدك، وقال الله عز وجل لآخر وهو العبد المرتاب أعطيتك مالًا فماذا صنعت فيه؟ قال: يا رب لم أنفق منه شيئًا على أحدٍ من بعدي، مخافة الفقر على أولادي من بعدي، فقال الله تعالى: إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم. وهذا أمر الله تعالى فسبحان الله تعالى يعمل الإنسان لغيره فيدخل هو النار وهم يدخلون الجنة، وهذا عالم بعلمه دخل النار ودخل غيره الجنة، فما قيمة تلك الأعمال التي لا ينتفع بها أهلها، فيا هذا هل أدركت ذلك، فاعمل لنفسك وكذلك لغيرك، فالإنسان المؤمن كالغيث أينما نزل نفع، ولكنه أيضًا ينفع نفسه كما ينفع غيره، وفي موقف آخر أعجب لإنسان قد يعمل لغيره ويمنع نفسه فيدخل الجنة، فكيف ذلك؟ فهذا إنسان أوشك على الهلاك وسط بحر أمواجه متلاطمة كالجبال ومعه إخوة له وكانوا يقتتلون ليبقى بعضهم على السفينة لينجوا، فضحّى بنفسه ليحيا غيره، فرضي الله عنه وأدخله الجنة، فهذا الإنسان عمل لغيره وحرم نفسه فرضي الله عنه، وأعجب لإنسان في صحراء قاحلة ومعه إخوة فلما أوشكوا على الهلاك من العطش تقاتلوا على كأس ماء، فكان هذا الإنسان يضحي بنفسه ليحيا إخوته، فتنازل عن حقه في كأس الماء لإخوته، فرضي الله عنه وأدخله الجنة، فيا سبحان الله تعالى كيف تقاس الأعمال وكيف ينظر المولى عز وجل إليها.

من أين يأتي الشيطان؟

الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهو قريب منا إن غفلنا عن ذكر الله، وبعيد عنا إن قويت صلتنا بالله، يقول الله تعالى عن استحواذ الشيطان، ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧] ومعنى (مِنْ بين أيديهم) أي: من أمامهم، ثم قال تعالى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧]، إن المكان له جهاتٌ ست الأولى (مِنْ فَوْقِهِمْ)، والثانية (مِنْ تَحْتِهِمْ)، والثالثة (مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ)، أمامهم، والرابعة (مِنْ خَلْفِهِمْ)، والخامسة (عَنْ أَيْمَانِهِمْ)، والسادسة (عَنْ شَمَائِلِهِمْ)، ولكن أبواب الشيطان على الإنسان أربع جهات، وليس ست جهات، من بين أيديهم من أمامهم ومن خلفهم، وعن أيمانهم، وعن شمائلهم، أما جهة «من فوقهم» وهو الطريق الموصل إلى الله فمن فوق لا يستطيع الشيطان أن يأتيك من هذه الجهة، إذا اتجهت إلى الله، وإذا استعذت بالله عز وجل، وإذا أقبلت عليه، وإذا عقدت العَزْمَ على طاعته، وإذا أحببته واتَّصلت به، كل هذه الكلمات تعني أن الطريق الذي فوقك إلى الله سالك، الشيطان لا يستطيع بحال أن يأتيك من فوقك، وأما من تحتك، فهذه تعني العبودية لله عز وجل، فما دمت عبدًا لله تشعر بضعفك وتشعر أنك لا شيء وأن الله هو كل شيء، وتشعر أنك فقير والله هو الغني، وتشعر أنك لا تَعْلَم والله يَعْلَم، فإذا شعرتَ بضعفك، وإذا شعرت بفنائك، وإذا شعرت بعبوديتك، فالشيطان لا يستطيع أن يأتيك من تحت، أو «فوق» لأنك متصل بالله ومعترف بعبوديتك له، ولكن من أين يأتيك الشيطان؟ يأتيك مِن بين يديك، من أمامك، هذا هو طريق الشيطان إليك، أما من أمامك فعندما تبحث عن المغريات والشهوات، تبحث عن أنماطٍ في كسب الرزق غير الأنماط الشَرْعِيَّة، تريد علاقةً مع النساء غير علاقتك مع زوجتك، التي

شَرَعَهَا الله عز وجل، تريد أن تأخذ مالًا من طريقٍ ما أقرَّه الشرع، تريد أن تعتقد اعتقادًا ما وَرَدَ في الدين، هذا طريق للشيطان من أمامك، وأما من خلفك فالمقصود من قبل الفضائل والقيمَ والانضباط والتَعَقُّل، ويأتي الشيطان عن أيماننا وشمائلنا، ويكون ذلك حينما يغوي الإنسان ويصرفه عن ذكر الله ذات اليمين وذات الشمال، ويشغله بالدنيا فيصبح الإنسان تائهًا عن الطريق الموصل إلى الله تعالى، فهذه طرق وجهات يتخذها الشيطان ليصل إليك فكن على حذر وأنت تسير في الطريق، ونرجو لك طريق السلامة.

بمن أثق؟

في زمن كثر فيه القلق والمخاوف والمستقبل المجهول، فبمن يثق الإنسان؟ أيثق بصديق أو عدو أو قريب، لا ولكننا نقول له ثق بالله تعالى وتوكل عليه، ولكن لماذا يثق المؤمن بربه ويتوكل عليه؟ لأن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، ولأن الأمر كله لله، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، لأنه تعالى يورث الأرض من يشاء من عباده كما قال ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، لأن الأمور ترجع إليه سبحانه كما قال عز وجل ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾، لأنه سبحانه وتعالى شديد المحال فهو عزيز لا يُغلب كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، لأنه سبحانه وتعالى له جنود السموات والأرض فقال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، لأنه سبحانه جمع القوة والعزة ﴿وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥] وقهر العباد فأذلهم، فهم لا يخرجون عن أمره ومشيئته ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤]، لأنه تعالى بيده مفاتيح الأرزاق هو يسيرها كيف يشاء يقول تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، لأنه ذو القوة المتين

سبحانه وتعالى وهو الذي يقبض ويبسط، وهو الذي يُؤتي مُلكه من يشاء، وله تعالى مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وهو يعلم كل شيء في الكون، فكيف لا أثق بالله تعالى حتى في أصعب الأزمات فمن للإنسان غير خالقه، فأين أذهب إذا أظلمت الدنيا وصعبت معيشتها؟ وأين أفر إذا تراكمت الأمواج ودنا الغرق، فمن يأخذ بيدي؟ من ينجيني؟ ومن الذي أدعوه ويجيبني؟ من الذي أناجيه ويسمعني؟ من الذي أشكو إليه ويعينني، إنه الله تعالى فثق بالله تعالى، ومن لا يثق بالله ويظن أن الله تعالى لن ينصره فهذا نقول له كما قال الله تعالى ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ﴾ [الحج: ١٥].

ذئب الإنسان

قد يسأل سائل ومن هو ذئب الإنسان، فنقول هو الشيطان، لأن الشيطان يصل إلى الإنسان إذا شذ وابتعد عن الجماعة يقول صلى الله عليه وسلم: إِنَّ الشَّيْطَانَ ذِئْبُ الْإِنْسَانِ كَذِئْبِ الْغَنَمِ، يَأْخُذُ الشَّاةَ الْقَاصِيَةَ وَالنَّاحِيَةَ، فَإِيَّاكُمْ وَالشِّعَابَ وَعَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ وَالْعَامَّةِ وَالْمَسْجِدِ، فالذئب إذا وجد مجموعة من الأغنام تحذر وابتعد، أما إذا وجد واحدة منعزلة فهو لا يدعها حتى يفترسها، وكذلك يفعل الشيطان مع الإنسان إن كان منعزلا عن الجماعة مفترقا عنهم فالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ، وكما قال صلى الله عليه وسلم إِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ، وَهُوَ مِنْ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ، وعَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ)، وقد جعل الله تعالى معظم التكاليف الدينية تكاليف جماعية ليكون المسلمون جنبا إلى جنب فالسواعد ملتصقة والمناكب متقاربة، كأنهم بنيان مرصوص، فالصلاة عبادة جماعية والحج والزكاة كذلك، والاستعانة بالله يقول تعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ

نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] وحتى التوبة لا بد أن تكون جماعية وإلا لا يرفع البلاء الذي نزل بذنب حتى يتوب المؤمنون جميعا وفي هذا يقول تعالى ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، فلابد من أن تنتمي إلى مجموع المؤمنين، لأن العدو وضعنا جميعًا بسلة واحدة، وينبغي أن نقف جميعًا في خندق واحد، فمتى نتوحد وندع كل نعرة حزبية أو طائفية أو مذهبية أو إقليمية، لقد كانت هذه الأمة قوية بوحدتها وعقيدتها، ويوم تفرقت نزل عليها العذاب العظيم وهو نتيجة أكدها القرآن ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فمن هنا ينهش الشيطان لحم الإنسان إذا شذ وابتعد عن المجموع، فاحذروا أساليب الشيطان هذا الذئب الذي يتربص بالإنسان في كل زمان.

القدر سر الله في خلقه

إن الإيمان بالقضاء والقدر هو سر من أسرار الله في خلقه وهو دعامة قوية في الدين، فالذي يؤمن بالقدر يعلم بأن الله تعالى قد تكفل برزقه وصحته وأهله ومستقبله، ولكن أمر القدر عجيب فما يظنه الناس خيرا في القدر قد يكون شرا، وما يظنه الناس بأنه شر فقد يكون خيرا، ألا ترون أن الاعتداء على السفينة بخرقها يعد ظلما واعتداء؟ ومع ذلك كان خرق السفينة طريقا للنجاة من هلكة، وهذا ما وقع للخضر مع موسى عليه السلام يقول الله تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩]، وانظروا إلى يوسف عليه السلام لما اتهم بالفاحشة وسجن بسببها، فكان ذلك السجن سبيلا يحفظه من الظلمة ثم يجعله الله على خزائن الأرض حفيظا عليما، ويعيش محمد صلى الله عليه وسلم يتيم الأبوين معذبا في أهله وماله ونفسه، تصد الأبواب دونه، ويرمى بالحجارة، ثم هو بعد

ذلك سيد ولد آدم، ومن هنا يجب أن نفهم القدر خيره وشره، فقد تكون الأمة في انهزام، وقد يكون المسلمون في فرقة، وقد يظهر الفقر والعوز، وتأتي النوازل على غير ما نشتهي، ونظن بأننا قد هزمنا، وأن الله تعالى قد تركنا، ولكن سرعان ما نجو، ويأتي الفرج ويأتي نصر الله تعالى الذي أمسكه عنا، ولكن من القدر بأن الله تعالى لا ينصرنا إلا إذا نصرنا دينه فهو تعالى يقول ﴿إِنْ تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، فهذه معادلة وهي قدر الله تعالى وقضاؤه أن يثبت الله أقدامنا وينصرنا إن نحن نصرنا دينه وطبقنا تعاليمه، ومن القدر أن الله تعالى لا ينصرنا إن تركنا دينه، فلا يجتمع نصر وهجر لدين الله تعالى، فهذا قضاء وقدر ولا يمكن أن يؤخر الله تعالى قضاءه، فمن فهم ذلك كان عمله موفقا ومرضيا ومثمرا، ومن جهل ذلك كان مفرطا ومضيعا ومهملا، تلك حقيقة أرادها الله تعالى في خلقه فمن يفهم هذه الحقيقة.

ميزان حذيفة

مع كثرة الشبهات التي يقع فيها الكثير من الناس خصوصًا عند البحث عن حلية أمر أو حرمته، فتقع الشبهة، ولكن ما هو الميزان الذي يمكن للإنسان أن يزن به الأمور المستجدة، لقد سئل حذيفة بن اليمان رضي الله عنه كيف يعرف الرجل منا أنه قد أصابته فتنة؟ فقال رضي الله عنه: إن كان ما يراه حراما بالأمس يراه حلالا اليوم فقد فتن. فهذا ميزان واضح يرسم حذيفة معالمه في كلمات مختصرات واضحات، إن المعنى الواضح من كلام حذيفة بن اليمان يؤكد لنا أنَّه يقصد ما ثبتت حرمتُه شرعًا مما لا يدخل تحريمه في دائرةِ خلافٍ بين أحدٍ من علماء المسلمين وفقهائهم، وهو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم (الحلال بيِّن والحرام بيِّن)، فإذا وصل المسلم إلى درجة الشك في حرمة ما ظهرت حرمتُه، أو في حِلِّ ما ظهر حِلُّه، فلا شك أنَّه قد فُتن شرَّ فتنةٍ والعياذ

بالله، ومثال ذلك أن يكون الإنسان على يقين بتحريم الرشوة مهما تغيرت أسماؤها، وأن يعلم يقينا بحرمتها، ثم يلين ويضعف أمامها حينما تلوح له بحلاوتها الممزوجة بمرارة المعصية وسوء العاقبة، هنا يجب على المسلم أن يستخدم هذا الميزان الرائع الدقيق الذي أشار إليه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، ويُقاس على الرشوة غيرها من الأمور المحرمة التي لها علاقة برغبات النفس البشرية ومصالحها الدنيوية، كالمتاجرة في بعض المحرمات، أو تسويغ معاملات الربا الواضحة استجابةً لهوى النفس.

فهذا ميزان حذيفة ليتنا نزن به بضائعنا التي تتأرجح بين الحلال والحرام، أو يزينها البعض بمسميات براقة والقصد تغليفها بغلاف الحلال وأصلها الحرام المحض.

ذكريات تائب

يتذكر تائب فيقول كم تذكرت سويعات كانت نفسي تهمس بالذنب والشيطان يزينه، والنفس الضعيفة تشتاق إليه، وكم سوَّل الهوى لنفسي، للوقوع في الذنوب والسيئات، فمرة وقعت نفسي في وحل من المعصية وفي لحظة ضعف ارتكبت ذنبا ووقعت في نفخ الشيطان، ومستني الأدران، ولعبت بي الشهوات، فتألمت وندمت، وجلدني الضمير وأنبني، ومرت تلك الذكريات وانقضت، وانتهت ونُسيت، ولكنها سجلت وكتبت، وأحصيت وعُدّت، فهذه ذكريات تائب، واعترافات منيب وراغب، زلت قدمه، ثم أراد أن يتوب ويعود، ليغسل نفسه من أوساخ المعصية وما سولَّت به نفسه، فيجد هذا التائب نداء يناديه من كل صوب، يسمع نداء الرحمن وهو يقول: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، كما يسمع هذا التائب نداء النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول: إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، حتى تطلع الشمس من مغربها، فيقول

التائب لي رب رحيم يغفر الذنوب جميعا، لم لا أتوب، لم لا أغسل نفسي بالماء والثلج والبرد، لم لا أنقي نفسي من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، فهذا نداء الرحمن وهو التواب الرحيم الذي وسعت رحمته كل شيء، ورحمته قريبة من المحسنين، الرجّاعين التائبين الذين إذا أذنبوا استغفروا، وإذا ذُكِّروا ذكروا، فيا رب اغفر لي وتجاوز عني، وبدّل سيئاتي حسنات، فهذه ذكريات تائب، فليست المشكلة في وقوع الذنب، لكن المشكلة الكبرى، هي أن يألف المرء الذنب، ثم يتساهل بخطره، فلا يحدث منه توبة، فكن على التوبة ملازما، ولرحمة الله تعالى قاصدا.

أنا ضيف عندك

نعم أنا ضيف عند مولاي، أنا ضيف عند من ينتهي إليه الكرم، أنا الذي كلما ضاقت به الدنيا لجأت إليه سبحانه فأكرمني بعفوه ومنه، يا من لا ترد دعوة من دعاك، ويا من لا يغضب من كثرة مطالبي، فأجب ندائي وتقبل مني كل عمل، وتجاوز وأقل عثرتي، أنت معي في كل مكان، أنت موجود في كل زمان، يا من تراني ولا أراك، ويا من تسألني عن أعمالي، ولا يسألك أحد عما تعمل، تفعل ما تشاء بيدك الخير وأنت على كل شيء قدير، عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه في بستان من بساتين الأنصار وأنس بن مالك رضي الله عنه وأرضاه يراقبه ويرقبه وهو لا يراه وإذا بعمر يقف وقفة محاسبة ووقفة مراقبة مع نفسه ويقول عمر أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله يا عمر أو ليعذبنك الله، والله لتتقين الله أو ليعذبنك الله يا عمر، عمر الذي يأتيه أعرابي قد قرض الجوع بطنه وبه من الفقر ما به ويقف على رأسه ويقول: يا عمر الخير جزيت الجنة، اكس بناتي وأمهن، وكن لنا في ذا الزمان جنة فقال سيدنا عمر فإن لم أفعل ماذا يكون؟ إذًا أبا حفص لأمضينّه، فقال عمر وإذا أمضيت ماذا يكون؟

فقال: والله عنهن لتُسألنّه، يوم تكون الأعطيات منة، وموقف المسئول بينهن، إما إلى نار وإما إلى جنة، فلم يملك عمر رضي الله عنه وأرضاه إلا أن ذرفت دموعه على لحيته رضي الله عنه وأرضاه ودخل ولم يجد شيئًا في بيته فما كان إلا أن خلع رداءه وقال خذ هذا ليوم تكون الأعطيات منة وموقف المسئول بينهن إما إلى نار وإما جنة، هكذا تكون مراقبة الله عز وجل، وهكذا تكون تقوى الله عز وجل، يا كثير العفو عمّن كثر الذنب لديه، جاءك المذنب يرجو الصفح عن جرم يديه، فلا تسأل من أنا، فأنا ضيف عندك.

لا تشرب الماء حتى أسألك!

قلما يتذكر الإنسان قدرة الله تعالى عليه، ولكن لو أراد أحد أن يتذكر نعمة الله عليه، فعندما يعطش ويريد شربة ماء فلا يشرب حتى يسأل نفسه، من الذي خلق الماء؟ من الذي جعله سائغًا للشاربين فلم يجعله مالحًا ولا غائرًا ولا متكدرًا، يقول تعالى ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [النمل: ٦٠]، وقصة الماء يعيشها الإنسان في كل لحظة يشربه ويغتسل به، ويرى كل الكائنات تعيش على الماء، يقول تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، فلو تأمل الإنسان لحظة شربه للماء، كم هو ضعيف لولا هذه الشربة التي تحييه، لو تذكر قدرة الله وأنه تعالى قادر أن يمنع عنه هذه الشربة، أو يمنع عنه خروجها فيتأذى الإنسان من ذلك، فسبحانه جل وعلا، وقد دخل ابن السماك على هارون الرشيد، وهارون يحكم ثلاثة أرباع الدنيا، فاستدعى هارون ماءً في كوز ليشرب، فقال ابن السماك أسألك بالله ألاَّ تشرب حتى أسألك، قال: سل، قال: بالله لو منعوك هذه الشربة، أكنت مفتديها بنصف ملكك؟ قال: إي والله وإلا فماذا يفيد الإنسان أن يموت وملكه وراءه فشرب، قال: أسألك بالله

لو مُنعْتَ إخراج هذه الشربة، أتخرجها بنصف ملكك؟ قال: إي والله، قال: لا خير في ملك لا يساوي شربة ماء وإخراجها، نعم ما قيمة الحياة إن كانت لا تساوي شربة ماء، يقف العبد أمام الماء الذي يشربه، ليدرس مع الماء من هو الخالق؟ ومن هو الرازق؟ ومن هو الواهب؟ ثم يترك الإجابة وهو يعلم أنه تعالى خلق الماء وخلق مع الماء الحياة، وجعل من الماء حدائق ذات بهجة وفاكهة وأبًّا متاعًا لكم ولأنعامكم، يقول أحد الفضلاء: مدرسة التوحيد في الحديقة تنبئك عن الخالق الواحد لا إله إلا هو فالزهر، والشجر والماء والبساط السندسي والعبير، كلها تدل على الله، يقول الله تعالى ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠]، أي أنبتنا بالماء حدائق بهيجة، قال بعضهم «بهجة» بمعنى روعة، وقال بعضهم هي المنظر الحسن، وقال بعضهم: هي التشكيلة البديعة التي خلقها الله في الكون، فيا من تشرب الماء لا تشرب حتى أسألك، من الذي أنزل الماء؟

ميلاد جديد

الميلاد شيء جميل، وكون الإنسان يولد فهذا يدل على حياة جديدة وعمل جديد، وليس هناك أكثر عظمة من ميلاد إنسان، فيا ليت الإنسان يولد كل يوم، ويولد فيه قلبه وفكره، وتولد فيه قدرته على المحبة والصبر والاحتمال، فلماذا لا نولد كل يوم، ولماذا لا نشعر بأن كل يوم هو يوم جديد، وأن الذي نراه أمامنا قد وُلد لأول مرة، أو أننا نرى الأشياء القديمة جديدة، أو أن نجدد الأشياء القديمة، فإن كانت الحياة تتجدد، فلماذا لا نتجدد معها كل يوم، ولماذا لا ننظر إلى الناس بعين جديدة، وبرؤية جديدة، ففي اللحظة التي يظن فيها بعض الناس أنهم انتهوا في رماد اليأس واستسلموا لظلام القهر، لماذا لا يتبدل هذا الإحساس إلى حياة جديدة أكثر إشراقًا وأملًا، وهذه الولادة اليومية ليست سهلة كما قد نتصورها لا، إنها تحتاج إلى المثالية والصبر علينا أن

نؤمن بأننا لن نتوقف عن التجدد وأن نبدأ من اليوم، لنجعل من كل يوم يومًا جديدًا، إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، فليس هناك من ذنبٍ أو معصية أو جرح أو كرب لا ينفرج أو عسر لا يتيسر أو ظلمة لا تتبدد، كل ذلك يتغير، والمؤمن مآله حتمًا إلى الجنان، وإن فعل وفعل ما دام يشهد أن لا إله إلا الله، فمع هذه الشهادة يولد من جديد ويتجدد إيمانه ويبقى جديدا، وكلما وقع الإنسان في معصية ونسي عظمة الخالق ورحمته التي سبقت غضبه وعذابه كلما عاد تائبا فالله يقبل توبته فيصبح كمن لا ذنب عليه، فهنا يولد الإنسان طفلا صغيرا بلا ذنب أو معصية، فلنعاود تجديد التوبة مرة بعد مرة ونحاول تجديد العهد، فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا، فهل من رحمةٍ أعظم من هذه، قال تعالى في الحديث القدسي (أنا عند ظن عبدي بي فليظن ما شاء)، فالسعيد هو من يعمل ويحسن الظن بالله ويخاف الله عز وجل، ولا يغلب الخوف على الرجاء، أو الرجاء على الخوف، فهذه شهادة ميلاد لك، فكن مولودا صالحا وقرة عين لنفسك، فأنت تولد في اليوم كلما جددت توبة صادقة إلى الله تعالى.

لا تبشرهم يا معاذ

لماذا خلقنا؟ هذا سؤال يحدد أهداف الإنسان في هذه الحياة، وللأسف أن البعض عندما يسأل هذا السؤال يقول لا أدري، وهذه الإجابة تخرج الإنسان من إنسانيته وعقله، فالبعض يظن أنه خُلق في هذه الدنيا كريشة في الهواء لا تعرف هدفها ولا إلى أين تسير، ولكن الهواء يوجهها حيث يشاء، وتلك مصيبة أن يكون الإنسان بهذا العقل الجبار، وبهذه الفطنة أن يظن ذلك، فهل خلق الله الإنسان عبثا بلا هدف، إن الله تعالى يقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، فالله

تعالى يؤكد بأن الإنسان خلق في هذه الدنيا لوظيفة معينة من أجلها خلق، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، إنها العبادة التي من أجلها خلق الإنسان، فالله تعالى خلقنا لنعبده وَلاَ نشرك بِهِ شيئًا، ولكن كيف نعبد الله تعالى؟ وهذا سؤال آخر، فنقول إننا نعبد الله تعالى وفق الطريقة التي حددها رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الإخلاص، ويقول تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]، ولكن كيف يكون الإقبال على هذه العبادة، فهل يكون رجاء وخوفا، أم تفضلا ومنة، فنقول لا، ليس تفضلا ومنة، بل نقول خوفا وطمعا، كما قال تعالى ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الأعراف: ٥٦] أَيْ خوفًا من نارهِ وطمعًا فِي جنّته، ثم إن هذه العبادة درجات ومراتب وأعلاها مرتبة ومنزلة الإحسان فِي العبادة ومراقبة الله وحده الَّذِي يرانا، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: الإحسانُ أَنْ تعبدَ اللهَ كأنّك تراه فإن لَمْ تكن تراهُ فإنَّه يراك، وجاء في الحديث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم يوما على حمار فقال النبي: يا معاذ قلت لبيك يا رسول الله وسعديك، قال أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله، قال معاذ: الله ورسوله أعلم، فقال صلى الله عليه وسلم: حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا، فقال معاذ: أفلا أبشر الناس يا رسول الله، قال لا، لا تبشرهم فيتكلوا، فأخبر بها معاذ بن جبل عند موته تأثما أي خشية من وقوعه في إثم لكتمان العلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

القائد

من هو القائد لأعضاء الإنسان، ومن هو المحرك لمشاعر الإنسان، ومن هو الموجه لإيمان الإنسان، قد يقول البعض هو العقل، وقد يقول البعض بل هو القلب، والحقيقة

أن القائد هو القلب لا العقل، يقول الله تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، فالقلب لهذه الأعضاء كالملك المتصرف بالجنود الذين يأتمرون بأمره ويستعملهم فيما يشاء تحت عبوديته وقدرته، ويقول صلى الله عليه وسلم: ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب، فالقلب هو الملك المتصرف في الأعضاء، إذا صلح القلب معنويًا صلحت باقي أعضاء الجسم وجوارحه، فإذا مرض القلب عضويًا وأصيب بأحد الأمراض التي تؤثر على وظيفته فإن باقي أعضاء الجسم الأخرى تتأثر إذًا هو فعلا ملك الأعضاء والمسيطر على صحتها إذا صلح صلحت وإذا فسد فسدت، وقد أكدت الأبحاث أن زراعة القلب من إنسان إلى إنسان في عملية جراحية، فهذه العملية ليس فقط نقل قلب أي نقل قطعة لحم من إنسان إلى إنسان، وإنما هو نقل للعواطف والطبائع والذكريات، وأن شخصية الإنسان الذي زرع له القلب ستتأثر بشخصية الإنسان الذي أخذ منه القلب، لأن القلب هو مخزن المعلومات والأحاسيس والمشاعر، ويؤكد العلماء أن عملية زراعة قلب ليست كما كان يظنها العلماء مجرد زراعة أو نقل من شخص لآخر، إنها نقل لجزء من ذكرياته وعواطفه وروحه! ولذلك فإن العديد من المشاكل تواجه العلماء بسبب تغير شخصية المريض بعد أن يتم نقل عضو جديد له. وربما يكون أوضح هذه الحالات ما حدث منذ أيام لشخص يدعى سوني غراهام، والذي كان رجلًا محبًا للخير والحياة وبعد أن أجريت له زراعة قلب من شخص مات منتحرًا، حدثت تغيرات عميقة في شخصية هذا الرجل حتى انتحر بنفس الطريقة التي انتحر بها صاحب القلب، فسبحان الله تعالى الذي أكد بأن القلب هو مركز العقل، يقول تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا﴾ [الحج: ٤٦] ويقول تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ويقول تعالى: ﴿فِي

﴿قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، فالقائد للإنسان هو القلب، فيا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك.

ذئب يتكلم

لقد خلق الله عز وجل الكائنات كلها لعبادته، من إنس وجن وملائكة وحيوان ونبات وجماد، فطرها الله سبحانه وتعالى على توحيده والاعتراف بألوهيته والإقرار بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل وعلا، إلا أننا نجد العجب من أمر هذا الإنسان من انصرافه وبعده عن العبودية الصادقة لله تعالى، وانشغاله بملذات الدنيا وشهواتها، فهذا الإنسان وللأسف من أقل المخلوقات عبودية لله تعالى، بل إنه من أكثر المخلوقات معصية وأشدها استكبارا على مقام العبودية، فالإنسان مخلوق، وقد تكون الحيوانات والنباتات أفضل منه في تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان والجان لهدف العبودية، حيث يقول تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ولكون الدواب والهوام مخلوقات لله تعالى فهي تسبح وتسجد لله تعالى، يقول تعالى ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤] ، ويقول تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]، ومن صور عبودية الدواب العجيبة أذكر قصة الذئب التي رواها الإمام أحمد بسند صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة فأخذها فطلبه الراعي فانتزعها منه فقال الذئب للراعي: ألا تتقي الله تنزع مني رزقا ساقه الله إلي، فقال: يا عجبي ذئب يكلمني كلام الإنس، فقال

الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك؟ محمد صلى الله عليه وسلم بيثرب، يخبر الناس بأنباء ما قد سبق، قال فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة، فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فنودي: الصلاة جامعة، ثم خرج فقال للراعي، أخبرهم فأخبرهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق والذي نفسي بيده، فهذا ذئب يؤمن بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يتكلم كلام البشر ليؤكد صدق عبوديته لله تعالى.

درس هام في الاستعانة

في زمن فقد البعض الثقة بالله تعالى، وصار الإنسان يثق بالإنسان بل يستعين به في رفع الضر وجلب النفع، فقد تبدلت المعايير وانعكست الاتجاهات وبدل أن يطرق باب الرحمن، صار يطرق باب الإنسان، لصرف مضرة وخوف أو جلب أمن ومنفعة، وذلك نقص في العقيدة يجب تداركه قبل أن تهدم جسور الصلة بين الخالق جل وعلا وبين المخلوق، وقد جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تسد فاقته، ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى، إما بموت عاجل أو غنى عاجل)، وفي الحديث درس في صدق الاستعانة منبثق من عقيدة صافية خالصة تربط المسلم دائمًا بالله القدير، في السراء والضراء، والعسر واليسر، فالمؤمن قلبه معلق بالسماء ويده ممتدة إلى بارئها، إذا سأل فإنه سأل الله، وإذا استعان فإنه يستعين بالله، هو تعالى حسبه، وقوله صلى الله عليه وسلم (من أصابته فاقة) أي حاجة وضيق في المعيشة (فأنزلها بالناس) أي عرضها عليهم وأظهرها وطلب منهم إزالة فاقته منهم، فمثل هذا الإنسان لا (تسد فاقته) أي لم تقض حاجته (ومن أنزلها بالله) بأن اعتمد على مولاه (أوشك الله) أي أسرع وعجل له (بالغنى) أي اليسار بأن

يعطيه مالا ويجعله غنيا، (إما بموت عاجل) قيل بموت قريب له غني فيرثه، ولعل الحديث مقتبس من قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وهذه الأسس العقائدية تجعل الإنسان مرتبطا بخالقه ارتباطا وثيقا، وهذا ما تفتقده الأمة الإسلامية اليوم أنها فقدت الثقة بالله تعالى، فجعل الله تعالى فقرها بين يديها وسلبها الخير والأمن يوم لجأت إلى غير الله تطلب الأمن والاستقرار، فكيف ندع الاستعانة بالله عمليا ونحن نقول إننا نؤمن بالله تعالى لفظيا، إن الإيمان يقتضي العمل، والقرآن دائمًا يربط بين الإيمان والعمل، وحين كان عبدالله بن عباس رديفًا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، علّمه درسا في الاستعانة، فقال صلى الله عليه وسلم له (إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لن يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك)، فهذا درس في الاستعانة بالله تعالى أرجو أن ينعكس على حياتنا العملية واليومية.

في اللحظات الأخيرة

سبحان من يرزق التوبة ويوقظ الحس والضمير في اللحظات الأخيرة، وقبل أن يقع الفأس في الرأس، يتذكر الإنسان في لحظات يكون النسيان أساسها ولكنه يتذكر، يتذكر أن الله تعالى يراقبه ويحاسبه فيقلع عن المعصية ويعود إلى التوبة، وقد رُوي أن رجلا من بني إسرائيل أسرف على نفسه كثيرًا، وقد قتل وزنا وسرق وغش وكذب واحتال وشهد الزور وأساء كل الإساءة، وانتهك حرمات الله، وتكبر وتجبر، وحلت به سكرات الموت التي لم ينجُ منها، جمع أبناءه في تلك الساعة، وقال: أي أبٍ كنت لكم؟ قالوا خير

أب، قال: فوالذي نفسي بيده ما عملت خيرًا قط، غير أني أشهد أن لا إله إلا الله، فإذا أنا مت فأضرموا فيَّ نارًا، ثم ألقوني في النار حتى أصير فحمًا، ثم اسحقوني، ثم ذروني مع الريح، فمات فنفذوا وصيته، أضرموا له النار، ورموه فيها حتى صار فحمًا، ثم سحقوه، ثم ذروه مع الريح وتفرق على ذرى الجبال، وعلى رؤوس الأشجار، وعلى السهول والأنهار، لكن الذي بدأه أول مرة يعيده، قال الله تعالى له: كن فكان، قال: يا عبدي ما حملك على ما صنعت؟ أما علمت أني أستر العيب وأغفر الذنب، قال: يا رب خفتك وخشيت ذنوبي، قال: أشهدكم يا ملائكتي بأني قد غفرت له وأدخلته الجنة. فلا إله إلا الله، وهاهي امرأة بَغِيّ، بارعة الجمال، لا تمكن من نفسها إلا بمائة دينار، وتمر على عابد ما عصى الله طرفة عين، يتعبد لله في صومعة من الصوامع فيفتتن بها، ثم راودها عن نفسها، فأبت أن تمكنه إلا بمائة دينار، وهو لا يملك دينارًا ولا درهمًا، فما كان منه إلا أن ترك صومعته وذهب يكدُّ ويتعب حتى جمع المائة دينار، ثم ذهب إلى هذه البغي في بيتها وفي قصرها، طرق عليها الباب ولما طرق عليها الباب خرجت، ويوم خرجت قال لها: لقد جمعت المائة دينار وجئت فقالت: ادخل، فدخل إليها في قصرها، وقد جلست على سرير من ذهب وتزينت في كامل زينتها، ويوم تزينت في كامل زينتها فقالت: هلمَّ إليّ، فسقط جالسًا، قالت: قد كنت تزعم أنك ستجمع وتأتي، فلما مكنتك من نفسي تجلس، قال: ذكرت وقوفي بين يدي الله عز وجل فلم تحملني أعضائي لأقف. نعم هي اللحظات الأخيرة التي يتذكر فيها الإنسان ربه فيرجع، ولكن من يتذكر اليوم هذه اللحظات الأخيرة.

إلا صلاتي

الصلاة عمود الدين وهي أول ما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة، وهي وصية النبي صلى الله عليه وسلم وهو في اللحظات الأخيرة، ولكن الصلاة يسرق منها الكثير وينصرف الذهن أثناءها ويطير في وساوس الشيطان، وللصلاة جسد وروح، فجسد الصلاة حركاتها وروحها الخشوع فيها، والخشوع الحق هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء، فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء، وشهود نعم الله، وجناياته هو، فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح، ومما يدل على أهمية الخشوع كونه السبب الأهم لقبول الصلاة التي هي أعظم أركان الدين بعد الشهادتين، وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إن العبد لينصرف من صلاته، ولم يكتب له منها إلا نصفها، إلا ثلثها، إلا ربعها، إلا خمسها، إلا سدسها، إلا سبعها، إلا ثمنها، إلا تسعها، إلا عشرها فليس للمصلي من صلاته إلا ما عقل منها، وللأسف أن الخشوع اليوم غاب عن المصلين وسها الناس في صلاتهم فهم لا يدركون منها شيئًا، وقد روي عن عبادة بن الصامت وعوف بن مالك وحذيفة رضي الله عنهم أنهم قالوا: أول علم يرفع من الناس الخشوع حتى لا ترى خاشعًا، بينما الخشوع صفة متأصلة في المؤمنين وقد امتدحها الله تعالى فقال ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١-٢]، فأين الخشوع اليوم في الصلاة، أما يستحي العبد أن يتقرب إلى الله تعالى بصلاة جوفاء خالية من الخشوع والخوف، فأين الشعور بالاستحياء من الله؟ فالصلاة إتقان وتقرب إلى الله بمعاني الخوف والرهبة، وهي صلة بين العبد وربه ينقطع فيها الإنسان عن شواغل الحياة، ويتجه بكيانه كله إلى ربه عز وجل ويستمد منه الهداية والعون، ويسأله الثبات على الصراط المستقيم، فصلاتي هي رصيدي وهي ظلي وهي مهجتي، فالصلاة الصلاة.

لذة الخلوة

الخلوة مع الله تعالى تزيد المؤمن إيمانا ونورا، يقول الحسن البصري حينما سئل: ما بال أهل الليل على وجوههم نور؟ قال: لأنهم خلوا بربهم فألبسهم من نوره سبحانه وتعالى، ولذلك نقول لمن وقع في محنة أو مصيبة يا أخي اجلس مع ربك جلسة أو خلوة في ساعة ساكنة حتى تطمئن وأنت بقرب الله تعالى، فما أعظم هذه الطمأنينة المنسكبة في القلب، والتي تجعل الإنسان مستقرًا مطمئنًا، كما كان من الرسل والأنبياء إذا حزبهم أمر جلسوا بقربٍ الله تعالى، كما قال تعالى ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ويقول تعالى ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢]، وكما قال الشاعر:

فليتك تحلو والحياة مريرة * وليتك ترضى والأنام غضابُ
إذا صحَّ منك الودُّ فالكلُّ هيّنٌ * وكلُّ الذي فوق التراب ترابُ

هكذا عندما نتعلق بالله عز وجل تكون أشواقك وأفراحك، إنه الفرح بفضل الله وبطاعة الله سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وهناك من الناس من يفرح بمغريات الدنيا من الأموال ونحوها، بينما يفرح المؤمن بسجدةٍ خاشعة، في ليلة ساكنة، في وقت سحر يناجي فيها ربه، ويسكب دمعه، ويتذلل بين يدي خالقه سبحانه وتعالى كما قال الله تعالى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، ما هذا الشوق الذي يستولي على القلب؟ وهذا سيدنا بلال رضي الله عنه عندما تحين وفاته، تصيح زوجته وتقول: يا حزناه فيقول: بل قولي وافرحتاه، غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه، الشوق إلى لقاء الله سبحانه وتعالى، وفي يوم أحد صاح أنس بن النضر وهو يقول: واهًا لريح الجنة، والله إني لأجد ريحها دون أحد، ثم ينطلق مشتاقًا راغبًا محبًا

متولعًا عاشقًا للقاء الله سبحانه وتعالى راغبًا في طاعة الله سبحانه وتعالى، ويلقي بنفسه يعانق الموت قبل أن يأتيه، وإذا به يمضي شهيدًا إلى الله سبحانه وتعالى، فساعة تخلو فيها مع الله تعالى خير من ألف ساعة تنشغل فيها بالدنيا وما فيها.

من؟

من الذي يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل؟ من الذي ينادي في كل ليلة هل من تائب فأتوب عليه، هل من مستغفر فأغفر له؟ من الذي ينادي: يا ابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني لغفرتها لك على ما كان منك ولا أبالي؟ من الذي ينادي: يا عبادي إنكم تخطئون في الليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفروني أغفر لكم؟ من الذي ينادي: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، من الذي يرحم التائبين ويشملهم بعفوه ومغفرته وهو خير الغافرين؟ من الذي عجت ببابه الأصوات فلهجت بالمعذرة والمسائل والحاجات فكان الله ولم يزل بها رحيما؟ هو الله سبحانه وتعالى يغفر للعبد ذنوبه ويستر له عيوبه، هو الله سبحانه وتعالى عندما يقف العبد بين يديه يناديه رباهُ رباه، يناديه بعد الذنوب والخطايا، والعيوب والرزايا، وقد أقضت مضجعه فلم يجد ملجأ إلا إلى الله، فيقف بين يدي الله وقد أحزنته ذنوبه وأهمته عيوبه وأسرته خطاياه بعد أن ذهبت اللذة، وانقضت الشهوة وأعقبها العذاب والهوان، وقد أحاط به ضيق المعاصي، آلمته وأقلقته، عندها نظر يمينا وشمالا، فإذا بالنفس الأمارة بالسوء قد خذلته، وإذا بالشيطان المريد قد خذله، فلم يجد إلا ربه لكي يقف بين يديه معتذرا، فينادي ربه من صميم قلبه وفؤاده، ينادي ربه وهو على يقين أن الله أحلم وأرحم، وأن الله أوفى وأكرم، وأنه وإن كانت ذنوبه كبيرة

فالله أكبر من كل شيء، وإن كانت عيوبه كثيرة فالله أرحم وهو الغفور الحليم، فوقف بين يدي الله منكسرا، أسيرا كسيرا مؤمنا بربه موقنا برحمته، فيناديه: يا ربِ يا رب، وإذا بالله جل جلاله لا ينظر إلى ما مضى من إساءته ولكن يفرح بإنابته وتوبته، فتفتح أبواب السماوات وتصعد الكلمات والدعوات، فتنتهي إلى ما شاء الله أن تنتهي، فينادي أرحم الراحمين، وينادي الله سبحانه وتعالى: يا ملائكتي علم عبدي أن له ربًّا يأخذ بالذنب ويعفو عن الذنوب، قد غفرتُ لعبدي.

ربي اشرح لي صدري

انشراح الصدر من أهم أسباب السعادة، وضيق الصدر هم وغم، وشرح الصدر من النعم العظيمة، ولهذا سألها موسى عليه الصلاة والسلام فقال: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ۝٢٦ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي﴾ [طه: ٢٥-٢٧]، وهي النعمة العظيمة التي منحها الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم من غير سؤال فقال ممتنًا عليه بذلك: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ۝٢ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ١-٤]، بل جعلها الله عز وجل سببًا رئيسيًا للهداية، فقال تعالى ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقد وجدت كثيرًا من الناس في ضيق وحزن، ولا أدري لم كل ذلك، قد يكون بسبب المشاكل والديون، وقد يكون بسبب روتين الحياة المملة، وقد يكون بسبب الذنوب والمعاصي فهذه تسبب في القلب ضيقًا، وكل ذلك يزول بانشراح الصدر، فإذا انشرح الصدر تجملت الحياة وتزينت، وصارت الأيام جميلة، وكل ما في الحياة بهجة وسرورًا، ولكن كيف ينشرح الصدر؟ إن لذلك أسبابا، وأولها الإيمان بالله

عز وجل، فالإيمان بالله وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته أنفع الأسباب لشرح الصدر وكلما حقق المرء عبوديته لربه ومولاه وأخلص فيها كلما ازداد سرورًا وانشراحًا وإقبالًا عليه، وقد ورد أنه: إذا دخل النور القلب انفسح وانشرح، قالوا: وما علامة ذلك يا رسول الله؟، قال: الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، ومن أسباب انشراح الصدر، أداء الواجبات والانتهاء عن المحرمات، فمن تقرب إلى الله عز وجل انشرح صدره، وجاء في الحديث القدسي: (وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه)، والإكثار من ذكر الله عز وجل في كل وقت وحين يشرح الصدر ويزيده ابتهاجًا، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]، تلك بعض أسباب انشراح الصدر، فخذ منها ما يشرح صدرك وييسر أمرك.

نحن المتوكلون

كل شيء له ثمرة وثمرة الإيمان التوكل على الله، ولكن التوكل ليس هو الكسل وترك الأسباب ولكنه التوكل الحق، فسيدنا عمر رضي الله عنه رأى أناسًا فقال من أنتم: قالوا نحن المتوكلون، قال: كذبتم، المتوكل من ألقى حبة في الأرض، ثم توكل على الله، والتوكل من عمل القلب، فإذا جعلته من عمل الجوارح فقد ضللت سواء السبيل، ومع الأخذ بالأسباب يجب الاعتماد على الله تعالى فالمؤمن يأخذ بالأسباب، ولا يعتمد عليها بل يعتمد على الله عز وجل، هذا هو الخيط الدقيق بين الشرك وبين التوكل الصحيح، بينما المشرك يأخذ بالأسباب ولكنه يعتمد عليها ولا يعتمد على الله تعالى، بينما المتوكل الحق يأخذ بالأسباب، ويعتمد على الله عز وجل، فمن أخذ بالأسباب

واعتمد عليها فقد أشرك، ومن لم يأخذ بها فقد عصى، ومن أخذ بالأسباب واعتمد على الله عز وجل فهو المتوكل الحق، والتوكل يعطي المؤمن شحنة نفسية، تغمر قلب المؤمن بروح المقاومة، والتحدي، كما يشحذ التوكل في المؤمن العزيمة والإيمان والإرادة الصلبة، لكن هناك نقطة دقيقة وخطيرة وهي أن الإنسان ما لم يستقم على أمر الله لا يستطيع أن يتوكل عليه، التوكل على الله الذي يجعلك أقوى الناس، والذي يبث فيك روح التحدي والمقاومة، والذي يجعلك عزيز النفس رافع الرأس، هذا التوكل الحقيقي ثمنه طاعة الله عز وجل، فإذا كان في الاستقامة خللٌ، وفي الالتزام ضعفٌ، وفي التطبيق مسافة بعيدة بين ما تعتقد وبين ما تفعل، فأغلب الظن أنك لن تستطيع التوكل على الله، لقد جاء في القرآن أن جميع الرسل قالوا ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢]، إذًا إيمانك بالله عز وجل، وتوكلك عليه هو من أينع ثمار الإيمان وهو أحد مصادر القوة في شخصيتك، تشعر أن خالق الكون معك وتشعر أن من بيده ملكوت السماوات والأرض معك، وتشعر أن كل خصومك مهما كثروا ناصيتهم بيد الله عز وجل، وأنت معه وهو معك، فنحن المتوكلون على الله حق التوكل.

أرحنا بها يا بلال

إنها الصلاة قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (إِنَّ الْعَهْدَ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ، الصَّلاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ)، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام يقول: الصلاة نور، الحقيقة هذه الكلمة دقيقة تدل على روح الصلاة وأن الصلاة لها حياة، أنت تحييها وأنت تميتها، الصلاة التي أمرنا الله بها في اليوم والليلة خمس مرات لا يمكن أن تكون على النحو الذي يؤديها الناس حركات وأفعال مجردة من الخشوع والروح، فهذا مصل

ينتظر دخول الوقت، ويتحرى القبلة ثم توضأ ووقف، وكبّر وتوجه نحو القبلة ثم قرأ وركع وسجد ثم قعد وتشهد ثم سلم، وهو في عالم آخر، منشغل في محله التجاري، وفي مشاريعه، وفي مشاكله، وفي قيله وقاله، بالتأكيد ليست هذه هي الصلاة، لذلك ورد أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى النَّاسِ وَهُمْ يُصَلُّونَ، وَقَدْ عَلَتْ أَصْوَاتُهُمْ بِالْقِرَاءَةِ فَقَالَ: إِنَّ الْمُصَلِّي يُنَاجِي رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَلْيَنْظُرْ مَا يُنَاجِيهِ، وَلا يَجْهَرْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالْقُرْآنِ، فلو يعلم المصلي من يناجي لما التفت، لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها)، ولهذا قالت السيدة عائشة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا، ولم نعرفه. إن في الصلاة لذة تفيض لها الدموع، وتخشع لها الجوارح، والصلاة نور، بها ترى الحق حقًا، والباطل باطلًا فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنِ النَّبِيِّ صلى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاةَ يَوْمًا فَقَالَ: مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ وَلا بُرْهَانٌ وَلا نَجَاةٌ وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَعَ قَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ، فلعلك علمت الآن لماذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: أرحنا بها يا بلال.

انتبه فأنت مراقب

عندما يؤوي الإنسان إلى فراشه بعد عمل يوم شاق، وفجأة يأتيه منادٍ يقول له لا تنم فأنت مراقب، فيفزع وينهض من مضجعه متحريا من الذي يراقبني، ثم يبدأ يسترجع شريط يومه كاملا ويتأمل ما قام به من نشاطات هل فيها شك أو ريبة، أو معصية أو ذنب، أو خطأ أو هفوة، تلك خواطر وهواجس وحديث قلب يسري في الليل، فراقب نفسك قبل أن تؤوي إلى فراشك، فيا سائلي عما ترى هذه صفحات في يومك وفي

عامك كيف كتبتها فهل كان همك منصرفًا نحو حياة مليئة بالعبث واللهو وإضاعة الوقت وانتهاك محارم الله تعالى، أم كانت ساعات يومك بحثًا عن التكسب ولقمة العيش، والتفاني في أداء العبادات وأداء الواجبات، إن مراقبة الله تعالى هي من أشرف المقامات وأرفع المنازل وأعلى الدرجات وهي مقام الإحسان الذي أشار إليه صلى الله عليه وسلم عندما سُئل عن الإحسان فقال: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، إنها رقابة طويلة مستمرة لا تكل ولا تمل تبدأ مع بداية العمر منذ أول صرخة يصرخها الإنسان عندما ينزل من بطن أمه وتستمر معه إلى أن يوسد في قبره، مراقبة في كل شيء مراقبة لكل حركة وسكون ولكل حديث وكلمة بل حتى وساوس النفس وما تختلجه الصدور، قال تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، وقال تعالى ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وسئل الجنيد: عن محبة رب العالمين فأطرق رأسه ودمعت عيناه، ثم قال عبد ذاهب عن نفسه متصل بذكر ربه قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبَه أنوارُ هيبته، فإن تكلم فبالله وإن نطق فعن الله وإن تحرك أو سكن فبأمر الله، فهو بالله ولله ومع الله، فبكى القوم وأجهشوا بالبكاء، وقالوا: ما على هذا مزيد، ومن سكنت محبة الله قلبه استحى من الله أن ينظر إليه في مكان لا يرضاه، وعن ثوبان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إني لأعلم أقوامًا من أمتي يأتون يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة فيجعلها الله تعالى هباء منثورا، فقلت صفهم لنا يا رسول الله حتى لا نكون منهم ونحن لا نعلم، فقال صلى الله عليه وسلم: هم منكم وهم إخوانكم ويأخذون من الليل ما تأخذون ولكنهم أقوام إذا خلوا بمحارم الله انتهكوها، تلك هي مراقبة الله عز وجل أن تستحي من الله فلا يراك حيث نهاك، ولا يفتقدك حيث أمرك، فانتبه أخي المسلم فأنت مراقب.

إن شاء الله

الأخذ بالأسباب أمر هام، فالمسبب لا يقع إلا بسبب، فلا يشبع الإنسان إلا إذا أكل، ولا يرتوي إلا إذا شرب، ولا ينجح إلا إذا درس، ولا ينتصر إلا إذا قاتل، فهذه كلها أسباب وطرق توصل إلى غايتها، ورغم الأخذ بالأسباب يبقى أن يوكل الإنسان أمره إلى الله تعالى، ولا بد له من التأدب مع الله تعالى عند القيام بأي عمل فلا بد أن يقول «إن شاء الله»، فقد قال الله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، وسبب نزول هذه الآية أن قريشًا بعثت إلى أحبار يهود المدينة تسألهم عن محمد، فقالوا: إن أردتم معرفة صدق محمد فاسألوه عن ثلاثة أشياء، فإن أجابكم فهو صادق، اسألوه ما قصة القوم الذين ذهبوا في الدهر مذاهب عجيبة؟ وما قصة الرجل الطواف الذي طاف الأرض شرقًا وغربًا؟ وما هي الروح؟ وفعلًا جاء رجلان من قريش إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألاه هذه الأسئلة، فقال صلى الله عليه وسلم: أخبركم بما سألتم عنه غدًا، وجاء غد وبعد غد ومرت خمسة عشر يومًا دون أن ينزل الوحي لرسول الله بشيء من أمر هذه الأسئلة، فشق ذلك على رسول الله وكبر في نفسه أن يعطي وعدًا ولا ينجزه، وورد أن سبب إبطاء الوحي على رسول الله في هذه المسألة أنه قال: «أخبركم بما سألتم عنه غدًا» ولم يقل: إن شاء الله، ولذلك خاطبه ربه تبارك وتعالى بقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]، فهذا درس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولنا ألا ننجز أي عمل إلا بمشيئة الله تعالى وأن نعتقد ذلك قولًا وعملًا وإيمانًا وتسليمًا، وتأمل عقبى سليمان عليه السلام لما قال: لأطوفن الليلة على مئة امرأة تلد كل واحدة منهن غلامًا، ولم يقل إن شاء الله، فما حملت إلا واحدة جاءت بشق غلام، فتأدب مع الله أيها

الإنسان إذا أردت فعل شيء، وقل دائمًا «إن شاء الله» فإن وقع ذلك الأمر وتحقق فهو بإذن الله تعالى وهو بمشيئة الله تعالى وهو قوله تعالى ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فلا يزال لسانك رطبًا بهذه الكلمة الإيمانية العقائدية كلما أخذت بالسبب وانتظرت النتيجة فقل دائمًا وأبدا «إن شاء الله».

كيف أعبد؟

إن للعبادة روحًا، ولولا هذه الروح فالعبادة ميتة لا حياة فيها ولا أجر فيها، وروح العبادة الإخلاص إن شأن الإخلاص مع العبادات بل مع جميع الأعمال حتى المباحة لعجيب جدًا، فبالإخلاص يعطي الله على القليل الكثير، وبالرياء وترك الإخلاص لا يعطي الله على الكثير شيئًا، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: والنوع الواحد من العمل قد يفعله الإنسان على وجه يكمل فيه إخلاصه وعبوديته لله، فيغفر الله به كبائر الذنوب كما في حديث البطاقة، وحديث البطاقة كما أخرجه الترمذي وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلًا، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يقال: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقال: أفلك عذر أو حسنة فيها؟ فيقول الرجل: لا، فيقال: بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها، أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، بطاقة فيها كلمة التوحيد ولكنه قالها بإخلاص فكانت هي المنجية، ومن هذا أيضًا ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو أيضًا عن النبي

صلى الله عليه وسلم قال: (لقد رأيت رجلًا يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين)، وفي رواية: (مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحين هذا عن المسلمين لا يؤذيهم فأُدخل الجنة)، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه، وأما الإخلاص فهو كما يقول العلماء أن تكون حركته وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى لا يمازجه نفسٌ ولا هوىً ولا دنيا، قال الفضل بن زياد سألت الإمام أحمد بن حنبل عن النية في العمل، قلت كيف النية: قال يعالج نفسه، إذا أراد عملًا لا يريد به الناس، هكذا فاعبد الله بإخلاص ونية صادقة.

لو كان قلبك حجرًا

ليونة القلوب بعد تحجرها أمر صعب، إنها تحتاج إلى ري دائم، كالأرض التي جفت وقسا ترابها إذا نزل عليه الماء أحياه وأعاد له ليونته وخصوبته، وهذه القلوب إذا أبصرت الحق، ورقت لذكر الله تعالى فإنها تلين ثانية وتحيا من جديد، وفي القلوب إحساس، والإحساس هو سر ليونة القلب، فمن أحس بالناس وحاجتهم، ومن وجد في قلبه شفقة على المسكين، ومن رق قلبه لولده ووالديه، ومن وجد عاطفة الإحساس بالآخرين، فهذا قلبه حي، ولكن حين يجد الإنسان في قلبه ضيقًا من مساعدة الآخرين، فهذا قلبه أخذ في التحجر والتصحر حتى صار كالحجارة أو أشد قسوة، وقد وصف الله تعالى القلوب الميتة بأنها أشد قسوة من الحجارة، فقال تعالى ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، يقول مالك بن دينار: (ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم)،

إن حرارة الإيمان تذيب جليد القسوة من على القلوب، وتحيط القلوب بدفء المحبة، وتملأها إشعاعًا وإحساسًا، هات لي قلبًا رقيقًا محسًا، أعطيك إنسانًا مؤمنًا حيًا مرهفًا، إن القلوب السليمة ينتابها القلق والخوف وتجري فيها الدماء سريعا ويزداد نبضها سريعًا، يحدث ذلك عندما يقترف الإنسان ذنبا أو يظلم إنسانا، فتجد هذا الإنسان غير مستقر لا ينام الليل، ولا يطيب له طعام، ولا يجد راحة نفسية، لماذا؟ لأن القلب قد طُعن بمعصية أو بذنب، فلا يزال القلب يتألم إلى أن يتوب صاحبه، ذلك هو القلب اللين، وفي هذا القلب قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، أما القلب المتحجر فهذا لا يتأثر بل ربما يزداد تصلبًا وقسوة، فمن كان قلبه حجرًا فليكثر من الذكر ومراقبة الله تعالى، ومتى وصلت القلوب إلى هذه المرحلة تدفقت منها الرحمة وانساب منها الخشوع، وروت وارتوت، قال الله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨]، تلك هي القلوب تلين وتتحجر، فعلى صاحبها أن يعرف كيف يعاملها، فارزقنا اللهم حياة القلوب، وجنبنا اللهم قساوتها.

وهل يعجز اللسان؟

فهل يعجز اللسان عن الدعاء، وكم يكلفه ذلك، لا شيء، سوى أن ينطلق اللسان بالدعاء ويتحرك، وترتفع اليد وتهتز، ويكون القلب مصدر الأحاسيس التي تنبض بالدعاء، فهل يعجز اللسان عن ذلك، لا أظن أنه يعجز، والدعاء هو سلاح المستضعفين، والطريق إلى تحقيق مآرب الدنيا والدين، وواسطة إلى رضا رب العالمين، وفيه غنى وكفاية عن سؤال الآدميين، وعن اجتناب سخطهم وبغضهم للسائلين، وصدق القائل:

لا تسألن بني آدم حاجة * وسل الذي أبوابُه لا تُحجبُ

اللهُ يغضب أن تركتَ سؤاله * وبُنيُّ آدم حين يُسأل يغضبُ

فأعجز الناس قاطبة من عجز عن دعاء ربه، وغفل عن سؤال خالقه ومولاه، ذي الرحمة الواسعة، والخزائن الفاتحة، وقد أمر الخلق بدعائه، ووعدهم بإجابته ووعده حق ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] وتوعد المستكبرين عن عبادته المستنكفين عن دعائه، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فهل يعجز أحد عن الدعاء، والدعاء هو العبادة، بل أفضل، وأيسر أنواع العبادة، حيث يمكن للعبد أن يدعو الله تعالى على كل حال قاعدًا وقائمًا، طاهرًا أو غير طاهر، سرًا وعلانية، باللسان أو بالجنان، في الجو أو في البر والبحر، ففي جميع الأوقات وسائر الساعات، والإجابة مضمونة، فقد وعد بها من لا يخلف الوعد سبحانه وتعالى، فلندعُ ربنا فذلك لا يعجزنا ولا يكلفنا شيئا، ولندعُ ونحن موقنون بالإجابة، كما قال عمر رضي الله عنه: والله لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل هم الدعاء، فهل يعجز اللسان عن الدعاء؟ لا أظن ذلك أبدًا.

يا رجائي

يا إلهي ورجائي من لي سواك في ساعات القهر والضياع، يا أملي ومنتهى رجائي من لي من مجيب عند السؤال، يا ملاذي من لي عند الصراط يجيرني من عذاب النار، إنني أقف عند باب من لا يرد السائلين، فأقول إلهي أزف العام على الرحيل، وشمَّر ثوبه وقت الأصيل، فهو ذاهب في طريق النسيان وماض في أسطر التاريخ، فهو القديم بعد أن كان جديدًا، وهو الماضي بعد أن كان الحاضر، وهو الندم بعد أن كان الرجاء، ضاعت ساعته في اللهو، ومضت أيامه في اللعب، وصار العمر محسوبًا بكل ما فيه إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وقد جاء في الحديث القدسي الذي يرويه النبي صلى الله عليه

وسلم يقول الله تعالى: «ابن آدم خلقتك لنفسي، وخلقت كل شيء لك، فبحقي عليك لا تشتغل بما خلقته لك عما خلقتك له»، وفي أثر آخر يقول تعالى: «ابن آدم، خلقتك لنفسي فلا تلعب، وتكلفت برزقك فلا تتعب، ابن آدم اطلبني تجدني، فإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتك فاتك كل شيء، وأنا أحب إليك من كل شيء» فيا إلهي تب علي، وتقبل توبتي، نعم هو الله ربنا عز وجل، فماذا فَقَدَ مَن وجدك يا الله؟ وماذا وَجَدَ مَن فَقَدَكَ يا الله؟ يا رجائي في آخر المطاف وفي آخر محطة يصل لها الإنسان الكادح في دهره وزمانه ليضع عنه عناء الحياة الثقيل ويرتمي بين يدي مولاه، فيقول يا إلهي ويا رجائي جئتك من بعيد أطلب المغفرة، فأنت من لا ترد سائلًا سألك، ولا تتضجر من لحوح قصدك، فتب علي وتقبل توبتي، فقد ذهبت لذة المعصية وبقي الحزن والندم، وقد آن الأوان أن أرتاح من همي وحزني، وأوشك العام على الرحيل، وقد تمرغت فيه بالمعاصي، وكانت أيامه شاهدة، وهي عمري، وطفولتي وشبابي، وقد بدا الشيب يغزو من كل جهة وجبهة، وانكسر العود الرطيب، وقد تخلى عني القريب والحبيب، فيا رجائي تب علي، وتقبل توبتي، فقد تكشفت الحقائق، وظهرت الوقائع، بأني كنت في غفلة ونسيان، وحان وقت الرحيل، فيا رجائي تب علي، وتقبل توبتي.

الباب الثاني

مكارم الأخلاق وآداب الإسلام

(٥٨ مقالة)

ارحموا من في الأرض

الرحمة خلقٌ حسن حَثَّ عليه الإسلام، قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، ومعلوم أن الخطاب الموجه له صلى الله عليه وسلم خطاب لأمته، ما لم يرد ما يخصصه، وقال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وعن جرير بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ»، وفي الحديث عن النعمان بن بشير يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ترى المؤمنين في تراحمهم، وتوادهم، وتعاطفهم، كمثل الجسد، إذا اشتكى عضواً، تداعى له سائر جسده بالسهر والحمّى»، وقال صلى الله عليه وسلم: «أَهْلُ الْجَنَّةِ ثَلاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مُقْسِطٌ مُتَصَدِّقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيَالٍ»، الرحمة للناس نابعة من رحمة الله عز وجل، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّماء»، وروى الشيخان عن عبد الله بن عمر قال: اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ شَكْوَى لَهُ فَأَتَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ وَعَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ وَجَدَهُ فِي غَشِيَّةٍ، فَقَالَ «أَقَدْ قَضَى؟ قَالُوا: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ، فَبَكَى رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا رَأَى الْقَوْمُ بُكَاءَ رَسُولِ اللهِ بَكَوْا فَقَالَ أَلاَ تَسْمَعُونَ؟ إِنَّ اللهَ لاَ يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلاَ بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا - وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- أَوْ يَرْحَمُ»، أحاديث كثيرة تدعو إلى الرحمة، والرحمة صنف بل أصناف، فهناك رحمة الراعي برعيته، ورحمة الزوج بزوجته، وهناك رحمة الصغير واليتيم، وهناك الرحمة بالكبير، وهناك الرحمة بالعيال، وهناك الرحمة بالأهل، وهناك الرحمة بالحيوان. ولكن ما قولك بزمن ماتت فيه الرحمة وقامت فيه القسوة، وتغيرت

المعايير والمقاييس، حتى رأينا الناس يُقتلون من غير سبب بالآلاف والملايين، ويُشرد الناس من بيوتهم وأوطانهم، وظهر الحرمان والقهر والتنكيل والوحشية في العالم.

فأين الرحمة؟ وأين يجد الإنسان هذه الرحمة؟ فيا أهل الأرض ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

عشرات عمر تتبع

مما يؤسف له أن بعض الأعمال الصالحة بدأت تغيب عن الناس، وأصبحت تُنسى أو تنقرض، وقد وجدت البعض يسعى إلى المحافظة على نوعية بعض الحيوانات خشية أن تنقرض، بل هناك قوانين تعاقب من يتسبب في انقراض بعض الحيوانات، ولكن الأخلاق عندما تؤخذ في الانقراض فمن لها، ومن بين الأخلاق التي بدأت تذهب وتنسى يوما بعد يوم، خلق عظيم، هذا الخلق هو قضاء حوائج الناس، لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى هذا العمل بشدة، فقد قال: أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن أعتكِفَ في هذا المسجدِ يعني مسجدَ المدينةِ شهرًا، ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له؛ ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدام، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من نفس عن مؤمن كربة نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، ومن فضائل قضاء الحاجات، يقول الله تعالى ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ

﴿مِنْهَا ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾ [النساء: ٨٥]، قال صلى الله عليه وسلم: «اشفعوا تؤجروا ويقضي الله على لسان نبيه ما أحب»، قال ابن عباس: إن لله عبادًا يستريح الناس إليهم في قضاء حوائجهم وإدخال السرور عليهم أولئك هم الآمنون من عذاب يوم القيامة، قال الضحاك في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ في قصة يوسف عليه السلام، كان إحسانه إذا مرض رجل في السجن قام عليه، وإذا ضاق عليه المكان وسع له، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يتعاهد الأرامل فيسقي لهن الماء بالليل، ورآه طلحة بالليل يدخل بيت امرأة فشك في الأمر، فدخل إليها فإذا هي عجوز عمياء مقعدة، فسألها ما يصنع هذا الرجل عندكِ، فقالت: هذا له منذ كذا وكذا يتعاهدنا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى، فقال طلحة: ثكلتك أمك يا طلحة عثرات عمر تتبع، فمن يقوم كعمر في قضاء حوائج الناس، أم أن هذا العمل حكم عليه بالانقراض؟!

ولذلك خلقهم

قال الله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]، الناس يختلفون فيما بينهم اختلافات لا يحصيها أحد، فمن الناس من تجده شهمًا لا يتردد في مساعدتك إذا طلبت المساعدة، ومنهم من لا يحرك ساكنًا إذا لجأت إليه، بل يدير لك ظهره ويعرض عنك، ومن الناس من يتصف برحابة الصدر في تعاملاته مع الناس، ومنهم من هو ضيق الصدر متحفز دائمًا للعراك والشجار مع القريب والبعيد على حد سواء، ومن الناس من يقابلك بابتسامة ووجه بشوش، ومنهم من يقابلك بتكشيرة ووجه عبوس، ومن الناس من إذا أسديت إليه معروفًا شكر لك ولا يزال لمعروفك ذاكرًا، ومنهم من لا تخرج من فمه كلمة شكر، ومن الناس

الراشدون، ومنهم الحمقى، ومن الناس العالمون، ومنهم الجهلة، ومنهم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومنهم من لا تعرف له طبعًا، يا أخي الناس أصناف وأجناس كثيرة، هذه هي طبيعة الحياة، ما يهم هنا أننا يجب أن نتعامل مع الجميع فلا نرفض أحدًا بسبب طبعه أو منظره أو شكله أو مظهره، لأننا بحاجة إلى هؤلاء، وأولئك نجدهم في حياتنا اليومية ونتعامل معهم، نتعامل مع من نحب، ومع من لا نحب، ولذلك جاء حديث النبي صلى الله عليه وسلم في الوصية بقوله: «وخالق الناس بخلق حسن»، أي خالق جميع الناس رغم الاختلاف والتباين بخلق فاضل متزن، ومع ذلك لا ينبغي أن نفقد نحن صفاتنا لمسايرة اختلاف الناس، فلا ينبغي أن نفقد صفاتنا الجميلة؛ لأن الناس لا يفهمونها، لا ولكن كما قال الله تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، أي نصبر على مضايقات الناس لنا، أو جهلهم علينا، ولا يجوز أن نُحقر أحدًا من الناس لطبعه، وقد ورد عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يحقرن أحد أحدًا من المسلمين، فإن صغير المسلمين عند الله كبير، فحسن الخلق وتقوى الله في التعامل مع الآخرين يدخل الناس الجنة من أوسع أبوابها، هكذا ينبغي على المؤمن أن يتعامل مع الناس رغم اختلافهم وتباين آرائهم وأفكارهم، فالله تعالى لو شاء لجعل الناس على حد سواء، ولكن حكمة الله قضت أن يختلف الناس ولذلك خلقهم.

حتى لا يمنع الماعون

المسلم للمسلم كالبنيان، صرح من التآخي والمحبة لا أظن أنه يهوى إذا كان المسلم يقيمه على أساس صلب، هذا الأساس هو الخلق، سيدنا عبدالله ابن عباس الصحابي الجليل كان معتكفًا في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى إنسانًا كئيبًا، قال:

ما لي أراك كئيباً؟ قال ديون لزمتني لا أطيق سدادها، قال لمن؟ قال لفلان، قال ابن عباس أتحب أن أكلمه لك؟ قال إذا شئت، فلما همّ أن يخرج من معتكفه، قال له أحدهم يا ابن عباس أنسيت أنك معتكف؟، قال لا والله ولكنني سمعت صاحب هذا القبر يقصد النبي عليه الصلاة والسلام، والعهد به قريب، ودمعت عيناه، يقول والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا. هذا هو الأساس، فالله تعالى ينظر إلى عباده بين مطيع وعابد، ولكن الخُلق هو الأساس، فليس كل مصل يصلي، فالله يقول (إنما تُقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي، وكفّ شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع، وكسا العريان، ورحم المصاب، وآوى الغريب، كل ذلك لي، وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوء عندي من نور الشمس، على أن أجعل الجهالة له حلما، والظلمة له نورا، يدعوني فألبيه، يسألني فأعطيه، يقسم علي فأبره، أكلؤه بقربي، وأستحفظه ملائكتي، مثله عندي كمثل الفردوس، لا يمس ثمرها، ولا يتغير حالها، هذا وعد الله تعالى لمن يمشي في حاجة أخيه)، أعجبتني قصة من قصص العرب، وهي أن لصا سرق فرسا من صاحبها في أيام الصيف الحارة، فبينما صاحب الفرس ممسك بفرسه إذ اعتلى اللص ظهر الفرس، ودفع صاحبها على الأرض، وفر بالفرس هاربا، فناداه صاحب الفرس، فقال قد وهبت لك هذه الفرس، ولن أسألك عنها بعد اليوم، ولكن إياك أن يشيع الخبر في الصحراء أن فرسا سرقت، فتذهب منها المروءة، وبذهاب المروءة يذهب أجمل ما فيها، وهكذا تذهب الأخلاق من المجتمع، ويفقد الناس الثقة بالآخرين، فلا يأمن إنسان على نفسه وماله، وتنتشر في المجتمع القطيعة، ولا يُعين المسلم أخاه، ولا يمشي في حاجته، وهكذا يمنع الماعون.

خصلتان يحبهما الله

أمام هذه الحقيقة الماثلة يحتاج المسلم إلى نوع من التعامل مع الناس يجنبه مزالق الطريق، وتجعله يتجاوز العقبات، ويحتاج إلى نمط من الأخلاق يخفف عنه الصدمات، ويذود عنه حين الشدائد والأزمات، ويدعو الإسلام فيما يدعو إلى الخروج من المأزق وذلك بالتزام الهدوء، وعدم العجلة والطيش في التصرفات، ويهدي النبي صلى الله عليه وسلم لأشج عبد القيس هذا الأسلوب المثالي في التعامل، فيقول له: (إن فيك خصلتين يحبهما الله الحلم والأناة). فما أعز هاتين الخصلتين في الناس، وما أشد الحاجة إليها، أما الحلم فهو العقل، وأما الأناة فهي التثبت وترك العجلة. والحلم أفضل من كظم الغيظ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلم، أي تكلف الحلم، ومن هاج غيظه احتاج فيه إلى مجاهدة شديدة، ولكن إذا تعود ذلك مدة صار ذلك اعتيادا، فلا يهيج الغيظ، وإن هاج فلن يكون في كظمه تعب، وهو الحلم الطبيعي، والله تعالى يوصي بالحلم والرفق ومجاهدة النفس، يقول تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝٣٤ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤-٣٥]، قال ابن كثير رحمه الله: أي وما يقبل هذه الوصية ويعمل بها إلا من صبر على ذلك، فإنه يشق على النفوس، ويقول الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣]، ويعلق الإمام الطبري على الآية بقوله: ولمن صبر على إساءة من أساء إليه، وغفر للمسيء إليه جرمه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر ابتغاء وجه الله عز وجل وثوابه، إن ذلك لمن عزم الأمور، فقد يبدو للبعض أن أسلوب الشدة هو أقصر الطرق للوصول إلى هدفه، وأن ممارسة العنف قد تعجل له حصول النتائج التي يرنو إليها، وليس الأمر كذلك فما يحصل بالحلم والرفق والأناة خير في الآخرة والأولى، كذلك يهدي المصطفى صلى الله عليه وسلم أمته

ويقول: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه، بل يؤكد النبي صلى الله عليه وسلم أن الرفق والأناة سبب لكل خير، ويقول: إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه. ويحذر عليه الصلاة والسلام من فقد الرفق بفقد الخير كله وهو القائل: من يحرم الرفق يحرم الخير، ومن ثم قيل: الرفق في الأمور كالمسك في العطور. وقديمًا قيل: الحلم سيد الأخلاق.

خلق التغافل

تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل، والتغافل هنا أنك تتسامح فيما يقع من أمور فيما يرتكبها الناس من أخطاء أو زلات، فالحياة لا تخلو من الزلل، لا سيما فيما بين العلاقات التي يدخلها أكثر من طرف، فهناك العلاقة الزوجية، وهناك العلاقة الأخوية، وهناك علاقة النسب، وغيرها من العلاقات، ولا يخلو شخص من نقص، ومن المستحيل على الطرفين أن يجدا كل ما يريده أحدهما من الطرف الآخر كاملًا، ولهذا على كل واحد منهما أن يتقبل الطرف الآخر، ويتغاضى عما لا يعجبه فيه من صفات أو طبائع، وكما قال الإمام أحمد بن حنبل تسعة أعشار حسن الخلق في التغافل، بمعنى أن الإنسان لو تكلف الغفلة مع العلم والإدراك لما يتغافل عنه تكرمًا وترفعًا عن سفاسف الأمور فذلك من الخلق الحسن، وقد حث الرسول صلى الله عليه وسلم على الخلق الحسن فقال: وخالق الناس بخلق حسن، أي لتكن معايشتك مع الناس واحتكاكك معهم بأخلاق فاضلة وحسنة، والتغاضي عن أخطاء الآخرين ومقابلة زلاتهم بابتسامة أو بكلمة طيبة، فهذا نوع من الخلق الإيجابي، وهو صدقة وهو أيضًا بناء وثيق لاستمرار العلاقات بين الناس قوية متماسكة، أما معاتبة الناس ومحاسبتهم على

كل صغيرة وكبيرة وتعنيفهم على أخطائهم، فليس ذلك من حسن الخلق، ولذلك قيل لا تكثر من العتاب خشية أن لا تجد من تعاتبه، فيفر الأصدقاء منك ويملون معاتبتك لهم، وعليك بالتغافل، يقول الحسن البصري ما زال التغافل من فعل الكرام، وهكذا تستمر الحياة، وتستمر المشاكل والأخطاء والزلات فهذه هي سنة الحياة، ويجدر بنا التغاضي عنها تمامًا حتى تسير الحياة سعيدة هانئة لا نكدرها بالصغائر، وحتى تلتئم القلوب على الحب والسعادة، فكثرة العتاب تفرق الأحباب.

رجل من أهل الجنة

أخبرَ الرسول صلى الله عليه وسلم صحابته خبرا عجيبا، حيث قال: يدخلُ عليكم من هذا الفجِ رجلٌ من أهلِ الجنة، رجلُ من أهلِ الجنة يعيشُ بينَهم ويتقلبُ بين أظهرِهم، ويخبرُ النبيُ صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة، إن رجلًا تسبقُه البشارةُ إلى الجنةِ في الدنيا لرجلٌ حريٌّ أن تتلهفَ الأبصارُ إلى رؤيتِه، وتشتاقَ النفوسُ بلهفةٍ إلى لقائِه، وإذا بهذا الرجل يدخلُ، فإذا هوَ رجلٌ منهم يعرفونَه، دخلَ مشمرا ثيابَه، إذ أطرافُه مبللةٌ بآثارِ الوضوء، ممسكا نعليهِ بشمالِه، تقطرُ لحيتُه ماءً من أثرِ وضوءه، فلما كانَ من الغد دفعَ إليهم النبيُ صلى الله عليه وسلم الخبرَ ذاتَه قائلًا: يدخلُ عليكم من هذا الفجِ رجلُ من أهلِ الجنة، من هو يا ترى هذا الرجل الآخرُ من أهلِ الجنة؟ وإذا بذاكِ الرجلِ يدخلُ فإذا هو صاحبُهم بالأمس، واليومُ الثالثُ يأتي وتأتي معَه البشارةُ يدخلُ عليكم من هذا الفجِ رجلُ من أهلِ الجنة، فيدخلُ الرجلُ هوَ هو بهيئتِه تقطرُ لحيتَه ماءً من أثرِ الوضوء، أطرافُه مبللةٌ بالماء، قد أمسكَ نعلَه بشمالِه، إن رجلًا يبشرُ بالجنةِ ثلاثَ ليالٍ متعاقبة، ويخبرُ الصحابةَ قبل دخولِه بأنَه يدخلُ عليهم رجلُ من أهلِ الجنة لرجلُ حريٌ أن يقتصَ خبرُه ثم يقتفى أثرُه، وانتدبَ إلى هذه المهمةِ عبد اللهِ بنُ عمروِ ابنِ

العاصِ رضي الله عنهما، ذهبَ إليه فقال له: إني قد لاحيتُ أبي - أي تخاصمتُ معه - فأقسمتُ أن لا أدخلَ عليه البيتَ ثلاثا، فإن رأيتَ أن تأويَنِي هذه الأيامَ الثلاثةَ فعلت، فرحبَ به وآواه وأكرمَ مثواه، وباتَ عبد اللهِ بن عمرٍو عند ذاك الصحابيِّ يرقبُه ويسبرُ حالَه ويرصدُ أفعالَه، رآهُ يأوي في الليلِ إلى فراشِه، فانتظرَ أن يحيِيَ الليلَ كلَه قياما فلم يفعل، بل لم ير شيئًا يلفتُ نظرَه، غير أن هذا الرجلَ كلما انقلبَ جنبَه على فراشِه ذكرَ الله، وكلما أفاقَ من نومِه ذكرَ الله، فأنتظرَ ليلةً وليلةً فلم ير فعلًا عجيبا يستعجبُ منه، فلما انقضت الليالي الثلاث، أقبلَ عليه عبدُ الله قائلا: يا أخي أما إنه لم يكن بيني وبين أبي خصومةٌ، ولكن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أخبرنا ثلاثةَ أيامٍ متعاقبةٍ أن رجلا من أهلِ الجنةِ يدخلُ علينا من الباب، فكنتَ أنت الداخلَ في كلِ مرة، فأردتُ أن أبيتَ عندَك لأرى عملَك فأرى بأي شيءٍ نلت ذلك، أما إني قد بقيتُ عندَك فلم أر شيئًا، فأخبرني بما نلتَ ذلك، قال له: ما هو إلا ما رأيت، فلما انصرف عبد الله ناداهُ الرجل فقال تعال، ما هو إلا ما رأيت غير أني أبيتُ حين أبيت فلا أبيتُ وفي قلبي غشٌّ على أحدٍ من المسلمين، ولا أحسدُ أحدا من الناسِ على خيرٍ آثرَه اللهُ به، فانصرفَ عبدُ اللهِ بنُ عمرو وهو يقول: أما إن هذه هي التي بلّغتك، وهذه هي التي لا نُطيقُها. هذه هي التي بلّغتك وهذه هي التي لا نُطيقُها، تمسي وتضعُ جنبَك على فراشِك بقلبٍ سليم، ليسَ فيه غشُ لأحدٍ من المسلمين، وتنظرُ إلى نعمِ الله على عبادِه فلا تحسدُ منهم أحدا! فمن يطيقُ ذلك؟

أدبيات ضرورية

يدعو الإسلام إلى المحافظة على الآداب، ويحض عليها حتى تستكمل الشخصية الإسلامية في كامل صفاتها ونقائها، بحيث تدنو من القلوب والنفوس، فتأتلف معها

ولا تنفر منها، وقد قال عالم صالح لابنه: يا بني اجعل من عملك ملحا وأدبك دقيقا، أي استكثر من الأدب حتى تكون نسبته في الكثرة نسبة الدقيق في الملح، وقد قيل قليل الأدب أفضل من كثير العمل، وقد كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الصحابة الكرام فقال لهم إنكم قادمون على إخوانكم فأحسنوا لباسكم وأصلحوا رحالكم حتى تكونوا كأنكم شامة في الناس، فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش،. فهكذا يُعرف المسلم من خلال خلقه وسلوكه وهيئته، وهناك آداب ضرورية، منها أدب التحية، فيجب التعرف عليها وكيفية تداولها، وأما صيغتها فهي تحية المسلمين، وعنوان الإسلام «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته»، ولا تعدل عن هذه التحية الإسلامية إلى غيرها من «صباح الخير أو مرحبا» أو نحوها، لأن عدولك عنها إماتة لها، وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم خادمه أنس، عندما قال علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم يكن بركة عليك وعلى أهلك، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلم فإذا أراد أن يقوم فليسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة، وهناك أدب المجالسة والمحادثة، وقد دعا القرآن الكريم في وصية لقمان لابنه فقال تعالى ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، أي اخفض منه، ولا ترفعه، فإن الجهر بالصوت منكر وقبيح، وكان عمر رضي الله عنه إذا حدث النبي صلى الله عليه وسلم بحديث حدثه كالمناجي المتحدث بسر، يخفض صوته، ويبالغ حتى يحتاج إلى استفهامه عن بعض كلامه، وحكى الحافظ الذهبي في ترجمة محمد بن سيرين أحد التابعين والأئمة الفقهاء، قال إن محمد بن سيرين كان إذا كان عند أمه لو رآه رجل لا يعرفه، ظن أن به مرضا من خفض صوت كلامه عندها، وحكى الحافظ الذهبي كذلك في ترجمة عبدالله بن عون البصري تلميذ الإمام ابن سيرين، وأحد الأئمة الأعلام أن أمه نادته فعلا صوته صوتها فخاف فأعتق رقبتين، ودخل رجل على عمر بن عبدالعزيز فتكلم رجل عنده فرفع صوته، فقال عمر مه،

كف، بحسب الرجل من الكلام ما أسمع أخاه أو جليسه، فهذه جملة من الآداب فعليك بها.

الأمانة يا أخا العالية

الأمانة من أكرم ما يتحلى به المرء، وهي من أعظم الأخلاق وأجملها، فهي خلق الأنبياء، وهي خلق الصالحين والصادقين، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يُعرف وسط أهله وقومه بأنه الصادق الأمين، فكان عليه الصلاة والسلام يطوف بينهم، فيقولون هذا الصادق الأمين، والأمانة عقد فريد يُتوج به الإنسان شخصيته، ويفخر بهذا الإكليل العظيم أمام الناس، ذلك لأن الأمانة تدخل وتعم جميع وظائف الدين والدنيا، فهي تدخل في العقيدة والعبادات والمعاملات، وإنه من الممكن أن نتصور مكانة الأمانة في حسن الأخلاق، كما نتصور قبح الخيانة في سوء الأخلاق، والأمانة أمر عظيم، وحملها جسيم وثقيل، وقد حملها الإنسان، وهي كالصخرة الثقيلة، لا طاقة للإنسان بحملها، فأعانه الله على حملها، وجعل لها ثوابًا، وعليها عقابًا، وكلف الإنسان بحفظها في كل أمر ونهي، ولا يوجد في الإنسان شيء إلا وائتمنه الله عليه حتى أعضاؤه، يقول عبد الله بن عمرو بن العاص: أول ما خلق الله تعالى من الإنسان فرجه، وقال هذه أمانة استودعتكها، فلا تلبسها إلا بحق، فإن حفظتها حفظتك، فالفرج أمانة، والأذن أمانة، والعين أمانة، واللسان أمانة، والبطن أمانة واليد أمانة، والرجل أمانة، ولا إيمان لمن لا أمانة له، يقول الله تعالى ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، إنها الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها شفقة وخوفًا، فلما عُرضت على ابن آدم قبلها دون تردد، وذلك لجهله وظلمه، فكم أمانة

ضيعها الإنسان؟، وكم أمانة خانها الإنسان؟ فهل يعلم الإنسان أن أول ما يرفع من هذه الأمة الأمانة، وآخر ما يبقى فيهم الصلاة، وهل علم الإنسان أن الأمانة تستعيذ بربها من خيانتها، فقد ورد في الحديث ثلاث متعلقات بالعرش، الرحم تقول: اللهم إني بك فلا أقطع، والأمانة تقول: اللهم إني بك فلا أخان، والنعمة تقول: اللهم إني بك فلا أكفر. فما بال الإنسان لا يعرف للأمانة حقها، ولا يدرك أن بها يسعد وبها يشقى، فإن حفظها سعد في الدنيا والآخرة وإن ضيعها تعس في الدنيا والآخرة، وجاء رجل من أهل العالية، فقال يا رسول الله أخبرني عن أشد شيء في الدين، فقال له صلى الله عليه وسلم الأمانة يا أخا العالية، إنه لا دين لمن لا أمانة له، فيا أخي في الله، هل عرفت للأمانة حقها؟

الدين النصيحة

من حق المسلم على أخيه النصيحة، فقد يكون في غفلة فيسمع النصيحة فينتبه، وقد يكون في معصية، فيتوب ويرجع، وقد يكون ظالما، فيقلع عن ظلمه، وهذه جملة نصائح أهمس بها في أذن المسلم، فلعله يتذكر، فيا أخي المسلم:

لا تشرك بالله وإن قُتلت أو حُرقت، ولا تعقن والديك، وإن أمراك أن تشرك بالله ما ليس لك به علم فلا تطعهما، ولا تتركن صلاة مكتوبة، فمن ترك صلاة متعمدا فقد أتى بابا من الكبائر، ولا تشربن الخمر، فإنها ملعونة، وهي رأس كل خطيئة، وإياك والمعصية، فإنها تحل سخط الله تعالى، وعليك بالتقوى، فإنها جماع كل خير، واعتزل شرور الناس تنجو من أذاهم، واترك ما لا يعنيك، فذلك من حسن إسلام المرء، واطلب العلم من المهد إلى اللحد، وقل ربي زدني علما، وليكن طلبك للعلم خالصا لله، فذلك يكفيك القليل، وانظر إلى العلماء بعين الإجلال، وأنصت إليهم عند المقال،

وعش زمانك ولا تنس نصيبك من الدنيا، واحفظ لسانك، فكل الأعضاء تكفر اللسان، تقول إنما نحن بك، فإذا صلحت صلحنا، وإذا فسدت فسدنا، وإياك والكذب والنميمة، وغض بصرك عما حرم الله تجد حلاوة الإيمان في قلبك، وأمر أولادك بالصلاة إذا بلغوا سبعا، واضربهم على تركها إذا بلغوا عشرا، فإنك مسئول عنهم أمام الله تعالى يوم القيامة، وأكرم جارك وضيفك، فإن ذلك من خلق الإسلام، ولا تهجر أخاك فوق ثلاث، ولا تصاحب إلا مؤمنا، ولا يأكل طعامك إلا تقي، وإذا انتهيت إلى مجلس فسلم واجلس حيث انتهى بك المجلس، وإذا أردت الانصراف فسلم، فليست الأولى بأحق من الآخرة، وإذا شربت الماء فناول من على يمينك، وإذا سقيت قوما فكن آخرهم شربا، وإياك أن تأكل أو تشرب بشمالك، فإن ذلك من فعل الشيطان، وإذا أردت أن تأكل فسم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك، ولا تنفخ في طعام أو شراب، واحمد الله في آخره، ولا تكلف أجيرك وخادمك من العمل إلا ما يطيق، ولا تلبس الحرير من الثياب والذهب، فذلك حرام على الرجال حلال للنساء، وإياك والقمار فإنه موجب لغضب الله، ولا تأكل من حرام، فإن ذلك يرد الدعاء، وعليك بالجليس الصالح، فإنه خير من الوحدة، والوحدة خير من جليس السوء، وكن صادق الكلمة فلا تكذب، وأوفِ بالعهد والوعد فلا تخلف، وعليك بالصبر، فهو نصف الدين، واترك الجدل والمراء وإن كنت محقًا، وأكثر من المشورة، فما خاب من استشار، وعليك بالقناعة، فإنها كنز لا يفنى، واعلم أن الموت آت، وكل آت قريب، فأكثر من ذكره واجعله يصرفك عن شواغل الدنيا إلى عمارة الآخرة.

فهذه جملة من النصائح ذكرها أهل العلم، فلا تقرأها قراءة عابرة فحسب، فتزول ويذهب أثرها، ولكن احفظها وليكن حظك منها وافرًا، وخذ منها ما ينفعك، وإن حفظت منها شيئًا، فتعاهد بها إخوانك، وكن داعيا إليها، ومبلغا لها، فالدال على الخير كفاعله.

العجلة من طبع الإنسان

طبع الإنسان العجلة في أموره، وقد خُلق الإنسان من عجل، ولكن الله تعالى جعل العجلة مذمومة، ولم يجعل في العجلة التوفيق والنجاة، فكم من متعجل ظن الوصول إلى غايته، ولكنه خاب وخسر وحُرِم، فمن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه.

إن مصارع السوء أغلبها بسبب العجلة والتسرع والطيش، فلماذا يستعجل الناس وهم يدركون أن الإنسان لو سعى سعي المتعجل فلن يأتيه إلا ما كتب له، وهناك من الناس من يستعجل في إصدار القرارات، وهناك من يستعجل في الحكم على الناس، وهناك من يستعجل في تقبل الأنباء والأخبار والإشاعات دون تثبت وروية، وهناك الكثير ممن يتخذ من الاستعجال أسلوبا في حياته، فتجده كثيرًا ما يندم عندما تأتي النتائج عكسية، ومما نعانيه بسبب العجلة والسرعة حوادث المرور المميتة، وزيادة نسبة الحوادث والوفيات، فهل فكر السائق الذي يسوق سيارته بسرعة متهورة في عواقب السرعة، هل كان يظن أنه قاتل لنفسه ومعرض حياته للخطر، فقد يرى البعض أن في السرعة توفير بعض الوقت دقيقة أو دقيقتين، فيسرع بسيارته ولا يدري أنه قد يخسر عمره كله في سبيل توفير هذه الدقيقة، لقد أصبح الناس يتخوفون من الطريق وخطورته بسبب رعونة واستهتار بعض السائقين ومجاوزتهم للسرعة القانونية.

إن مستخدم الطريق عليه واجب وعليه حق للطريق وللمارة، والسائق مطالب أن يعطي الطريق حقه، فإن اغتصب حق الطريق فهو مذنب، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (إياكم والجلوس في الطرقات فقالوا: يا رسول الله وما حق الطريق يا رسول الله، فقال غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)، ومن كف الأذى أنك لا تسرع، ولا تتجاوز السرعة القانونية للطريق، فالطريق أمن وسلامة، وهو حق مشترك للمارة، فلا تجعل من الطريق طريقًا إلى الموت والهلاك

وترمل النساء وتيتم الأولاد، واعلم أيها السائق المتهور أن هناك من ينتظر وصولك إليهم بسلامة فلا تجعل انتظارهم يطول إلى ما لا نهاية.

فاحذر العجلة فهي مذمومة في كل شيء ولا يكون الصواب حليفها أبدا، ولكن هناك مواضع تكون العجلة فيها محمودة لأن الخير يكون في تعجيلها والخسارة في تأخيرها، ومنها تزويج البكر إذا حضر كفؤها، وقضاء الدين، وتكريم الضيف، وتجهيز الميت، وتعجيل التوبة، وقد جمعها قول الشاعر:

وإنما العجلة مذمومة	*	قال النبي المصطفى المنتخَبْ
إلا ففي الخمسة ممدوحةٌ	*	تعجيلها فافهم فنلْتَ الأرَبْ
تزويجُ بِكرٍ حينما أدركت	*	كذا قضاء الدين ذا قد وجب
كذا قِرًى الضيف وتجهيزُ	*	من مات مع التوبة ممَّا ارتكب
فاعمل بما قد جاء عن سيد	*	لِيَسْلَمَنْ من كل إثم وسَبّ
صلى الرحيمُ الله مولاه ما	*	هلَّلَ حولَ البيت ركب ولبّْ

الكنز الذي لا يفنى

رأيت جري الناس خلف الأرزاق، فرأيتهم مذاهب، فهذا طامع، وهذا جشع، وذاك يائس، وهناك حاسد، فقلت أين القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى؟، فلماذا هذا الصراع والتكالب على الدنيا والرزق مكفول، والله كافل لكل نفس رزقها، يقول تعالى ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف: ٣٢] إن القناعة كنز لا يفنى، وسعادة في الدنيا، وهي شكر للنعمة، ورضا بما قسمه الله، فهل جربت القناعة لتكون أسعد الناس بل أغنى الناس صحة وعافية، وقد قيل الإنسان القنوع هو الغني حقيقة، والقناعة كما يقول الحكماء ثوب لا يبلى، وقال آخر القناعة أن ترى الزهور في صحراء

حياتك، والهناء في شقاء أيامك، والبسمة على شفة أحلامك، وأن تردد دائمًا: الحمد لله على كل شيء، فما أحلى هذه الكلمات! إنها تبعث الأمل، وتقطع اليأس، وتجدد الثقة بالله تعالى، فكل قانع سعيد والفرح والقناعة توأمان، فلا تتعب نفسك في طلب الرزق، فرُب رزق تطلبه لا يأتيك، ورُب رزق أنت لا تطلبه إن لم تأته أتاك، وورد في الأثر أن الرزق لا يأتي إلا من حيث لا يحتسبه الإنسان، فقد أبى الله تعالى أن يجعل أرزاق عباده إلا من حيث لا يحتسبون، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣]، وفي الحديث القدسي: يا ابن آدم خلقتك لعبادتي فلا تلعب، وقسمت رزقك فلا تتعب، فإن كثر فلا تفرح، وإن قل فلا تحزن، فكن قنوعا راضيا بما ساقه الله من رزق ولو كان قليلا فما قل وكفى خير مما كثر وألهى، ولا تتعب نفسك في الجري خلف سراب الدنيا وكنوزها الفانية، فتصاب بالكآبة والقلق، وتفقد السعادة وتخسر ما هو موجود، وقد سُئل الخليل بن أحمد عن الزهد فقال: ألا تطلب المفقود حتى تفقد الموجود، فلا تحرص على جمع المال، فمهما كان حرصك فلن تموت نفس حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم هكذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصف القناعة بأنها مال لا ينفد، وهكذا ستبقى القناعة هي المدخل الوحيد لراحة النفس والقلب.

إن الله يحب المحسنين

قيل للمعروف أين تسكن؟، فقال في قلوب المحسنين، إن الإحسان عمل كبير لا يقوم به إلا أهل الخير من صفوة الخلق الذين هم مفاتيح الخير، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن لهذا الخير خزائن ولتلك الخزائن مفاتيح فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا

للخير مغلاقا للشر، وويل لعبد جعله الله مفتاحا للشر مغلاقا للخير، إن الإحسان خلق كريم، وهو نور في القلب، وزينة في الوجه، وقوة في البدن، وسعة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، والإحسان كلمة تشمل كل خير، وكل فعل حسن يرفع من شأن الإنسانية، ويعمل على تهذيب النفس، ويقوي من دعامة المثل والقيم، وقد أمر الله بالإحسان فقال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ﴾ [النحل: ٩٠]، ولفظ الإحسان يدل على معان ثلاثة ورد بها القرآن ووردت بها السنة، أما المرتبة العالية من الإحسان فهي أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والمرتبة الثانية الإحسان إلى الناس كالوالدين والأقربين واليتامى والمساكين المسلمين وسائر الخلق أجمعين، وهناك الإحسان في العمل وإتقانه وإصلاحه سواء كان العمل عبادة أو معاملة، وهذه المعاني الثلاثة تحدد مواصفات المؤمن الصالح في نفسه وخلقه وتعامله مع المجتمع وعلاقته بربه، بحيث لا يفتر عن مراقبته وخشيته ورجائه ودعائه ومناجاته، فأين المحسنون الذين أحبهم الله وجعل لهم الخير في الدنيا والآخرة وزيادة، قال تعالى ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، فأين الإحسان اليوم، وهل صار الإحسان أمنية بعيدة المنال في دنيا المادة وحب الذات؟

أنزلوا الناس منازلهم

الناس معادن ودرجات، ولا يجوز لأحد أن يحتقر إنسانا أو أن يتجاهل مرتبته في قومه، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أنزلوا الناس منازلهم)، والناس يتفاضل بعضهم على بعض، حقيقة متأصلة في طبع الإنسان، فهو يحب أن يعرف الناس منزلته ومرتبته، إن الأدب يقتضي منا تقديم أولي الفضل والعلم وتقريبهم، لقد كان حافظ

القرآن في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم له منزلة كريمة ويقدم على من سواه، فقد جمع الرسول صلى الله عليه وسلم بين الرجلين في قتلى أحد يعني في القبر، فكان يقدم في اللحد أيهما أكثر أخذا للقرآن، فمن السنة تكريم الإنسان وحفظ منزلته حيا وميتا، ولكن ما هذه المنزلة التي يستحق الإنسان عليها التكريم هل هي منزلة مادية يكتسبها من كانت أمواله كثيرة، أم يصل إليها بسبب نسبه أو لونه أو جنسه، كل هذه الأمور لا تزيد الإنسان شيئًا، ولا ترفعه إنما العلم والتقوى والالتزام بالدين ومدى ما يحفظ من كتاب الله تعالى، ومدى ما يكون قريبا من سنة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون درجته عالية عند الله تعالى، وبالتالي تعلو درجته ومنزلته عند الناس، ولكن في زماننا هذا تبدلت المعايير، وتغيرت الصفات فصار الناس يعظمون صاحب الجاه، ويرفعون درجته، ويقولون ما أجمله، وما أظرفه، وما في قلبه ذرة من إيمان، وصار من يملك القوة المادية هو من يستحق أن يهابه الناس، وكأنه الضار والنافع من دون الله تعالى، بينما أصحاب الفضل والعلم قلما يكرمهم أحد، وهكذا يوزن الناس في ميزان التقييم والتقدير في آخر الزمان، وذلك علامة من علامات يوم القيامة، وقد دخل هشام بن عبدالملك وكان ولي عهد المسلمين وأبوه الخليفة دخل الحرم ليطوف بالبيت، فإذا بالطواف يموج بالناس، ولم يستطع استلام الحجر حتى أتوا له بكرسي ليجلس حتى ينفرج الزحام، وإذا رجل يطوف بالبيت، فالتف الناس حوله، ومدوا أعناقهم ليروه، بينما هشام بن عبدالملك ينظر، فقال من هذا؟، وكان الفرزدق حاضرا يسمعه، فقال:

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته * والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم * هذا التقي النقي الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله * بجده أنبياء الله قد ختموا
وليس قولك من هذا بضائره * العرب تعرف من أنكرت والعجم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره * يزينه اثنان حسن الخلق والشيم

ما قال لا قط إلا في تشهده	*	لولا التشهد كانت لاؤه نعم
إذا رأته قريش قال قائلها	*	إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يُغضي حياءً ويُغضى من مهابته	*	فلا يكلم إلا حين يبتسم
بكفه خيزران ريحه عبق	*	من كف أروع في عرنينه شمم

لقد كان الرجل هو زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين، هكذا الناس كانوا يعرفون بعلمهم وأعمالهم، فلا بد أن تكون علاقاتنا فيما بيننا واتصالنا على ضوء تقدير الناس ومعرفة منازلهم، فذلك يجعل المجتمع ينتظم في لغة من الاحترام والتكريم، وذلك ينقي المجتمع من ذوي المآرب والمصالح، ويقرب أهل الفضل والخلق والعلم من تحمل المناصب، فيزداد بهم المجتمع تقدما وتنمية، ويصل إلى قمة المجد والنجاح، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (ليس منا من لم يوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقه).

إياك والكبر

الكبر مرض خلقي خطير، ترك آثارًا ومفاسد عدة في حياة الناس، وهناك من الناس من يتكبر ويرفع رأسه لعله يخرق الأرض أو يبلغ طول الجبال، ولكن هيهات فهذا الإنسان مهما أوتي من مال أو جاه ومهما ملك فهو المخلوق الضعيف، والمتكبرون هم أحفاد الشيطان، لأن الشيطان هو أول المتكبرين فقد أمره الله تعالى أن يسجد لآدم سجود تكريم فقال متكبرًا ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فامتنع عن السجود، وقال متكبرًا أنا من النار وآدم من الطين، والنار خير من الطين، فجزاه الله تعالى على التكبر ذلة وصغارًا، فقال له تعالى ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، وهذا دأب المتكبرين في الدنيا، كدأب

الشيطان تقول لأحد المتكبرين لم تتكبر؟ فيقول أنا خير أنا أغنى أنا أقوى، تمامًا كما ادعى الشيطان من قبل، ولذلك حرم الله تعالى الجنة على المتكبرين، كما حرمها على الشيطان اللعين، يقول الله تعالى ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر.

فاحذر من الكبر، بل من ذرة كبر، فكم من متكبر يتكبر وهو لا يدري، أما علمت ما هي حقيقتك أيها المتكبر، أما تدري أن هذه الجثة الملتفة حول هذا الهيكل ما هو مصيرها، وما تحمل في أحشائها، وقد مر شاب على مالك بن دينار وهو يتبختر متكبرا، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذا الخيلاء لكان أجمل لك، فقال له أو ما تعرفني من أنا؟، قال بلى أعرفك جيدا أولك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة، فأرخى الفتى رأسه وانصرف صاغرا، فهذا هو الإنسان مجموعة من المنافذ التي تخرج منها الأقذار، فهذا بطنه يحمل العذرة، وهذا فرجه يجري فيه البول، وهذا أنفه مليء بالمخاط، وهذه عينه تمتلئ بالرمص، وهذا فمه مليء باللعاب، وهذه أذنه كهف للأقذار، وهذا إبطه خلية للروائح، فسبحان الله العلي الكبير كيف يتكبر هذا الإنسان، وصدق الشاعر إذ يقول:

يا مُظهر الكبر إعجابا بصورته * انظر خلاءك إن النتن تثريبُ
لو فكر الناس فيما في بطونهم * ما استشعر الكبر شبان وشيبُ
هل في ابن آدم غير الرأس مكرمة * وهو بخمس من الأقذار مضروبُ
أنفٌ يسيلُ وأذنٌ ريحُها سهك * والعينُ مرمصة والثغر ملعوبُ

تجنب المزاح وعليك بالجد

المزاح خلق سيء إلا القدر اليسير منه، وقد انتشر المزاح بين شبابنا، فقد تركوا الجد في حياتهم، وأصبح الهزل والسخرية لغة يتعاملون بها في نواديهم وفي مجالسهم وحتى مراسلاتهم نكت ومزاح وسخرية عبر الرسائل بواسطة هواتفهم النقالة، إن المزاح خلق جعل الكثير من الناس غير مكترث لوظيفته في المجتمع، فكل ما عنده يخضعه للمزاح والسخرية، فيسخر من إخوانه، ويعرضهم للخطر، ويبرر ذلك بقوله كنت أمزح، ولقد نهى الرسول صلى الله عليه وسلم عن المزاح، فقال: لا تمار أخاك ولا تمازحه، فهنا ينهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المزاح الذي يخرج الإنسان من حياة الجد إلى حياة الهزل، والإنسان لا بد أن يكون جادا في تصرفاته، صلبا في قراراته غير متردد في إمضاء إرادته نحو دينه ومجتمعه، فإن اعتادت نفسه الجد، فلا بأس بعد ذلك أن يمزح قليلا، ولكن يمزح ولا يقول إلا الحق والصدق، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزح، ولا يقول إلا الحق والصدق، وكان يقول صلى الله عليه وسلم: (إني لأمزح ولا أقول إلا حقًا)، وقد نقل عنه صلى الله عليه وسلم بعض المزاح اليسير العفيف، ومن ذلك ما روي أن امرأة يقال لها أم أيمن جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: إن زوجي يدعوك، فقال صلى الله عليه وسلم ومن هو؟ أهو الذي في عينيه بياض؟، قالت: يا رسول الله، والله ما بعينه بياض! فقال: بلى إن بعينه بياض، فقالت لا والله، فقال صلى الله عليه وسلم: ما من أحد إلا وبعينيه بياض، وهو صلى الله عليه وسلم يريد البياض المحيط بالحدقة، فهذا يدل على جواز المزاح، ولكن ليس على سبيل الدوام والمواظبة وعدم احترام الآخرين وتقدير مشاعرهم، كما أن الجواز يكون فيما فيه حق وصدق أما الكذب فلا يجوز، ورغم ذلك فالشاب عليه أن يقلل من المزاح، يقول

عمر رضي الله عنه: أتدرون لم سمي المزاح مزاحا؟، قالوا لا!، قال لأنه أزاح صاحبه عن الحق، وقيل لكل شيء بذور وبذور العداوة المزاح.

جميل يحب الجمال

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده»، لقد عجبت لبعض من الناس إذا رأوا رجلا يلبس ثوبا جديدا، أو نعلا حسنا قالوا متكبر، وإذا رأوا إنسانا ملتزما في زي جميل ومظهر حسن، قالوا لا يستقيم متدين في زي حسن، وكأن المتدينين يجب أن تكون ثيابهم خشنة ومرقعة، لقد أصبحت المظاهر والأشكال مقاييس ومعايير يعرف بها الرجال، وتلك مصيبة، لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى لا ينظر إلى أشكالنا ولا إلى صورنا، ولكنه تعالى ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، مع ذلك يحب الله تعالى لعبده أن يكون نظيفا وجميلا، فكيف غيّر الناس وبدلوا، ألا يجب أن تُصحَّح هذه المفاهيم، إن الإنسان لا يضره أن يلبس حسنا وأن يتمتع بنصيبه من الدنيا ما أخطأته خصلتان وهما الكبر والسرف، وعندما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة، فقال صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس. ومع ذلك يبقى المظهر الجميل دليلًا وعنوانًا على شخصية الإنسان وذوقه ونظافته، وتلك مرآة تعكس صفاء النفس ونقاء القلب، وقد قيل إن الحسن البصري كان يلبس ثوبا بأربعمائة درهم، فلقيه فرقد السبخي، وكان يلبس المسوح، فقال له يا أبا سعيد ما ألين ثوبك، فقال الحسن البصري: يا فرقد ليس لين ثيابي يباعدني من الله، ولا خشونة ثيابك تقربك إليه، إن الله جميل يحب الجمال. فلا حرج على المسلم أن يلبس الثوب الحسن وأن يضع

أطيب الروائح، فالله تعالى يقول ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، ولنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة في النظافة والاغتسال، والتجمل والتطيب ولبس الثياب الجميلة وترجيل الشعر، فاحرص على نظافة ثوبك، والبس أفضل ما تجد، وتجمل فالجمال صفة يحبها الله تعالى، وإن رزقك الله نعمة فليُرَ أثرها عليك فالله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، واشكر الله تعالى على نعمته عليك، وقل اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له، وقد جاء عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من لبس ثوبا جديدا، فقال: الحمد لله الذي كساني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة غفر الله له ما تقدم من ذنبه. فكن جميلا والبس الثوب الجميل، وليقل الناس ما يقولون.

في مدرسة الحب

إن الكلمة الطيبة هي بذرة الحب في قلوب المسلمين وهي همزة الوصل بين الأحباب، لقد شبه الله تعالى الكلمة الطيبة التي هي عنوان الأخلاق ومادة القلب بالشجرة فقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥]، لقد تعددت أقوال المفسرين ما هي هذه النخلة؟ قيل إنها الإيمان الثابت في قلب المؤمن وإن ذكره وتسبيحه وعمله مرتفع في السماء ارتفاع فروع النخلة، وأن بركة الإيمان وثوابه هي ثمرة النخلة في أوقات السنة كلها من الرطب والبسر والبلح والتمر والطلع، فما أجمل هذا التشبيه وما أحلى هذا العطاء وما أجمل هذا الحب، إنه حب عال وأصل ثابت وفرع مثمر، هذا الحب هو الحب الأخوي

في الله، ولله بين المؤمنين، لقد كان الرعيل الأول حريصين على هذا الحب لقد تلقوا فنونه في مدرسة الحب الأولى على يد أستاذها الأكبر محمد صلى الله عليه وسلم كان ينمي هذا الحب فيما بين تلامذته في هذه المدرسة كان يجعل الإيمان وهذا الحب توأمين فكان الإخوة يتفاعلون بالحب، فيا له من حب! لقد قال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. هكذا كانت عاطفة القلب تنبض حبا حب الأخ لحب النفس، فبالله عليك أين هذا الحب في مجتمع غلبت عليه الأنانية كل يقول نفسي نفسي في دنيا المغريات والأهواء؟! وهاك موقفًا عذبًا يستثير كوامن العاطفة الأخوية ويوثق أواصر الحب بين الأخوين فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن رجلا زار أخا له في الله، فأرصد الله ملكا فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانا، فقال: لحاجة لك عنده، قال: لا، قال فيم؟ فقال أحبه في الله، فقال الملك: فإن الله أرسلني إليك بأن الله قد أحبك لحبك إياه، وقد أوجب لك الجنة. فهذه ثمرة الحب الأخوي أحبه لله لا لدنيا ولا لمصلحة فكانت الجنة مثواه وحب الله يرعاه، إن هذا الحب يعتبر ركيزة في مدرسة الحب الأولى التي أقامها رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليها يجب أن يقوم مجتمعنا الجديد فالنفوس هي النفوس والقلوب هي القلوب ولكن أين هذا الحب؟!

يا أهل المعروف أين أنتم؟

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: كل معروف صدقة. المعروف هو فعل الخير وإسداؤه للعباد، سواء كان هذا الخير مالًا كالصدقة والإطعام أو علمًا أو كسائر المصالح التي يحتاجها الناس كحسن المعاملة وإماطة الأذى وعيادة المريض. قال النبي صلى الله عليه وسلم: على كل مسلم صدقة فقالوا يا نبي الله فمن لم يجد قال يعمل بيده

فينفع نفسه ويتصدق قالوا فإن لم يجد قال يعين ذا الحاجة الملهوف قالوا فإن لم يجد قال فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة. فهذه لائحة للمعروف كم فيها من عمل ووظيفة؟ والناس أصناف وأجناس في المعروف فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن من الناس مفاتيح للخير مغاليق للشر، وإن من الناس مفاتيح للشر مغاليق للخير، فطوبى لمن جعل الله مفاتيح الخير على يديه، وويل لمن جعل الله مفاتيح الشر على يديه. إن المعروف ولو كان صغيرا فأجره عند الله كبير لو تعلمون، فعن أبي جُرَيّ الهجيميّ قال أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إنّا قوم من أهل البادية فعلّمنا شيئًا ينفعنا الله تبارك وتعالى به قال: لا تحقرنّ من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك في إناء المستسقي، ولو أن تكلّم أخاك ووجهك إليه منبسط. لقد كان السلف الصالح يتسابقون إلى فعل المعروف فقد كان أبو بكر الصديق حين ولي الخلافة في كل يوم يأتي بيتًا في عوالي المدينة تسكنه عجوز عمياء، فينضج لها طعامها، ويكنس لها بيتها، وهي لا تعلم من هو، فكان يستبق وعمر بن الخطاب إلى خدمتها، فيا أهل المعروف أين أنتم؟ وقد ورد في الأثر أن الله تبارك وتعالى جعل للمعروف وجوها من خلقه حبب إليهم المعروف وحبب إليهم فعاله، ووجه طلاب المعروف إليهم ويسر عليهم إعطاءه، كما يسر الغيث إلى الأرض المجدبة ليحييها ويحيي أهلها، وأن الله تبارك وتعالى جعل للمعروف أعداء من خلقه بغض إليهم المعروف وبغض إليهم فعاله، وحظر على طلاب المعروف الطلب إليهم وحظر عليهم إعطاءه، كما حظر الغيث عن الأرض المجدبة ليهلكها ويهلك أهلها، وما يغفر الله عز وجل أكثر، فالله الله يا أهل المعروف، فأعينوا الفقراء وأغيثوا الملهوف، فعسى الله أن يغيثكم يوم البعث إنه رحيم رؤوف.

ما هي الفضيلة؟

الفضيلة كلمة سهلة النطق ولكنها صعبة الفهم، وقد قالوا عن الفضيلة الكثير، وكل قول عنها جميل، ومن بين ما قيل إن الفضيلة أنك لا تميز بين الثوب القديم البالي وبين الحرير الغالي، وقيل إن الفضيلة ليست أنك تتجنب الرذيلة فحسب بل في أنك لا تشتهيها، وقال آخر الفضيلة ذات شأن كبير لأنها جميلة، لأنها حق، ولأن صاحبها يجد فيها مفخرة وعزة يحس من خلالها بحلاوة الكرامة لا يجدها في سواها، وقيل أن الفضيلة تمشي على قدمين هما: حب الخير وتجنب الشر، لذلك فهي تعرج غالبا. إن الفضيلة تتخذ من المفاهيم السامية عنوانا لها فكل ما هو خير فهو من أصل الفضيلة فالشجاعة والعدل والتواضع والإخاء والرجوع إلى الحق فضيلة، وقد قال بعض الفقهاء رأس الفضيلة أن تعرفوا ما يرضي الله فتفعلوه، وما يغضبه فتجتنبوه، وأن تعرفوا قدركم وتتواضعوا في أنفسكم، وتدعوا التكبر على الله، وأن تتذكروا أن الإنسان أوله نطفة من ماء مهين، وآخره جيفة من طين، وأن تستغرقوا في حسن التفكر بخلق الله، وتستغفروا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة، وأن تقولوا قولا سديدا، وأن تتذكروا أن عليكم ملائكة في الليل وملائكة في النهار، وأن تخشوا الله في سركم وجهركم لا أن تخشوا الناس، وأن تعفوا عند المقدرة، وأن تحسنوا كما أحسن الله إليكم إن الله يحب المحسنين. والفضيلة تحمل معنى الاعتدال فهي كالميزان لا يمكن أن يختل فإن اختلت كفته صارت الفضيلة رذيلة، فالإنفاق فضيلة والإسراف فيه رذيلة، والتقليل منه إلى حد الشح أيضًا رذيلة، فلا بد من الاعتدال في كل شيء تلك هي الفضيلة، فلنحرص على الفضيلة حتى تقف على رجلين، ولنحذر أن نوقفها على رجل فتعرج الفضيلة، ويذهب ريحها ويأخذ منها الزمان، فلا يبقي منها ولا يذر، وكما قال أحدهم ثوب الفضيلة وحده هو المنسوج من خيوط الصدق والشجاعة والإيمان يعجز عن تمزيقه الزمان.

فضول الكلام

لو ذهب الإنسان يحصي عدد الكلمات التي يتفوه بها لسانه في اليوم لوجد مئات الكلمات خرجت من فمه بلا مصلحة أو حاجة وهذا من فضول الكلام، وفضول الكلام خلق مذموم وداء يصيب اللسان فيؤثر في صاحبه فتراه يخوض فيما لا يعنيه ويخوض في الباطل فتفسد العلاقة بين الإخوة والأحبة والسبب في ذلك فضول الكلام والمؤمن لا يخوض فيما لا يعنيه ويمسك لسانه إلا لحاجة ولو كان الإنسان يستطيع أن يحقق مقصده وحاجته بكلمة واحدة فقال كلمتين فالكلمة الثانية فضول يقول عمرو بن دينار: تكلم رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم فأكثر فقال له صلى الله عليه وسلم: كم دون لسانك من حجاب؟ فقال: شفتاي وأسناني، فقال أفما كان ذلك ما يرد كلامك. ويقول أحد الحكماء: إذا كان الرجل في مجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتًا فأعجبه السكوت فليتكلم وقيل يهلك الناس خلتان: فضول المال وفضول الكلام.

فعلى الإنسان أن يقتصر في كلامه ويوجز وليؤدِّ مقصده بخير الكلام وخير الكلام «ما قل ودل» يقول عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، أو أمرا بمعروف أو نهيا عن منكر.

فابتعد عن فضول الكلام ولا تخض فيما لا يعنيك وأمسك عليك لسانك وقد قال رسول الله لمن سأله عن الإسلام: قل آمنت بالله ثم استقم، فقال رجل فما أتقي؟ فأومأ بيده صلى الله عليه وسلم إلى لسانه. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت. فهذه مذمة فضول الكلام وكثرته وهذه توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم في علاج هذه

الآفة الخلقية، فزن كل كلمة تخرج من لسانك وإن كان لا بد من تحقيق مصلحة ما فليكن بالكلام القليل.

فيم يختصمون

محبة المسلم لأخيه صفة عظيمة قلما نجدها اليوم في زمن طغت فيه المادة وصار الإنسان لا يصادق إلا صاحب مصلحة حتى أصبحت الصداقة والأخوة تُبنى على أساس المصالح المادية والمآرب الشخصية، إن من بين السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه فهل توجد هذه المحبة بيننا اليوم أم أن الصديق الحميم المخلص أصبح عملة نادرة لا نجده إلا حيث توجد أغراض دنيوية وعرض زائل بينما في النوائب والحاجات عز أن يوجد هذا الصديق الذي يكرم صديقه يحبه في الله، وإن أبغضه فلله ليس بينهما إلا ذلك، ولو ذهب الإنسان يصفي أصدقاء المصلحة من أصدقاء المحبة الخالصة ما وجد صديقا يصادقه كما قال القائل:

فما أكثر الأصحاب حين نعدهم * ولكنهم في النائبات قليل

وقال سيدنا علي رضي الله عنه الرجل بلا أخ كشمال بلا يمين، وقال الأوزاعي الصاحب للصاحب كالرقعة للثوب، إن محبة المسلم لأخيه سبب يوجب الجنة إن الله تعالى يقول يوم القيامة أين المتحابون بجلالي اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي، ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على عمل إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم. فأين أجد هذا الصديق الذي يحبني في الله، لا يريد مني مصلحة ولا مالًا ولا شهرة ولكن

إن أخطأت نصحني وإن أذنبت عاتبني وإن مرضت زارني وإن احتجت أعانني وإن زللت سامحني وإن غبت تفقدني وإن تحدثت سمعني، لومه لي عتاب وكلامه لي نصيحة ونظرته لي ابتسامة لا يهجرني فوق ثلاث ولا يغتابني في مجلس ولا يمس لي عرضا ولا يأكل لي مالا بالباطل ولا يدعوني إلا لخير إن فرحت فرح وإن حزنت حزن، فأين الصديق الذي أجد فيه ذلك، إنني لا أجد إلا المنافسة والمصلحة عنوانا للصداقة لا أجد إلا الخصومة والتنافر بين الأصدقاء لا يلتقون إلا حيث التقت مصالحهم ولا يفترقون إلا حيث افترقت فأين أجد الصديق الذي يخلص لي ويحبني في الله؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول قال الله تعالى المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء. فأين أجد هذا الصديق الذي يجمع صفات الصداقة الخالصة لوجه الله؟ لم أجده في زماننا هذا لكني وجدته في عهد الصحابة رضي الله عنهم فعندما عين أبو بكر عمر بن الخطاب قاضيا على المدينة فمكث عمر سنة لم يفتح جلسة ولم يختصم إليه اثنان فطلب من أبي بكر أن يعفيه من القضاء فقال أبو بكر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر؟ فقال عمر: لا يا خليفة رسول الله ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين عرف كل منهم ما له من حق فلم يطلب أكثر منه وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه إذا غاب أحدهم تفقده وإذا مرض عادوه وإذا افتقر أعانوه وإذا احتاج ساعدوه وإذا أصيب واسوه، دينهم النصيحة وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ففيم يختصمون. فهل نجد في زماننا هذا أخوة كهؤلاء؟ سؤال يجيب عنه أصدقاء هذا الزمان.

قاتلها الله من سيوف

قمة شامخة هي أخلاق المؤمن، تلك المحاسن الخلقية لا يمكن أن يكتسبها إنسان من دون عقيدة صحيحة، إن المؤمن يكره المعصية ولا يحب أن يكون عاصيا، كما أنه يكره الكفر ولا يحب أن يكون كافرا، نحن المسلمون لا نكره الناس من ذوي الديانات الأخرى لشخصهم ولكننا نكره كفرهم، فلذلك سيّدنا عمر رضي الله عنه حينما دخَلَ عُمَير بن وهْبٍ على النبي يريد قتل النبي عليه الصلاة والسلام، فأمسك به عمر وقيَّدَهُ بِحَمّالة سيْفِهِ، وقال يا رسول الله هذا عدوّ الله عُمَير جاء يريد شرًا، يقول عمر: عندما دخل عمَير على رسول الله كان الخنزير أحبّ إليّ منه فقال النبي صلى الله عليه وسلم تقدّم يا عُمَير، وفكّ أسْرهُ يا عمر، ما الذي جاء بك إلينا؟ لماذا هذا السيف على عاتقك؟ قال: قاتلها الله من سُيوفٍ ما نفعتنا يوم بدر، قال له النبي عليه الصلاة والسلام: أَلَمْ تقُل لِصَفوان كذا وكذا؟ لولا دُيونٌ ركِبتني وأولادٌ صغارٌ لذهَبْتُ وقتلتُ محمَّدًا، وأرحْتُكُم منه! فوقَفَ عُمَير مندهشا كيف علم الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الحوار، فقال عمير أشهدُ أنَّك رسول الله، لأنّ هذا الذي قلتُه لا يعلمهُ أحدٌ إلا الله، وأنت، مَوْطِنُ الشاهد أنّ سيّدنا عمر قال: دخل عمَير على رسول الله والخنزير أحبّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبّ إليّ من بعض أولادي، فليس في الإسلام عداوَة، والمسلم لا يبْغض الكافر، ولا العاصي، ولا المنحرف، إنما يبْغضُ الكفر والمعصيَة والانحراف، أما هذا الإنسان فهو عبدٌ لله عز وجل، تمامًا كما لو كنتَ طبيبًا وجاءَ مريضٌ يشْكو مرضًا جلديًّا مزعجًا، الطبيب هل يحقدُ على هذا المريض حتى ولو كان كافرا؟! لا، هل يكرهه؟ لا، بل يشفق عليه، ونحن المسلمون بأخلاقنا لا نحقدُ على أحد، ولا نبغضُ أحدًا، ولا نكرهُ أحدًا، ولكنّنا نكرهُ الكفْر، ونكرهُ المعصِيَة والخروج عن أمر الله عز

وجل، هذا هو الإسلام ولا عليك ممن يدعي أن الإسلام دين تشدد وتخلف وإرهاب، فالإسلام كما هو دين سلام ومحبة للإنسانية جمعاء.

كل معروف صدقة

كلمة المعروف من الكلمات الإسلامية الخاصة ذات المدلول العظيم، إنك: إذا أردت أن تطلق كلمة معبرة عن فعل خير فلن تجد أعظم من هذه الكلمة، كلمة المعروف كلمة يجد القلب لها ميلا ويجد الشعور لها ارتياحا، والمعروف هو كل عمل تعارف عليه الناس ويقبله الإسلام، وللمعروف أثر كبير في تحقيق السعادة والتآلف بين الإخوة في المجتمع الواحد ولذلك دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المعروف حتى ولو كان المعروف شيئًا حقيرا لدى الناس يقول صلى الله عليه وسلم: لا تحقرن من المعروف شيئًا، ولو تلقى أخاك بوجه طلق. بل إنه صلى الله عليه وسلم يبين أن كل معروف صدقة من حديث جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: كل معروف صدقة. وقال صلى الله عليه وسلم: من دل على خير فله مثل أجر فاعله. وهنا يفتح الرسول صلى الله عليه وسلم المجال للمؤمن أن ينطلق في ميادين المعروف دون تمييز بين معروف وآخر فكل المعروف صدقة.

وضمن توجيهاته صلى الله عليه وسلم في المعروف أنه ذكر أن المعروف يقي الإنسان تلك المخاطر التي يتعرض لها فقد قال صلى الله عليه وسلم: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. أي أن الإنسان بصناعة معروف ما يقيه ذلك من حادثة قد يتعرض لها.

ومن خلال هذا كله يتضح لنا أن المعروف له أثر كبير في تنمية علاقات الود بين الناس بل إنه يبني جسور المحبة بين القلوب ويعمرها، فليكن بيننا وبين أنفسنا عهدٌ أن نصنع المعروف مهما كان حقيرا فهو عند الله عظيم.

قال الواقدي كان لي صديقان أحدهما هاشمي وكنا كنفس واحدة فأصابتني ضيقة شديدة وحضر العيد فقالت امرأتي أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة بهم لأنهم يرون صبيان الجيران وقد تزينوا في عيدهم وأصلحوا ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة فلو احتلت لهم بشيء تصرفه في كسوتهم، فقال الواقدي فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة علي فوجه إلي كيسا مختوما فيه ألف درهم، فما استقر قراري حتى كتب إلي صديق آخر يشكو مثل ما شكوت من الضيق إلى صاحبي الهاشمي فوجهت إليه الكيس بحاله وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلة مستحيا من امرأتي فلما دخلت عليها ذكرت لها ما صنعت فاستحسنت ما كان مني ولم تعنفني عليه، فبينما أنا كذلك إذ جاء صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته فقال لي: اصدقني عما فعلت فيما وجهت إليك فذكرت له الخبر على وجهه فقال إنك وجهت إلي وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلي الكيس نفسه فتواسينا وتقاسمنا الألف أثلاثا، فلما وصل الخبر إلى المأمون دعاني فشرحت له الخبر فأمر لنا بسبعة آلاف دينار لكل واحد ألفان وللمرأة ألف.

مثل قصص الإيثار والمعروف هذه قلما نجدها في زماننا الغارق في لجج المادة ومصالح الدنيا وأنانية الذات حتى أصبح المعروف مما تنكره النفوس وتستغربه الطبائع لأنها ألفت أن لكل عمل مقابلًا، فإلى متى يبقى المعروف غريبا وهو بين أهله وناسه؟

لو كنت معاتبا

المعاتبة فضيلة من الفضائل، وقد قال سيدنا علي رضي الله عنه: لا أصرم أخًا قبل أن أعاتبه، والمعاتبة خلق نبيل، إنك بالمعاتبة تحافظ على أخوته، بالمعاتبة يزول ما في

نفسك تجاهه، بالمعاتبة تستمع إلى عذره، بالمعاتبة تعرف صديقك من عدوك، ولا حرج في المعاتبة، فإن الله عز وجل في قرآنه الكريم عاتب نبيه عتابًا لطيفًا، والنبي عاتب أصحابه، ولكن هناك بعض القواعد في المعاتبة، وقد قيل لا تجتمع البغضاء مع القرب، فلذلك قالوا: إن كثرة اللوم تسبب العداوة والبغضاء، وترك المعاتبة كليًا يسبب الجفاء، والإكثار من المعاتبة يسبب العداوة والبغضاء، هي كالملح في الطعام، إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده، ولنا في الرسول صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فهذا سيدنا أنس خدم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: خَدَمْتُ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ وَلا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا وَلا مَسَسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلا حَرِيرًا وَلا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَلا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. إذًا لا بد من الترفق في المعاتبة، وإلغاؤها خطأ، والإكثار منها خطأ، ومما ينبغي في المعاتبة إن كنت معاتبا أن تبين الخطأ لمن تعاتبه إن كان مخطئا، حقيقة ثانية في المعاتبة، لا تطلب من الآخرين ألاّ يخطئوا، فعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ، وإذا أردت أن تعاتب أخا لك فاستخدم الكلمة اللطيفة، الكلام الطيب مقبول، والكلمة الطيبة صدقة، فالمعاتبة فن قلما يجيده أحد ولذلك نجد كثيرًا من الأصدقاء والمحبين يخسرون بعضهم لجهلهم بفن المعاتبة، فاجعل نظام المعاتبة بينك وبين أخيك سببًا لتمكين العلاقة معه، ولا تجعل المعاتبة سببا للخصومة، فلو كنت معاتبا لما كان لعتابي سوى البر والخير، فكن كما كان الرسول صلى الله عليه وسلم في المعاتبة، بلسم ورقة وتربية وشفقة، وصدق وعفو وتقدير وتوقير، وقد عاتب الله نبيه فبدأ عتابه بالعفو، وعاتبه في مواضع تدل على الحب، ما أجمل العتاب بين المحبين، فهذه بعض قواعد العتب فعليك بها لو كنت معاتبا.

ما نقص مال من صدقة

الصدقة جهاز يعمل على تنقية المال وتنميته وزيادته وفي الصدقة خلافة للمال وتزكية وبركة وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، وإن المتصدق لا يزال في بركة من ماله وعياله وتتضاعف له الصدقة ويربيها الله له حتى تكون كجبل أحد والحسنة بعشر أمثالها، وكم من صدقة كانت للمعطي نماء وللآخذ دواء وهكذا الصدقات كالغيث أينما نزل نفع، وقد ترك الناس الصدقة واستصغروا شأنها في عالم غلب عليه الفكر المادي ولغة الأرقام والفائدة المادية وقال البعض ما لنا نتصدق وما يكون لنا من مردود من هذه الصدقات فهي تمتص المال دون عائد، بينما من ينظر إلى الصدقة نظرة إيمان وتصديق لقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، فهذا يجد مردود الصدقة في ماله وصحته وأهله وعياله ونجاحه في عمله ورضا الناس عنه فيجد فعلا أن الحسنة بعشر أمثالها. روي أن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كان جالسا يوما في سوق المدينة ومعه ابنه الحسن فمر سائل فرق له سيدنا علي وقال للحسن اذهب إلى أمك فقل لها: تركت عندك ستة دراهم فهات درهما، فذهب الحسن إلى أمه: ثم رجع إلى أبيه وقال: أمي تقول لك إنما تركت ستة دراهم للدقيق، فقال سيدنا علي رضي الله عنه لا يصدق إيمان عبد حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده، قل لها: ابعثي بالدراهم الستة جميعا. فبعثت بها إليه فدفعها للسائل، وبعد لحظات مر به رجل معه جمل يبيعه فقال علي: بكم الجمل فقال الرجل بمائة وأربعين درهما فقال علي للرجل: إنه سيشتري الجمل ولكنه سيدفع ثمنه بعد حين فقبل الرجل وتركه لعلي ومضى، ثم أقبل رجل آخر فقال لمن هذا البعير قال علي: لي، فقال الرجل: أتبيعه قال بكم قال بمائتي درهم فقبل علي رضي الله عنه وأعطى الرجل

البعير وأخذ المائتين، ثم ذهب إلى صاحب الجمل الأول وأعطاه ثمن الجمل مائة وأربعين درهما وجاء بستين إلى فاطمة رضي الله عنها فقالت ما هذا إنما أعطيتك ستة دراهم فكيف تردها ستين فقال رضي الله عنه هذا ما وعدنا الله على لسان نبيه: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

موعظة للصغار والكبار

يقول النبي صلى الله عليه وسلم: أربعٌ من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كان فيه خصلةٌ منهن كان فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر. الكذب خصلة من النفاق وقد انتشرت وأصبح يعاني منها المجتمع صغارا وكبارًا، ظاهرة الكذب تدمر المجتمعات، فيكفي أن يكذب الإنسان حتى ينسلخ من إيمانه، ويكفي أن يكذب حتى يُعَدَّ من المنافقين، يقول عليه الصلاة والسلام: ثلاثةٌ لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، ورجلٌ كذَّاب، وعائلٌ مُستكبر. وفي الحديث القدسي: أحب ثلاثًا وحبي لثلاثٍ أشد، أحب الطائعين، وحبي للشاب الطائع أشد، أحب المتواضعين، وحبي للغني المتواضع أشد، أحب الكرماء، وحبي للفقير الكريم أشد، وأبغض ثلاثًا وبغضي لثلاثٍ أشد، أبغض العصاة، وبغضي للشيخ العاصي أشد، أبغض المتكبرين، وبغضي للفقير المتكبر أشد، أبغض البخلاء، وبغضي للغني البخيل أشد. وقد ورد عن الإمام عبد القادر الجيلاني، وهو من كبار العلماء، حينما كان طفلًا صغيرًا، أرسلته أمه إلى بغداد ليَطْلُب العلم، مع قافلةٍ من قوافل المسافرين، وأعطته أربعين دينارًا، وأخذت منه عهدًا مُغَلَّظًا على ألا يكذب، وكان طفلًا صغيرًا حديث السِن، وإذا بالطريق لصوصٌ يسلبون المسافرين، فسأله أحد قطاع الطريق، وقد احتجزوا

القافلة: ما معك يا غلام؟ قال معي أربعون دينارًا، فظن هذا اللص أن هذا الغلام يسخر منه، فأخذه إلى كبير اللصوص، وقال ما معك يا غلام؟ قال: معي أربعون دينارًا. قال: أين هي؟ أخرجها له، فقال: يا غلام ما حملك على أن تَصْدُق؟ قال: والله عاهدت أمي على ألا أكذب، فإني أكره أن أخون عهدها، فأطرق كبير اللصوص مليًا، وقال: يا غلام تخاف أن تخون عهد أمك، ولا أخاف أنا أن أخون عهد الله؟! وانهمرت الدموع من عيونه وقال: يا أيها الغلام أشهدك أني تبت على يديك، ورد الأموال كلها إلى القافلة، وجمع جماعته اللصوص، وقال: إني أشهدك أنني تبت على يد هذا الغلام، فقال أحدهم: أنت كبيرنا في قَطْع الطريق، وسوف تكون كبيرنا في سلوك الطريق إلى الله، وتاب جماعته معه بفضل الصدق.

هموم ومذلة

لا ننكر أهمية الديون في حياة الإنسان، ولكن لا يمكن أن نطلق للدين العنان من غير حاجة، لقد حذرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الديون، فلها هموم ولها مذلة بالليل وبالنهار تجعل الإنسان في قلق دائم إلى أن يتخلص منها ويسدد ما وجب عليه أداؤه، وللديون آثار نفسية ثقيلة، فالدين غل ثقيل يركب في عنق العبد يشقى به ويحزنه في ساعات الليل والنهار ولا يزال مأجورا حتى يؤديه فيسعد بذلك أو يستخف به حتى يموت فيشقى بذلك، وعن عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا تخيفوا الأنفس بعد أمنها، قالوا يا رسول الله وما ذاك قال: الدين. وعن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم في دعاء ذكره: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وضلع الدين وغلبة الرجال. قال العلماء ضلع الدين ثقله وشدته حتى لا يجد المدين ما يؤديه، ومما يزيد الديون هموما ثقيلة أنها متعلقة بحقوق العباد ومظالم

الناس، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم لا يصلي على ميت عليه دين، بل إن الشهيد يُحبس عن الجنة حتى يُقضى دينه والجهاد من أفضل الأعمال ولكن الدين أعظم. وعن أبي قتادة قال: قال رجل يا رسول الله أرأيت إن قتلت في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا غير مدبر يكفر الله عني خطاياي فقال رسول الله: نعم، فلما أدبر ناداه، فقال نعم إلا الدين كذلك قال جبريل. وعن محمد بن عبد الله بن جحش قال كنا جلوسًا بفناء المسجد حيث توضع الجنائز ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس بين ظهرانينا، فرفع رسول الله بصره قبل السماء فنظر ثم طأطأ بصره ووضع يده على جبهته، قال سبحان الله سبحان الله ما نزل من التشديد قال فسكتنا يومنا وليلتنا، فلم نر إلا خيرًا حتى أصبحنا قال محمد فسألت رسول الله ما التشديد الذي نزل، قال صلى الله عليه وسلم في الدين: والذي نفس محمد بيده لو أن رجلًا قتل في سبيل الله، ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ثم عاش ثم قتل في سبيل الله ثم عاش وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضي دينه. فالديون لا تدع صاحبها لا في الدنيا ولا في الآخرة بل إنها تتعلق برقبته إلى أن يؤديها فإن أداها في الدنيا فقد خلصت ذمته، وإن مات وهي تشغل ذمته، فإنه سيحاسب عليها، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: صاحب الدين مأسور بدينه يشكو إلى ربه الوحدة يوم القيامة.

التمس لأخيك عذرًا

إحسان الظن بالآخرين والاعتذار لهم من خلق الإسلام، وهذا طريق لتوثيق الصلة والمحبة، فأحسن الظن بمن حولك وإياك وسوء الظن بهم، ولا تجعل عينيك مرصدًا لحركاتهم وسكناتهم، ولا تترك لعقلك الظنون فتذهب بك كل مذهب، واسمع لقول المتنبي:

إذا ساء فعل المرءِ ساءت ظنونه * وصدق ما يعتاده من توهم

عود نفسك على الاعتذار لإخوانك دائمًا، يقول ابن المبارك: المؤمن يطلب معاذير إخوانه، والمنافق يطلب عثراتهم، فالتمس العذر لأخيك فقد يكون بينك وبينه مسألة ويكون مقصرا فيها أو مفرطا فاعذره فيها وتقبل منه زلته والتمس له ألف ألف عذر، يقول عمر بن عبدالعزيز: أعقل الناس أعذرهم للناس، ويقول محمد بن سيرين: إذا بلغك عن أخيك شيء فالتمس له عذرًا، فإن لم تجد له عذرًا فقل لعل له عذرًا. وليس أريح لقلب العبد في هذه الحياة ولا أسعد لنفسه من حسن الظن، فبذلك يسلم من أذى الخواطر المقلقة التي تؤذي النفس وتكدر البال، وتتعب الجسد، وحسن الظن يؤدي إلى سلامة الصدر وتدعيم روابط الألفة والمحبة بين أبناء المجتمع فلا تحمل الصدور غلًّا ولا حقدًا، امتثالًا لقوله صلى الله عليه وسلم: إياكم والظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا...، فكن لأخيك عاذرا فإن تأخر فقل لعل له حجة أو سبب، وإن تباطأ فقل لعل المانع خير، ومن الأسباب التي تعينك على تقبل عذر أخيك، أنك تنزل نفسك في منزلته وأن تكون في مكانه، وقل لو كنت مكانه لعذرني هو، وكن دائمًا ممن يحمل الكلام على أحسن المعاني، فلو بدر من أخيك كلام ظننته تجريحًا لك، فلا تفسر كلامه تفسيرا سيئا ولكن احمله على ظن الخير، ولا تحمله على ظن الشر، يقول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن شرًّا، وأنت تجد لها في الخير محملًا، فكن لأخيك عاذرا، يقول الإمام الشافعي: التمس لأخيك سبعين عذرًا.

صدقة السر

مع بداية العام الجديد يحتاج الإنسان إلى دفعة للعمل والطاعة، ومن بين الأعمال التي ذهب صيتها وقل دعاتها، صدقة السر، وهي تلك الصدقة التي لا يعرفها إلا الله تعالى الذي لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، والصدقة عمل يطفئ غضب الرب، ويزيل آثار النفس الشحيحة ويعلمها البذل وعلو الهمة والتضحية، وكل عمل يقوم به الإنسان مستخفيا من الممكن أن يدخل في مسمى صدقة السر، وتمتاز هذه الصدقة بأنها خالصة لا يدخلها رياء أو شهرة ولا يطلع عليها إلا الله سبحانه وتعالى، وخذ على ذلك أمثلة من حياة السلف الصالح لتكون لنا قدوة وأسوة، فقد خرج عمر بن الخطاب يوما في سواد الليل ودخل بيتا ثم دخل بيتًا آخر ورآه رجل ولم يعلم عمر أن هذا الرجل رآه، فقد رآه طلحة فظن أن في الأمر شيئًا فأوجس طلحة في نفسه وارتاب في الأمر، ولما كان الصباح ذهب طلحة فدخل ذلك البيت فلم يجد إلا عجوزا عمياء مقعدة، فسألها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟ وكانت لا تعرف أن الرجل الذي يأتيها هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قالت العجوز العمياء المقعدة: إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا بما يصلحني، ويخرج الأذى عن بيتي، أي يكنس بيتها ويقوم بحالها، ويرعاها عمر رضي الله عنه وأرضاه، فهذا عمل في السر يقوم به سيدنا عمر وهو يعلمنا كيفية المعاهدة والرعاية للرعية، ومثل ذلك سار عليه أيضًا زين العابدين رضي الله عنه وأرضاه، علي بن الحسين، فقد كان علي ابن الحسين يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول: إن صدقة السر تطفئ غضب الرب عز وجل، فكان هذا العمل من سيدنا زين العابدين متميزا وقد ذكر عمر بن ثابت أنه لما مات علي بن الحسين فغسلوه، جعلوا ينظرون إلى آثار السواد في ظهره فقالوا ما هذا؟ فقالوا كان يحمل جُرُب الدقيق (أكياس الدقيق) ليلا على ظهره، يعطيه فقراء المدينة، حتى إن هذه الأكياس

ظهرت علامتها على ظهره، وذكر أن أهل المدينة يقولون: ما فقدنا صدقة السر حتى مات علي بن الحسين زين العابدين رضي الله عنه وأرضاه.

هذا أوردني الموارد

إنه اللسان الذي يجر صاحبه إلى أحرج المواقف، فكم أورد صاحبه الموارد الصعبة، وهاهي الأعضاء كلها تتعوذ من اللسان تقول: اتق الله فينا فإنما نحن بك فإذا استقمت استقمنا وإذا اعوججت اعوججنا، فالكلام وهو ما يخرج من اللسان هو أكثر عمل يقوم به الإنسان، فالإنسان لو ذهب يحصي عدد الكلمات التي يتلفظ بها في يوم لوجدها تعد بالآلاف، ولو غربل هذه الكلمات ليميز بين الغث منها والسمين والسيئ منها والحسن لوجد أن كثيرًا من الكلمات سيئة وإن لم تكن سيئة فهي من فضول الكلام، ولذلك فإن ما يحصده اللسان من كلمات هي أكثر ما تزج بصاحبها في النار كما قال رسولنا صلى الله عليه وسلم، وقد رأى رجل ابن عباس رضي الله عنهما آخذًا بثمرة لسانه وهو يقول: ويحك قل خيرًا تغنم واسكت عن شرٍ تسلم، فقال له الرجل: يا ابن عباس، ما لي أراك آخذًا بثمرة لسانك وتقول كذا وكذا؟ قال ابن عباس: بلغني أن العبد يوم القيامة ليس هو على شيءٍ أحنق منه على لسانه، يعني لا يغضب على شيءٍ من جوارحه أشد من غضبه على لسانه، وقال عبد الله بن أبي زكريا: عالجت الصمت عشرين سنة، وكان عبد الله بن وهب رحمه الله يقول: نذرت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يومًا فأجهدني - يعني تعبت - فكنت أغتاب وأصوم أغتاب وأصوم فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حب الدراهم تركت الغيبة، وقال النووي في الأذكار: بلغنا أن قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي اجتمعا، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصى، والذي أحصيته ثمانية

آلاف عيب، ووجدت خصلة إن استعملتها سترت العيوب كلها قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان، وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه دخل على أبي بكرٍ الصديق رضي الله عنه وهو يجبذ لسانه أي يجره بشدة، فقال عمر مَه!! غفر الله لك، فقال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إن هذا أوردني الموارد، عن البراء رضي الله عنه قال: جاء أعرابي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: دلني على عمل يدخلني الجنة. قال صلى الله عليه وسلم: أطعم الجائع واسقِ الظمآن وأمر بالمعروف وانهَ عن المنكر فإن لم تطِق فكف لسانك إلا من خير.

منعا للإحراج

كثيرٌ من الناس يلجأ إلى مجاملة الآخرين على حساب نفسه، فقد يوضع الإنسان في موقف فيجامل للخروج من أزمة الموقف، ثم سرعان ما يندم ويجد نفسه ملزما بتقديم بعض التنازلات على حساب نفسه، وتلك تضحية منه، ولكن بعضًا من الناس لا يستحي، تجده يلح في طلبه ويزيد من ضغطه على هذا الشخص الذي ربما يعتذر عن عدم قدرته على تلبية طلبه ولكن الآخر يلح ويلح وكأن الناس عنده عمال يعملون بأجر، هذه الحالة وجدتها منتشرة فكثيرًا ما يطلب من الإنسان عمل فيعتذر بسبب انشغالاته ولكن البعض يلح عليه فيضطر إلى الموافقة فيجد نفسه في ضيق شديد، ليتنا نتعلم من خلال توثيق الصلة بيننا أن الأمور البسيطة مثل هذه تولد في القلب حساسيةً ونفورًا، إذا طلبت من أخيك المسلم عملا واعتذر فعليك بقبول عذره وعدم التضييق عليه، تلك القضية لها بعد في بناء المودة والمحبة بين الأخوين، فمنعا للإحراج لا تجامل أحدا على حساب نفسك، ولا يجاملك أحد على حساب نفسه، وكن في قراراتك صامدا صارما صابرا، ولا تكن مترددا، فكن في شخصيتك قويا يحترمك الناس

وتحترمهم، ولا تكن إمعة مرددا لما يقوله الناس، وعلى قدر ثقتك في نفسك على قدر احترام الناس لك، لا تتقمص شخصية غيرك، فكثيرون هم الذين ينسون أنفسهم وأصواتهم وحركاتهم وكلامهم ومواهبهم لينصهروا في شخصيات الآخرين فإذا التكلف والمحاكاة والتقليد، فلماذا التقليد؟ فمنذ أن خلق الله آدم إلى آخر الخليقة لم يتفق اثنان في صورة واحدة، فلماذا يتفقون في المواهب والأخلاق، أنت شيء آخر ولن يأتي مثلك في الدنيا شبيه، أنت مختلف تماما عن زيد وعمرو فلا تحشر نفسك في سرداب التقليد والمحاكاة والذوبان، انطلق على هيئتك وسجيتك فلك مشربك وللناس مشاربهم وقد ﴿عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾، لك وجهة وللناس وجهاتهم ولكل ﴿وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨]، فمنعا للإحراج عش كما خلقت، فالناس في طبائعهم أشبه بعالم الأشجار حلو وحامض، وطويل وقصير، واختلاف ألواننا وألسنتنا ومواهبنا وقدراتنا آية من آيات الله فلا تجحدوا بآياته.

من حسن إسلام المرء (1)

من قبس هدي النبوة حديث في القمة، ومعنى في الذروة، وأساس في تشكيل الشخصية المحببة لدى الناس، الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه، وقد قال أحد العلماء: إن أصول آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث وهي قولُه صلى الله عليه وسلم: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت، وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له في الوصية: لا تغضب، وقوله صلى الله عليه وسلم: لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، وحديث من حسن إسلام المرء، فالإنسان أليف يؤلف، والفضولي الثرثار منبوذ لا يعرف، يقحم أنفه فيما لا يعنيه، ويظن أنه مطلوب ومحبوب، هو بهذا الظن

مكذوب، وأمثال هذا في المجتمع كثير، فلا تكاد ترى مجلسا إلا وفيه من يدعي العلم وهو ليس بعالم، بل هناك من يفتي وهو أقل من أن يسأل، تجده في كل واد يهيم وفي كل تخصص وعلم خبير، إن قلت في الطب فهو به عليم وإن قلت في الدين والشريعة فهو مجتهد فطين، وإذا سُئل غيرُه بادر بالجواب وكأنه هو المسئول، لا يراعي مشاعر الناس، وليس له ذوق وإحساس، فلماذا يكون الإنسان فضوليًّا؟ ولماذا يعنيه ما لا يعنيه؟ وهو يعلم أن هذا الخلق يزرع في القلوب كراهية ويقطع حبال الود بين المحبين، بينما تجد ذلك الإنسان المتزن يراعي في الناس مشاعرهم، يقف حيث ينتهي به الموقف، لو ذهبت تحصي كلامه من سكوته، لوجدت سكوته غالبًا، لا يتكلم إلا إذا دعي، وإن لم يدع قال خيرا أو صمت، يعرف نفسه فيصونها، وإن سُئل فيما لا يعلم أجاب لا أعلم، لا يختلق المعرفة إن جهل، ولا يتكتم العلم إن علم، تلك صفات تجعل في الشخصية رقة وألفة وتجبر الناس على توقيرها واحترامها، فكن لطيفا خلوقا، فالمسئولية جسيمة والعمر قصير فلا تضيّعْه فيما لا يعنيك، يقول تعالى ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، فلا تقتحمْ نفسك فيما لا يعنيك، فتُبتلى في بيتك بما أفسدت به بيوت الآخرين.

من يستطيع أن يكون كأبي ضمضم

من الغريب أن تجد الناس يمسكون عن كثير من المحرمات وحتى من الكبائر ولا يستطيع البعض منهم أن يمسك لسانه من الزلل، يقول ابن القيم رحمه الله: من العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والسرقة وشرب الخمر وغير ذلك ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه. واللسان أداة تعبر عما في القلب وتخرج ما في القلب من ضغينة وغل، فاللسان يغرف من القلب ويخرج ما فيه يقول

يحيى بن معاذ: القلوب كالقدور تغلي بما فيها وألسنتها مغارفها فانظر إلى الرجل حين يتكلم فإن لسانه يغترف لك مما في قلبه حلو وحامض وعذب وأجاج وغير ذلك ويبين لك طعم قلبه اغتراف لسانه، ويقول (وفي اللسان آفتان عظيمتان إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى آفة الكلام وآفة السكوت وقد يكون كل منهما أعظم إثما من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس عاص لله مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق عاص لله)، ومهما تحدثنا وأكثرنا الحديث عن اللسان فإننا لن نصل إلى بيان خطورته وذلك لشدة خطورته، فكل الشر ومنطلق الشرر يأتي من اللسان، ومن الأعمال الصالحة كف اللسان فهو صدقة وقربة إلى الله تعالى، وهاك مثالًا عظيمًا في حبس اللسان والتصدق بالسكوت عن الرد على المسيئين فقد كان رجل يدعى أبا ضمضم من الصحابة رضوان الله عليهم فقد كان إذا أصبح قال: اللهم لا مال لي أتصدق به على الناس وقد تصدقت عليهم بعرضي فمن شتمني أو قذفني فهو في حل يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: من يستطيع منكم أن يكون كأبي ضمضم، فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يثني على أبي ضمضم في عمله هذا، ولكن من يستطيع أن يكون كأبي ضمضم، أو على أضعف الإيمان من يستطيع أن يكف لسانه عن الناس فإنها صَدَقَةٌ عَلَى نَفْسِكَ كما في الحديث (تَكُفُّ شَرَّكَ عَنْ النَّاسِ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ)، فذلك طريق آمن لا يوقع صاحبه في مواقف الحرج بل يجعله في قمة التوجه والتوجيه ومثالًا وعبرة لمن أراد أن يعتبر.

إياكم والظن

الظن حديث وراء الستار، وتقويم للأشخاص دون معرفة أو تجربة، وجهل بالحقائق دون تثبت ودليل، وما أكثر المسيئين للظن في زماننا هذا، فكم من إنسان تضرر وتأثر

بسبب إساءة الظن فيه، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إياكم والظن فإنه أكذب الحديث»، ولا حرج أن يحسن الإنسان الظن، فالظن المذموم إنما هو الظن السيئ، وأما الظن الحسن فمحمود، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «حسن الظن من حسن العبادة»، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يحل لامرئ مسلم يسمع من أخيه كلمة يظن بها سوءًا وهو يجد لها في شيء من الخير مخرجًا، وقال أيضًا: لا ينتفع بنفسه من لا ينتفع بظنه، وقال أبو مسلم الخولاني: اتقوا ظن المؤمن فإن الله جعل الحق على لسانه وقلبه، فلا تخدعك نفسك بسلاح الظن فتصيب أخاك بجرح لا يبرأ منه، وقال ابن عباس رضي الله عنه: الجبن والبخل والحرص غرائز سوء يجمعها كلها سوء الظن بالله عز وجل، وفي الصحيحين أن صفية أتت النبي صلى الله عليه وسلم تزوره وهو معتكف، وأن رجلين من الأنصار رأياهما فأسرعا فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلكما إنها صفية بنت حيي، فقالا: سبحان الله يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: «إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم وخشيت أن يقذف في قلوبكما شيئًا»، ويأتي في المرتبة الأولى إحسان الظن بالله تعالى، فمن لا يحسن الظن بالله تعالى فلن يحسن الظن بالناس، وقد قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: (دخلت أنا وعروة بن الزبير على عائشة رضي الله عنها فقالت: لو رأيتما رسول الله في مرض له، وكانت عنده ستة دنانير، فأمرني رسول الله أن أفرقها، فشغلني وجع رسول الله حتى عافاه الله، ثم سألني عنها ما فعلت أكنت فرقت الستة دنانير، فقلت لا والله، لقد كان شغلني وجعك، قالت: فدعا بها فوضعها في كفه، فقال: ما ظن نبي الله لو لقي الله وهذه عنده)، فتعلم كيف تحسن الظن وإياك والظن السيء.

كن كالشمس

رغم حرارتها ورغم شدة ضوئها وكثرة إشعاعها، إلا أننا نشتاق لها كل يوم، فهي عندما تغيب وترحل عنا عند الغروب نقول متى ترجع هذه الشمس، فإن عادت عند الشروق استبشرنا وكنا في شوق إليها، وإن تأخرت عنا أو غطى نورها سحاب أو ضباب قلنا متى ينقشع عنها، فلماذا إذن هذا الشوق؟، لأنها تغيب، والإنسان كذلك إنما يشتاق له الآخرون عندما يغيب عنهم، فكم من إنسان مله الناس وسئموا قربه، لأنهم اعتادوا رؤيته، فلما غاب عنهم سألوا عنه أين هو؟ وعادة ما يُسأل عن الإنسان عند الحاجة إليه، والمسلم المؤمن هو من تجده عندما تطلبه، فهو يغيب عنك، ولكنه قريب منك، الحاجة إليه ماسة، والضرورة إليه ملجئة، هو لأخيه كالشمس ينفعه بالنور والدفء، هذه الشمس كلها حياة، ويوم تغيب ولا ترجع تنتهي الحياة، فكذلك المسلم لأخيه كالجسد الواحد، تشبيه في قمة الروعة والبلاغة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، إن المسلم لإخوته المسلمين كالأعضاء للجسد لا يمكن أن تنفصل عنه ولا يمكن للجسد أن يعيش إلا بها جميعا، فهي من الجسد تتأثر به وتتفاعل معه، فإن مرض الجسد أو أصيب بألم تداعت له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، فمتى كان المسلمون كذلك وكانوا قوة متماسكة مترابطة لا يضعفها غدر الزمان ولا تآكل السنين، ولكن هي للزمان صامدة وهي كالنور لا يحجبه سوى التفتت والتبعية، فهل أدرك المسلمون أنهم إخوة في الدين والحياة والعقيدة والأخلاق، وهم يد على من سواهم، لا يضرهم من خالفهم وإن دارت عليهم الدوائر فهم هدف واحد وقبلة واحدة وهم صامدون وهم الأعلون تلك هي صفاتهم في القرآن، وتلك خصائصهم على مر التاريخ، فعلى كل مسلم أن يضع هذا نصب عينيه عند التعامل مع المؤمنين، وعليه أن يضع في الاعتبار أن أهل الإيمان كلهم له إخوان، قال تعالى ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾

[آل عمران: ١٠٣]، تلك هي الشمس المشرقة التي نشتاق لها عند المغيب، وعند الشروق نستبشر بقدومها، وذلك هو المؤمن الذي نحبه في الله، وإن غاب سألنا عنه، وإن حضر فرحنا لحضوره، يقول صلى الله عليه وسلم (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).

كن مؤثرا

التأثير في الآخرين نعمة من الله تعالى، فالإنسان الذي يملك الشخصية المؤثرة لا شك أنه مقبول بين الناس ومحبوب بينهم، فكيف يكون الإنسان مؤثرا؟ هناك عدة عناصر تجعل الإنسان مؤثرا ومنها الميل العاطفي والقبول النفسي، فالناس لا يقبلون إلا ممن أحبوه ومالوا إليه فلا بد من هذا الميل النفسي والقبول العاطفي الذي هو المدخل الرئيسي للقبول والتلقي والتأثير، ولقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم هذا الميل والتأثير، فحادثة وضع الحجر الأسود حيث اتفقت قريش عندما اختلفوا فيمن يحمل هذا الحجر ويضعه في موضعه، اتفقوا على حكم محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا رضينا، هذا الصادق الأمين، ولكن المحبة والميل وحده لا يكفي، فقد يكون المرء محباً لآخر، ولكنه لا يستجيب له، لأنه لم يقتنع به وبما جاء به، أو لم يرَ الحق فيما يدعيه، وهنا يأتي العنصر الثاني وهو الإقناع العقلي فلا بد أن يضم إلى العاطفة العقل، وهذا أمر مهم جدًا لأن الحجة والبرهان لهما سلطان أيما سلطان، وأيضًا ينبغي أن نعرف أن الأمرين متلازمان، فلو كان هناك ميل بلا إقناع فلا تحصل الاستجابة، ولو كان هناك إقناع وإقامة حجة بلا ميل لكانت هناك نفرة ونوع من الانقباض، فكذلك لا يحصل هذا، وإنك ترى بعضا من الدعاة ممن منّ الله عليهم بالعنصرين معا فهو مؤثر من الناحية العاطفية ومؤثر من الناحية العقلية، وتجد الناس في شدة للاستماع والتركيز لحديثه، ثم

يأتي العامل الثالث وهو القدوة الحية والنموذج المتحرك فهو عامل يدعم العنصرين السابقين فهو يزيد العاطفة والميل ويزيد إحكام القناعة العقلية، وكلما كان الإنسان مرآة لما يقول كلما كان مؤثرا وفعالا في توجيهه ونصحه للآخرين، يقول ابن القيم «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس هلموا قالت أفعالهم لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًا لكان أول المستجيب له هم، فهم في الصورة أدلاّء وفي الحقيقة قطاع طرق»، فهذه العناصر الثلاثة عاطفة وعقل وقدوة إذا اجتمعت في شخصية إنسان فهو كالجبل الأشم، يرفع له الناس أعناقهم إجلالًا واحتراما، فكن ذا شخصية مؤثرة تنال حب الناس وإعجابهم.

دفء الحياة

لا يخفى كم كانت حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته رضوان الله عليهم حياة مليئة بالدفء، الدفء الذي حملته قلوب الصحابة لبعضهم، يفرح أحدهم لفرح الآخر ويحزن لحزنه، يا الله كم كانت الحياة دافئة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، أما الآن فقد تطاول البنيان، وتباعد الناس، وتحجرت القلوب، وماتت الأحاسيس، وصارت العزلة والانطواء صفات يحبها المرء، فكلٌّ منا يعيش في دنيا خاصة به، وعالم منعزل، وأصبحنا لا نعرف للأخوة صلة من الدفء والصدق، مع أن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم كلها تفرض علينا دفء المشاعر، والقرب من بعضنا، وتفرض علينا التواصل والتلاحم في مختلف الظروف والمناسبات يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل يقول، يوم القيامة: يا ابن آدم! مرضت فلم تعدني. قال: يا رب! كيف أعودك؟ وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أن عبدي

فلانا مرض فلم تعده. أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم! استطعمتك فلم تطعمني. قال: يا رب! وكيف أطعمك؟ وأنت رب العالمين. قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فلم تطعمه؟ أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم! استسقيتك فلم تسقني. قال: يا رب! كيف أسقيك؟ وأنت رب العالمين. قال: استسقاك عبدي فلان فلم تسقه. أما إنك لو سقيته وجدت ذلك عندي، فلو قمنا نحن اليوم بتمرير هذا الحديث على واقعنا اليوم وعلى أمور الحياة والحالات والظروف التي يمر بها الناس (المرض، الجوع، العطش، الهَم... إلخ) لوجدنا أن حالنا أصبح مؤسفًا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم به، فكم من مريض أو صاحب حاجة أو جائع تجهلنا مطالبه، وكم بات فينا من هو جائع، إن مما يؤسف له أننا يوم القيامة قد نجد في ميزان سيئاتنا سيئات لم تخطر ببالنا يومًا، سيئات كتلك السيئات التي فيها قطيعة أو أداء حقوق الآخرين ونحو ذلك، بل لن أبالغ إن قلت إن علاقاتنا فيما بيننا ينقصها الدفء، إن دفء المشاعر إحساس عظيم، يعكس الصدق في المحبة، وذلك من أعماق القلوب الغزيرة إلى سواحل الحياة الكبيرة، فأين الدفء في علاقتنا، وأين الأخوة في ترابطنا، وأين المشاعر الجياشة في علاقتنا، أين أعضاؤنا المترابطة، أين كل ذلك، يا أمة وصفت بأنها كالجسد الواحد.

من أيقن بالخلف جاد بالعطية

يظن البعض بأن الإنسان إذا ملك مالا وصرفه في الملذات ولو قام بتبذيره وإسرافه، فإنه لن ينقص لأنه يصرفه في هواه ولو صرف منه الكثير، بينما هذا المال لو أخذ منه شيئًا بسيطا للصدقة فإنه بهذه الصدقة ينقص المال، وهذه عقلية فارغة إذ كيف يكون الإسراف في المال ممدوحا والصدقة فيه مذمومة، ولكن الرسول صلى الله

عليه وسلم كان يغرس معنى النماء في الصدقة عندما قال: ما نقص مال من صدقة، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦]، فالصدقة نماء للمال وليست مضيعة له، والإسراف إهلاك للمال وإتلاف له، ولا بد من تصحيح المفاهيم هذه حتى يقبل الناس على الصدقات كلهم أمل ورجاء بأن المال يزيد بالصدقة ولا ينقص، ولكن هذا لا يتم في ظل إيمان ضعيف لا يعطي صاحبه قناعة بأن الله تعالى يربي الصدقات ويضاعفها إلى أضعاف كثيرة، كما أن الله تعالى يضمن هذه الصدقات وأي ضمان أقوى من ضمان الله تعالى للإنسان، حيث يقول تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وسميت الصدقة قرضًا وذلك تأكيدا لاستحقاق الثواب بها؛ إذ لا يكون قرضًا إلا والعوض مستحق به، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: (ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كان تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل؛ كما يربي أحدكم فُلُوَّه أو فصيله) فالصدقة جالبة للرزق هذا قول الله تعالى الذي ينابيع خزائنه لا تنضب وسحائب أرزاقه لا تنقطع واعدًا من أنفق في طاعته بالخلف عليه ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، وما أجمل مقولة بعضهم: «أنفق ما في الجيب يأتك ما في الغيب» وقوله صلى الله عليه وسلم: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقًا خلفًا، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكًا تلفًا» فمن قال بأن الصدقة منقصة للمال، جالبة للفقر، مسببة للضيعة، فهو واهم، بل الصدقة نماء للمال وصدق صلى الله عليه وسلم عندما قال «ما نقصت صدقة من مال»، والقضية مرتبطة بالإيمان ومتعلقة باليقين، والأمر كما قال الحسن البصري: «من أيقن بالخلف جاد بالعطية».

المسألة مسألة ذوق

لا إنني لا أتحدث عن الذوق في الطعام والشراب، وإلا فالذوقُ كلمة جميلة تحمل في طياتها معنى اللطف، وحسن المعاشرة، وحسن التصرف، وتجنبِ ما يمنع من الإحراج وجرح الإحساسات بلفظ جارح أو إشارة ونحو ذلك، وقد تعارف الناس وجرى بينهم مجرى العرف أنهم إذا أرادوا الثناء على شخص قالوا فلان عنده ذوق، أو هو صاحب ذوق، وإذا أرادوا ذمَّه قالوا فلان قليل الذوق، أو ليس عنده ذوق، وهكذا، فالذوق بهذا الاعتبار داخلٌ في المعنويات أكثر من دخوله في الحسِّيات كذوق الطعام والشراب، وموطن الذوق في المعنويات يدور حول العقل والروح والقلب، وموطنه في عالم الحسيات لا يتجاوز اللسان، وقد دعا الإسلام الإنسان أن يكون له ذوق، وإن كان الذوق من المفروض أن يأتي من صاحبه دون توجيه، ومع ذلك دعا الإسلام المسلمَ حالَ إتيانه للصلاة أن يكونَ على طهارة، وأن يأخذ زينته عند كل مسجد، وأن يأتي وعليه السكينة والوقار، وأن يخفض صوته حال مناجاته لربه، وأن لا يأتي المسجد وقد أكل ثومًا أو بصلًا أو نحو ذلك مما يتأذَّى منه المصلون، فهنا المسألة مسألة ذوق والإسلام يدعو لذلك، ألم يكن من أدب الزكاة أن تُعطى للفقير خُفْيةً، لئلا يحرج الفقير فالمسألة مسألة ذوق، ألم يُؤمرِ الحجاجُ بالسكينة، وترك أذية إخوانهم؟ أليس الصيامُ من أعظم ما يُرهف الحس، ويرتقي بالذوق، ويسمو بالروح؟ أليس فيه شعور بالآخرين، وإحساس بما يعانون من عوز الفقر، وذلة الحاجة؟ هذا في الطاعات تجد الذوق، وكذلك في المنهيات والمحرمات تجد ما يحذر من الذوق، أو يضعف جانبه، ومن علامات السعادة للإنسان أن يرزق ذوقًا سليمًا مهذبًا، فإنه إذا كان كذلك عَرَفَ كيف يستمتعُ بالحياة، وكيف يحترمُ شعورَ الآخرين ويدخل السرور عليهم، فصاحب الذوق السليم قادرٌ على جذب الناس، وإذا ساد الذوق السليم

في أسرة أو مجتمع رأينا كلَّ فرد من هؤلاء يتجنب جرح إحساس غيره بأي لفظ أو عمل أو إشارة أو أي شيء يأباه الذوق، إن الذوق السليم في الإنسان يرفعه إلى حد أن يتخير الكلمة اللطيفة، والتصرف الملائم الذي يمنع الإحراج، بل إن صاحب الذوق السليم يأبى النزاع، وشدة الغضب، فتأمل ذلك فالمسألة مسألة ذوق لا أكثر ولا أقل.

أحسن الناس

أنت أيها المسلم في روضة غناء طالما دندنت حول ميدان الأخلاق، والخلق يغرس في الناس محبة وألفة وهو من أفضل الأعمال، فقد قال صلى الله عليه وسلم: خير الناس أحسنهم خلقا، وقال صلى الله عليه وسلم: خير الناس أنفعهم للناس، فمن أحسن الناس وأحبهم إلى الله تعالى من يكون الإحسان أصله ويكون البر فرعه، وقال صلى الله عليه وسلم (أحب العباد إلى الله تعالى أنفعهم لعياله)، والمراد هنا أن من ينفع عباد الله تعالى في خدمة أو يسدي لهم نصيحة أو أي منفعة من المنافع فهو من أحب العباد عند الله تعالى والخلق كلهم عيال الله تعالى فرحمة الله تعالى بهم كرحمة الوالد بعياله، وقال صلى الله عليه وسلم: المؤمن يألف ويؤلف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف، وخير الناس أنفعهم للناس ، قال الماوردي: إن الإنسان لا يصلح حاله إلا بالألفة الجامعة، فإنه مقصود بالأذية، محسود بالنعمة، فإذا لم يكن ألفًا مألوفًا تختطفه أيدي حاسديه، وتحكم فيه أهواء أعاديه، فلم تسلم له نعمة، ولم تصف له مدة وإذا كان ألفًا مألوفًا انتصر بالألف على أعاديه، وامتنع بهم من حساده، فسلمت نعمته منهم، وصفت مودته بينهم، ومن الناس من لا يهضم الناس صحبته ويتمنون فراقه قبل لقائه، ويتخذ اللعن والشتم أساليب يتعامل بها مع الناس، أو يجعل المعاملة بالمثل عادة وصفة، والعرب تقول من قل ذل قال أبو حاتم: لا ينبغي للعاقل أن يكافئ الشر بمثله، ولهذا قال صلى الله عليه

وسلم: خيركم من يرجى خيره ويؤمن شره وشركم من لا يرجى خيره ولا يؤمن شره، وهناك من الناس من يفر الناس من حوله، ولا يجالسونه في مكان شره يطال القريب والبعيد الكل يتقيه ويتجنب الحديث معه، وهذا من أكثر الناس شرا، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة، من تركه الناس اتقاء فحشه أي لأجل قبح فعله وقوله، أو لأجل اتقاء فحشه أي مجاوزة الحد الشرعي قولًا أو فعلًا، فإن كنت تبحث عن أحسن الناس فعزيز هذه الأيام، إلا من كان في خلقه سعة تسع أطباع الناس وإن اختلفت، فإن هم شدوا أرخى، وإن هم أرخوا شد، ومن كان في حاجة وجده يسعى في حاجة أخيه، ومن كان في مصيبة واساه، ومن كان في فرح أجابه، فذلك من خير الناس وأحبهم عند الله تعالى.

وجوه وأقنعة

ليس للنفاق ألوان ومساحيق، ولكن للنفاق سبل وأساليب، وكل ذلك داخل في مسمى النفاق، وهناك نفاق الوجوه، وهو تلوين الوجوه، فتجد شخصا تحسبه صديقا حميما، وفي الوقت نفسه تجده عدوا خبيثا، فهو يأتيك بوجه، وهو من خلفك له وجه آخر، كأن لوجهه أقنعة يغيرها حسب الظروف والمناسبات، وهؤلاء هم المتلونون وهم شرار الخلق، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، يقول القرطبي إنما كان ذو الوجهين شر الناس لأن حاله حال المنافق إذ هو متملق بالباطل وبالكذب مدخل للفساد بين الناس، وقال النووي هو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها فيظهر لها أنه منها ومخالف لضدها وصنيعه نفاق ومحض كذب وخداع وتحيل على أسرار الطائفتين وهي مداهنة محرمة، وفي حديث آخر: إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره أي

اتقاء فحشه، وفي حديث آخر «إن من شر الناس رجلا فاجرا يقرأ كتاب الله لا يرعوي إلى شيء منه»، ولقد ظهر في هذا الزمان وجوه لها أقنعة شتى وبشتى المقاسات والألوان، وهذه فئة من الناس تضحك لك بوجه، ولها وجه آخر ملؤه الكراهية والحقد من خلفك، وما أكثر ما نواجه هؤلاء في العمل وفي المنتديات وفي النوادي والمحلات، وقد نالوا من البعض بخبثهم، وصار البعض منا لا يعرف صديقه من عدوه، بل ربما يأمن لعدوه أكثر منه، لأن العدو ضرره ظاهر، وأما ذو الوجهين فضرره خافٍ ومستتر، فكن على حذر من هؤلاء فقد يكون لأحد وجه أمامك وله لسان معسولٌ معك، ولكنه يخفي من ورائه ما يخفيه من بغض وكراهية، ونعم ما قال القائل:

لا خير في ودّ امرئ متلوّنٍ * حلوِ اللسان وقلبه يتلهّبُ
يلقاك يحلف أنه بك واثقٌ * وإذا توارى عنك فهو العقربُ
يعطيك من طرف اللسان حلاوةً * ويروغ منك كما يروغ الثعلبُ

هذه الزكاة لا نقبلها

الرضا بقضاء الله تعالى هو ثمرة الإيمان، ومن قَرَّ في نفسه بأن له ربا كريما ينفعه ويضره، وأنه أرحم به من الوالدة بولدها أيقن أنه في خير كثير ورزق وفير ونجاة من السعير، فإذا أردت أن تتعرف على أحد فجربه في الدرهم والدينار، فهما ميزان الرجال في هذا الزمان، فكم من شخص يوصف بالكريم ولكنه بعيد عن الكرم كبعد الشمس عن القمر، وكم من إنسان يوصف بالبخل والله يعلم أنه قريب من الكرم بل هو كريم ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى، فلا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وكم من إنسان رفض قضاء الله تعالى وتمنى على الله الأماني، ومنهم من قال لئن آتاني الله مالا لأتصدقن به وأنفقه في وجوه البر والخير، فلما آتاه الله ما يريد إذا به يمنع حق الله تعالى، قال تعالى:

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧]، وهذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب وخلاصة قصته أنه كان فقيرا وكان يلح على النبي صلى الله عليه وسلم ملتمسا منه أن يدعو الله له أن يوسع عليه ويرزقه الغنى، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول له: يا ثعلبة قليل يكفيك خير من كثير لا تقوم بشكره، فقال والله يا رسول الله لئن وسع الله علي ورزقني الغنى لأفعلن من الخير كذا وكذا، فدعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فآتاه الله غنما كثيرة، وذهب إليه جامع الزكاة يوما ليأخذ منه زكاة ما عنده، فرفض ونقض عهده، وأخلف وعده وامتنع عن دفع الزكاة وقال كلمة خبيثة: أهي جزية، فنزلت فيه ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ [التوبة: ٧٥] الآية، وجاء ثعلبة بعد ذلك يعرض زكاته على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له كلمة تقصم الظهر: يا ثعلبة إن الله منعني أن أقبل منك شيئًا، وكذلك جاء في عهد أبي بكر فرفض أن يأخذ منه شيئًا، ومات في عهد عثمان رضي الله عنه، فهذا الذي يمن بماله على الله تعالى، ولا يرضى بقضاء الله تعالى في الأرزاق ويترفع على الله تعالى ويظن بأن الزكاة جزية أو هبة يُذل بها الفقراء، فهذه زكاته مردودة عليه، وهذه زكاة لا نقبلها حتى يصفي ما في نفسه، ويعلم أنه إذا عاهد الله تعالى أن يفي بعهده، فإنه لا إيمان لمن لا عهد له.

نهاية الطامعين

الطمع خلق ذميم وصاحبه غير مستقيم تراه، لا يقنع مهما ملك من الدنيا، فهو كالذي يأكل ولا يشبع، وقال الجاحظ في تعريف القناعة: هي الاقتصار على ما سنح

من العيش والرضا بما تسهل من المعاش، وقد ذهب الصحابي الجليل حكيم بن حزام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله أن يعطيه من الأموال، فأعطاه. ثم سأله مرة ثانية، فأعطاه. ثم سأله مرة ثالثة، فأعطاه النبي صلى الله عليه وسلم. ثم قال له مُعلِّمًا: (يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حلو فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبَارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى)، فعاهد حكيم النبي صلى الله عليه وسلم ألا يأخذ شيئًا من أحد أبدًا حتى يفارق الدنيا، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يطلبه ليعطيه نصيبه من المال، فيرفض أن يقبل منه شيئًا، وعندما تولى عمر رضي الله عنه الخلافة دعاه ليعطيه فرفض حكيم، فقال عمر: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفيء فيأبى أن يقبله، وهكذا ظلَّ حكيم قانعًا، لا يتطلع إلى المال بعد نصيحة رسول الله صلى الله عليه وسلم، التي تعلَّم منها ألا يسأل أحدًا شيئًا، حتى إنه كان يتنازل عن حقه، ويعيش من عمله وجهده، وقد ارتبط الذل بالطمع فقيل: عز من قنع، وذل من طمع، وللقناعة آثار، منها امتلاء القلب بالإيمان بالله سبحانه وتعالى والثقة به والرضا بما قدر وقسم والحياة الطيبة، والوقاية من الذنوب التي تفتك بالقلب وتذهب الحسنات كالحسد والغيبة والنميمة والكذب، والعز في القناعة والذل في الطمع، ويحكى أن ثلاثة رجال ساروا في طريق فعثروا على كنز، واتفقوا على تقسيمه بينهم بالتساوي، وقبل أن يقوموا بذلك أحسوا بالجوع الشديد، فأرسلوا أحدهم إلى المدينة ليحضر لهم طعامًا، وتواصوا بالكتمان، حتى لا يطمع فيه غيرهم، وفي أثناء ذهاب الرجل لإحضار الطعام حدثته نفسه بالتخلص من صاحبيه، والانفراد بالكنز وحده، فاشترى سمًّا ووضعه في الطعام، وفي الوقت نفسه، اتفق صاحباه على قتله عند عودته؛ ليقتسما الكنز فيما بينهما فقط، ولما عاد الرجل بالطعام المسموم قتله صاحباه، ثم جلسا

يأكلان الطعام، فماتا من أثر السم، وخسروا جميعًا الكنز بسبب الطمع، وهكذا تكون نهاية الطامعين وعاقبة الطمع.

من حسن إسلام المرء (2)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب. وقد قال أحد العلماء: إن أصول آداب الخير تتفرع من أربعة أحاديث، هي قولُه صلى الله عليه وسلم «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت» ، وقوله صلى الله عليه وسلم للذي اختصر له في الوصية «لا تغضب»، وقوله صلى الله عليه وسلم «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وحديث «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»، خلق مهم وهو أن يترك الإنسان التدخل في شؤون الآخرين، والتَرك المقصود في هذا الحديث يشمل أمورًا كثيرة، منها ترك فضول النظر بالعين الجارحة، وترك فضول الكلام باللسان الجارح، وإشغال البال في أمور ليست بذي بال، ولقد لوحظ أن البعض يُشغل نفسه ويتدخل فيما لا يخصه، وكأنه وصيٌّ على الناس أو كأنه مسئولٌ عنهم، يا أخي دع الخلق للخالق، لِمَ تحشر نفسك وأنفك فيما لا يخصك وفيما لا يعنيك، وفي المجتمع أناس تراهم يُشغلون أنفسهم بمراقبة الآخرين، فتجد منهم من يكثر القيل والقال وهو كل كلام لا مصلحة فيه، وتجده يسأل عن أحوال الناس وعن أمورهم الخاصة من غير سبب يقتضي ذلك، بل تجده يتتبع عورات الناس والتفتيش عنها والتشهير بذكرها وفي المقابل قد يشتغل بعضهم بأمور ظنًا منهم أنها مما تعنيه وهي مما لا فائدة فيها، وإذا أقبل على الناس قالوا هذا فضولي ثرثار، فهو مكروه وثقيل إن حضر مجلسا تركه الناس، وإن غاب عن مجلس أكثروا فيه الحديث عنه، والمصيبة أنه يظن في نفسه أنه ناصح وأمين، قد

تكون نيته سليمة وقد تكون سيئة، وفي كلا الحالتين فهو مأمور بترك ما لا يعنيه، إن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «احرص على ما ينفعك»، فمن اشتغل بالناس نسي أمر نفسه، ومن اهتم بأمور الناس أهمل شؤون نفسه، وأوشك اشتغاله بالناس أن يوقعه في أعراضهم بالقيل والقال، فاحذر أيها المهتم بأمور الناس، أن تقع في هذه الصفة، فكلنا لا يحب أن يكون منبوذًا بين الناس، فإذا أردت أن يَحْسُن إسلامك، فدع كل أمر لا يخصك ولا يعنيك.

الناس معادن

معرفة معادن الناس أمر مهم، فمن خلال ذلك يستطيع الإنسان أن يتعامل مع الناس بحسب طبائعهم ومعادنهم، والمعدن هو الشيء المستقر في الأرض كما هو معروف، وكلنا يعلم بأن المعادن منها ما هو نفيس ومنها ما هو خسيس، وكذلك الناس معادن، فمن الناس من معدنه نفيس، ومن الناس من معدنه خسيس، والنفاسة والخسة في معادن الناس لا علاقة لها بالنسب والحسب والقبيلة والدولة، وإنما نفاسة الناس وخستهم تقاس بحسب ما معهم من التقوى والدين والخوف من الله والالتزام بأحكام الإسلام، وبما اتصفوا به من محاسن الأخلاق والفضائل من العفة والحلم والمروءة وغيرها من الصفات الحميدة، وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس؟ قال: أكرمهم أتقاهم، قالوا: يا نبي الله، ليس عن هذا نسألك، قال: فأكرم الناس يوسف نبيُّ الله ابن نبيَّ الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: أفعن معادن العرب تسألونني؟ قالوا: نعم، قال: فخياركم في الجاهلية، خياركم في الإسلام إذا فقهوا، بل إن القرآن الكريم قام بفرز الناس وتحديد معادنهم فمثلا سورة البقرة وهي أكبر سور القرآن، بدأت بتقسيم الناس إلى ثلاث فئات: فئة

تؤمن بالله، وأخرى كافرة، وثالثة حائرة مترددة مخادعة وهم المنافقون، كما ورد في السورة نفسها توضيح بأن الناس معادن فقد قال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]، وقال تعالى ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤] وقال تعالى ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وكل هذا ذكر لمعادن الناس بحسب قربهم وبعدهم عن دين الله سبحانه وتعالى، فإذا علمت ذلك فأي معدن تحب أن يكون معدنك، فاحرص أن يكون معدنك كالذهب، لا سيما هذه الأيام فسعر الذهب يتصاعد ويزداد ثمنه كل يوم.

أنا ابنُ حاتمٍ طيّئ

حب الخير من مكارم الأخلاق، وللخير أهل ورعية، وهم أحب الناس لكل الناس، جاء في الحديث فعن عبد الله بن مسعود قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل راكب حتى أناخ بالنبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أتيتك من مسيرة تسع، أنصبت بدني، وأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري لأسألك عن خلتين أسهرتاني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب الخير وأهله ومن يعمل به، وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه، فقال له صلى الله عليه وسلم: هذه علامة الله فيمن يريده وعلامته فيمن لا يريد، ولو أرادك بالأخرى هيأك لها ثم لا يبالي في أي واد هلكت - وفي لفظ: سلكت)، يعني هذا الذي أراده الله، هذا الذي أحبَّه الله، وهذا الذي قرّبه الله، ما علامتهُ؟ ما صفته؟ ما شأنه؟ ما الدليل على أنّ الله يحبّه؟ ما علامة الله فيمن يريد؟ وما علامته فيمن لا يريد؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحب

الخير وأهله ومن يعمل به، وإن عملت به أيقنت بثوابه، وإن فاتني منه شيء حننت إليه؛ فقال له صلى الله عليه وسلم: هذه علامة الله فيمن يريده، امرأة اسمها سفّانة وقَعَت أسيرة في عهْد النبي صلى الله عليه وسلّم، فلمّا مرّ النبي عليه الصلاة والسلام لِيَتَفَقّد أحوال الأسرى، وقفَتْ بأدبٍ جمّ، وقالَتْ يا محمّد: هلك الوالد، وغاب الوافد، فإنْ رأيْتَ أن تُخَلّي عنّي، ولا تُشْمِت بيَ الأعداء، ولا تُشْمِتْ بيَ أحياء العرَب فإنّ أبي سيّد قومه، كان يفكّ العاني، ويعفو عن الجاني، ويحفظ الجار، ويحمي الثّمار، ويفرّج عن المكروب، ويطعم الطّعام، ويفشي السلام ويحْملُ الكلّ، ويُعينُ على نوائب الدّهر، وما أتاهُ أحدٌ بِحاجةٍ فردَّهُ خائبًا أنا بنتُ حاتِم طيّئ، تأثّر النبي عليه الصلاة والسلام لهذه المكارم الأخلاقيّة التي ذكرتها هذه الأسيرة، قال: هذه صفات المؤمن حقًّا، لو كان أبوك إسلاميًّا لترحَّمْنا عليه، خلُّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق.

سباق الفور مولا

لا لا أعني سباق السيارات ولكنه سباق من نوع آخر، ومضمار من نوع آخر، لقد جرى هذا التسابق بين أبي بكر وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما وفي أعظم مضمار سباق شهدته الدنيا، قال عمر رضي الله عنه يومًا: لأسبقن أبا بكر اليوم، فخرج بنصف ماله، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: يا عمر ما تركتَ لأهلك؟، فقال تركتُ لهم مثله، ثم جاء أبو بكر الصديق بماله كله، فقال له صلى الله عليه وسلم: يا أبا بكر ما تركتَ لأهلك؟، قال: تركتُ لهم الله ورسوله، فقال عمر رضي الله عنه لا أسبقك أبدا، يا أبا بكر، إنه عمق الإيمان، وصدق اليقين بالله، وإخلاص التوكل عليه، والشعور بجسد الأمة الواحد، وإلا ما الذي يدفع الصديق أن يخرج بماله كله، وعمر بنصف ماله؟! إنها الصدقة شعار المتقين، ولواء الصالحين المصلحين، وزكاة للنفوس، ونماء في المال، وطهرة

للبدن، ومرضاة للرب، بها تدفع عن الأمة البلايا والرزايا، وتطهّر القلوب من أدران التعلق بهذه الدنيا وشهواتها وملذاتها، قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، فهذا سباق عجيب، وتنافس شريف، وهدايا كريمة، وأجور مضاعفة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يتصدق أحد بتمرة من كسب طيب إلا أخذها الله بيمينه، فيربيها كما يربي أحدكم فَلُوَّهُ أو قَلُوصَهُ حتى تكون مثل الجبل أو أعظم، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: نبئني يا رسول الله عن مالي كيف أتصدق فيه؟ قال: (نعم والله لتنبأن، أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تأمل العيش وتخاف الفقر، ولا تُمْهِل حتى إذا بلغت نفسك هاهنا قلت: ما لي لفلان ومالي لفلان، وهو لهم وإن كرهت)، فهلّم إلى هذا السباق ولتكن سرعتك خاطفة قبل أن يسبق العمر وينتهي الأجل فتخسر وتندم حيث لا يفيد الندم.

الحب الذي نريد

الحبّ حالة نفسيّة وعاطفية تنبع من جذور أعماق قلب الإنسان لتمنحه السعادة والهناء، وتربطه بالمحبوب، والحب شعور فطري وهو رابطة روحيّة، وإحساس نفسي، وشعور وجداني، ومنبع متدفق، وصوت هائم يعيش في أعماق النفس، ويتّخذ الحب أشكالًا شتّى من التعبير، وللحب أهمية في حياة الإنسان فهو الهواء الذي يتنفسه الإنسان، وله قيمة في سعادة الفرد والأسرة والمجتمع، ولكن المشكلة أن البعض يفهم الحب خطأً فيفقد المعاني السامية التي يحملها الحب، لقد اعتبر الإسلام الحب قيمة عليا في رسالته، وهدفًا ساميًا يقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: والّذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنّة حتّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتّى تحابّوا، أَوَلا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه

تحابيتم: أفشوا السّلام بينكم فهنا يؤكد صلى الله عليه وسلم بأن الحب أثر لعمل صالح ونتيجة من نتائج الدين والإيمان، ولذلك يقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] وقال تعالى: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، فالدين هو الحب، والحب هو الدين، هذا التعريف الفريد في عالَم الإنسان للدِّين والحبّ، يعرِّفنا بمحتوى الدِّين ومحتوى الحبّ، فالدِّين حبّ لله وللناس وللخير، والحبّ مقدّس عندما ينطلق من حبّ الله تعالى، وعندما ينطلق من حبِّ الخير، والبشريّة بحاجة إلى حبّ الإسلام، الحبّ المجرّد من الرِّبح والحساب المادِّي، إن للحب مفاهيمَ وقيمًا فلسفية مُجرّدة، جسّدها الإسلام منهجًا عمليًّا يستوعب قلب الإنسان وروحه وعقله وحسّه ونشاطه وغرائزه فالحبّ في الإسلام هو حبّ الله تعالى وحب رسوله صلى الله عليه وسلم، وحب الوالدين وحب الزوجة والأبناء وحب الوطن، وحب العمل والعلم والتقدم والنجاح، وحب الخير، إن الحبّ الإلهي عشق يملأ حياة الإنسان سعادة ورضا، ويصنع نفسا توّاقة إلى عالم الجمال وعالم الرقي والكمال. فهذا هو الحب الذي نريد.

بين الحوار والمجادلة

للحوار في الإسلام أدب وثقافة، ونحن أمة الإسلام خير من حاور وتحاور، فنحن لا نُسفه فكر الآخرين ولا معتقداتهم، ولكن نرجو منهم أن يحترموا رأينا ويكون الحوار بالتي هي أحسن، والاختلاف يولد الائتلاف، والاختلاف في الرأي يزيد الود في أي قضية بين العقلاء، إنني أقدّرك وأنت توافقني الرأي، وتقديري أكبر وأنت تخالفني الرأي، ما أكثر الكلام الجميل الذي قيل في الحوار ولكن في التطبيق العملي نجد البون شاسعًا بين الكلام والتطبيق، إن الحوار هو منهج الله تعالى حيث يقول تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ

سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] والإسلام دين الحوار، وبعبارة أخرى إن الحوار منهج قرآني، فالإنسان المسلم يتحاور مع الآخرين، والحوار في القرآن الكريم جاء على كثير من المستويات، فقد كلم الله تعالى الملائكة واستمع إليهم، يقول سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠] ، وكذلك حاور الله تعالى رسله، يقول تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وأيضًا حاور الله تعالى إبليس، يقول الله تعالى ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، فالحوار منهج قرآني رباني، ولكن المشكلة أن البعض منا يظن بأن الحوار ساحة للحرب، فيعد لنفسه أسلحة وحججًا يرمي بها المخالفين له، إن كان بالصراخ والعصبية فبها، وإلا فبالإساءة وقلة الإحترام، وهؤلاء ليسوا أهلا للحوار، لأن الحوار إنما هو كلام حسن، وأسلوب حكيم للتعرف على آراء الآخرين، ومناقشتها بطرق سلمية ودية، وأذكر أنني جادلت الكثير في الكثير من المسائل لم أجد ممن جادلته نزل على رأيي، بل أجده يتمسك برأيه ويزداد عنادا ونفرة، فأخذت على نفسي عهدا أن لا أجادل، وحسبي في ذلك حديث الرسول صلى الله عليه وسلم «أنا زعيم ببيت في ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا»، فالرسول صلى الله عليه وسلم زعيم أي ضامن ببيت في ربض الجنة أي في أطرافها لمن ترك المراء وإن كان محقًا، والمراء هو الجدل الذي لا يعود لمصلحة في الدين، لا إلى إحقاق الحق، ولا إلى إبطال الباطل، إنما هو مجرد مجادلة.

بين الإيثار والأثرة

أما الإيثار فهو خلق عظيم، يقدم الإنسان حاجة غيره من الناس على حاجته، برغم احتياجه لما يبذله، فقد يجوع ليشبع غيره، ويعطش ليرتوي سواه، وأما الأثرة فهي خلاف ذلك فهي حب النفس، وتفضيلها على الآخرين، فهي عكس الإيثار، وهي صفة ذميمة نهى عنها النبي صلى الله عليه وسلم، فما أقبح أن يتصف الإنسان بالأنانية وحب النفس، وما أجمل أن يتصف بالإيثار وحب الآخرين، يقول صلى الله عليه وسلم: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه)، ومما يروى في الإيثار أن حذيفة العدوي انطلق في معركة اليرموك يبحث عن ابن عم له، ومعه شربة ماء، وبعد أن وجده جريحًا، قال له: أسقيك؟ فأشار إليه بالموافقة، وقبل أن يسقيه سمعا رجلًا يقول: آه، فأشار ابن عم حذيفة إليه ليذهب بشربة الماء إلى الرجل الذي يتألم، فذهب إليه حذيفة، فوجده هشام بن العاص، ولما أراد أن يسقيه سمعا رجلًا آخر يقول: آه، فأشار هشام لينطلق إليه حذيفة بالماء، فذهب إليه حذيفة فوجده قد مات، فرجع بالماء إلى هشام فوجده قد مات، فرجع إلى ابن عمه فوجده قد مات، فسبحان الله كلهم ماتوا لأن كلَّ واحد منهم يؤثر أخاه على نفسه بشربة ماء، وجاء رجل جائع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد، وطلب منه طعامًا، فأرسل صلى الله عليه وسلم ليبحث عن طعام في بيته، فلم يجد إلا الماء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من يُضيِّف هذا الليلة رحمه الله، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، وأخذ الضيفَ إلى بيته، ثم قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا إلا قوت صبياني، فلم يكن عندها إلا طعام قليل يكفي أولادها الصغار، فأمرها أن تشغل أولادها عن الطعام وتنومهم، وعندما يدخل الضيف تطفئ السراج، وتقدم كل ما عندها من طعام للضيف، ووضع الأنصاري الطعام للضيف، وجلس معه في الظلام حتى يشعره أنه

يأكل معه، وأكل الضيف حتى شبع، وبات الرجل وزوجته وأولادهما جائعين، وفي الصباح، ذهب الرجلُ وضيفه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال للرجل: قد عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة، ونزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] والخصاصة: شدة الحاجة، فهذه قمة الأخلاق، والفرق بين الإيثار والأثرة، كالفرق بين الثرى والثريا.

كتمان الأسرار

كتمان الأسرار من الأخلاق الحميدة والصفات الفاضلة، ولا يقدر على ذلك إلا ذوو الشهامة والمروءة، وفي زماننا قلما تجد من يكتم السر، ولا أدري ما السبب في ذلك، وكأن الناس يرون في سرعة تناقل الأخبار وإفشاء أسرار الناس سبقا ومدحا، وذلك من الآفات البغيضة والتي يتضرر منها الناس كثيرًا، وقد ورد في فضل كتم السر وعدم إفشائه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: (من أسرَّ إلى أخيه سرًا فلا يحل له أن يفشيه عليه)، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (من كتم سره كان الخيار بيده، ومن عرَّض نفسه للتهمة فلا يلومنّ من أساء الظن به)، وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله: (القلوب أوعية، والشفاه أقفالها، والألسنة مفاتيحها، فليحفظ كل إنسان مفتاح سره)، وكتمان السر هو حفظه وإخفاء ما لا يجب أن يعرفه الناس من الأمور الخاصة، ونحن اليوم بحاجة إلى كتم الأسرار في كل مكان وفي كل علاقة، فعلاقة الزوج وزوجته كلها أسرار، وكذلك المهن والعمل كلها أسرار لا يجوز للموظف إفشاؤها، والطبيب بينه وبين مريضه أسرار، والسكرتير مع مديره ورئيسه كل الذي بينهما أعمال وأسرار لا يجوز البوح بها، وما بين الأصدقاء والأحبة أمور وأسرار وكتمانها سبب بقاء المودة والمحبة بينهم، ومما قاله الحكماء في كتم السر وعدم إفشائه: من

أفشى سره أفسد أمره، ومن كتم سره ملك أمره، فكن كاتما للسر كالقبر لا يبدي أسرار ما فيه، إلا إذا دُعيتَ لشهادة حق، فاصدع بالحق كما قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ونشر العلم ليس فضحا للأسرار بل هو نشر للخير، ومن عمل ذلك فهو مأجور غير مأزور، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢]، ويأتي كاتم العلم يوم القيامة وعلى فمه لجام من النار؛ لأنه كتم العلم وبخل به على الناس، يقول صلى الله عليه وسلم: (من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة)، فكن أهلا لحفظ الأسرار، وإياك أن ينفلت لسانك بالسر إلا في الشهادة والعلم، فالسر غيب يجب أن لا يعلمه إلا الله تعالى.

البخل أنواع

ليس البخل فقط بحبس المال وكنزه، وليس البخل فقط بجمع المال وحرمانه من مصارفها، فالبخل أنواع وأشكال وهي في المقصد والغاية سواء، فهناك من يبخل بالعلم، فهذا بخيل وإن كانت يده طلقة في إنفاق المال، وهناك من هو بخيل بالمشاعر والأحاسيس غليظ القلب، فهذا بخيل وإن كان يخرج المال ولا يضن به، فالبخل أنواع وإن تفاوتت هذه الأنواع وتعددت، ولكنها لا تخرج من مضمون البخل وحدوده، والبخل عموما مرض، وهو كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أيُّ داءٍ أدوى من البخل)، ومن بين أنواع البخل، عدم الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر، كما أخبر بذلك رسولنا صلى الله عليه وسلم عندما قال: «البخيل من ذكرتُ عنده ولم يصلِّ علي»، أليس هذا بخلًا ذميمًا، وصاحبه متكبر مريض، فكيف يُذكر خير البشر والله تعالى وملائكته يصلون عليه، وهذا السامع لا يصلي عليه، والله تعالى يقول

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، ومن بين أنواع البخل كذلك عدم رد السلام، وللأسف صار بين الناس اليوم ترك السلام واستبداله بعبارات لا أصل لها في الدين، وذلك بخل ذميم، فقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم (وأبخل الناس من بخل بالسلام)، فهذا بخل وبغض للناس، ولك أن تعرف بأن عبدالله بن عمر كان كريمًا يحب السلام ولا يبخل به عن الناس، فقد كان يغدو إلى السوق فقط من أجل السلام، فعن الطُّفيل بن أبيِّ بن كعب أنه كان يأتي عبد الله بن عمر فيغدو معه إلى السوق، فلا يلقى أحدًا ولا صاحب بيعة، ولا مسكينًا إلا سلم عليه؛ قال الطُّفيل: فجئت عبد الله بن عمر فقلت له ما تصنع بالسوق وأنت لا تقف على البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، فقال عبدالله بن عمر: إنما نغدو من أجل السلام فنسلم على من لقيناه. فكن يا رعاك الله كريمًا في كل شيء، واحذر البخل بكل أنواعه، فالبخل بخلٌ وإن تعددت أساليبه، والبخيل بخيل ومريض وإن تنوعت أعراضه، فإياك والبخل.

الظلم ظلمات

أن يظلم الإنسان غيره، وأن يأكل حقه، وأن يتهمه بالباطل، وأن يتطاول عليه باليد أو باللسان، أو أن يغشه، أو أن يأكل ماله ويمس عرضه وأهله وعياله، كل ذلك ظلمات تجعل بياض الحياة سوادًا قاتمًا، وتجعل قلب الإنسان الظالم ميتًا خاليًا من أي ذرة من حياة، فيا من تظلم وأنت مقتدر، قف مكانك فأنت مهما ملكت فأنت أضعف من جرثومة، وأذل من تراب، فلم الظلم، والظلم حرام حرمه الله تعالى على نفسه، وأنزل اللعنة على الظالمين، عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: (يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي

وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا)، وقال صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة)، وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته)، ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، فيا من تظلم غيرك احذر واعلم بأنك واقف بين يدي الله تعالى يحاسبك عن ظلمك، ولا تغتر بنفسك فتقول إنني غير محاسب، فكفى ما تُمني به نفسك، وكفى هذا الغرور، فإن تبت فالتوبة لن تكون كافية، بل عليك أن ترد المظالم لأصحابها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه)، وأما أنت أيها المظلوم فقد نصرك الله عز وجل، فذاك الظلم لا يتركه الله تعالى فلا بد من أخذ الحق للمظلوم من الظالم كما قال الله سبحانه في الحديث الإلهي: (وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين)، فالأمر جلل، وليس فيه هزل، فالظلم ظلمات وفيه حقوق، فاحذر أن تكون ظالما فتخسر آخرتك بدنياك، وقد تأتي يوم القيامة بكثير الحسنات فإذا بالظلم يأكلها حتى تتجاوز سيئاتك حسناتك، فلا يبقى لك شيء ولا الدراهم والدنانير تنفعك، إلا رحمة من الله تعالى إن شاء يرحمك وإن شاء عذبك.

إنها أمانة

المسئوليات همٌ ثقيل على النفس، ولو يعلم الإنسان ثقل الأمانة، لما سعى لمنصب أبدا، وإن كان أكثر الناس إذا رأى منصبًا سعى له وأراد أن يشغله قبل أن يشغله غيره، ويظن أن المسئولية تشريف لا تكليف، وإن فاته منصب تحسر عليه، وإن فاز به

ظن أنه نال مكرمة وميزة على الناس، وعلى كثرة سعي الناس للمناصب فقد شغلها من يستحقها ومن لا يستحقها، ومن هو أهلٌ لها ومن هو ليس لها بأهل، وتلك من علامات الساعة أن يُوسد الأمر إلى غير أهله، ورحم الله زمانًا كان الفقهاء والعلماء يتهربون من المناصب ويفرون منها لا عجزًا عنها، وإنما خوفًا من حملها وهي أمانة وأنها يوم القيامة خزي وندامة، وقد جاء سيدنا أبو ذر رضي الله عنه يسأل النبي صلى الله عليه وسلم الإمارة فقال له صلى الله عليه وسلم: يا أبا ذر إنك ضعيف، وإنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذي عليه فيها، وفي الرواية الأخرى: يا أبا ذر إني أراك ضعيفا، وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأمّرنّ على اثنين، ولا تولين مال يتيم.، وهذا أصل عظيم في اجتناب الولايات، لا سيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يجامل أبا ذر في حمل الأمانة، بل قال له بكل صراحة «إنك ضعيف»، ومن حمل أمانة وهو ضعيف فهي خزي وندامة أي من كان ضعيفا وحمل أمانة وهو ليس لها بأهل فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه، ويندم على ما فرط، وذلك في الإنسان الضعيف الذي يجري خلف المناصب لشهرة، فإذا وصل ضيع الحقوق وضيع الواجبات، وضاعت مصالح الناس، وأما من كان أهلا للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم، فالإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، والمقسطون القائمون على منابر من نور، فيا من تسعى لمنصب وأنت له ضعيف وغير قادر على حمل حقيبته وأنت به جاهل، فاحذر ذلك والزم الورع، فإنها أمانة وإنها يوم القيامة خزي وندامة.

بين الصواب والخطأ

الخطأ أمر طبيعي، ومن لا يخطئ فليس بإنسان، فكل إنسان ذو خطأ، ومن لا يعرف الخطأ لن يعرف الصواب، ولكن يجب عدم التمادي في الخطأ بل يجب تصحيحه، ولقد زخرت السنة بمواقف عديدة في تصحيح الأخطاء حتى كانت منهجًا نبويًا فريدًا في التعامل مع أخطاء الناس ولا بد أن يوطن الإنسان نفسه أن الخطأ طبيعة البشر فلا يطلب من الإنسان أن يكون كاملا، وعلينا أن نفهم كيف نتعامل مع الخطأ حتى نصل إلى الصواب فيجب التفريق بين المخطئ الجاهل والمخطئ عن علم، ويجب كذلك التفريق بين من يخطئ عن قصد وعمد وبين من يخطئ عن جهل وغفلة، ولا بد من التفريق بين الخطأ في حق الشرع وفي حق الخلق وبين الخطأ الكبير والخطأ الصغير، والإنسان الأواب هو الذي يصحح الخطأ بكل إخلاص وإرادة ويزيل آثار الخطأ من أصوله وجذوره، ويفهم سياسة التصحيح فهو لا يبالغ في تضخيم الخطأ، ولا يصلح الخطأ الصغير إصلاحا يؤدي إلى خطأ أكبر منه، كما أنه يعذر المخطئ في خطئه، والموعظة والتذكير سبيل قويم في التصحيح دون تعنيف المخطئ، وفي سياسة النبي صلى الله عليه وسلم في تصحيح أخطاء المخطئين رحمة وحكمة، فقد روي في الحديث أن أعرابيا جاء يلطم وجهه وينتف شعره ويقول: ما أراني إلا قد هلكت، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وما أهلكك؟، قال أصبت أهلي في رمضان، فقال صلى الله عليه وسلم أتستطيع أن تعتق رقبة، قال لا، قال أتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين، قال: لا، قال: أتستطيع أن تطعم ستين مسكينا، قال لا وذكر الحاجة، قال فأُتي النبي صلى الله عليه وسلم بتمر، قال النبي صلى الله عليه وسلم أين الرجل، قال أطعم هذا، قال يا رسول الله ما بين لابتيها أحد أحوج منا أهل البيت، قال فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه قال أطعم أهلك.

ما خاب من استشار

التشاور طريق يوصل إلى الصواب، والإنسان يمثل رأيه المتأثر بالهوى وحب الذات ولا شك، ولكن التشاور مع الآخرين يفتح الآفاق، وترى العين ما لم تره، وتتكشف لها الجوانب التي غابت، وعجبًا لمن يتبع سياسة ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، تلك العقلية صارت من العادات التي يرى البعض من العيب مخالفتها فصار الزوج عيبًا عليه أن يستشير زوجته، وصار الكبير من المخجل أن يستشير الصغير، ومن في منصب من المناصب صار من الجهل أن يستشير من هم أقل منه في المنصب، وتلك مصيبة أن يرى هذا الإنسان أن من هم دونه من الناس لا رأي لهم، فليس كل إنسان كاملًا، ولكنه يكمل ما ينقصه من رأي ووجهة نظر من الآخرين، يقول صلى الله عليه وسلم: ما خاب من استشار، وليس هذا الإنسان بأفضل من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خاطبه الله عز وجل بقوله ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] في الأمور الدنيوية، وقد تشاور مع أصحابه في بدر والنبي صلى الله عليه وسلم وهو معلم الأمة قال: أشيروا عليّ أيها الناس، ويوم الخندق استشار أصحابه في حفر الخندق، وفي صلح الحديبية استشار زوجته أم سلمة دون أي حرج أو خجل، وأثنى الله على المؤمنين بقوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨] والشورى هي طلب المشورة من أهل الخبرة والتجربة حتى يتبين له الصواب فيتبعه، ويتضح له الخطأ فيجتنبه، يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه: ما رَأَيْتُ أحدًا قَطُّ كان أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقول صلى الله عليه وسلم: من أراد أمرًا، فشاور فيه امرأً مسلمًا وفقه الله لأرشد أموره، فالزم المشاورة فهي عين الهداية، وهي دليل حسن التصرف

والتدبير، وبالمشاورة يستفيد الإنسان من تجارب غيره، ويشاركهم في عقولهم، ويتجنب الخطأ والضرر، ويكون أقرب إلى الصواب.

هدية مني إليك

الإنسان بطبعه لا يحب أن ينتقده أحد، وقد تكون منازعات وخصومات بين الأحبة، بسبب النقد، ولكن ديننا الإسلامي يبين لنا كيف يجب أن يكون النقد، وكيف نقبل الانتقادات ولو كانت صعبة، فمن كان في ثوبه شيء، وهو لا يراه أو هو غافل عنه، فمن ينبه، ومن ينصحه، أليس أخوه أقرب الناس إليه، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول «المؤمن مرآة أخيه»، فالمرآة تكشف الأخطاء، وكذلك المسلم يكشف لأخيه ما به من عيوب وذلك عن طريق المناصحة، وهكذا النقد إنما هو مرآة تكشف العيوب، وكلما كان النقد خالصًا وصادقًا وبأسلوب حسن وكلام لطيف كلما كان مؤثرًا ومقبولًا، وكذلك المرآة كلما كانت نقية كلما كان كشفها للعيوب أوضح وشفافيتها في ذلك أكثر، وقد قال عمر رضي الله عنه: «رحم الله عبدًا أهدى إلي عيوبي»، وللنقد أدوات ومنها الحوار بالتي هي أحسن وبناء الحجة والقدرة على إقناع الآخرين، كلها أدوات تحتاج إلى خبرة وتدريب، كما يحتاج حامل السيف إلى تعلم فنون القتال، ولكي يتعود الإنسان سماع النقد لا بد وأن يعرض نفسه لمرآة النقد فيتهمها بالتقصير وبالخطأ، فما أجمل أن يعيد الإنسان تنظيم نفسه من حين لآخر وأن يرسل إلى نفسه نظرات ناقدة ليتعرف على عيوبها وآفاتها، وأن يرسم سياسات التصحيح ليتخلص من هذه الهفوات التي تبتلى بها النفس، فإن رأيت أن النفس لا تظهر العيوب، وأنها مكابرة ومغرورة، فاستعن بصديق، نعم استعن بصديق مخلص، ورفيق صالح، واسأله هدية غالية، اسأله أن يهديك عيوب نفسك، فإن أخطأت نصحك وأمسك بيدك وهمس بأذنك، وقال يا

صديقي الحميم إنك أخطأت وهذه عيوبك ظاهرة في المرآة، فلا تحرج أن تكون الهدايا نقدًا بنّاءً، وعيوبًا تُكشف، والقصد من ذلك كله إعادة البناء والتصحيح، فأنت أيها الإنسان تحب الهدايا، وخذ مني هذه الهدية فرحم الله امرأً أهدى إلي عيوب نفسي.

الباب الثالث

وقفات مع النفس والحياة

(٣٢ مقالة)

جريمة قتل

نعم هي جريمة قتل يقترفها الإنسان وهو لا يدري، فالجريمة قتل مع سبق الإصرار والترصد، والجاني هو الإنسان والمجني عليه هو الوقت، فالبعض يقتل الوقت بتضييعه، ويقتل الوقت بإهماله، ويقتل الوقت بتسويفه، وكلها جرائم قتل في حق الوقت الذي هو عمر الإنسان، قال الحسن البصري: يا ابن آدم، إنما أنت أيام، إذا ذهب يوم ذهب بعضك ، وقال: يا ابن آدم، نهارك ضيفك فأحسِن إليه، فإنك إن أحسنت إليه ارتحل بحمدك، وإن أسأت إليه ارتحل بذمّك، وكذلك ليلتك، وقال: الدنيا ثلاثة أيام: أما الأمس فقد ذهب بما فيه، وأما غدًا فلعلّك لا تدركه، وأما اليوم فلك فاعمل فيه، وقال ابن مسعود: ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه، نقص فيه أجلي، ولم يزدد فيه عملي، وقال ابن القيم: إضاعة الوقت أشد من الموت، لأن إضاعة الوقت تقطعك عن الله والدار الآخرة، والموت يقطعك عن الدنيا وأهلها، وقتل الوقت يكون بآفات وعوائق وهي كثيرة تضيِّع على المسلم وقته، وتكاد تذهب بعمره كله إذا لم يفطن إليها ويحاول التخلص منها، ومن هذه العوائق والآفات الغفلة وهي مرض خطير ابتلي به معظم المسلمين حتى أفقدهم الحسَّ الواعي بالأوقات، وقد حذَّر القرآن من الغفلة أشد التحذير حتى إنه ﷻ ليجعل أهلها حطب جهنم، يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، والتسويف وهو آفة تدمر الوقت وتقتل العمر، وللأسف فقد أصبحت كلمة «سوف» شعارًا لكثير من المسلمين وطابعًا لهم، يقول الحسن: إياك والتسويف، فإنك بيومك ولست بغدك، وخطر التسويف أنك لا تضمن أن تعيش إلى الغد، وإن ضمنت حياتك إلى الغد فلا تأمن المعوِّقات من مرض طارئ، أو شغل عارض أو بلاء نازل، واعلم

أن لكل يوم عملًا، ولكل وقت واجباته، فليس هناك وقت فراغ في حياة المسلم، كما أن التسويف في فعل الطاعات يجعل النفس تعتاد تركها، ومن الأقوال المأثورة في الحث على استثمار الوقت واقتناص فرصه، حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغَنَاءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك، فاحذر أيها المسلم جريمة القتل هذه وبادر باغتنام أوقات عمرك في طاعة الله واحذر من التسويف والكسل ولا تكن قاتلا للوقت، بل معمرا ومحييا له بالجد والعمل.

حساب الحسنات والسيئات

الدنيا مسرح عمل ودار ابتلاء، والعمل هو أساس الفلاح، قال تعالى ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، فعلى المؤمن أن يبذل أقصى جهده، وأن يعمل الصالحات، ويتجنب المعاصي، ويستغفر الله ويتوب إليه بعدم العودة إلى المعصية، وذلك في كل مرة يخطئ فيها، وفي حساب التسجيل للحسنات والسيئات معادلة بسيطة ولكنها صعبة يقول الله تعالى ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فالحسنة بعشرة من الناحية الإيجابية، والسيئة بمثلها من الناحية السلبية، وهذا يعني بأن الحسنة تفوق السيئة تسعة أضعاف، وهذا يعطي قوة دفع إلى الأمام، بسبب تجاوز الحسنات للسيئات لو كان الأمر مرتبطًا بالطريقة الحسابية البسيطة، لكننا لا نستطيع حساب كل عمل له حسنة أو سيئة بوحدة القياس نفسها، فالذنوب صغائر وكبائر، ولكل عقابه ودرجته، النظرة المحرَّمة

تختلف عن الزنا، والكلمة البذيئة تختلف عن الغيبة، مع أن كل واحد من هذه الأعمال سيئة بذاتها، إلاَّ أنها بوحدة قياس حسابية مختلفة لا يعلمها إلا الله، فقد تساوي سيئة واحدة ما مجموعه مائة سيئة من ذنب صغير، وكذلك تختلف الحسنات بدرجاتها، فلكل حسنة عشر أمثالها أي بحسبها وبقيمتها، فإزاحة الأذى عن طريق المارة حسنة تختلف عن إنقاذ الغريق، وإصلاح ذات البين بين متخاصمين حسنة تختلف عن الجهاد والذود عن بلاد المسلمين، والصدقة التي تُطعم جائعًا تختلف عن الموعظة التي تهدي إنسانًا إلى الإيمان، مع أن كل عمل من هذه الأعمال حسنة، إلاَّ أن قيمتها متفاوتة، فرب حسنة عادلت مائة حسنة صغيرة، لكن هي بعشر أضعاف من مثلها وليس من مثل غيرها، فقد تكون بألف ضعف أو غير ذلك، من منَّا يستطيع القيام بمثل هذا الإحصاء الدقيق؟، وهل نعرف بدقة قيمة كل حسنة وكل سيئة لنجمع رصيدنا العام من الحسنات والسيئات؟، بل من طلب منّا أن نُشغل أنفسنا بمثل هذا الحساب الشاق والمضني؟! دع ذلك لله يوم يأتي يوم الحساب فتأخذ كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فاحرص أن تأخذ هذا الكتاب بيمينك لا بشمالك!

احذروا «سوف»

الغفلة مرض يصيب العقل والقلب، فيصبح الإنسان منشغلا فاقد الحس والوعي بالأحداث فتمضي عليه الأيام وهو غارق في لجج الدنيا وملذاتها، لا يفيق وإذا ذُكر بمصيره قال سوف أعمل للغد، وإذا قيل لا تغفل عن آخرتك، قال سوف أنتظر موسم الحج لعلي أتوب، وإذا قيل له تنبه فالعمر قصير، قال سوف يأتي رمضان لعلي أستدرك، وتلك آفة من أشد الآفات خطرا على انتفاع الإنسان بيومه وحاضره، فالتسويف والتأجيل من عمل الشيطان الذي يُؤمِّل الإنسان، ويزرع في نفسه الأمل،

بينما الموت لا يعذر أحدا لحظة، وإنما يأتي فجأة، ومن هنا كان دعاء سيدنا أبي بكر رضي الله عنه: «اللهم لا تدعنا في غمرة، ولا تأخذنا على غرة ولا تجعلنا من الغافلين».

وقيل لرجل من عبد القيس أوصنا؟ فقال احذروا من سوف، وقال آخر «سوف» جند من جنود إبليس، لأنها تحبط الإجتهاد، فما بال الناس اليوم غافلين شعارهم كلمة «سوف»، وكأنها تأتي لهم بالفرج والنجاة وكأنها نعمة، ألا فليعلم الناس أن سوف آفة تولد آفات، فتأخير عمل اليوم إلى الغد تعطيل للخير، وهذه سوف التي يمني الناس أنفسهم بها، فيها من التفريط أنها تؤجل عمل الإنسان إلى غد غير مضمون، فهل يضمن أحد أن يعيش إلى الغد، ولو عاش إلى الغد، فهل يضمن أن يبقى بلا طارىء من مرض أو شغل عارض أو بلاء نازل، وقد كان الأولى بالإنسان أن يبادر إلى فعل الخيرات، وأداء الواجبات، فإذا فاتت الفرصة جاءت الغصة وقلت يا ليتني ويا ليتني، ولكن هيهات هيهات، وقال الإمام الحسن البصري: إياك والتسويف، فإنك بيومك، ولست بغدك، فإن يكن غد لك، فكن في غد، كما كنت في اليوم، وإن لم يكن لك غد، لم تندم على ما فرطت في اليوم، وليت شعري من يضمن لأحد أن يعيش إلى غده، والموت يأتي بأسباب شتى:

تزود من التقوى فإنك لا تدري * إذا جن ليل هل تعيش إلى الفجر
فكم من سليم مات من غير علة * وكم سقيم عاش حين من الدهر
وكم من فتى يمسي ويصبح آمنا * وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري

فاحذر أيها المؤمن «سوف» فإنها تحرمك من الخير، وسابق إلى فعل الخيرات، فسوف والموت لا يلتقيان، فإنها تمهلك أما الموت فلا.

الوقت الضائع

يقول البعض تعال نقتل الوقت، وليت شعري من القاتل ومن المقتول؟، إن من يزعم أنه يقتل الوقت فهو يقتل نفسه وهو لا يدري، لأن الوقت هو عمر الإنسان، وهناك اثنان لا يمكن لنا أن نعوضهما بقليل أو كثير إذا نحن خسرناهما، ولن نستطيع أن نسترجع منهما شيئًا ولو جزءا يسيرا، وهما الصحة والوقت، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ.، فالوقت له قيمة، وتأتي قيمة الوقت في كونه لا يعود، ولذلك قيل أرخص شيء في الوجود هو الوقت ولكنه الشيء الوحيد الذي لا يمكن شراؤه، والوقت المفقود لا يشترى بالنقود، فعلى الإنسان الحريص أن يتعلم كيف يستخدم الوقت ليثمر في رصيد أعماله، ولو ذهب الإنسان ينظر إلى مراحل حياته فسيجدها كما قال الشاعر:

ابن عشر من السنين غلام * فره الذيل ثغره بسام
وابن عشرين للصبا والتصابي * ليس يثنيه عن هواه ملام
حُبب الأكل والشراب إليه * وصنوف اللذات وهي حرام
والثلاثون همة وشباب * وهيام وروعة وغرام
وإذا زاد بعد ذلك عشرا * بلغ الغاية التي لا ترام
وابن خمسين تمر عنه صباه * فيراه كأنه أحلام
وابن ستين صيرته الليالي * هدفا للمنون وهي سهام
وابن سبعين لا تسلني عنه * فابن سبعين ما عليه كلام
وإذا زاد بعد ذلك عشرا * بلغ الغاية التي لا ترام
وابن تسعين أقعدته الليالي * واعترته وساوس وسقام
وإذا زاد بعد ذلك عشرا * فهو حي كميت والسلام

فهذه مراحل عمرك أيها الإنسان تمر سريعة بهمومها وأسقامها وحلوها ومرها، ولكنها كتاب الحياة والأيام صفحاته، وهي تطوى إلى أن يغلق الكتاب، وتصبح صحيفة للإنسان يوم القيامة، فكيف تحب أن تلقى هذا الكتاب بيمينك فتفوز، أم بشمالك فتقول ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥-٢٩]، فاحذر يا مسلم تبذير الوقت في معصية، ثم اعلم أن الوقت الذي تصرفه في خدمة دينك وعمارة بلدك ومجتمعك ليس بضائعٍ بل بضائعَ لها قيمتها في سوق الحياة، والوقت من ذهب وهو كالسيف واليوم الذي تعيشه فلا تفقده، والأمس الذي فقدته فلا تأمل عودته، وانظر إلى المستقبل كيف تعمره؟

أيها الأمل

الأمل شيء جميل في حياة الإنسان، والأمل بلا عمل لهو وعبث، يقول الله تعالى ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣]، ويقول صلى الله عليه وسلم هلاك هذه الأمة بالبخل والأمل، إنه الأمل المرتبط باليأس وترك العمل، فهذا أمل مذموم، أما الأمل المرتبط بالتفاؤل والمتبوع بالعمل فهو محمود، وإذا أردت أن تعرف هذا الأمل، فانظر إلى ابتسامة مريض، أو كلمة طبيب تدفع إلى التفاؤل والشفاء، أو انظر إلى سجين مكبل في أغلاله ينظر إلى الحرية بكل تفاؤل، أو انظر إلى صانع أعيته الصنعة ولكنه بعرقه وجده يرجو التوفيق، أو انظر إلى طالب مجتهد يسهر طوال الليل بين الكتب والقراطيس كيف يرجو النجاح والتفوق، أو انظر إلى أم تنتظر وليدها بكل حب وحنان أو انظر عند كل فجر يتفجر ضياؤه مع بزوغ قرص الشمس لتبدأ حياة يوم جديد مليء بالعزيمة والتفاؤل، أو انظر عند إطلالة البدر وهو يعلن ميلاد

شهر جديد ورحلة مستقبل ينتظره كفاح وعمل، فهذا هو الأمل إنه الغد لمستقبل أفضل وحياة أمثل، إنه فسحة الحياة التي تجعل المستحيل ممكنًا والصعب سهلا والبعيد قريبا، إنه الدافع لمواجهة مصاعب الحياة.

إن الأمة الإسلامية اليوم وهي تمر بمرحلة من التراجع عن سلم التقدم، بحاجة إلى سلاح الأمل والعمل ليعيدها إلى مطالع الشرف والكرامة والعزة والإيمان، فيا أيها الأمل كيف جعلت حلمًا في دامس الظلام يضيء حقيقة وواقعًا، ويا أيها الأمل كيف جعلت صحراء جرداء لا نبات فيها ولا ثمر، كيف حولتها إلى واحة غنية خضراء، وكيف جعلت ساعات الانتظار الثقيلة تمر كالسحاب وهو يحمل نسمات باردة، وكيف جعلت الأرواح تتآلف والأيادي تتشابك والأصوات تنطلق لتصل إلى أبعد مدى، كيف جعلت النصر ممكنًا، بعد أن باتت الهزيمة تقوض العزائم وتضعف الهمم، فيا أخي خذ من الأمل غاية، وخذ من العمل طريقًا يوصلك إليها، يقول أحد المجربين في الحياة: إني وجدت الأمل حسناً إذا رافقه العمل، وسيئًا إذا لم يتعد الخيال ولم يتجاوز الرجاء، فليكن أملنا لا حد له، ولتكن العزيمة والعمل وسائل تحمل الأمل إلى غايته.

حديث في الجمال

الجمال صفة يحبها الناس، ولكل إنسان مزاج فيما يرى من جمال، ولكن لا يدرك الجمال إلا من أوتي بصيرة نقية، وقدرة على الملاحظة والتأمل، قيل للجمال أين تسكن؟ فقال في قلوب المحبين، الجمال تجده في كل مظهر من مظاهر الوجود ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ

لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

[النحل: ٥-١٣]، فانظر إلى هذه الآيات وما فيها من جمال، فأجمل شيء هو العالم، لأنه من صنع الله الذي أتقن كل شيء، وفي الإنسان جمال وأي جمال؟! فأجمل ما في الطفولة براءتها، وأجمل ما في الشباب طموحه، وأجمل ما في الصداقة وفاؤها، وأجمل ما في الحب تضحيته، وأجمل تاج للمرأة حجابها، وأجمل شيء في الفتاة قناعتها، وأجمل ما تتكلم به العين هي الصدق، وأجمل صورة في الوجه هي الوداعة، وحسب المرء من الجمال أن يكون شريف النفس لا يتلون ولا يداهن، وللجمال فضيلة وروح وذكاء ومنزلة وقمة وكبرياء في تواضع وتواضع في كبرياء، وأسوأ ما في الجمال أن يدوس على الأخلاق، وينتشي بالغرور والفجور، فأي جميل غره جماله، فهو قبيح، وأي جميل غره ماله، فهو فقير، وأي جميل غره شبابه، فهو عجوز، وهكذا يأبى الجمال إلا أن يكون فجرا جميلا تصحو معه النفس على مناهل الخير، وأملا يتلألأ ويزكي القلب والعين من عبير الوجود. هذا هو الجمال إنه شمس الحياة، ومصدر الدفء والصفاء والإشراق والعطاء.

حساب قبل الحساب

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا، فإنه أهون عليكم في الحساب غدا، أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، فمن منا

اليوم ينظر إلى نفسه ويحاسبها، اللهم إلا القليل، يقول الله تعالى ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]، أي تنظر ماذا قدمت ليوم القيامة من الأعمال، أمن الصالحات التي تنجيه، أم من السيئات التي توبقه، فمن يقف قاضيا على نفسه يحاسبها في جميع أحوالها، لا سيما العلم والمال والعمر والجسم، فمن حاسب نفسه هنا خف حسابه هناك وكان يسيرا، ومن أهمل نفسه هنا، طال حسابه هناك وكان عسيرا، ومعنى المحاسبة أن يتصفح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محمودا أمضاه، وإن كان مذموما استدركه ما أمكن، فيمضي عليه يومه وصفحته نقية لم تدنس بذنب أو معصية، ومحاسبة النفس نوعان: محاسبة قبل العمل ومحاسبة بعد العمل، أما المحاسبة قبل العمل فهي أن يقف الإنسان عندما ينوي عمل شيء ما، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له صلاحه من فساده، قال الحسن البصري رحمه الله: رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر. وأما المحاسبة بعد العمل فتكون بالمحاسبة على التقصير، فمن عمل طاعة قصر فيها فعليه أن يستدرك ما فاته منها هنا في الدنيا قبل الآخرة، فالمؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله تعالى، وكان للسلف الصالح مواقف في محاسبة النفس، فعن سلمة بن منصور عن مولى لهم قال: كنت أصحب الأحنف بن قيس فكان عامة صلاته الدعاء، وكان يأتي بالمصباح فيضع أصبعه على النار ويقول حَسِّ يا حُنيف، ثم يحاسب نفسه، ويقول: يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا، ما حملك على ما صنعت يوم كذا، وقال إبراهيم التيمي: مثلت نفسي في الجنة آكل من ثمارها، وأشرب من أنهارها، وأعانق أبكارها، ثم مثلت نفسي في النار آكل من زقومها، وأشرب من صديدها، وأعالج سلاسلها وأغلالها، فقلت لنفسي: أي شيء تردين؟، قالت: أريد أن أرد إلى الدنيا، فأعمل صالحا، قال: قلت: فأنت في الأمنية فاعملي.

فحاسب نفسك اليوم وأصدر عليها الأحكام العادلة، فلعلها تقلع وتتوب، فما زال الأمل موجودا، وما زال باب التوبة مفتوحا، فهو حسابٌ قبل الحساب.

ساعة وساعة

لا بد للإنسان من فسحة في حياته يظهر فيها الضحك والابتسامة واللهو فذاك نصيبه من الدنيا وقد دعاه الله فقال تعالى ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص: ٧٧]، وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم: روحوا القلوب ساعة، فإن القلوب إذا كلت عميت، وقال سيدنا علي رضي الله عنه: أجموا هذه القلوب والتمسوا لها طرق الحكمة فإنها تمل كما تمل الأبدان والنفس مؤثرة للهوى آخذة بالهوينى جانحة إلى اللهو فإن أكرهتها أنصبتها، وكان بعض الصحابة رضوان الله عليهم حين يطول بهم مجلس العلم، أو يمتد بهم القول فيما يتدارسونه ويتذاكرون من أمر دينهم، وحين يشعرون بشيء من ملل وسأم، يقولون هاتوا من أشعاركم يقصدون الخروج من حال إلى حال ليروح عن النفس، ويسري عنها، ويعيد إليها نشاطها، وكان هذا بذكر المباح من حكاية لطيفة، أو نادرة طريفة، أو حكمة نفيسة، أو قصيدة عفيفة، فلا بأس على الإنسان أن يأخذ لنفسه إجازة من روتين الحياة والجد في العمل، فيضحك فيها ويبتسم فالبسمة صدقة، والضحك صحة تفرج الوجه، وتجدد النشاط، وترقق القلوب، وتشرح النفوس، فلا تفارقك الابتسامة ولتكن مرسومة على شفتيك، مفتوحة كالبحر بعيدة كالسماء، لا لأنك تريد أن تبني قصور أحلامك على الهواء لا، ولكنك تدرك أن البسمة تفتح لك آفاق العمل، وتفتح أمامك أبواب المحبة والنجاح.

إن الابتسامة لغة سهلة يفهمها الناس جميعا، وإن لم يكن لها كلام، أو صوت، ويكفي أن يكون لها تعبير في الوجه وشعور في النفس، ولكن الابتسامة ألوان، فهناك

ابتسامة تكاد ترى الحقد يقطر منها، والغدر يبرق فيها، وابتسامة أشد من الدموع الحارة، فيها من اليأس والمرارة والكمد ما فيها، وهناك ابتسامة الحب الجميلة فيها ما فيها من الغبطة والنشوة واللذة، وهناك ابتسامة الشماتة أقوى من طعنة الخنجر، فابتسم مع كل صباح مهما اسودت الدنيا ومهما اشتدت الشدائد، فإنها ستهون وتلين، ولكن لا تفقد الابتسامة، فهي حياة القلوب ومادة الأمل والتفاؤل، وهناك معادلة صحيحة تقول «أنت مرح ومتبسم دائمًا إذن فأنت قوي الشخصية»، ولكن ثمة خطوط حمراء يجب عدم مجاوزتها في المزاح والابتسام، فإياك والإفراط في الضحك، فإن ذلك من شأنه أن يذهب منك البهاء، ويجرئ عليك السفهاء، ولذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (إياك وكثرة الضحك فذلك يميت القلب)، فاجعل الابتسامة لا تفارق محياك، وإياك وكثرة الضحك والاستغراق فيه، ولا يعلو صوتك عن الحد المطلوب، وخذ من الدنيا نصيبك ولا تنس طاعة الله، فساعة وساعة.

سُئلت: كم الساعة؟

فقلت إن الوقت والعمر والأيام والليل والنهار والدقائق واللحظات هي رأس مال العبد في الدنيا، والزمن نعمة من أعظم نعم الله عز وجل على العباد، لقد أقسم الله تعالى بالزمان فقال ﴿وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢] ، وقال تعالى ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ [الليل: ١-٢]، وقال تعالى ﴿وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢]، فيا من تسألني متى الساعة، هل علمت أين تكمن قيمة الزمن؟، إنها تكمن في أن الزمن جعله الله فرصة للإيمان، والعمل الصالح، وهما سبب السعادة في الدنيا والآخرة، فليس الزمن أن أقول ستون دقيقة هي الساعة، إنما الزمن هو عمل ساعة، وما فات من الزمن فحسرة وندامة، يا من تسألني متى الساعة، هل

علمت أنت أهمية الزمن وخطره، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل»، فالعبد يسأل يوم القيامة سؤالين عن الزمن، عن عمره فيما أفناه عامة، وعن شبابه فيما أبلاه خاصة، قال الحسن: المبادرة المبادرة إنما هي الأنفاس، لو حُبست انقطعت أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل، لو حُبست انقطعت عنكم ثم بكى على عدد ذنوبه، ثم قرأ ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ [مريم: ٨٤]، فآخر العدد خروج روحك، آخر العدد فراق أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك، قال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، فينبغي على العبد أن يعرف خطر الأوقات واللحظات، فأهل الجنة لا يتحسرون على شيء إلا على ساعة مرت عليهم لم يذكروا الله عز وجل فيها، وقد كان السلف الصالح يحرصون على أوقاتهم أشد من حرصنا على الدنانير والدراهم، ومن أخّرهم لحظة من زمن، قالوا دعنا فالوقت يمضي، والشمس تجري، ومن منا يستطيع أن يوقف الشمس عن المغيب!، فيا ديار الأحباب أين السُكان، ويا منازل العارفين أين القطان، ويا أطلال الوجد أين البنيان، أماكن باكية، ومواطن شاكية، زال التعب وبقي الأجر، ذهب ليل النصب وطلع الفجر، فقل لي بربك أنت كم الساعة؟

سياسة النفس

الإنسان بنفسه فهي توجهه حيث تشاء، والنفس أمارة بالسوء ولكنها كالطفل تُؤثرُ فيها التربية كما يُؤثر فيها الإهمال:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ✻ حب الرضاعة وإن تفطمه ينفطم

والإنسان بحاجة دائمًا أن يربي نفسه، وقد يكون الإنسان مربيا لغيره ولكنه ينسى تربية نفسه يقول سيدنا علي كرم الله وجهه: ميدانكم الأول أنفسكم، فإن قدرتم عليها، فأنتم على غيرها أقدر، وإن عجزتم عنها، فأنتم عن غيرها أعجز، إن النفس في الإنسان هي كالآلة التي تحرك وتعمل كما طلب منها، فهي الإحساس وهي الضمير وهي العزيمة، وهي كذلك تكون الضمير الميت، والإحساس الضعيف، والاستسلام، تلك هي النفس، إنها تحتاج إلى سياسة، بل إلى جهاد، بل جهاد كبير ولذلك أشار الرسول صلى الله عليه وسلم فقال رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر فسُئل عن هذا الجهاد فقال: جهاد النفس، فمن يستطيع مسايسة نفسه؟ يقول أحد علماء النفس من قوي على سياسة نفسه ومجاهدتها، وقمع جماحها، ذلت له الصعاب، ومن عجز عن تقويمها، فلا يلومن من لا يستقيم له ذلك، ومن بدأ بنفسه فأحسن سياستها، كان أدرك لسياسة الناس، تلك هي سياسة النفس إنها تربية ذاتية، وقيل لابن المقفع: من أدبك فقال نفسي، فقيل له وكيف يمكن للمرء أن تؤدبه نفسه؟ فأجاب: إن رأيت حسنا أتيته وإن رأيت قبيحا أبيته. فمن ساس نفسه وألزمها الحق، أمكنه أن يسوس الناس ويطالبهم بالحق. ومعرفة الإنسان كيف يكون طيبا مع نفسه، هي أصعب بكثير من معرفته كيف يكون طيبا مع الآخرين، والنفس تحتاج إلى لجام يلجمها من الانحراف، ومن أراد أن يعصمه الله من هوى النفس والشيطان فليملك نفسه حين يغضب وحين يرهب وحين يشتهي وحين يرغب، فهذه وصيتي في سياسة النفس، فزكِّ نفسك، ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها * فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

وفي الحياة بقية

الحياة جميلة لو أن الإنسان يفهمها فكل ما في الحياة حياة، فالمطر حياة للكائنات، والشمس حياة فهي مصدر الدفء والحرارة والنور، والهواء فيه حياة للإنسان، وكل ما في الكون مسخر لحياة الإنسان، فلماذا لا نستمتع بنصيبنا من الحياة؟ إنني أدرك أن فترة من الذل تصب على الأمة الإسلامية من قبل أعدائها ولكن ما ذنب الحياة أن تكون مظلمة لا، إن كل ما في الحياة يحمل لنا الأمل والفرح لا سيما الضوء والصباح والشجر والثمر والفصول الأربعة، وليست الحياة كأسا مملوءة بل هي كأس فارغة يجب أن تملأ، فالحياة يجب أن تملأ بالأمل في كل صباح، انظر إلى نفسك ماذا ترى؟ ترى نفسك متحمسة تتأمل الفرح والتفاؤل، توزع النظرات المتعمقة في السماء هنا وهناك، وتدرك أن الشعوب التي تتفاءل وتفرح وتعمل هي التي تربح معركة المجد ومعركة الحرية، والأزمات تمر بالحياة وتعكر صفوها يوما بل أياما بل سنين، ثم لا تلبث أن تعود زهرة الحياة كما هي ندية خضراء، فلماذا الاستسلام إذن؟ ولماذا اليأس؟ ففي الحياة تموت حياة، وفي الحياة تحيا حياة، يوم يموت إنسان ويحيا آخر، وتدور عجلة الحياة إلى أجل مسمى لا يعلمه إلا الله تعالى، فلماذا نستعجل هذا الأجل قبل حينه، دع ما يفوتك من الدنيا بكل آلامه وأحزانه دع هم الفقر والمرض والجوع، فالدنيا دار ابتلاء ولكن لنا نصيب وحظ منها، أرجو أن نأخذ نصيبنا منها بكل رضا وتفاؤل، فالدنيا نملكها لا بالطمع والجشع بل بالرضا والقناعة، ثم تأتي عوارض الدنيا فنقبلها بكل حلوها ومرها، والسعادة في الدنيا لا تكون دائمًا في الكثير مع الطمع والسخط، وإنما القليل مع الرضا والقناعة يجعل الدنيا جنة جميلة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أصبح معافى في بدنه، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا. هكذا تقاس الحياة ليس بطولها ولا عرضها ولا بمالها وملذاتها، بل بالسعادة والخير وإن كان

ذلك قليلا فهو حظ ونصيب محدد، هذه هي الحياة ليتنا نفهمها هكذا، فعند العطش أهم ما في الحياة قطرة ماء.

كنوز لا تفنى

هم الإنسان في الدنيا أن يجمع المال، ولا يكتفي ولا يشبع، ولا يملأ جوفه إلا التراب، وفي كل يوم ينظر الإنسان إلى رصيده في الدنيا فإن كان كبيرا فرح، وإن كانت الأصفار تهيمن على رصيده حزن، وظن في نفسه أن الله تعالى يمنع عنه الخير، وأن غيره من الناس في نعمة ومال فاحش وغنى مطغٍ، فيسأل هذا الإنسان لماذا يحرمنا الله بينما يعطي غيرنا، إن هذا أجده خلقا ذميما وقلة أدب مع الله تعالى، ويحضرني أن الثوري صاحب العلم والفتوى جاءه أشعث أغبر من بطن الصحراء فقال للثوري: يا سفيان إن منع الله كله عطاء، لأنه لا يمنع من بخل، ولكن نظرا واختبارا. هذه حكمة لا توجد في الكتب وهذا هو الجواب، إن الله تعالى عندما يحرمنا لا يحرمنا بخلًا، فهناك كفار وفساق من حولنا تسيل لهم الأموال بلا حساب، بينما نحن يحجب عنا القليل من المال، فلماذا؟ هل الله بخيل؟ حاشا وكلا، فيد الله تعالى فوق كل يد، ويده طلقة سخية، فلماذا هذا المنع؟ إنه اختبار وامتحان، ليرى الله تعالى هل نتوكل عليه، هل نعمل، هل نجد، هل نجتهد، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، والله تعالى يعطي من يشاء وهو لا يسأل عن ذلك، والأرزاق مقسمة ومكتوبة ولن تموت أي نفس حتى تستوفي رزقها، وإن من الرزق ما تجري خلفه جري الوحوش كما يقولون ولكنه لا يأتيك، وهناك رزق يأتيك وأنت لا تطلبه إن لم تأته أتاك وأنت في بيتك، ولكن هناك أرصدة في الآخرة يجب أن نجمع لها ونجمع فهي الكنوز الحقيقية، ولنا في موعظة سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام سلوة وأسوة، إذ وعظ أصحابه فقال: يا معشر

الحواريين اجعلوا كنوزكم في السماء. فلنصبر على لأواء الحياة المعقدة الحاضرة، وعلى الفقر والحروب الاقتصادية وتصادمات المصالح، فلنا أمل ميسر، ولنا في السموات العالية كنوز، فوجب أن نضيف لها ونضيف، وندخر ونسعى، فإنها هي الكنوز الباقية، وهي الحقيقة، أما كنوز الأرض فزائلة وزائفة، فهذه كنوزنا لا تفنى بل الله تعالى يضاعفها إلى سبعمائة ضعف وأكثر، ونحن الأغنى بفضله ومنه وكرمه.

لكل وقت عمل

الوقت مرتبط بحياة الإنسان، وحياة الإنسان أوقات، ولكل عمل وقت، والوقت يمر ولا يعود، ولا تقبل الأعمال إلا في أوقاتها، وقد قال سيدنا أبو بكر رضي الله عنه لسيدنا عمر رضي الله عنه يوصيه (يا عمر، اعلم أن لله عملا بالنهار لا يقبله بالليل، وأن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار)، فلكل وقت عمله، ولكل عمل وقته، إن لله عملا بالليل لا يقبل بالنهار، وإن لله عملًا بالنهار لا يقبل بالليل، لكل وقت عمله، ولكل عمل وقته، إن أصحاب النبي عليهم رضوان الله كانوا فرسانًا في النهار رهبانًا بالليل، يروى أن عامل أذربيجان، وأذربيجان في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه كانت تابعة لخلافته في المدينة المنورة، أراد أن يرسل رسوله إلى أمير المؤمنين عمر، وقد وصل هذا الرسول إلى المدينة في منتصف الليل، فكره أن يطرق باب أمير المؤمنين في هذا الوقت المتأخر، فتوجه إلى المسجد، وفيه سمع صوتًا يناجي ربه، يقول: يا رب هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي، أم رددتها فأعزيها، فقال هذا الرسول: من أنت يرحمك الله، قال: أنا عمر، فيا الله خشي أن يطرق بابه ليلا فإذا هو بالمسجد يصلي قيام الليل، قال له: يا أمير المؤمنين ألا تنام الليل؟ قال: إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي. وعندما رأى سيدنا عمر رضي الله عنه رجلا لا يعمل، ولكنه يقرأ القرآن قال:

إنما أنزل هذا القرآن لتعمل به، اقرأه بالليل، واعمل به بالنهار، يبدو أنه اقتدى بالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى رجلًا في النهار يصلي في غير الصلوات المكتوبة، ولا يعمل، فأراد النبي أن يعلمنا درسًا بليغًا، قال: من يطعمك أيها الشاب؟ فقال: أخي قال: أخوك أعبد منك، أخوك الذي يعمل أعبد منك، إن لله عملا بالليل لا يقبل بالنهار، وإن لله عملا بالنهار لا يقبل بالليل. فالمؤمن عليه أن يتحرى الأوقات الفاضلة، هناك أوقات فضلها الله على أوقات، هكذا شاء رب العالمين، فعلى المسلم أن يتحرى الأوقات التي ميزها الله عز وجل بخصائص روحية خاصة، فضلها على غيرها، ليجتهد الناس في طلبها، والدليل قول النبي عليه الصلاة والسلام، (إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها)، فالوقت هو محل العبادة والطاعة وليس الوقت محلا للكسل، فأين المشمرون؟ فلكل وقت عمل، ولكل عمل وقت.

لو كنا نسمع أو نعقل

إن أيّ إنسان لا شك أنه يحب نفسه ويحب أن يتمتع بوجوده في الحياة، وأن يستمر على ذلك حتى آخر لحظة في حياته، لكن الشقاء يأتي من الجهل، والجهل هو أعدى أعداء الإنسان، والجاهل يفعل في نفسه ما لا يستطيع عدوه أن يفعله به، ويأتي الجهل هنا عندما يتوهم الإنسان أن المال سبب السعادة، أو أن القوة سبب السعادة، أو أن الوسامة سبب السعادة، أو أن الذكاء سبب السعادة، حينما يتوهم الإنسان السعادة في غير الطريق الذي رسمها الله عز وجل، يكون الشقاء، وسبب الشقاء هو الجهل، لذلك قالوا: إذا أردت الدنيا فعليك بالعلم، وإذا أردت الآخرة فعليك بالعلم، وإذا أردتهما معًا فعليك بالعلم، إن الإنسان لو كان يعقل لما طلب السعادة فيما هو فان، إن السعادة ليست كما يتصورها البعض متعة ولذة، لأن اللذة طابعها حسي، ولها أسباب ثلاثة، لا

يمكن أن تملكها مجتمعة، تحتاج إلى مال، وتحتاج إلى وقت، وتحتاج إلى صحة، ففي البدايات تملك الصحة والوقت، ولا تملك المال، وفي أواسط العمر تملك المال والصحة، ولا تملك الوقت، وفي خريف العمر تملك الوقت والمال، ولا تملك الصحة ولحكمة بالغة أرادها الله عز وجل جعل الاستمتاع في الدنيا متناقصًا، فتستمتع بالبيت الجديد أشهرًا معدودة، ثم يغدو شيئًا عاديًا، تستمتع بالزواج في أول فترة، تستمتع بالسيارة الجديدة في أول فترة ثم تصبح أمرا عاديا وهكذا، وقد شاءت حكمة الله أن يكون أثر اللذائذ متناقصًا، هذه الحكمة من أجل أن تبحث عن الدار التي تكون فيها اللذة دائمة ومتجددة، كل إنسان يملك مفاتيح سعادته لو كان يعقل أو يسمع، إن السعادة تكون في عبادة تؤديها خالصة لله، تكون في ذكر ودعاء خالص لله تعالى، تكون في صلاة تؤديها، أرحنا بها يا بلال، السعادة تكون في الإيمان فقد ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولا، يقول إبراهيم بن أدهم الذي كان ملكًا فزهد في الملك، وتعرف إلى الله يقول قولته: «لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن عليه لقاتلونا عليه بالسيوف». كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي، وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ، تلك هي السعادة الحقيقية لو كنا نسمع أو نعقل.

يا أُمّاه جاء حالِبُ الشاة

ليس من شأن المسلم أن يكون كسولًا وليس من شأن المسلم أن يكون كلًّا على الآخرين وليس من شأن المسلم أن يعمل عملًا غير متقن ولا من شأنه أن يكون أنانيًّا، إن من أعظمِ الأعمال في الدّنيا ما كان له أجرٌ وأُجْرة، هناك من يعملُ في التعليم ويعلّم أبناءنا القرآن الكريم فهذا له من الناس أجرة، وله من عند الله أَجْرٌ، فهذه من أفضل

الأعمال لما فيها من العطاءِ المزدوج، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها فليغرسها. فعلى الإنسان أن يعمل حتى آخر لحظة من لحظات الدنيا، إن قيمة الإنسان الحقيقية هي فيما يُحسِن، فكيف يبدو دينك للناس؟ إنه يبدو من خلال عملك، ومن خلال صنْعتك، ومن خلال إنتاجِك، ومن خلال استقامتك، من خلال صدْقك، من خلال أمانتك، فأنت من خلال العمل يبْدو إسلامك، ويبدو إيمانك، هكذا المسلم قيمته فيما يحسِنُهُ، ولكن في آخر الزمان، تغيرت المعايير وأصبحت قيمة المرء فيما يملكه من مظاهر ومتاع، وهكذا في الدنيا أصبح الإنسان إنسانا محترما بما يملكه من المال أما المعدوم فلا أحد يحترمه، إن عمل الإنسان هو عنوان شخصيته وهو هويته الحقيقية ولذلك دعا الإسلام إلى العمل دعوة فرض على الجميع، والعمل ممتد إلى آخر لحظات الإنسان، جاء في الأثر عن عمارة بن خزيمة بن ثابت: سمعت عمر بن الخطاب يقول لأبي «ما يمنعك أن تغرس أرضك؟ فقال له أبي: أنا شيخ كبير أموت غدا، فقال له عمر: أعزم عليك لتغرسها، فلقد رأيت عمر بن الخطاب يغرسها بيده مع أبي». فهذا سيّدنا عمر وهو خليفة المسلمين قام وغرسَ هذه الأرض بيدِه مع هذا الشيخ الكبير، ليس هذا غريبًا، لأن العمل دائم ومستمر وهو القيمة الحقيقية للإنسان وليس المنصب، وهذا سيّدنا الصّديق أبوبكر، وما أدراكم ما الصّديق، خليفة رسول الله، وسيّد الخلْق، سيّد المؤمنين بعد رسول الله، ما طلعَتْ شمسٌ على رجل بعد نبيّ أفضلَ من أبي بكر، لو وُزن إيمان الخلق مع إيمان أبي بكر لرجَحَ، كان يحْلبُ شياهًا، لجِيرانٍ له مساكين، فلمّا صار خليفة المسلمين دخل الحزن على هؤلاء الجيران لأنّ هذه الخِدمة التي كان يقدّمها لهم ستنقطعُ عنهم، ولكنهم سمعوا في صبيحة اليوم الذي صار هذا الخليفة العظيم خليفة المسلمين من يطرق بابهم، فمن هو الطارق؟ فقالَت صاحبة البيت، وكان زوجها قد تُوُفّي، يا بنيّتي افتحي الباب، انْطلَقَت هذه الفتاة لِتَفْتح الباب، فعادتْ إلى أُمّها، وقالتْ: يا أُمّاه جاء حالِبُ الشاة!

الذي يحلبُ لنا الشِّياه، هو نفسهُ جاء، وهو خليفة المسلمين! فهل عرفت الآن قيمتك الحقيقية.

لا تقلق

من بين أهم الهموم التي تنتاب الإنسان من حين لآخر القلق، والإنسان يقلق على نفسه وحاله ومستقبله، والقلق في حد ذاته مرض، لذلك قالوا: توقع المصيبة مصيبة أكبر منها، أنت من خوف المرض في مرض، ومن خوف الفقر في فقر، وتوقع المصيبة مصيبة أكبر منها. قال بعض الحكماء:

دع المقادير تجري في أعنتها * ولا تبيتن إلا خالي البال
ما بين غمضة عين وانتباهتها * يغير الله من حال إلى حال

أحد العلماء قال: ضاق بي أمر أوجب لي همًا وغمًا لازمًا دائمًا، وقد أخذت أبالغ، وأفكر كيف أتخلص من هذا الأمر بكل حيلة وبكل وجه، فما رأيت طريقًا للخلاص منه، ثم عرضت لي الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] فعلمت أن التقوى سبب للمخرج من كل هم وغم، إن الأمة الإسلامية لن تعدم القوة والنصر ولا داعي للقلق على ذلك، إنما نحن من هانت علينا أنفسنا فتمكن منا عدونا، قرأت قصة عن سفينة غرقت ونجا بعض ركابها بقارب النجاة، وكانوا يزيدون على خمسين إنسانًا، ثم وجدوا ماء قليلا فتقاتلوا على الماء المحدود في هذا القارب قتل بعضهم بعضًا، ولم يصل منهم إلا اثنان إلى الشاطئ، وفي تاريخ هذه الأمة أربعة جرحى على وشك الموت فجاء من يسقي أحدهم فأشار إلى أخيه لعله أحوج مني إلى الماء، فانتقل إلى الثاني فأشار إلى أخيه فانتقل إلى الثالث، فأشار إلى أخيه، ثم مات الثالث، عاد إلى

الثاني فرآه قد مات، وعاد إلى الأول فرآه قد مات، أي أنهم ماتوا جميعًا، هذا المجتمع الإسلامي فيه خصائص كبيرة جدًا، لو أننا عرفناها وطبقناها لما تكالبت علينا الأمم، يقول بعض الأدباء: لي صديق كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظمه في عيني صغر الدنيا في عينيه، فكان خارجًا عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يكثر إذا وجد، وكان خارجًا عن سلطان الجهالة، فلا يتكلم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان أكثر دهره صامتًا، فإذا تكلم بزّ القائلين، وكان يرى ضعيفًا مستضعفًا، فإذا جد الجد فهو الليث عاديًا، هذه خصائص المؤمن فدع عنك القلق ولا تقلق فالنصر من الله تعالى قادم، فهو وعدنا بالنصر وخاطبنا خطاب المنتصرين فقال تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

في لحظات العسرة

تأتي على الإنسان لحظات في حياته تمر صعبة، قد تكون في مصيبة أو خسارة أو ضياع أو حسرة وندم أو هجر وغربة، أو مرض وموت، أو استغلال أو مكر وخديعة من قبل صديق وحبيب، هذه الآلام قد تأتي في لحظات ولكنها تترك أثرا لسنوات كثيرة، وهذه عوارض ما أظن أن أحدا منا لم يمر بها أو يتألم منها، إن الشدائد محكُّ الرجال، والشدائد تفرز الأشخاص تصنّفهم إلى مؤمنين صادقين، وإلى مؤمنين ضعفاء، فهذا الذي فرزته المصيبةُ، وجعلته مؤمنا ضعيفا عليه أن يجِدَّ في السير، عليه أن يجدِّد إيمانه، عليه أن ينهض من كبوته. يقول صلى الله عليه وسلم (الإيمان بالقدر يذهب الهم والحزن)، إن لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبدٌ حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّ نَاسًا مِنْ الْأَنْصَارِ سَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ثُمَّ

سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ حَتَّى نَفِدَ مَا عِنْدَهُ فَقَالَ (وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ). والصبر صفة لله عز وجل فهو يصبر على عباده، لذلك ورد في الآثار القدسية (إني والإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري على العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي، وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي، وهم أفقر شيء إلي، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة بعشر أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها)، وورد في بعض الآثار أنه (ما من يوم إلا ويستأذن البحر ربه، يا رب ائذن لي أن أغرق ابن آدم لكثرة ما يجري في المعاصي فإنه أكل رزقك، وعبد غيرك، وتقول الجبال: يا رب ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فإنه أكل رزقك، وعبد غيرك، وتقول الأرض: يا رب ائذن لي أن أبتلع ابن آدم، فإنه أكل رزقك، وعبد غيرك، يقول الله عز وجل: دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم)، وهكذا في لحظات العسرة كن صابرا يأتيك الفرج ولو بعد حين.

قوة الإرادة

الإرادة هي قوة الإنسان لو كان يعلم، فالإنسان بلا إرادة كورقة تحملها الريح حيث شاء دون هوية أو اتجاه تقع حيث تقع بها الريح في مكان سحيق، وما أجمل ما قيل في الإرادة: للإرادة الصادقة بريقٌ خاصٌ وطعمٌ مميزٌ يظهر بين ثنايا العبارات ويعلّق على جدران التاريخ ويقعُ في سويداء القلوب، ولو سُلب المرءُ كل قوةٍ يملكها عدا قوة الإرادة لأعَادتْ الإرادةُ كل ما سُلب منه، فإذا أردت أن تنجح في حياتك فلا بد أن

تريد النجاح فإن ترددت بين النجاح والفشل فقد يغلب الفشل فتفشل، فلتكن إرادة النجاح هي الغالبة، ومن كانت إرادته قوية فهو مع الله يردد دائمًا ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فهو بالله يستعين على قضاء كل حوائجه، لا هم له سوى رضا الله تعالى وإن سخط الناس، وكيف لإنسان يسعى لرضا الناس بمعصية الله، فكيفَ تريدُ رضا منْ لا يملكُ لكَ شيئًا، وتريدُ أنْ تغضبَ منْ بيدِه الأمرُ كلُه سبحانه وتعالى، هذه الإرادة لن توجه توجيها صحيحا إلا إذا كان قائدها ينظر إلى الآخرة ولا ينظر إلى الدنيا، ومن أراد الآخرة أخذ الجمل بما حَمل، ومن أراد الدنيا فلا ناقة له ولا جمل، إنها الإرادة هي سبب النجاح ولا يوجد نجاح بلا إرادة، يقول الله تعالى ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾ [التوبة: ٤٦]، أي لو أرادوا الخروج لكانوا مجاهدين ولكنهم أرادوا أن يكونوا منافقين وفوق ذلك قاعدين، فثبطهم الله تعالى وجعلهم من المنافقين القاعدين، ومن قوة الإرادة أن من أراد شيئًا حصَّله، وإرادة الله فوق كل الإرادات، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، لا تنظر إلى الإبريق بل انظر إلى ما فيه، ولا تنظر إلى عملك بل انظر لمن تنويه، فالإرادة عمل ونية، والاستسلام لا عمل ولا نية، فكن مريدا للخروج مريدا للجهاد والعمل، فأنت بالإرادة قوي واثق، ولا تكن مترددا في عملك فهذا يضعف موقفك، وكن حازما ذا إرادة، ووجه نفسك نحو التطلع دائمًا، تلك هي قوة الإرادة تصنع العجائب.

الهم من جنود الله

الهم والحزن من أصعب العوارض التي يتعرض لها الإنسان، فالإنسان المهموم يحمل في قلبه جبالا ثقيلة من القلق والخوف، إن الهم بحق هو أثقل شيء في الحياة، ولقد

سئل سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأرضاه: من أشد جند الله؟ قال: الجبال، الجبال يقطعها الحديد فالحديد أقوى، والنار تذيب الحديد فالنار أقوى، والماء يطفئ النار فالماء أقوى، والسحاب يحمل الماء فالسحاب أقوى، والريح تعبث بالسحاب فالريح أقوى، والإنسان يتقي الريح بيده وثوبه فالإنسان أقوى، والنوم يغلب الإنسان فالنوم أقوى، والهم يغلب النوم، فأقوى جند الله هو الهم يسلطه الله على من يشاء من عباده، فالهم أقوى شيء في الحياة، فكم من إنسان مات بالهم، وكم من إنسان صحيح سليم مرض بالهم، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعوذ من هذا الهم فكان يقول: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال)، إن السعادة والطمأنينة عطاء من الله ورحمة، كما أن الهم والقلق والضيق غضب من الله ومحنة، فأين السعادة الحقيقية؟ الغني يرى أن قصره المشيد وخدمه وحشمه في ذلك السعادة، والفقير المرهق ينظر إلى أصحاب الثروة واللباس الفاخر فيرى أن هذه هي السعادة، ولكن هل هذه هي السعادة، فالغني لو ملك الدنيا كلها وكان مهموما فما هي سعادته إذن، وكذلك الفقير المهموم ما هي سعادته لو تحصل على كنوز الدنيا، فالسعادة ليست في وفرة المال ولا سطوة الجاه ولا كثرة الولد، السعادة أمر لا يقاس بالكم ولا يشترى بالدنانير، ولا يملك بشر أن يعطيها كما أنه لا يملك أن ينتزعها ممن أوتيها، السعادة دين يتبعه عمل، السعادة هي الرضا بالله والقناعة بالمقسوم والثقة بالله واستمداد المعونة منه، ومن ذاق طعم الإيمان ذاق طعم السعادة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا)، والهم والإيمان والرضا بالله تعالى لا يجتمعان، فلا تكن على فراغ روحي وبعد عن الله تعالى، فيمتلئ الفراغ بعد ذلك هما وحزنا، والهم أقوى جنود الله تعالى فكن على حذر.

حديث السفينة

تطل علينا الفتن صباح مساء تغرينا بمظهرها وشكلها الجذاب، ويدعونا الشيطان إلى العصيان والخروج عن أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم باقتراف ما حرم الله تعالى، فهل هذا هو طريق السعادة؟ إن الدنيا بملذاتها وشهواتها تجعل الإنسان غافلا منشغلا لا يتذكر مصيره إلا عندما يفوته الأوان، ومثل أهل الدنيا في غفلتهم كمثل قوم ركبوا سفينة إلى أن وصلوا إلى جزيرة ذات عشب كثير وثمار طيبة، فخرج من هم على السفينة لقضاء الحاجة من هذه الجزيرة المثمرة، وحذرهم ربان السفينة من التأخر فيها وأمرهم أن يقيموا بقدر حاجتهم وحذرهم أن يقلع بالسفينة ويتركهم، فبادر بعضهم وأخذ حاجته فرجع سريعا فصادف أحسن الأمكنة وأوسعها في السفينة فجلس فيه، وبقي الباقون في الجزيرة وتأخروا وقد انقسموا إلى فرق، فأما الفرقة الأولى فقد استغرقت في النظر إلى أزهار هذه الجزيرة المورقة وأنهارها المطردة وثمارها الطيبة وجواهرها ومعادنها، ثم استيقظوا وتذكروا أن السفينة على وشك الرحيل فبادروا إلى السفينة فوجدوا مكانا دون الأول فنجوا، وأما الفرقة الثانية فقد انشغلت بجمع الثمار والأزهار من الجزيرة وتأخرت كثيرًا ولكنها تذكرت في النهاية أن السفينة ستقلع فنهضت إلى السفينة فوجدت مكانا أضيق فلم تستطع الجلوس حتى رمت ما حملته معها من الثمار والأزهار، وأما الفرقة الثالثة فقد تأخرت وغفلت عن وصية ربان السفينة وقد ارتفع نداؤه بالرحيل واشتدت الغفلة بهذه الفرقة، وقد سارت السفينة في البحر وتركتهم فمنهم من افترسته السباع ومنهم من تاه على وجهه حتى هلك، ومنهم من مات جوعا، ومنهم من نهشته الحيات، فذلك مثل أهل الدنيا في اشتغالهم وغفلتهم، فما هي قيمة الذهب والدراهم في الدنيا والإنسان لا يصحب معه شيئًا منها بعد الموت، فحديث

السفينة هذا أقرب إلى الحقيقة منه إلى الخيال لمن يغفل في الدنيا ويجمع منها ما لا يحمله معه سوى عمله فتأمل ذلك.

كم بقي لي من العمر

الزمن يمضي سريعًا، وبين غمضة عين وانتباهها يغير الله من حال إلى حال، ولو أن الإنسان سأل نفسه هذا السؤال المحرج: كم بقي لي من عمري؟ من تجاوز الأربعين في الأعم الأغلب الذي بقي أقل مما مضى، فإذا مضى الذي مضى كلمح البصر ففي الأعم الأغلب أيضًا أن الذي بقي يمضي كلمح البصر، قد تضع خطةً لعشرين عامًا قادمة، ويكون الأجل بعد غد، وقد تشتري بيتًا، ولا تسكنه، وقد تقتني مركبةً، ولا تركبها، وقد تتزوج امرأةً، ولا تدخل بها، من عد غدًا من أجله فقد أساء صحبة الموت، ويقول سيدنا عمر بن الخطاب: عجبت لثلاث: لمؤمل والموت يطلبه، وغافل وليس بمغفول عنه، وضاحك ملء فيه، ولا يدري أساخطٌ عليه الله أم راض ، أتيت القبور فناديتها: أين المعظَّم والمحتقَر؟ تفانوا جميعًا فما مخبرٌ، وماتوا جميعًا ومات الخبر، فيا سائلي عن أناس مضوا، أما لك فيما مضى معتبر؟ تروح وتغدو بنات الثرى، فتمحو محاسن تلك الصور، إن إدراك قيمة الوقت من صفات المؤمنين، والليل والنهار يعملان فيك فاعمل فيهما، اعمل عملًا صالحا يكن لك ذخرًا يوم القيامة، حضرت الجنيدَ الوفاةُ فأخذ يقرأ القرآن في سكرات الموت، ويبكي فقالوا له: تقرأ القرآن، وأنت في سكرات الموت؟ قال: سبحان الله من أحوج مني إلى قراءة القرآن. وقد أصبحت لحظات الحياة تعد علي، فكم بقي لي من العمر؟ وقد يمضي عام ويتجدد عام، وبعد قليل يصبح الجديد قديما، والقديم من الماضي ومع هذا وذاك فسنوات العمر ماضية وهي التي لا تتجدد، وقد قيل إن الوقت هو أرخص شيء في الحياة ولكنه الشيء الوحيد الذي لا يباع، لأنه يمضي وإذا مضى

لا يعود، فكل امرئ عليه أن يعد سنوات عمره، كم بقي له من رصيد عمره؟ فكل عام يمضي يعني أن العمر قد نقص منه عام واقترب من النهاية بعام، والمصيبة أن النهاية لا يعلمها إلا الله تعالى، فلا أدري كم بقي لي من العمر؟

نهاية الأسبوع

في نهاية كل أسبوع يستعد الناس للراحة وتجديد النشاط من العمل الذي امتد طيلة الأسبوع، ومن الدوام اليومي المتواصل والاجتماعات والأوراق والمكالمات والمشاكل والفوضى، والطرق المزدحمة، وإيقاع الحياة المتسارع الذي يثير الأعصاب، ثم تأتي إجازة نهاية الأسبوع، فالبعض يخطط كيف يقضي هذه الإجازة، والبعض يرى أن الإجازة خاصة فقط للأهل والأقارب، والبعض يرى أنها سهر وخروج إلى الأسواق، وهكذا للناس في نهاية الأسبوع مذاهب، والحقيقة أن نهاية الأسبوع فرصة للجلوس في واحات هادئة يستطيع الإنسان فيها أن يسترخي وينسى لفترة ضغوطات الحياة، ومن هذه الواحات التي أقترحها واحة الإيمان حيث يجلس الإنسان مع ربه، فالإنسان نفخة من روحه، يجلس يتسامر مع ربه ويتقرب منه في هدوء وسكينة، فيغسل روحه بالماء والثلج والبرد، ويستنشق الهواء النقي، فيحيا قلبه وتهدأ أعصابه بتلذذ التقرب إلى الله سبحانه وتعالى، وهناك واحة أخرى وهي واحة الاسترخاء والتأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، فالمتأمل ينظر بقلبه إلى عجائب الكون، وللتأمل سحر عجيب، فالتأمل النابع من القلب الصادق يزيل ضغط الدم ويعدل من ضربات القلب، هذا ما يقوله الخبراء والأطباء بأن ساعة تأمل هادئة تزيل الضغوط وتريح النفوس، وهناك واحة الذكر حيث يمكن للمتأمل التركيز والتفكير في مخلوقات الله، فمثلا لو نظر إلى وردة أو شجرة لتحركت مشاعر الإيمان في نفسه، ولو تم التركيز على كلمة واحدة وهي «لا إله إلا

الله» ورددها المتأمل في صمت وتدبر فإنها تضيف بعدا آخر حيث يشعر المتأمل والذاكر أنه في معية الله الحكيم والمدبر، وهناك واحة الصلاة وهي الواحة الجامعة ففيها كل ما سبق، فيها التأمل، وفيها الذكر، وفيها التقرب، وفيها تمارين الروح، وفيها لياقة البدن، وهناك واحة نضيرة وهي صلاة الجمعة التي هي عيد ولقاء وموعظة وتسامح، فهذه الواحات تجعل نهاية الأسبوع تجديدًا للنشاط وفسحة وسياحة، وتجعل الإنسان نشيطا ومنتعشا بالإيمان ليبدأ الأسبوع المقبل بكل حيوية وجد وعمل.

رفع المعنويات

من المهم للإنسان أن تكون معنوياته مرتفعة لتكون له دافعا في الصمود أمام معترك الحياة وصعوبتها، وبهذه المعنويات المرتفعة يصنع الإنسان العجائب، أما الاستسلام والفشل، والإحساس بالهزيمة حتى قبل خوض المعركة، والإحساس بالفشل حتى قبل دخول الإمتحان، فهذه سلبية أصبح الكثير يعاني منها، ورفع المعنويات سنة نبوية عظيمة أصبحت نادرة في زمننا، ولنا في رسولنا صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، فقد كان عليه الصلاة والسلام يرفع المعنويات ويشحذ الهمم، ويشجع الطموحات، ويدعم المقترحات، وأي إنسان لديه روح الهزيمة أعانه على قتل هذه الروح الضعيفة واستبدلها بروح قوية، فالمؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وقد كان في عهد النبي صلى الله عليه وسلم رجلٌ اسمه زاهر، كان دميمًا – أي قبيحا -، أتاه النبي صلى الله عليه وسلم يومًا وهو يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه وهو لا يبصره، فقال: من هذا؟ أرسلني. فالتفت، فعرف أنه النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل لا يألو ما ألصق ظهره بصدر النبي عليه الصلاة والسلام، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو يمازحه: من يشتري هذا العبد؟ فقال يا رسول الله! إذًا والله تجدني كاسدًا، فقال النبي: لكنك

عند الله لست بكاسد، أو قال: أنت عند الله غالٍ، يا الله ما أروعها من كلمات، رغم بساطة مبناها لكنها رفعت معنويات ذاك الصحابي، فأين نحن من سنة رفع المعنويات هذه؟ لقد أصبحنا في زمن المعنويات الهابطة، والإحباط وبث اليأس والله المستعان، ولست ممن يسعى بهذه الكلمات إلى تثبيط الهمم، وإنما أنفخ على شمعة الأمل ليزداد نورها، وأرفع المعنويات، وأغرس الأمل في النفوس، تلك سنن باتت مهجورة في زمننا رغم حاجتنا الماسة إليها، إننا اليوم بحاجة إلى من ينير لنا الطريق رغم ظلمة المسير، بنور معنوي مرتفع يضيء لنا السبل ويحررنا من قيود الإستسلام، ويطلق حريتنا نحو التطور والإبتكار والإبتداع والإختراع، فذلك الشموخ الذي يطأ الثريا بمعنويات مرتفعة، وليس الاستسلام الذي يرمي صاحبه إلى الثرى والتراجع، فلتكن ذا معنويات مرتفعة ترتقي بها إلى سلم المجد وترتقي إلى مناصب الكبار، واعلم أنك عند الله لست بكاسد.

مضى زمن النوم يا خديجة

الجدية في الحياة مطلب أساسي، فكلما كان الإنسان جادا في عمله كلما كان واثقا ونابحا، أما الإنسان المتردد، فهذا تجده غير واثق من نفسه وكثيرًا ما يرى الفشل يتردد أمامه، وتأتي الآية القرآنية الكريمة لتقول ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾ [الشرح: ٧]، وهي تخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم بالجد والاجتهاد في الدعوة، وهي بهذا تؤكد مدى الجدية في العمل، ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السيدة خديجة: «مضى زمن النوم يا خديجة» إن الجدية هي وقود العمل، فالعمل يتعطل بلا جدية كما تتعطل الآلة بلا وقود، ومن بين ما يقال في هذا المقام أنه ذات مرة قدم وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبايعوه، وكان معهم شاب، فرأى فتاة في المدينة فجذبها من ثيابها – أي أنه عاكسها - وفي الصباح عندما قدموا على رسول الله ليبايعهم فردًا فردًا، جاء

هذا الشاب ليبايع فقبض الرسول يده وقال: ألست أنت صاحب الجبذة بالأمس - أي أنت الذي جذبت الفتاة بالأمس - فقال: نعم يا رسول الله، فقال صلى الله عليه وسلم: إذًا والله لا أبايعك أبدًا وأدار وجهه، فصرخ الشاب لا يا رسول الله لن أعود لها أبدًا فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: نعم، إذًا أبايعك، ومما يدل على الجدية في العمل ما حدث يوم أحد عندما أتى إلى رسول الله غلامان هما سمرة بن جندب ورافع بن خديج ويطلبان أن ينضما إلى جيش المسلمين، ولكن رسول الله يردهما لصغر سنهما، فيقول سمرة: يا رسول الله إنني أرمي بالسهام فلا تطيش رميتي، فيرمي أمام رسول الله فيصيب الهدف، فيضمه رسول الله، فيقول رافع: يا رسول الله إنني أصارع سمرة فأغلبه، فيصارعه أمام رسول الله فيصرعه، فيضمه للجيش، وكانا يربطان السيوف على أيديهما لصغر سنهما، ومما ينقل أن ابن النفيس في عمله كان مثالًا للجدية، فكان يبري الكثير من الأقلام عندما يبدأ في كتابة مؤلفاته حتى لا يقاطعه أحد وحتى يركز في عمله، هذا العالم ألف أكثر من 80 مجلدًا وعمره 35 عامًا، فهذه الجدية التي نبحث عنها اليوم أمام تقاعس وتكاسل الشباب اليوم الذي اعتاد أن يجد كل طلباته ورغباته متوفرة له دون أدنى جهد من عمل أو اجتهاد، لأمثال هؤلاء الشباب نقول «مضى زمن النوم يا خديجة».

ما مضى قد فات

لا أدري لم يصر البعض على التعلق بالماضي، والتمادي في البكاء على ما فات منه، والحزن الطويل على ما حصل فيه من شجون وآلام، فلماذا هذا التعلق بما خلا وفات، هل من العقل أن يبقى الإنسان محبوسا في زنزانة الماضي وينسى حرية الواقع والمستقبل، إن الإسلام يدعو المسلم دائمًا أن ينظر إلى الأمام وإلى الآخرة، فما مضى

فقد انقضى وأصبح عبرة وعظة فقط، وباب الماضي لا بد أن يوصد فلا يرى النور لأنه مضى وانتهى، فلا الحزن يعيده، ولا الهم يصلحه، ولا يمكن أن تُرد دمعة نزلت من العين إلى العين ثانية، ولا يمكن أن يُرد طفل نزل من بطن أمه، يقول بعض العقلاء إن الماضي يطوى ولا يروى، فما بال أناس تركوا العمل والاجتهاد بدعوى أن الماضي قد برر لهم التخلف والاستسلام، القراءة في دفتر الماضي ضياع للحاضر، وتمزيق للجهد، لقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أخبار الأمم السابقة فقال تعالى ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فهذه الآية نفهم منها أن الماضي مضى وانقضى ولا طائل من تشريح جثة الزمان، وإعادة عجلة التاريخ، إن الذي يعود للماضي، كالذي يطحن الطحين وهو مطحون كما يقال، إن عقلاء الناس لا ينظرون للوراء ولا يلتفتون إلى الخلف، لأن الريح تهب وتتجه إلى الأمام، والماء ينبع وينحدر إلى الأمام والقافلة تسير إلى الأمام، هذه سنن الحياة فلم نخالفها، ولم نرجع إلى الوراء، فلا شيء يتغير في الحياة ولكن نحن الذين نتغير، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، فاجعل عينيك تنظر من أمامك ولا تنظر بعينيك إلى الخلف فتتعثر في الطريق وتقع، واجعل الأمل متصلا بخطواتك ليرشدك إلى المسلك الصحيح، ويجعلك تنطلق بكل ثقة لتصل إلى غايتك ومبتغاك، فليت كل عامل وشاب ومكافح وصابر ومثابر أن يوجه نظره إلى المدى البعيد ولا حرج أن يتخذ من الماضي دروسا، ولا حرج أن نتخذ من التاريخ فرصة لتصحيح الأخطاء، إنما الحرج أن نحبس أنفسنا في دهاليز الماضي دون أن ننطلق إلى الإصلاح والبناء، تلك مفاهيم غابت في زمان لا تغيب عنه شمس المستقبل، ولكن البعض منا يريد أن يحجب نور الشمس بيده وأنى له ذلك والشمس في كل صباح تنادي هذا يوم جديد وغدا مستقبل واعد، فدع عنك أحاديث الزمان الغابر، وأقبل إلى الحياة، فما فات مضى وما مضى لا يعود.

بحر التمني

ما أكثر ما يتمنى الإنسان من أماني يريد تحقيقها وهو لا يسعى لها ولا يسلك طريقها ولكنه فقط يتمناها، وهذا مما يفسد القلب ويلهيه والله تعالى يقول ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣] إن ركوب بحر التمني مجازفة كبرى، فهذا البحر لا ساحل له، وهو البحر الذي يركبه مفاليس العالم، كما قيل: إن المنى رأس أموال المفاليس، فلا تزال أمواج الأماني الكاذبة، والخيالات الباطلة، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة، وهي بضاعة كل نفس ضعيفة تعيش الأوهام والخيال ليست لها همة تنال بها الحقائق والوقائع، بل اعتاضت عنها بالأماني الذهنية، وكل بحسب حاله فهذا يتمنى المال والسلطان، وهذا متمن للشهوات والملذات، والدنيا تعطى لمن يستحق ولا يستحق، وكل يسبح في بحر التمني وبينما هو على هذا الحال، إذ استيقظ فإذا يده والحصير!! فلا نال مالًا ولا بلغ مجدًا، أما صاحب الهمة العلية فأمانيه قائمة قريبة فهو يسعى لتحقيقها بالعلم والإيمان، والعمل الذي يقربه إلى الله، ويدنيه من جواره، فأماني هذا إيمان ونور وحكمة، وأماني أولئك خداع وغرور، وهذا متعلق بالله تعالى وأولئك متعلقون بغير الله تعالى، وهذا من أعظم مفسدات القلب على الإطلاق، فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل، ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت، وهو أوهن البيوت، فيا من تبحر في بحر التمني، ما الذي جنيت، وما الذي تحقق لك سوى السراب وضلالة الطريق، فعد إلى الواقع وتمسك بكل خيط، واجعل من الأمل واقعا بالعمل والجد والكفاح والتعلق بالله تعالى والاستعانة به والأخذ بالأسباب كلها أمور تجعل التمني مشروعا ومقبولا، فمن هنا يبدأ الطريق ومن هنا تنطلق المسيرة.

سئمت تكاليف الحياة

ما أكثر ما يقلق الإنسان في حياته، فهو يخاف المجهول، والمستقبل المظلم، وهو يخاف الفقر والمرض، وهو يخاف الفشل والضياع، وهو قلق من أي أزمة أو مشكلة غير متوقعة تحدث له وهو يشق طريقه نحو الحياة، ولم يزل منشغلًا بتكاليف الحياة ومنغصاتها، فهو يخاف على وظيفته أن يخسرها، وهو يخاف على ماله ورصيده في البنوك أن يخسره، وهو يخاف على أبنائه وأولاده أن يضيعوا أو أن يعجز عن تكملة نفقاتهم عند التقاعد، وهو يخاف أن يداهمه مرض يقعده عن أداء واجباته نحو أسرته، فما أكثر هذه المخاوف التي لا تنتهي، إن سلم الإنسان من بعضها لم يسلم من بعضها الآخر، وهذه هي تكاليف الحياة وهذه هي عوارضها وهذا هو القلق الذي يعتصر في القلب، الفشل والضياع والخوف والقلق هذه كلها أمور دنيوية لا بد أن يذوق الإنسان في حياته شيئًا منها، لقد جعل الله تعالى الحياة دار ابتلاء، وكاذب من يقول إنه لم يذق منها شيئًا، قال تعالى ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٢-٣]، فساحة الصبر أجمل وأوسع حينما ينزل البلاءُ بساحة العِباد فتتغيَّر أحوالهُم بين جازعٍ وراض، فمنهم مَن يقبل أقدار الله في دنياه ولا ييأس، بل يشتمله الرِّضا والمصابرة ومغالبة النوائب والتكاليف، وإعلاءِ العبودية المطلقة بالتَّسليم، فهو المؤمن الذي يصبر عندَ البلاء، وله الجوائزُ والمنح الموعود بها في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۝١٥٥ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝١٥٦ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٧]، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (وجدْنا خيرَ عَيشنا بالصَّبر)، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: (إنَّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرَّأس

من الجسد، فإذا قطع الرأس بارَ الجسم)، وقال الحسن: (الصَّبر كَنزٌ من كنوز الخير، لا يُعطيه الله إلاَّ لعبد كريم عنده)، فيا من سئم تكاليف الحياة، اصبر ولا تجزع.

الصبر والنجاح توأمان

خلق عظيم تقوم عليه أسباب الفلاح والنجاح إنه الصبر، والصبر في مفهومه هو حبس النفس عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى، وحمل النفس على طاعة الله وزجرها عن معصية الله هذا هو الصبر، فلا بد من الصبر فهو سمة عميقة لأخلاق كثيرة، فمن صبر عن شهوة البطن والفرج ابتغاء وجه الله عز وجل فهذه هي العفة، قال عليه الصلاة والسلام: الإيمان عفيف عن المحارم، الإيمان عفيف عن المطامع. ومن صبر وغض بصره عن محارم الله، فهو صابر على شهوته وهو عفيف، والذي يصبر عن مغريات المال، فهو أيضًا صابر، والشجاعة صبر، وكظم الغيظ صبر والقناعة صبر والزهد والورع صبر والحلم صبر، وهكذا كل الأخلاق تنبع من ينبوع الصبر وتتفجر منه، والصبر من لوازم النجاح في الدنيا قبل الآخرة، فما من إنسان حقَّق في الدنيا نجاحا كبيرا إلا وكان الصبر سبب نجاحه، فلولا صبر الزارع على بذره لما حصد، ولولا صبر الغارس على غرسه لما جنى، ولولا صبر الطالب على درسه لما نجح، ولولا صبر المقاتل على عدوه لما انتصر، فالصبر والنجاح توأمان، يقول ابن سيرين العالم الذي عُرف بتفسير المنام وقد سأله رجل قال: يا إمام رأيت في النوم أنني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح، فقال ابن سيرين: أنت رجل كثير الأماني والأحلام، تتمنى ما لا يقع، وتحلم بما لم يتحقَّق، هذا الذي يقول اللهم أسألك النجاح، ولكن ماذا فعلت من أجله؟ ماذا قدَّمت من عمل؟ وهذا الذي يقول: ربنا أدخلنا الجنة، وهو لم يفعل لها شيئًا، ويقول أحد علماء القلوب: الصبر سبب دخول الجنة، قيل له: وكيف؟ قال: لأن النبي صلى الله

عليه وسلم يقول حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات، فاصبر فالصبر طريق نجاحك.

الخسارة الحقيقية

لا يحب أحد من الناس الخسارة، والخسارة عادة ما تجلب الحزن والألم، واسألوا من خَسِرَ، والخسارة أنواع، وكل خسارة تختلف عن الأخرى، فهناك خسارة المال وهي مُؤْلِمَةٌ جدًّا، وهناك خسارة الصحة وهي أكثر إيلامًا، وهناك خسارة الأهل والعيال وهي كذلك خسارة كبيرة، ورغم ذلك تبقى الخسارة على نسب مختلفة فقد يخْسرُ الإنسان مَتْجرهُ، ويبقى بيتهُ، وقد يخْسرُ أحدَ أولاده ويبقى الآخر، وقد يخْسرُ جانبًا من أعضائه ويبقى عضوٌ آخر، ولكن كيف إذا خسر كل شيء، والخسارة هي فقدان الشيء، وأكثر الخاسرين هم أولئك الذين ضيعوا آخرتهم بدنياهم، قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٤]، هؤلاء الذين يستهلكون أوقاتهم اسْتِهلاكًا رخيصًا، من دون أن يُوَظِّفوه لِرِبْحٍ أكيدٍ محقّق عند الله عز وجل، وهؤلاء الذين خسروا أنفسهم، خسروا كلّ شيء، وفي سورة العصر ذكر الله تعالى أن الخسارة ملازمة للإنسان طالما أنه إنسان، وهو واقع في الخسارة، والإنسانية كلها في خسارة حقيقية، ثم استثنى الله تعالى من الناس الخاسرين في الدنيا أربعة ذكرهم في سورة العصر وهم: المؤمنون، العاملون للصالحات، والمتواصون بالحق، والمتواصون بالصبر، وهذه الصفات الأربعة متصلة بعضها ببعض كاتصال حلقات العقد فيما بينها، وبفصل أي حلقة ينفرط العقد، فالإيمان يستوجب العمل الصالح، والعمل الصالح يستوجب التواصي بالحق وقول الحق ونشر الحق يستلزم الصبر على ذلك، فهذه الأربعة تزين عُقد

النجاة من الخسارة، فما فائدة الإيمان بلا عمل، وما فائدة العمل بلا حق، ما فائدة الحق بلا صبر، وهذا ما ورد في سورة العصر حيث قال الله تعالى ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، فالإنسان الماهر في التجارة يدرس أسباب الخسارة فيتجنبها، وهكذا الإنسان المؤمن عليه أن ينقذ نفسه من الخسارة الواقع فيها، وهو يدرك أن خسارة الآخرة هي الخسارة الحقيقية، وما سوى ذلك من خسارة فتعويضها ممكن، أما خسارة الآخرة فلا يمكن تعويضها وقد قال الله تعالى ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠]، فاحذر هذه الخسارة، وعليك بسوق رابحة في عمارة الآخرة وهدم الدنيا.

الزمن ثلاثي الأبعاد

الإنسان زمن وأي زمن، لأن حياته عمر، والعمر أيام وتنقضي، وكلما انقضى يوم نقص العمر يومًا، فالإنسان زمن، كما قال الحسن البصري: الإنسان بضعة أيام، كلما انقضى يوم انقضى بضع منه، والزمن ثلاثي الأبعاد، بعدٌ يمثل الوقت، وبعدٌ يمثل استهلاك الوقت إما بالتضييع أو بالاستثمار، وبعدٌ يمثل ثمرة الوقت، فالزمن ثلاثي الأبعاد، أما البُعد الأول للزمن فهو الوقت، الوقت يمضي وهو أيام سبت، أحد، اثنين، ثلاثاء، أربعاء، خميس، جمعة، مضى أسبوع، وشهر، وسنة، وهكذا الأيام تمضي والزمن لا يتوقف، لذلك قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ١-٢]، وخسارة الإنسان تأتي من مضي الزمن الذي يستهلكه، والوقت هو رأس مال الإنسان، ولك أن تقول: إن أثمن شيء تملكه هو الزمن، وأما البُعد الثاني فهو استهلاك الوقت،

فكيف تستهلك الوقت، فهل تستهلكه في اللعب واللهو، أم تستهلكه في الأكل والشرب، أم تستهلكه في الأعمال الصالحة؟، إن هذا البُعد يجعل الإنسان ينظر كيف يستثمر أوقاته استثمارًا نافعًا، بحيث يعمل في الوقت والزمن عملًا ينفعه بعد انقضاء الزمن، لأن الإنسان بعد ذلك سيدخل إلى القبر، فاحرص أن يدخل معك أعمالك الصالحة فقط، لا يدخل معك سواها، أما بيتك وسيارتك ومحلك التجاري، فهذا كله تتركه وتذهب إلى القبر، فالقبر صندوق العمل، وقد قال صلى الله عليه وسلم: يتبع الميت ثلاث، فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله، وماله، وعمله، فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله وهناك بُعْدٌ ثالث وهو النتيجة والثمرة وهذا ستجده يوم القيامة عند الحساب، عندما تحاسب على الوقت وكيفية استثماره واستغلاله، حيث سيسأل الإنسان عن عمره كما قال صلى الله عليه وسلم: «لا تزولُ قَدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ حتى يُسأَلَ عنْ أربعٍ: عنْ عُمُرِهِ فيما أفناهُ وعنْ جسدِه فيما أبْلاهُ وعنْ مالِهِ مِنْ أيْنَ أخذهُ وفيما أنْفَقَهُ وعنْ عِلمِهِ ماذا عَمِلَ بهِ»، فيا من تبحث عن التقنية العالية والأبعاد الثلاثية، فهذه تقنية الوقت فاعرف كيف تستفيد منها، فالوقت هو الحياة، وهو الذي يمضي، وأنت تعيش مع الوقت وهو يأخذ منك كل شيء يأخذ حياتك وعمرك، فتعلم كيف تأخذ أنت منه، وكيف تستفيد منه، تلك الفرصة التي لا يمكن أن تتكرر، واسأل من مضى ومات، هل له من رجعة.

حب من طرف واحد

المال وما أدراك ما المال، حبٌ بين الإنسان والمال من الأزل إلى القيامة، وهو حبٌ من طرف واحد، فالإنسان يهوى المال، والمال لا يحس بذلك أبدًا ولا يبادله الشعور والعاطفة، فهو حبيب ناكر للحب، وهو حبيب خائن للحبيب، فما إن يموت

الإنسان حتى ينتقل المال إلى غيره، ويأخذه عاشقٌ آخر، وليته يقف عند ذلك بل إنه يوم القيامة يقف ضد عاشقه ومُحبه، لا يصون الود والمحبة طيلة عمر العاشق المتيَّم الذي من أجل معشوقه أفنى عمره كله، فما هذا الحبيب الخائن المتنكر لأواصر الحب والعشق، فكم شغل المال محبه عن الصلاة، وكم شغل المال عاشقه عن حق الله فيه، وكم أخفاه واكتنزه في خزانات الحديد، وكم ضيَّع بسببه حقوقًا وواجبات، وكم أهدر أوقات عمره من أجل سواد عيونه، وكم وكم...، فهل في الدنيا حبيب منكر لمحبه مثل المال، إن الإنسان إذا وقف يوم القيامة يُحاسب على ماله ويرى تنكر المال له ويوشك أن يدخل النار بسببه، يقول ليتني أرجع إلى الدنيا فأؤدي زكاة المال وأدفع نفقة المال، وأُردَ حقوق المال، ولكن هيهات لا سبيل إلى الرجوع، يقول ابن عباس: ليس لأحد لا يؤتي زكاة ماله إلا سأل الله الرجعة عند الموت، ثم تلا قوله تعالى ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨]، نعم هذا ما يقوله الحبيب لحبيبه يوم القيامة، وليت الأمر يقف عند هذه الخيانة والتنكر للفضل بل يتحول الحبيب نارًا تُكوى بها جبهة العاشق الملهم، ويُكوى جنبه وظهره، قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥]، فدع عنك هذا المعشوق واحذر حبه، فهو والله لا يستحق منك هذا الحب، فما قيمة معشوق إن مات عاشقه خانه وذهب لأحضان عاشق آخر، فهو لا يرد يد لامس، ولا يعرف حقوق الود والمحبة، فدعه فما أنت إلا وصيٌ يؤدي حق المال وهو ذاهب عنك في الدنيا، ويوم تموت يتبعك مالك في جنازتك ثم والله يرجع عنك، وهو خصيمك في الآخرة، وستعرف قيمته الحقيقية يوم الحساب، يوم يردد اللسان، ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨]، فهذا حب من طرف واحد.

لا حد لطموحاتنا

رغم كثرة الكلام الذي نكتبه نظن بأن الكلام قد انتهى، وأنه لم يعد هناك مكان للجديد، وإنما فقط تكرار ما سبق كتابته، ورغم كثرة الأفكار التي نطلقها حتى نظن بأنها قد انتهت، لم يعد هناك أفكار جديدة ولا العقل يستطيع أن يأتي بما هو جديد، ورغم كثرة الإنجازات على مختلف المستويات قد نظن أننا اكتفينا وما حققناه ليس مسبوقًا وبالتالي نكتفي بما تحقق، وهذا كله خطأ ولا يقوله إنسان طامح، إننا قوم لا حد لطموحاتنا ولا نهاية لعملنا، فسقف الطموحات لا حد له، ولا يمكن أن تقف عجلته يومًا، ونظرتنا للمستقبل نظرة بعيدة تصل إلى مشارف يوم القيامة وإلى آخر لحظة في الدنيا، وآمالنا ليس لها ساحل وإن كان البحر يقف أمامنا لخضناه إلى أن نصل إلى غايات بعيدة لا يعلمها إلا الله تعالى، طموحٌ بعيد يستثير فينا العمل، وكلما وصلنا ابتعدت طموحاتنا فلا نزال نحن معها في متابعة وملاحقة، كما وقف عقبة بن نافع الذي وصل إلى المحيط الأطلسي والموج يمس قدمي فرسه، فقال كلمته الشهيرة: «والله لو كنت أعلم أن خلف هذا البحر قومًا لخضته في سبيل الله»، فهذا طموح تجاوز البحار والمحيطات لا حد له ولا ساحل له، ولكنها الهمة العالية التي لا تعرف الركون والاستسلام طالما في العمر متسع، وما دام في الدنيا زمن، وهذا مبدأ غرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما دعا إلى مواصلة العمل بلا انقطاع، وعندما جعل طموح الأمة بلا حد ومدى، فقد قال صلى الله عليه وسلم: إذا قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها، وهذا الحديث عظيم في معناه ومبناه، فلو تخيل أحدنا أن الساعة أوشكت على القيام وبيده زرعة فلو زرعها فله بذلك أجر، مع أن ثمرة الزرعة هذه قد لا تخرج لأن الحياة على وشك الانتهاء، ومع ذلك يأمر صلى الله عليه وسلم بمواصلة العمل حتى آخر لحظة في الوجود، وحتى آخر نفس يتنفسه

الإنسان، لماذا لأن المسلم يعمل بطموحات كالكون الفسيح لا يعرف له عرض ولا طول، فلا حد لطموحاتنا.

الباب الرابع

الموت والآخرة

(٢٤ مقالة)

أريد الجنة

ومن منا لا يريد الجنة، ولكن الجنة تحتاج إلى عمل وصبر، ومن العبث أن نطلب الجنة بلا عمل وبلا صبر، فالجنة حفت بالمكاره، والنار حفت بالشهوات، الجنة أمنية الأماني، ولكنها سلعة غالية إلا أن ثمنها العمل، والصبر طريقها، ولا يحق لإنسان أن يطلب الجنة وهو لا يملك ثمنها، كما لا يحق للخاطب أن يخطب فتاة وهو لا يملك مهرها، أيعقل أن يطلب الجنة إنسان من غير عمل، أليس ذلك عبثًا؟!، لذلك قال الإمام علي كرم الله وجهه طلب الجنة من غير عمل ذنب من الذنوب، نعم ذنب عظيم، بل هو استهزاء بالله عز وجل، يقول ابن سيرين العالِم الذي عُرف بتفسير المنام وقد سأله رجل قال: «رأيت في النوم أنني أسبح في غير ماء، وأطير بغير جناح، فقال ابن سيرين: أنت رجل كثير الأماني والأحلام، تتمنى ما لا يقع، وتحلم بما لم يتحقَّق»، وهذا كمثل الذي يقول: اللهم أدخلنا الجنة، ماذا فعلت من أجلها؟ ماذا قدَّمت من عمل؟ ما الموقف الذي وقفته من أجل الجنة؟ وما الشيء الذي تركته، ما الشيء الذي دفعته؟ ما الشيء الذي قبضته؟ عن أي شيء امتنعت؟ ماذا وصلت، وماذا قطعت؟ ماذا أعطيت، وماذا منعت؟ لمن غضبت، ولمن رضيت؟ وكم من سائل يقول: ربنا أدخلنا الجنة، وهو على ما هو عليه، ولم يقدم شيئًا للجنة فهذا يضيف إلى ذنوبه ذنبا جديدًا فمن الذنب أن تطلب الجنة من غير عمل، يقول أحد العلماء الصبر سبب دخول الجنة، قيل له: وكيف؟ قال: لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ، فلا بد من أن تصبر على المكاره، وأن تصبر عن الشهوات، حتى يُسمح لك بدخول الجنة، فيا من تريد الجنة اعمل لها وجهز مهرها، واسعَ من أجلها، واحذر أن تطلبها وأنت لا تعمل لها، فكلنا يريد الجنة، ولكن الجنة تريد العمل، ومن ظن أنه يطير على الجنة بلا جناح من عمل، فظنه سراب.

ذكر الموت هكذا

إنّ معترك المنايا بين الستّين والسبعين، والواقع اليوم يؤكد ذلك، إذْ أنّ الناس يغادرون الدنيا فيما بين الستّين والسبعين، أو الخمسين والستّين، أيْ إذا تجاوَزَ الإنسان سنّ الأربعين دخل في أسواق الآخرة، ولذلك بعض الناس يصيبه القلق إن اقترب من الستين، ومع ذلك هناك حالات كثيرة يموت فيها الإنسان وهو في سن مبكرة، جاء في الحديث عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مُصَلَّاهُ فَرَأَى نَاسًا كَأَنَّهُمْ يَكْتَشِرُونَ قَالَ أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ أَكْثَرْتُمْ ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى فَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ: الْمَوْتِ، فَإِنَّهُ لَمْ يَأْتِ عَلَى الْقَبْرِ يَوْمٌ إِلا تَكَلَّمَ فِيهِ فَيَقُولُ أَنَا بَيْتُ الْغُرْبَةِ وَأَنَا بَيْتُ الْوَحْدَةِ وَأَنَا بَيْتُ التُّرَابِ وَأَنَا بَيْتُ الدُّودِ فَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ قَالَ لَهُ الْقَبْرُ مَرْحَبًا وَأَهْلًا أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَحَبَّ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِي بِكَ، قَالَ فَيَتَّسِعُ لَهُ مَدَّ بَصَرِهِ وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْفَاجِرُ أَوْ الْكَافِرُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ لا مَرْحَبًا وَلا أَهْلًا، أَمَا إِنْ كُنْتَ لأَبْغَضَ مَنْ يَمْشِي عَلَى ظَهْرِي إِلَيَّ، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ وَصِرْتَ إِلَيَّ فَسَتَرَى صَنِيعِي بِكَ، قَالَ فَيَلْتَئِمُ عَلَيْهِ حَتَّى يَلْتَقِيَ عَلَيْهِ وَتَخْتَلِفَ أَضْلاعُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بِأَصَابِعِهِ فَأَدْخَلَ بَعْضَهَا فِي جَوْفِ بَعْضٍ، قَالَ وَيُقَيِّضُ اللَّهُ لَهُ سَبْعِينَ تِنِّينًا لَوْ أَنَّ وَاحِدًا مِنْهَا نَفَخَ فِي الأَرْضِ مَا أَنْبَتَتْ شَيْئًا مَا بَقِيَتْ الدُّنْيَا فَيَنْهَشْنَهُ وَيَخْدِشْنَهُ حَتَّى يُفْضَى بِهِ إِلَى الْحِسَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ، أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ، ومع الغفلة والتنعم والفرح والضحك نحن بحاجة أن نذكر الموت فالرسول صلى الله عليه وسلم يقول: أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقها عليه، فهذه موعظة بليغة أصلها الترهيب والترغيب دون تكلف ولا تصنع، ولكن ذكر الموت هكذا.

بيت العنكبوت

لا يذكر الإنسان الموت إلا حين يجد آثاره في نفسه من مرض أو شيب، وإذا رأى الموت يأخذ أحدا، قال في نفسه هذا فلان ممكن أن يموت، أما أنا فالموت بعيد عني، وتلك مصيبة أن لا يتوقع الإنسان أن يكون يوما من الأموات، وقد جاء رجل إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقال لها يا أم المؤمنين إن بي داء فهل عندك دواء؟، قالت وما داؤك؟ فقال القسوة، قالت بئس الداء داؤك، عد الموتى، واشهد الجنائز وتوقع الموت.

نعم توقع الموت، وتذكر يوم تلبس ثيابا بيضا، وتدرج فيها وتلف كأنك منديل، ثم توضع في حفرة هي ذراع في ثلاثة أذرع، وقد فارقت الأهل والأحباب، فأين تلك الأموال التي جمعتها، وأين تلك القصور التي بنيتها، وأين الأولاد، وأين الأحباب، أين الرفيق والصديق، أين هيبة الناس لك، أين مدحهم لك، أين رجاؤهم فيك، أين تعظيمهم لك، أين توددهم إليك، أين، وأين، لا مجيب، والآن وأنت تحت التراب، وفي ظلمة القبر ما العمل، بل هو العمل الذي يبقى لك، هو حبيبك، هو مالك، هو بيتك الذي بنيته، هو قصرك الذي شيدته، هو الأهل، وهو الصديق، به تمدح ويثنى عليك، به تقدح وتذم، به تعظم وتكرم، وبه يوسع في قبرك، فتزول غمته، وينور في قبرك فتزول ظلمته، هو الذي ينفعك هو زادك وماؤك في الآخرة، وما بنيت في الدنيا فهو ذاهب واه ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١]، فعجبا لمتعب نفسه في طلب الدنيا، والموت كالأسد ينقض على طلاب الدنيا ويقتلهم واحدًا بعد واحد، وهم في جري وتلهف، كمثل العنكبوت نسجت بيتا بذلت فيه الغالي والنفيس، بنته في الدنيا وللدنيا، وسرعان ما تم البناء، ولكنه سرعان ما زال فكان بيتها من أوهن البيوت، وكذلك أنت في الدنيا، ليس لك فيها سوى قوت يومك، ولو جمعت الملايين

وادخرت البلايين، فكلها حساب وعقاب، فانهض من غفلتك، وانظر إلى أجلك، وبادر إلى عملك، فإنه يكفيك وحشة القبور، وظلمة الفراق ولا تكن كالعنكبوت:

إنما الدنيا بلاغ	*	ليس في الدنيا ثبوت
إنما الدنيا كبيت	*	نسجته العنكبوت
ليس للطالب فيها	*	كل يوم غير قوت
كل من كان عليها	*	عن قليل سيموت

قبور تتنفس

الموت هو الحدَث الواقعي الذي لا بدّ منه في حياة كلّ إنسان، فالقويّ يموت، والضعيف يموت، والغنيّ يموت، والفقير يموت، وذو الصحّة يموت، والمريض يموت، والظالم يموت، والمظلوم يموت، وكلّ مخلوق يموت، ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعُمْر مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

كلّ ابن أنثى وإن طالتْ سلامته	*	يوما على آلة حدباء محمول
فإذا حُمِلْتَ إلى القبور جنازة	*	فاعلَم بأنّك بعدها مَحمول

عجيبٌ أمر الموت، إن كنت في ضيقٍ فتذكُّر الموت، يُوسّع هذا الضّيق، وإن كنتَ في سعةٍ تفكّر في الموت، تضيّق هذه السّعة، يقول صلى الله عليه وسلم: أكثروا ذكر هاذم اللذات الموت، فإنه لم يذكره أحد في ضيق من العيش إلا وسعه عليه، ولا ذكره في سعة إلا ضيقه عليه. هل مررت يوما بالقبور؟ هل وقفت يوما على قبر تتأمله، إن هذه القبور حية تتنفس، لو نظرت إليها لتكلمت إليك، كلامها صمت، حديثها وعظ، قبور حية تتنفس، ظلامها نور، ونورها ظلام، فيها صيف وشتاء، فيها حر وبرد، قبور ذليلة

في الأرض، ولكن كبرياءها يصل إلى السماء، قبور صغيرة، ولكنها تذل كل كبير، لا تعرف المال، ولكنها تعرف الأعمال، لا تعرف الأنساب، ولكنها تعرف الحسنات والسيئات، لا تميز بين طفل ولا شاب ولا عجوز، ولكنها تميز بين القلوب، لو وقفت أمامها تنظر وتتأمل وتسمع فإنها تناديك، تقول يا هذا عما قريب ستنزل في حضني وأعانقك، فأنا بيتك وأنا صندوق عملك، أنا دارك إلى يوم الحساب، فكيف تحب أن أكون لك دارًا؟، فالقبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران.

سلع للبيع

هي سلع الجنة التي يجب أن تقام لها معارض تعرض من خلالها للبيع وتوضع لها إعلانات تجارية في الشوارع وفي أجهزة الإعلام المسموعة والمرئية، بحيث يقصدها الناس من كل صوب، ويجمعون ثمنها من الآن فيشترون منها ما تطيب أنفسهم وتسر، وأوجه هذا الإعلان للراغبين في الشراء، علما بأن الوصف بعيد عن الحقيقة وإنما هو للتقريب فالسلع المعرضة للبيع لم ترها عين ولم تسمع بها أذن ولم تخطر على قلب بشر، فإن سألت عن دار الجنة فكيف يقدر قدر دار غرسها الله بيده وجعلها مقرًا لأحبابه، وملأها من رحمته وكرامته ورضوانه، ووصف نعيمها بالفوز العظيم، وملكها بالملك الكبير، طهرها من كل عيب وآفة ونقص، وإن سألت عن أرضها وتربتها، فهي المسك والزعفران، وإن سألت عن سقفها، فهو عرش الرحمن، وإن سألت عن بلاطها، فهو المسك الأذفر، وإن سألت عن حصبائها فهو اللؤلؤ والجوهر، وإن سألت عن بنائها، فلبنة من فضة ولبنة من ذهب، لا من الحطب والخشب، وإن سألت عن أشجارها، فما فيها شجرة إلا وساقها من ذهب، وإن سألت عن ثمرها، فأمثال القلال، ألين من الزبد وأحلى من العسل، وإن سألت عن ورقها، فأحسن ما يكون من رقائق الحلل، وإن

سألت عن أنهارها، فأنهارها من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى، وإن سألت عن طعامهم، ففاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وإن سألت عن شرابهم، فالتسنيم والزنجبيل والكافور، وإن سألت عن سعة أبوابها، فبين المصراعين مسيرة أربعين من الأعوام، وإن سألت عن ظلها ففيها شجرة واحدة يسير الراكب السريع في ظلها مئة عام لا يقطعها، وإن سألت عن خيامها وقبابها، فالخيمة من درة مجوفة طولها ستون ميلًا من تلك الخيام، وإن سألت عن لباس أهلها، فهو الحرير والذهب، وإن سألت عن أسنانهم فأبناء ثلاثة وثلاثين على صورة آدم عليه السلام، وإن سألت عن وجوه أهلها وحسنهم، فعلى صورة القمر، وإن سألت عن عرائسهم وأزواجهم، فهن الكواعب الأتراب، اللائي جرى في أعضائهن ماء الشباب، فللورد والتفاح ما لبسته الخدود، وللرمان ما تضمنته النهود، وللؤلؤ المنظوم ما حوته الثغور، وللدقة واللطافة ما دارت عليه الخصور، هذه السلع مضمونة فالذي صنعها مبدع وحكيم سبحانه. فهل من مشتر؟!

يا ليتني منهم

الشوق إلى الجنة يتصاعد يوما بعد يوم والمشتاقون لا يبرحون تجهيز الزاد والراحلة ليودعوا الدنيا ويرحلوا عبر رحلة المشتاق، نعم مشتاق إلى دخول الجنات ورؤية الله عز وجل، فليتني منهم أولئك المشتاقون المعظمون للدين، الذين تعرض لهم الشهوات وتحيط بهم الملذات، فلا يلتفتون إليها ولا يولونها أي اهتمام هم والله جبال راسيات وعزائم ماضيات عاهدوا ربهم على الثبات، ليتني منهم، هم الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا لا يرجعون عن الاستقامة بل هم ثابتون بينما غيرهم عن طريق الاستقامة يتراجعون، كل ما يقومون به قربة إلى ربهم، هم في الدنيا عابرون وإلى غدهم ناظرون، عزيمتهم ثابتة

على دينهم، إنهم قوم إذا أذنبوا فسرعة توبتهم بعد ذنبهم أسرع من مماطلة أنفسهم، إذا ذكروا بالخير تذكروا، وإذا ذكروا الموت انزجروا، فيا ليتني منهم، يتركون لذة الدنيا وشهواتها في سبيل النجاة من النيران، والفوز برضا الرحمن، أعد الله لهم في الجنات ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٨-١٩]، يا ليتني منهم، هم بشر من البشر، ما تركوا الشهوات لأنهم عاجزون عنها لا والله بل هم قادرون عليها وهي قريبة منهم ولكنهم تركوها رغبة منهم في مرضاة الله قيدوها بقيد التقوى، ولم يفلح الشيطان في جرهم إليها، ليتني منهم، إنهم عاهدوا الله على الطاعة لما قال لهم ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قالوا نتقي ونموت ونحن مسلمون، فعجبًا لهم ما أشجعهم، وما أقوى عزائمهم وأثبتهم، وما أصدقهم في تنفيذ عهودهم ووعودهم مع الله، أتحسب أنهم ناجون هم والله ناجون فمن ينجو غيرهم لقد آمنهم الله تعالى وضمن لهم الجنة، أهي جنة بل هي جنات وفردوس في ظل العرش يمرحون ويسرحون، الكل يتمنى أن يعيش عيشهم، فيا ليتني منهم.

في ضيافة الله

الكريم يقدم قرى الضيف بسخاء ولكن في ضيافة الله تعالى لن تجد أعظم من هذا الكرم الإلهي لعباده في الجنة، فإذا سكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، هبط الله تعالى بلا تكييف ولا تمثيل تعالى عن ذلك علوا كبيرا، ثم ينادي الله تعالى عباده من وراء الحجب: مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي، يا ملائكتي انهضوا إلى عبادي

فاطعموهم، فتقرب الملائكة إليهم لحم طير كأنها البخت لا ريش معها ولا عظم، فأكلوا، ثم ناداهم الرب جل وعلا من وراء الحجب: مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي، أكلوا، اسقوهم يا ملائكتي، قال: فنهض إليهم غلمان كأنهم اللؤلؤ المنثور بأباريق الذهب بأشربة مختلفة تجد لذة آخرها كأولها ﴿لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ﴾ [الواقعة: ١٩] ثم ناداهم الرب تبارك وتعالى من وراء الحجب مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا فكهوهم، فقُربت إليهم أطباق مكللة بالياقوت من الرطب الجني أشد بياضا من اللبن وأطيب عذوبة من الشهد فطعموا وشربوا وفكهوا، ثم ناداهم الرب تبارك وتعالى من وراء الحجب مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا وفكهوا اكسوهم، فتفتح لهم أشجار الجنة بحلل مصقولة بنور الرحمن فألبسوا، ثم ناداهم الرب تبارك وتعالى من وراء الحجب مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي، أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا طيبوهم، فتهيج عليهم ريح من تحت العرش يقال لها المثيرة بأنابيب المسك الأبيض والأذفر فنضحت على وجوههم من غير غبار ولا قتار، ثم يناديهم الرب جل وعلا من وراء الحجب مرحبا بعبادي وزواري وجيراني ووفدي أكلوا وشربوا وفكهوا وكسوا وطيبوا، وعزتي وجلالي لأتجلين لهم حتى ينظروا إلي، فذلك منتهى العطايا وفضل المزيد فيتجلى الرب تبارك وتعالى فيقول: السلام عليكم عبادي انظروا إلي فقد رضيت عنكم، فتهتز قصور الجنة وأشجارها فيخر القوم كلهم سجدًا، فيقول الله تعالى: عبادي ارفعوا رؤوسكم فإنها ليست بدار عمل ولا بدار نصب، وإنما هي دار جزاء ودار ثواب، وعزتي وجلالي ما خلقتها إلا لأجلكم وما من ساعة ذكرتموني فيها في دار الدنيا إلا ذكرتكم فوق عرشي.

حسن الخاتمة

يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] قد يفهم من هذه الآية أن الإنسان ألا يموت إلا وهو مؤمن، ولكن هل يضمن الإنسان ذلك؟ وهل يعلم الإنسان متى يموت حتى يموت وهو مؤمن؟ لا يستطيع أحد أن يضمن ذلك ولا يعلم الإنسان الزمان والمكان الذي يموت فيه، ولكنه فقط يستطيع أن يموت على خاتمة حسنة، يموت وهو على الإيمان والإسلام عندها لا يضره بأي أرض يموت، إن عمر الإنسان وإن طال فهو قصير والقلوب تتقلب وأنت أيها العبد مطالب أن تموت وأنت على الإيمان، مطالب أن تعبد الله حتى آخر لحظة يقول تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فاحذر أن تكون الخاتمة سيئة فالأمر بالتقوى والعبادة مستمر حتى الموت لتحصل الخاتمة الحسنة. وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن بعض الناس يجتهد في الطاعات ويبتعد عن المعاصي طيلة عمره ولكنه قبل الموت يقترف السيئات والمعاصي فيموت على ذلك ويختم له بخاتمة السوء، قال صلى الله عليه وسلم: وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وعن سهل بن سعد الساعدي أن رجلا من المسلمين في إحدى المعارك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أبلى بلاء شديدا، فأعجب الصحابة بذلك، وقالوا: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أما إنه من أهل النار، فقال بعض الصحابة: أينا من أهل الجنة إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: أنا صاحبه سأنظر ماذا يفعل فتبعه، قال: فجرح الرجل جرحا شديدا فاستعجل الموت، فوضع سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فرجع الرجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أشهد أنك رسول الله، قال: وما ذلك؟ قال: الرجل الذي

ذكرت آنفا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه حتى جرح جرحا شديدا، فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك: إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار، وإنما الأعمال بالخواتيم. فاعمل أيها المسلم وداوم على العمل واحذر أن تموت وأنت على معصية فالعبرة بالنهاية.

عمارة المجالس

مجالس اللهو واللعب لا تُعمر إلا بذكر الموت فهو عمارتها وهو مربيها، والموت ليس مصيبة كما يظنه البعض بل هو عرس يزف فيه العريس إلى عروسه في كوكبة من الملائكة تجلس عند رأس المحتضر تقول أيتها الروح الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان ورب راض غير غضبان فتخرج هذه الروح كما يخرج الماء من فم السقاء، ثم تكفنه الملائكة ويضعون عليه الحنوط، فتخرج منه نفحة مسك أطيب نفحة مسك على وجه الأرض، ويُبشَّر بالخير والوعد بالجنة كما قال تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠]، ثم يصعدون به إلى السماء والملائكة تصلي عليه، وكلما مروا بباب من السماء يقولون ما هذه الروح الطيبة فيقال روح فلان ابن فلان بأحب الأسماء إليه التي كان يعرف بها في الدنيا فيستفتحون فيفتح لهم إلى أن يصلوا إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى اكتبوا كتاب عبدي في عليين ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ١٩-٢١]، ثم يقول أعيدوا عبدي إلى الدنيا فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، ويرى مقعده من الجنة وتفتح له

نافذة في الجنة، أليس ذلك عرسا بهيجا للمؤمن، أما الكافر فتلك مصيبة ما بعدها مصيبة فإن الملائكة عند احتضاره تجلس عند رأسه تقول: أيتها الروح الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، فتنزع روحه كما ينزع السفود من الصوف المبلل، ثم تخرج منه ريح منتنة كأخبث ريح وجدت على وجه الأرض، ثم يصعدون بها إلى السماء كلما استفتحوا لا يفتح لهم كما قال الله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، فيقولون ما هذه الروح الخبيثة فيقال روح فلان ابن فلان بأقبح الأسماء التي كان يعرف بها في الدنيا، فيقول تعالى اجعلوا روحه في سجين في الأرض السفلى فيعيدونه إلى الأرض ويعذب في قبره ويجعل في حفرة من حفر النيران، فهل نذكر في مجالسنا شيئًا من الموت كما قال صلى الله عليه وسلم: أكثروا من ذكر هاذم اللذات، ومفرق الجماعات، وتوسدوه إذا نمتم، واجعلوه نصب أعينكم إذا قمتم، واعمروا به مجالسكم فإنه معقود بنواصيكم. أي مربوط بشعر رؤوسكم، فكيف الغفلة إذن؟

عند الاحتضار

في آخر لحظة من عمر الإنسان تنزل دموع الوداع وينظر الإنسان إلى من حوله نظرة اليأس من الدنيا والاستسلام للمصير المحتوم، فهو لا يستطيع أن ينجو بنفسه ولا يستطيع من حوله أن يقدموا له شيئًا، وقد انتهى وقت الامتحان فجأة، وسيعلن عن النتيجة إما النجاح وإما الخسارة، فهل نتعظ ونحن ما زلنا نعيش فترة الامتحان، وقد روى مسلم في صحيحه عن ابن شماسة قال: حضرنا عمرو بن العاص رضي الله عنه وهو في سياقة الموت يبكي طويلا، وحول وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه: أما بشرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بكذا، أما بشرك بكذا، فأقبل بوجهه فقال: إن أفضل ما

نعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله وإني كنت على أطباق ثلاثة: لقد رأيتني وما أحد أشد بغضا لرسول الله مني، فلما جعل الله الإسلام في قلبي، أتيت النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه فقبضت يدي، فقال: وما لك يا عمرو؟ قلت أردت أن أشترط قال: تشترط بماذا. قلت أن يغفر لي، قال أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأن الحج يهدم ما كان قبله، وما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أجل في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالا له، ولو سئلت أن أصفه ما أطقت، لأني لم أكن أملأ عيني منه، ولو مت على تلك الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة، ثم ولينا أشياء ما أدري ما حالي فيها، فإذا دفنتموني فشُنّوا عليّ التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم، وأنظر ماذا أراجع رسل ربي.

تلك لحظات سنعيشها تمر علينا كالدهر نسترجع فيها شريط حياتنا وقد رأينا أن ابن العاص استدرك ما فاته في حياته ولو لم يستدرك لكان في خسارة ما تعوض في الآخرة، فهل نكون كعمرو بن العاص نستدرك حال حياتنا فنتوب قبل أن تأتي لحظات النهاية فلا يجدي ندم ولا تنفع حسرة ولا يجد الإنسان إلا ما قدم.

كل الذي فوق التراب تراب

القلوب قد تتحجر وتقسو ولا يجدي في ترقيقها إلا ذكر الموت ولذلك أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم الإكثار من ذكر الموت فقال: أكثروا من ذكر هادم اللذات. فبذكر الموت تلين القلوب وترق ويقبل صاحبها الموعظة ويتقرب من الإيمان ليستعد للسفر فيغلق حقائبه ويحمل أشياءه لأنه في كل لحظة مدعو للسفر ولكنه لا يدري متى ينادى

عليه، وكل ما في الدنيا زائل ويفنى فيها كل شيء إلا وجهه سبحانه يوم ينادي المنادي: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦].

لا تقل أيها المؤمل نفسه إني مازلت شابا ولا تقل إني غني ولا تقل إني عظيم فإن ملك الموت إن جاء بمهمته لا يعرف شابا ولا شيخا ولا عظيما ولا حقيرا ولا غنيا ولا فقيرا وهل نظرت يوما إلى جنازة محمولة وهل مشيت خلفها وهل قلت:

كل ابن آدم وإن طالت سلامته * يوما على آلة حدباء محمول

فإن أردت الموعظة وترقيق القلب ففي القبور وإن كانت صامتة عظات وعظات يقول مالك بن دينار خرجت يوما إلى مقابر بغداد ألتمس العظة والاعتبار وقد كنت أقصدها عند تحجر القلب وضعف الضمير فلما دخلتها هالني ما أراه من حال ساكنيها فلم أسمع من أحدهم ركزا فأخذتني العبرة وقلت:

أتيت القبور فناديتها * فأين المعظم والمفتخر
وأين المدل بسلطانه * وأين العزيز إذا ما قدر
وأين الملبي إذا ما دعا * وأين المزكي إذا ما حضر

ثم أطرقت ساعة أبكي فسمعت على الأثر صوتا لم أر صاحبه ينشد ويقول:

تفانوا جميعا ولا مخبر * وماتوا جميعا وهذا الخبر
تنوح عليهم بنات الثرى * وتمحو محاسن تلك الصور
لقد قُلد القوم أعمالهم * فإما نعيم، وإما سقر
وساروا إلى ملك عادل * عزيز مطاع إذا ما أمر
فيا سائلي عن أناس مضوا * أما لك فيمن مضى معتبر

هذا هو الجواب أن الجميع تفانوا وأدركهم الفناء وأصبحوا بعد النضارة والجمال تحت الثرى أجسادا هامدة وعادوا إلى التراب الذي منه خلقوا، فعش أيها المسلم ما بدا لك أن تعيش وتمتع بملذات الدنيا وتمسك بالدنيا بكل يد ولكن اعلم أنك فجأة وعلى حين غفلة مفارق الدنيا وذاهب عنها إما إلى نعيم وإما إلى عذاب، وكل الذي فوق التراب تراب.

مثل الدنيا والموت

في غفلة وانشغال بالدنيا ينسى الإنسان مصيره، ويظن أن النهاية بعيدة عنه، وهو بهذا الظن يجري خلف الدنيا ويجري، والنهاية تقترب منه وتقرب، حتى يأتيه الموت فلا هو شبع من الدنيا ولا هو حصد لآخرته، وتلك آفات الآفات، وقد جاء في بستان الواعظين ورياض السامعين لجمال الدين أبي الفرج البغدادي إن بعض الصالحين قال رأيت في المنام رجلا وهو في برية وأمامه غزالة وهو يجري خلفها وهي تفر منه وأسد كأعظم ما يكون خلقة وقد هم أن يلحقه والرجل يرد رأسه وينظر إلى الأسد فلا يجزع منه ثم يجري خلف الغزالة حتى لحق به الأسد فقتله فوقفت الغزالة تنظر إليه وهو مقتول إذ جاء رجل آخر قد فعل ما فعله المقتول فقتله الأسد ولم يدرك الغزالة فخرج آخر ففعل كذلك قال فما زلت أعد واحدا بعد واحد حتى عددت مائة رجل صرعى والغزالة واقفة فقلت إن هذا لعجب فقال الأسد مم تعجب أو ما تدري من أنا ومن هذه الغزالة فقلت لا فقال أنا ملك الموت وهذه الغزالة الدنيا وهؤلاء أهلها يجدون في طلبها وأنا أقتلهم واحدا بعد واحد حتى آتي على آخرهم فاستيقظت فزعا مرعوبا، وأنشدوا:

حتى متى وإلى متى نتوانى * وأظن هذا كله نسيانا

والموت يطلبنا حثيثًا مسرعًا	*	إن لم يزرنا بكرة مسّانا
إنا لنوعظ بكرة وعشية	*	وكأنما يعني بذاك سوانا
غلب اليقين على التشكك في الردى	*	حتى كأني قد أراه عيانا
يا من يصير غدًا إلى دار البلى	*	ويفارق الإخوان والخلانا
إن الأماكن في المعاد عزيزة	*	فاختر لنفسك إن عقلت مكانا
وانظر لنفسك إن أردت تعزها	*	قبل الممات ولا تكن مهوانا

ما هذه القصور؟

كم يعجب الإنسان بقصور الدنيا وفخامتها، وتجده يصفها بإعجاب وشَرَه، ولا يقف إعجابه أمام هذا الوصف بل تجده يبالغ ويتمنى أن يكون له مثل هذه القصور، ولكن هناك قصور لا يستطيع أحد أن يصفها، ومن يقوى على وصف قصور أعدت لأهل الجنة، ومن يستطيع أن يحسن التعبير عن نعيمهم وسرورهم، وقد أكرمهم الله تعالى فقال ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٢٠-٢١]، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم وحده يمكنه أن يحدثنا بعض الحديث عن تلك القصور، وما حوت من النعيم المقيم، فلنستمع إليه في هذا الحديث المقتضب القصير من حديث له مسهب طويل: هذا آخر رجل يدخل الجنة حتى إذا دنا من الناس رفع له قصر من درة فيخر ساجدًا، فيقال له: ارفع رأسك، ما لك؟ فيقول رأيت ربي، فيقال له: إنما هو منزل من منازلك، ثم يلقى رجلًا فيتهيأ للسجود له، فيقال له: مه!! فيقول: رأيت أنك ملك من الملائكة. فيقول له: إنما أنا خازن من خزانك، وعبد من عبيدك، فينطلق أمامه حتى يفتح له القصر، وهو من درة مجوفة سقائفها وأبوابها وأغلاقها ومفاتيحها منها،

تستقبله جوهرة خضراء مبطنة، كل جوهرة تفضي إلى جوهرة على غير لون الأخرى في كل جوهرة سرر وأزواج ووصائف أدناهن حوراء عيناء عليها سبعون حلة يرى مخ ساقها من وراء حللها، كبدها مرآته، وكبده مرآتها، إذا أعرض عنها إعراضة ازدادت في عينه سبعين ضعفًا، فيقال له أشرف فيشرف، فيقال له: ملكك مسيرة مائة عام ينفذه بصرك، فيا الله ما هذا القصر؟!

رجعت فاعمل

غريب أمر هذا الإنسان إذا مسه ضيق أو وقع في مأزق دعا الله تعالى لئن أنجاه من ذلك ليعود تائبا نادما، فلما أنجاه الله تعالى فلا صلى ولا صام، كما قال الله تعالى ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧] فلو تخيل الإنسان أنه هالك من لحظته وأنه استسلم لذلك وقد رأى الموت بأم عينه، ثم جاء الفرج من عند الله تعالى وأنقذه، تخيل ذلك وما عساك أن تفعل بعد ذلك، أقول لك ما قاله الربيع بن خثيم لنفسه، فقد كان الربيع بن خثيم قد حفر في داره قبرًا فكان إذا وجد في قلبه قسوة دخل فيه فاضطجع ثم يصرخ ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] ثم يرد على نفسه: يا ربيع قد رجعت فاعمل. وزد على ذلك وقفةً على القبور تريك الأعمار المتفاوتة، ومآلك إلى هذه الحفرة الضيقة، فناء هذه الأبدان التي أوليتها اهتمامك، كيف العمل وقد تركوك في القبر وحيدا في مكان لا يوجد مكان أبعد منه، تركوك وحيدا فلا زوجة ولا ولد، فخذ من التذكر والاعتبار ما يجعلك متحفزا ولا تقل لو كنت في الدنيا لفعلت كذا وكذا، فأنت في الدنيا فاعمل وازدد طاعةً وقربة، فالباب مفتوح والفرصة قائمة، وقد كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى

حتى تبتل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له: تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي إذا وقفت على قبر؟ فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه فما بعده أيسر وإن لم ينج منه فما بعده أشد، فهذا أول منزل لك في الآخرة، فاحرص أن تسكنه وأنت في سعة وفسحة، واحذر أن يضيق بك هذا المنزل، فالقبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، فكن ممن يغتنم كل لحظة في الحياة، ويبيع كل دقيقة لله تعالى، ما دامت السوق قائمة، ولو تخيلت نفسك في حياة بعد الموت، ثم رجعت وأنقذك الله تعالى، فقد رجعت فاعمل.

تخيل

نعم تخيل في يوم لا تُعرف ساعته ولا يُعرف مكانه، تخيل جبلين شاهقين بينهما نار عظيمة، وقد تم شد حبل بين الجبلين، حبل أدق من الشعر وأحد من السيف، وقد وقفت لتأخذ دورك في اجتياز هذا الحبل الحاد الأملس، طائفة من الناس كلما تقدموا زلت أقدامهم فتعلقوا بالحبل لينهضوا مرة أخرى وقد طالت النار بعضًا منهم، مشهد يخلع له القلب لحظة انزلاق القدم، وهو يحاول في اضطراب وخوف فينهض ليتقدم خطوة ويؤخر خطوة، كم من الوقت سيحتاج لذلك، زحام هائل شديد، وهناك رجل واقف يترقب، أما الحبل فهو الصراط، أما النار فهي قاع جهنم سبعون خريفاً، وأما الرجل فهو رسول الله يرقب أمته يقول ربي سلم سلم، ﴿وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، في ذلك المشهد الذي يحتاج فيه الإنسان أن يمسك بشعرة أو يجد نورا يبصر به موضع قدمه، ولكن هذا النور ليس لكل إنسان، وإنما هو حسب عمل الإنسان في حياته، كما جاء في حديث الحاكم: (فيعطون نورهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يعطى نوره فوق ذلك،

ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يعطى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ويطفأ مرة، إذا أضاء قدم قدمه، وإذا طفئ قام، قال: فيمر، ويمرون على الصراط، والصراط كحد السيف، دحض، مزلة، فيقال لهم امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يدٌ وتعلق يد وتخر رجلٌ وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذي نجانا، لقد أعطانا الله ما لم يعط أحدًا)، والشمس تقترب من الرؤوس وحر وعرق وكرب، والجميع يتدافع ليجتاز، والصراخ والعويل يسيطران على المكان صادر عن الذين تهوي أقدامهم وتراهم وقد سقطوا تلفهم النار واحدًا تلو الآخر، حيث الإزدحام الشديد، والقلق يمتلك القلوب، والمشهد حياة ولا حياة، مفارقة عجيبة، وكل الناس يرى نفسه وليس سواها، كقوم ركبوا سفينة حتى أوشكت على الغرق فكان لا بد من التضحية ببعض ركابها، فصار كل منهم يقول نفسي نفسي، إنه يوم الآخرة يوم البعث والصراط، ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ [مريم: ٧١]، فتخيل ذلك المشهد العظيم.

وفي الآخرة امتحان

فكما أن في الدنيا امتحانًا للطلبة في المدارس فكذلك في الآخرة إمتحان لكل العباد، ولكن شتان بين الامتحانين فامتحان الدنيا وإن كانت فيه خسارة فيمكن تعويضه، أما إمتحان الآخرة فلا يمكن تعويضه بأي حال من الأحوال، ولا بد لكل امتحان من أسئلة، وامتحان الدنيا أسئلته محدودة، أما أسئلة امتحان الآخرة فهي شاملة تشمل كل ما ورد في حياة الإنسان، فهي أسئلة عن الأفعال، وأسئلة عن الأقوال، وأسئلة عن

الأموال، وأسئلة عن النيَّات، وأسئلة عن المعتقدات، وأسئلة عن الأوقات، وأسئلة عن الأمانات، وسؤال عن المظالم والحقوق، وأسئلة كثيرة، بل هي أسئلة عن كلِّ كبير وصغير وعظيم وحقير، يقول الله تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، فيا له من موقف عظيم ويا لها من أسئلة رهيبة إنها بين يدي ملك الملوك وربِّ الأرباب، يقول الله تعالى ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]، وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تزُولُ قدَما ابن آدم مِن عند ربِّه حتَّى يُسأَلَ عن خمس: عن عُمرِه فيما أفناه، وعن شَبابِه فيما أبلاه، وعن مالِه من أين اكتسَبَه وفيما أنفَقَه، وماذا عمِلَ فيما عَلِم، وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال: ألا كُلُّكُم راعٍ وكُلُّكُم مسؤولٌ عن رعيَّتِه، فالإمامُ الذي على النَّاسِ راعٍ وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والرَّجلُ راعٍ على أهلِ بيتِه وهو مسؤولٌ عن رعيَّته، والمرأةُ راعيةٌ على أهلِ بيتِ زوجِها وولده وهي مسؤولةٌ عنهُم، وعبدُ الرَّجلِ راعٍ على مالِ سيِّده وهو مسؤولٌ عنهُ، ألا فكُلُّكُم مسؤولٌ عن رعيَّتِه، وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنَّ الله تعالى سائلٌ كلّ راعٍ عمَّا استرعاه: أحفِظَ ذلك أم ضَيَّع؟ حتَّى يسأل الرَّجل عن أهلِ بيتِه، فهذا الامتحان هو الامتحان الذي يجب على الإنسان أن يستعد له أحسن استعداد، فاحرص على أن تكون إجابتك مرضية للسائل الذي يوجه لك الأسئلة.

يتبع الميت ثلاثة

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (يتبع الميت ثلاث فيرجع اثنان ويبقى واحد يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله) وفي رواية قال صلى الله عليه وسلم (ما من عبد إلا له ثلاثة أخلاء فأما خليل فيقول ما

أنفقت فلك وما أمسكت فليس لك فذلك ماله، وأما خليل فيقول أنا معك فإذا أتيت باب الملك رجعت وتركتك فذلك أهله وحسبه وأما خليل فيقول أنا معك حيث دخلت وحيث خرجت فذلك عمله فيقول إن كنت لأهون الثلاثة عليّ)، في هذه الدنيا يعيش فيها الإنسان مع الأهل والمال وهما صاحبان يحرص الإنسان على إرضائهما في الدنيا على حسابه في الآخرة، وينشغل بهما عن الله تعالى، وهو بهذا خاسر، وفي الحديث «ابن آدم عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كيف شئت وكما تدين تدان»، فإذا مات ابن آدم وانتقل من هذه الدار لم ينتفع من أهله وماله بشيء إلا بدعاء أهله واستغفارهم، وبما قدمه من ماله بين يديه، قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، إن هذه الدنيا دار زائلة فليوطن الإنسان نفسه على مفارقة الدنيا، فهو إن خرج منها - ولا شك في ذلك - فإنه لا ينتفع بعد موته بأهله ولا بغيرهم، إلا بالاستغفار له والدعاء والترحم والصدقة والزيارة، وكذلك المال فهو خليل ثانٍ، والمال النافع هو من قدمه الإنسان أمامه، وهو الذي يصحبه في قبره، وأما ما خلفه فهو لورثته، يقول صلى الله عليه وسلم: «يقول العبد مالي مالي إنما له من ماله ثلاث ما أكل فأفنى أو لبس فأبلى أو أعطى فاقتنى وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس»، وأما ما أنفقه في المعاصي فهو عليه لا له، كما قال الله تعالى ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]، وأما من أمسك المال وبخل به ولم يؤد حق الله عز وجل فيه، فإنه يُمثل له شجاعا أقرع يتبعه ويأخذ بشدقيه ويقول أنا مالك أنا كنزك، وهناك خليل ثالث وهو العمل، وهو الخليل الذي يدخل مع صاحبه القبر، فيكون معه فيه ويكون ملازمه إذا بعث يوم القيامة، ويكون معه في مواقف القيامة، وعلى الصراط، وعند الميزان، قال تعالى ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾، ويقول تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]، فالعمل الصالح يكون

مهادا ووسادة لصاحبه في القبر، فهؤلاء أخلاء ثلاثة في الدنيا تصاحبهم وعند الممات يتبعونك، ويتركك الخليل الأول والثاني، إلا الخليل الثالث فهو مصيرك وهو سبب سعادتك أو شقاوتك.

دعني دعني

فيا سائلي عن حالتي ودمعتي، دعني دعني فإنني بهموم الدنيا مشغول، وعلى ما فاتني من عمل محزون، لقد مضى ما كنت أرجو أن يبقى، وبقي ما كنت أرجوه أن يمضي، وأتخيل عندما ينصب الميزان ويقوم الناس لرب العالمين، وتتطاير الصحف وفيها من الأعمال ما فيها من سر وخبايا، فمن حجيجي عند الله، فدعني دعني، لعلي بدمعتي هذه أغسل هموم الذنوب، ولعل غيوم الحزن تنجلي، ولعلي بتوبة صادقة أرتوي، فهي سبيلي قبل فوات السبل، وهي أملي قبل انقضاء الأمل، فإن فاتتني التوبة، فليس لي إلا رسول الله بشفاعته يغمرني، وحرصه ورحمته يحيطانني، وقد دخلت زوجة عمر بن عبد العزيز إلى مصلاه فرأته يصلي، ويبكي تقول له: ما أبكاك؟ فقال: دعيني وشأني، فلما ألحت عليه قال: علمت أن الله سيسألني عن المسكين، وعن الفقير، وعن ابن السبيل، وعن الشيخ الكبير، وعن ذي العيال الكثير والدخل القليل، وعن المريض، وعن الأرملة، وعن اليتيم، فعلمت أن الله سيسألني عنهم جميعًا، وأن حجيجي دونهم رسول الله، فلهذا أبكي، دعيني وشأني. إن قضية الموت قضية عظيمة، والإنسان الفطن يعلم أنه ضعيف أمام الموت فهو لا يدري متى يموت، ولا يعلم بأي أرض يموت، ولا يعرف الطريقة التي بها سيموت، ولكنه قوي أمام الموت في شيء واحد وهو أنه يستطيع أن يموت وهو على الإيمان كما قال الله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، يروى أن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الملك والخلافة لما حضرته

الوفاة نزل عن كرسي الملك، ومرغ وجهه في التراب، وأخذ يبكي، ويقول: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨-٢٩]، أما هارون الرشيد الذي ملك الدنيا من المشرق إلى المغرب، والذي كان يقول للسحابة: اذهبي أينما شئت يأتني خراجك، هذا الخليفة بنى قصرًا، وقال لبعض الشعراء: انظم في هذا أبياتًا، فقال هذا الشاعر الذي عرف بموضوع الزهد:

عش ما بدا لك سالمًا	*	في ظل شاهقة القصور
يجري عليك بما أردت	*	مع الغدو مع البكور
فإذا النفوس تغرغرت	*	بزفير حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنًا	*	ما كنت إلا في غرور

فقط تذكر

تذكر أن التفكُّرَ في الموت يبعث في النفسِ المعرفةَ بالله سبحانه وتعالى فهو ﴿الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] الذي خلَق الخلْق، وقدّر الأجل والرِّزْقَ، وأحاط بخفايا الأقوالِ ودقائقِ الأعمال، وتذكُّرُ الموتِ يحيي التوكُّلَ على الله في قلوبنا؛ وهذا من روائع إشارات الكتاب العزيز في قول الله تعالى ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨] ، بل إنه لمن تمام المعرفة أن نجدّد الإقرار بالعبوديّة لله ربّ العالمين الذي ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ [الروم: ١٩]، وتذكر أن الله تعالى هو من ﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝٤٤ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ﴾ [النجم: ٤٤-٤٧] ، وتذكر ما حكاه القرآن عن أبينا إبراهيم من قوله عليه الصلاة والسلام ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۝٧٧ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي

﴿وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨١]، وتذكر أن نبينا صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه قال: اللّهمّ باسمك أحيا وأموت! وإذا أصبح قال: الحمدُ لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النُّشور، ومن هنا كان تذكّرُ الموتِ من أقوى البواعِثِ على العُزوف عن الدنيا، فالموت أجلٌ مقدَّر وقدرٌ محتومٌ على الأوّلين والآخرين، كما قال تعالى ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وقال تعالى ﴿أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، فلا ينجو منه إنسانٌ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، ولا يحول دونه زمانٌ ﴿وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، ولا يُتخفّى منه في مكان ﴿قُلْ لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقال تعالى ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨]، فهذا الموت حقيقة لا يمكن التغافل عنها، وهذه موعظة للتبصر، فقط تذكر:

إنّ لله عِبادًا فُطَنًا	*	طلّقوا الدّنيا وخافوا الفِتَنا
نظروا فيها فلما علموا	*	أنّها ليست لحيٍّ وطنًا
جعلوها لُجّةً واتّخَذوا	*	صالح الأعمال فيها سُفُنا

عند باب الجنة

أن يقف الإنسان عند باب الجنة ولا يستطيع أن يدخلها تلك هي خسارة الدنيا والآخرة، وتلك الحسرة التي ما بعدها حسرة، تلك الجنة التي أعدت وتزينت، تلك الجنة والتي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، تلك التي أفنى الإنسان عمره من أجل دخولها والتمتع بنعيمها، يأتي يوم الحساب ولا يكون بينه وبينها إلا خطوة فيُؤخَّر ولا يدخل، ما السبب الذي يجعل الإنسان قريبا من الجنة ولكنه لا

يدخلها، ما الذي يمنعه وقد كان عمله صالحا ولكنه يمنع، فالذي عمل صالحا يُؤخر، والذي أنفق وتصدق يؤخر، والذي صلى وصام، حتى الشهيد يؤخر، فما السبب، إنها المظالم التي لا تغتفر إلا بالتحلل منها أو أدائها، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يغفر للشهيد كل ذنب إلا الدين، فالدين حق متعلق بالعباد، وهو من المظالم التي لا تُغتفر حتى وإن مات الشخص شهيدًا، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء، وقال عليه الصلاة والسلام: إذا خلص المؤمنون من النار حبسوا على قنطرة بين الجنة والنار، فيتقاصون مظالم كانت بينهم في الدنيا حتى إذا نقوا وهذبوا، أذن لهم بدخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا، فالمؤمنون حبسوا على الجسر ولم يعبروا حتى تتم عملية المقاصة في الآخرة، ولكنها مقاصة بين الديون الدنيوية، فإن تساوت الحقوق والإلتزامات عبر المؤمن الجسر، وإن نقصت فتلك خسارة كبيرة، لأن المقاصة ستشمل الحسنات وهي الرصيد الحقيقي يوم القيامة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شيء، فليتحلله منه اليوم، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فحمل عليه، فعلى الإنسان المؤمن أن لا يؤخر رد المظالم وأن يتحلل منها هنا في الدنيا وليس هناك في الآخرة حتى لا يقف عند باب الجنة عاجزًا عن دخولها فيتحسر حيث لا تفيد الحسرة والندامة.

الحفرة

ما هي هذه الحفرة؟ وما هي قصتها؟، هل هي حفرة فيها كنز، أم فيها خريطة تدل على شيء؟، أم هي حفرة فيها أسرار وألغاز؟، أم هي حفرة فيها من المعادن والذهب

وما حوته الأرض من خيرات؟ أم هي حفرة في الطريق افتعلتها الطبيعة والتضاريس، فما أكثر الحفر في الدنيا، قد يراها البعض من الناس وقد لا يراها، إلا حفرة واحدة، فهي التي لا يجهلها أحد، رغم أنها حفرة مليئة بالأسرار والألغاز، إلا أن الجميع يعرفونها حق المعرفة، إنها حفرة القبر، فماذا أعددنا لتلك الحفرة، جاء عن هانئ مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له: تذكر الجنة والنار ولا تبكي، وتبكي من هذه الحفرة؟، قال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه، فيا لها من حفرة، طولها وعرضها لا يتجاوز جسد الإنسان، فهي لباسه وهي بيته وهي مثواه وهي رصيده، وهي ملجؤه الأخير، ولكنها حفرة فظيعة، فيها ظلام، وقد يكون نورًا، الحر فيها شديد، وقد يكون فيها البرد والهواء العليل، قد يكون فيها ضيق حتى تختلف فيها الضلوع، وقد يكون فيها سعة كبيرة كمد البصر، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما رأيت منظرًا إلاَّ والقبر أفظع منه، ولكن هذه الحفرة تتكيف حسب العمل، فالعمل هو الذي يجعلها حفرة ولكنها قصر كبير، والعمل يجعلها حفرة ضيقة كخرابة مليئة بالوحوش، ورحم الله ابن عمر عندما سأله رجل أن يبني فسطاطًا على قبر، فقال له: لا تفعل إنما يظله عمله، هو العمل الذي يحدد عناوين هذه الحفر، فكم من حفرة كتب عليها عنوان صاحبها، وكتب عليها اسمه وتاريخ ميلاده، ليس تاريخ ميلاده في الدنيا، وإنما تاريخ ميلاده في أول منزل من منازل الآخرة، فيا من تجمع المال، ويا من تشغله الدنيا بملذاتها وشهواتها، ويا من ينشغل في أعماله، وينصرف في مشاغله، ماذا أعددت لهذه الحفرة؟

فجأة

ما كان يخطر ببال أحد الذي حدث، فقد نقل الخبر إلينا بأن فلانا قد فارق الحياة، ما هو السبب لم نعرف بعد سوى أنهم قالوا فجأة حصل ما حصل. مثل هذه الأخبار تتكرر كثيرًا، حتى صار أننا حينما يقال هل تعرف فلانًا، نظن أنهم سيقولون لنا إنه مات، تلك حقيقة مرة، ولكن ما منها مفر، إنه موت الفجأة يأخذ الإنسان فجأة على حين غرة، شخص واقف فسقط فقالوا مات، وإنسان خرج من بيته سليمًا معافًى فتعرض لحادث فقالوا إنه مات، وهكذا ظهر موت الفجأة، وهو من علامات قيام الساعة فعن أنس بن مالك رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أمارات الساعة أن يظهر موت الفجأة»، فكيف والناس اليوم لا يتعظون، وأستغرب من بعض الناس تجد أحدهم غارقًا في مشاغل الدنيا ومتفاعلًا مع مغرياتها، وتجده يصارع ويتصارع في أسواق التجارة، وتجده يخاصم الناس، وتجده يقطع حبل الوصال بين كل قريب وحبيب، فهو مع زوجته في خصام، ومع أبنائه في زعل ونفرة، ومع أخيه في هجر وفرقة، يا أخي لم كل ذلك، والموت واقف ببابك، يوشك أن يدخل عليك، ألا تنظر من حولك، ألم تعرف من مات من أقربائك، كم من إنسان رحل، وكم من غني ترك كل ذلك، وكم من إنسان مخاصم ومتعالٍ، عندما مات ما وجد أحدًا حوله، الكل ينفر منه، والكل يتقي شره، لم كل ذلك، لم هذا القلب الذي يحمل كل ضغينة وحقد، فهل نظرت وهل تأملت، فقد يأتيك الموت فجأة، نعم فجأة وعاتقك يحمل من ظلم الناس ما يحمل، فماذا ستقول لملك الموت، وقد روي أن ملك الموت دخل على داود عليه السلام فقال: من أنت؟ فقال: أنا من لا يهاب الملوك، ولا تمنع منه القصور، ولا يقبل الرشوة، قال: فإذًا أنت ملك الموت، قال: نعم، قال: أتيتني ولم

أستعد بعد! قال: يا داود أين فلان قريبك؟ أين فلان جارك؟ قال: مات، قال: أما كان لك في هؤلاء عبرة لتستعد؟! فاحذر كل الحذر وكن مستعدًا فقد يأتيك الموت فجأة.

يقينٌ أشبه بالشك

لم أر يقيناً أشبه بالشك كيقين الناس بالموت، فالموت حقيقةٌ، والناس يرونه بأعينهم إن لم يأتِ اليوم، فقد يأتي غدا، أو هو أقرب، والناس لا يشكون في الموت أبدًا، ولا ينكرونه قطعًا، وإنما الشك يأتي لكونهم لا يعملون للموت، فكأنهم كالذي يشك في أمر متحقق ويظن أنه لن يتحقق، وتلك آفة تُولد مصائب ومفاجآت في حياة الناس، وما أكثرها حيث لا يتيقن البعض بالموت إلا عندما يراه عيانًا، ولكن ما الفائدة فقد فات الأوان، يقول عمر بن عبد العزيز رحمه الله لم أر يقينا أشبه بالشك كيقين الناس بالموت، ثم علل ذلك بأن الناس موقنون أن الموت حق، ولكنهم لا يعملون له، فقضية الإيمان واليقين في الموت هي القضية الأساس في هذا الدين، كل منا يشهد أن الموت حق، وأن النار حق، وأن الجنة حق، وأن البعث بعد الموت حق، ونحو ذلك، ولكن لا أثر لهذه الشهادة في عبادتنا، أو في سلوكنا، كان بعض السلف إذا شهد جنازة لا يُنتفع به أيامًا من شدة الخوف، ورأى ابن مسعود رجلًا يضحك وهو مشيع لجنازة، فقال له: أتضحك في هذا الموقف؟! والله لا أكلمك أبدًا، وكان سفيان الثوري يبول الدم من شدة خوفه، فكيف حالنا عند تشييع الجنائز، وعند زيارتنا للقبور، فعلينا أن نوقن بيقين قاطع أن الموت منا قريب، وعلينا أن نحاسب أنفسنا قبل أن نحاسب، وأن نزن أعمالنا قبل أن توزن علينا، وأن نستعد للموت فهو آتٍ، وكل آتٍ قريب، ولنحذر من طول الأمل، وحب الدنيا، وكراهية الموت، فالدنيا مطية الآخرة ومزرعتها، وإنها ليست بدار قرار، ولا تدوم على حال.

من رائعةٍ للإمام زين العابدين

هل تخيل إنسان ما قد يدور حوله عند ساعة الإحتضار، وهل توقع ما يحدث له عندما يفارق الحياة، تلك وقائع حقيقية تقع لكل إنسان ولكن كيف يمكن له أن يتخيلها، ومن رائعة لسيدنا زين العابدين علي بن الحسين ذكر فيها تلك الوقائع والحقائق على نحو بديع كما يلي:

لَيْسَ الغَريبُ غَريبَ الشَّأمِ واليَمَنِ * إِنَّ الغَريبَ غَريبُ اللَّحدِ والكَفَنِ
دَعْني أَنُوحُ عَلى نَفْسي وَأَندِبُها * وَأَقْطَعُ الدَّهْرَ بِالتَّذْكِيرِ وَالحَزَنِ
كَأَنَّني بَينَ تلك الأَهلِ مُنطَرِحًا * عَلى الفِراشِ وَأَيْديهِمْ تُقَلِّبُني
وَقد أَتَوْا بِطَبيبٍ كَيْ يُعالِجَني * وَلَمْ أَرَ الطِّبَّ هذا اليومَ يَنْفَعُني
واشتد نَزْعِي وَصَار المَوتُ يَجْذِبُها * مِن كُلِّ عِرْقٍ بِلا رِفقٍ ولا هَوَنِ
واستَخْرَجَ الرُّوحَ مِني في تَغَرْغُرِها * وصَارَ رِيقي مَريرًا حِينَ غَرْغَرَني
وَغَمَّضُوني وَراحَ الكُلُّ وانْصَرَفوا * بَعْدَ الإِياسِ وَجَدُّوا في شِرَا الكَفَنِ
وَقالَ يا قَوْمِ نَبْغِي غاسِلًا حَذِقًا * حُرًّا أَرِيبًا لَبِيبًا عَارِفًا فَطِنِ
فَجاءَني رَجُلٌ مِنْهُمْ فَجَرَّدَني * مِنَ الثِّيابِ وَأَعْرَاني وأَفْرَدَني
وَأَسْكَبَ الماءَ مِنْ فَوقي وَغَسَّلَني * غُسْلًا ثَلاثًا وَنَادَى القَوْمَ بِالكَفَنِ
وَأَلْبَسُوني ثِيابًا لا كِمَامَ لها * وَصارَ زَادي حَنُوطِي حينَ حَنَّطَني
وَحَمَّلوني على الأَكْتافِ أَربَعَةٌ * مِنَ الرِّجالِ وَخَلْفِي مَنْ يُشَيِّعُني
وَقَدَّموني إِلى المحرابِ وانصَرَفوا * خَلْفَ الإِمَامِ فَصَلَّى ثمّ وَدَّعَني
صَلَّوْا عَلَيَّ صَلاةً لا رُكوعَ لها * ولا سُجودَ لَعَلَّ اللهَ يَرْحَمُني
وَأَنْزَلوني إِلى قَبري على مَهَلٍ * وَقَدَّمُوا واحِدًا مِنهم يُلَحِّدُني
وَكَشَّفَ الثَّوْبَ عَن وَجْهي لِيَنْظُرَني * وَأَسْكَبَ الدَّمْعَ مِنْ عَيْنيهِ أَغْرَقَني

وقَالَ هُلُّوا عليه التُّرْبَ واغْتَنِموا * حُسْنَ الثَّوابِ مِنَ الرَّحمنِ ذِي المِنَنِ
فِي ظُلْمَةِ القبرِ لا أُمٌّ هناك ولا * أَبٌ شَفيقٌ ولا أَخٌ يُؤَنِّسُنِي
تَقاسمَ الأَهْلُ مالي بعدما انْصَرَفُوا * وَصَارَ وِزْرِي عَلى ظَهْرِي فَأَثْقَلَنِي
واستَبْدَلَتْ زَوجَتِي بَعْلًا لها بَدَلِي * وَحَكَّمَتْهُ فِي الأَمْوَالِ والسَّكَنِ
وَصَيَّرَتْ وَلَدِي عَبْدًا لِيَخْدُمَها * وَصَارَ مَالِي لهم حِلًّا بِلا ثَمَنِ
خُذِ القَنَاعَةَ مِنْ دُنْيَاك وارْضَ بها * لَوْ لم يَكُنْ لَكَ إِلا رَاحَةُ البَدَنِ
يَا نَفْسُ كُفِّي عَنِ العِصْيانِ واكْتَسِبِي * فِعْلًا جميلًا لَعَلَّ اللهَ يَرحَمُنِي
ثمَّ الصلاةُ على الْمُختارِ سَيِّدِنا * مَا أَوْمَضَ البَرْقُ في شَامٍ وفي يَمَنِ
والحمدُ لله مُمْسِينَا وَمُصْبِحِنَا * بِالخَيْرِ والعَفْوِ والإِحْسانِ وَالمِنَنِ

فيا من أغرتك الدنيا فهذه مراحل ومراحل لها بداية ولها نهاية، والنهاية لا مفر منها وهي واقع محتوم فاختر لنفسك كيف تكون النهاية.

الباب الخامس

رمضان والعيد

(٢٩ مقالة)

أهلا رمضان

نستقبل شهر رمضان الكريم، شهر هو عند الله من أفضل الشهور، وأيامه من أفضل الأيام، ولياليه أفضل الليالي، وساعاته أفضل الساعات، هو شهر دعيتم فيه إلى ضيافة الله، وجُعلتم فيه من أهل كرامة الله، يبعث شهر رمضان المبارك في نفوس كثير منّا نفحة روحانية خاصة، وهو ركن من أركان ديننا الحنيف، يجعل من حياة المؤمن خلال أيام الشهر الفضيل حياة زهد وورع وتقوى وصلة، فيتصف المؤمن بصفات الملائكة، فلا يأكل ولا يشرب، ولا يشبع غريزته، ولكنه منشغل بذكر الله، وتلاوة كتابه، وقلبه مفعم بالإيمان تماما كالملائكة الذين لا يأكلون ولا يشربون، ولكنهم يسبحون ويفعلون ما يؤمرون، إن رمضان شهر يمزج بين العبادة والأخلاق، فأثره ينتقل إلى العمل والسلوك، فالصائم لا يغتاب، ولا يفحش، وإن سابه أحدٌ، أو شاتمه كان رده لينا متسامحا، بل يتحول المؤمن فيه من التصديق بالقلب واللسان إلى سلوك عملي تؤديه الجوارح كلها، فليس الصوم مجرد امتناع عن تناول الطعام أو الشراب من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وإنما هو إحدى الفرص المتاحة كي يتقرب العبد فيها إلى الخالق سبحانه بالطاعة وطلب المغفرة، ولأنه شهر القرآن الكريم فطبيعي أن يزداد فيه المسلم تمسكا بما تركه فينا الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم أمانا حتى لا نضل بعده أو نشقى، فكفل لنا النجاة من الضلال وبعدنا عن الشقاء ما إن تمسكنا بكتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه السلام، فلا عجب أن يزداد إقبال المسلمين على قراءة القرآن الكريم وتدبر آياته المباركة خلال شهر الهدى والتقوى، يقول صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان إيمانا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه)، ويقول صلى الله عليه وسلم: (إذا جاء رمضان، فُتّحَت أبواب الجنة، وغُلّقت أبواب النار، وصُفّدت الشياطين)، ويقول

صلى الله عليه وسلم: الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفراتٌ لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر، فمرحبا شهرنا وضيفنا ولك منا كل تحية وسلام.

مرحبا رمضان

شهر رمضان شهر الخير والبركات، شهر يستبشر بقدومه المسلمون في كل مكان، فهو شهر أوله رحمة، وأوسطه مغفرة، وآخره عتق من النار، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه: قد جاءكم شهر رمضان شهر مبارك، كتب الله عليكم صيامه، فيه تفتَّح أبواب الجنة، وتغلق أبواب الجحيم، وتغل الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حرم خيرها فقد حرم. وأي حرمان يخسره المسلم كحرمان شهر رمضان، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاكم رمضان، شهر بركة، يغشاكم الله فيه، فينزل الرحمة، ويحط الخطايا، ويستجيب فيه الدعاء، ينظر إلى تنافسكم فيه، ويباهي بكم ملائكته، فأروا الله من أنفسكم خيرًا، فإن الشقي من حرم فيه رحمة الله، فيا أيها الصائم الكريم أنت حبيب الرحمن في شهر القرآن وخلوف فمك أطيب عند الله من ريح المسك، وتستغفر لك الملائكة حتى تفطر. لقد أهلّ شهر رمضان، يقول صلى الله عليه وسلم: ولو يعلم العباد ما في رمضان لتمنت أمتي أن تكون السنة كلها رمضان. فقال رجل من خزاعة: حدِّثنا به يا رسول الله، قال: إن الجنة تزين لرمضان من رأس الحول إلى الحول حتى إذا كان أول يوم من رمضان هبت ريح من تحت العرش فصفقت يعني الجنة فنظر الحور العين إلى ذلك فقلن يا رب اجعل لنا في هذا الشهر من عبادك أزواجا تقر أعيننا بهم وتقر أعينهم بنا فما من عبد يصوم رمضان إلا زُوّج زوجةً من الحور العين في خيمة من درة مجوفة مما نعت الله: ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ [الرحمن: ٧٢]، على كل امرأة منهن سبعون حلة ليس فيها حلة على لون الأخرى ويعطى سبعون لونا من الطيب ليس منها لون على

ريح الآخر لكل امرأة منهن سبعون سريرا من ياقوتة حمراء موشحة بالدر على كل سرير سبعون فراشا بطائنها من إستبرق وفوق السبعين فراشا سبعون أريكة لكل امرأة منهن سبعون ألف وصيف لحاجاتها وسبعون ألف وصيف مع كل وصيف صحفة من ذهب فيها لون طعام يجد للآخر لقمة منه لذة لا يجد لأوله ويُعطى زوجها مثل ذلك على سرير من ياقوتة حمراء عليه سواران من ذهب موشح بياقوت أحمر هذا لكل يوم صام رمضان سوى ما عمل من الحسنات، فمرحبا رمضان وكل عام وأنتم بخير.

اللهم كما بلغتنا رمضان

جاء رمضان شهر هو درة الشهور، وعمله مضاعف الأجور، ها قد أقبل رمضان فهبت على القلوب نفحات نسيم عليل، ووصلت البشارة للمنقطعين بالوصل الجميل، وللمذنبين بالعفو الكريم، يا من طالت غيبته عنا قد قربت أيام المصالحة بيننا، يا من دامت غفلته طيلة العام ها قد أقبلت أيام رمضان أيام التجارة الرابحة، فمن لم يربح في هذا الشهر، ففي أي وقت يربح؟ ومن لا يفلح في هذا الشهر، فقل لي بربك متى يفلح؟ يقول صلى الله عليه وسلم ما أتى على المسلمين شهر خير لهم من رمضان، وقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يبلغه رمضان: اللهم بارك لنا في رجب وشعبان وبلغنا رمضان، وكان السلف يدعون ربهم ستة أشهر كاملة أن يبلغهم إياه لما يعلمون فيه من الفضيلة، فإذا كان الله قد مَنَّ عليك ببلوغه ومد في عمرك لوصوله، فالواجب استشعار هذه النعمة واغتنام هذه الفرصة، فإنها إن فاتت كانت حسرة ما بعدها حسرة، وخسارة ما بعدها خسارة وأي حسرة أعظم من أن يدخل الإنسان شهر رمضان ويخرج منه وذنوبه ما زالت جاثمة على صدره، وأوزاره مازالت قابعة في كتاب عمله، وقد حذر الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك الإنسان الذي يفوته رمضان دون أن ينال

فيه توبة، فقد أمّن صلى الله عليه وسلم على دعاء جبريل عليه السلام عندما دعا قائلا من أدرك رمضان ولم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قُلْ آمين، فقلت: آمين، نعم آمين آمين، فكيف لا تبلغه التوبة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، كيف لا تدركه التوبة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: من صام يومًا في سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفًا، هذا رمضان مضمار للتسابق إلى الحسنات، وجني ثمار الأعمال، يقول الحسن البصري إن الله جعل رمضان مضمارًا لخلقه يستبقون فيه لطاعته، فسبق قوم ففازوا وتخلف أقوام فخابوا، إن الله تعالى قد هيأ في رمضان لعباده أسباب الطاعة، وفتح لهم باب المنافسة، فيها يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان أول ليلة من رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن، وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب، وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة، فطوبى لعبد قد أعد لرمضان عدته، واتخذ له أهبته، وعلم أن الأمر جد فشمر عن ساعد الجد، اللهم كما بلغتنا رمضان فأعنا على صيامه وقيامه.

ما هو رمضان؟

ما هو رمضان؟ هو الشهر التاسع في ترتيب الشهور التي هي عند الله اثنا عشر شهرا من يوم أن خلق الله السموات والأرض هو الشهر الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهو الشهر الذي جعل الله فيه ليلة هي خير من ألف شهر، ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وتقول السيدة عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان.

وهو الشهر الذي اختصه الله فنسبه إليه من بين سائر الأعمال كما في الحديث قال صلى الله عليه وسلم: قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به. وهو الشهر الذي يكفر الله فيه الخطايا فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر. وهو الشهر الذي تمحى فيه الذنوب وما تقدم منها فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه. وهو الشهر الذي جعل الله فيه العمرة كحجة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فإن عمرة في رمضان حجة. وهو الشهر الذي تفتح فيه أبواب الجنان وتغلق فيه أبواب النيران وتطرد فيه الشياطين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء وغلقت أبواب جهنم وسلسلت الشياطين. وهو الشهر الذي يشفع لصاحبه يوم القيامة قال صلى الله عليه وسلم: الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام أي ربّ منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن ربّ منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيشفعان. فهذا هو شهر رمضان الكريم وهذه أيامه ولياليه فكيف تغتنمه أيها المؤمن؟

لماذا رمضان؟

لأن رمضان فيه تفتح أبواب الجنان وتصفد فيه مردة الشياطين. فلا يصلون إلى ما كانوا يصلون إليه في غير رمضان، وتغلق أبواب النيران، ولله في كل ليلة من رمضان عتقاء من النار، لأن رمضان فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فما أعظمها من بشارة لأن رمضان فرصة للتغيير ليصبح العبد من المتقين الأخيار، ومن الصالحين الأبرار. يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ

﴿مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، فالتقوى هي ثمرة الصيام حيث يخرج المؤمن من معسكر الصيام. وقد سأل أميرُ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه الصحابيَ الجليل أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه عن معنى التقوى ومفهومها؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما صنعت؟ قال: شمرتُ واجتهدت أي اجتهدتُ في توقي الشوك والابتعاد عنه فقال أبي: فذلك التقوى، نعم هي توقي شوك الدنيا وطريقها، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه وهو يعبر عن التقوى بقوله: هي الخوفُ من الجليل، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعةُ بالقليل، والاستعدادُ ليوم الرحيل، هذه حقيقة التقوى، وهذا مفهومها، فأين نحن من هذه المعاني المشرقةِ المضيئة؟ لقد كان المجتمعُ الإسلاميُ الأول خير مثال في العمل وتسابقِ أفرادهِ إلى مرضاةِ ربهِم جل جلاله، وكانت التقوى سمةً بارزة في محيا ذلكِ الجيلِ العظيم الذي سادَ الدنيا بشجاعتهِ وجهاده، وسارت بأخلاقهِ وفضائلهِ الركبان شرقًا وغربًا، فقد كان صلى الله عليه وسلم إمام المتقين في شهر رمضان قمةً في تقواه وورعهِ، فكان يقومُ الليل يصلي ويتهجد حتى تفطرتْ قدماه الشريفتان، وكان يُسمعُ لصدره أزيزٌ كأزيزِ المرجل من شدة البكاء، وهو الذي غُفر له ذنبه ما تقدم وما تأخر، فلذلك كان رمضان أفضل الشهور وأكثرها إشعاعا بالنور والنفحات والعمل والجهاد، فبادر أيها الصائم إلى هذا الشهر المبارك، فأبواب الجنة مشرعة، وأبواب النار مغلقة، ولله في كل ليلة عتقاء من النار، فاجتهد أن تكون واحدا منهم.

كيف نعيش أيام رمضان؟

تلك مسألة يطلب معرفتها أهل العزيمة والاجتهاد الذين يحرصون على كل لحظة من رمضان وعلى كل عمل صالح وطاعة وعبادة فمنذ طلوع الفجر إلى غروب الشمس

وهم في شغل، أما كيف نقضي أيام رمضان؟ فلقد كان لنا في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة كان جبريل يلقى الرسول صلى الله عليه وسلم في كل ليلة يدارسه القرآن. والقرآن شافع لأصحابه كالصيام للحديث الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب منعته الطعام والشهوات بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفعان. فيجب الاجتهاد في تلاوة القرآن وقد كان بعض السلف يختم في قيام رمضان في كل ثلاث ليال وكان قتادة يختم في كل سبع دائمًا، وفي رمضان في كل ثلاث، وفي العشر الأواخر في كل ليلة، وكان للشافعي في رمضان ستون ختمة يقرؤها في غير الصلاة، وقال سفيان الثوري إنما ورد النهي عن قراءة القرآن في أقل من ثلاث على المداومة على ذلك فأما في الأوقات المفضلة كشهر رمضان خصوصًا الليالي التي يطلب فيها ليلة القدر فيستحب الإكثار فيها من التلاوة، وهناك الدعاء فللصائم دعوة لا ترد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، والمظلوم. وقال عليه الصلاة والسلام: إن للصائم عند فطره دعوة لا ترد. وهناك قيام الليل فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من قام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه. وفي العشر الأواخر بالخصوص للحديث فعن السيدة عائشة إن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا دخل العشر الأواخر أحيا الليل، وأيقظ أهله وشد المئزر. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فالرسول أجود بالخير من الريح المرسلة. وهناك كف الجوارح عن المعاصي فتلك وظيفة من وظائف رمضان للحديث ليس الصيام عن الأكل والشرب، إنما الصيام عن اللغو والرفث، فإن سابك أحد أو جهل عليك، فقل: إني صائم إني صائم. هكذا يجب أن تكون أيام رمضان لمن رغب في الأجر والثواب.

لعلكم تتقون

غاية الصيام التقوى، ولذلك يقول تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] فقوله (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) تعليل لفرضية الصيام، ببيان فائدته الكبرى، وحكمته العظمى، وهي تقوى الله والتي سأل أميرُ المؤمنين عمرُ رضي الله عنه الصحابيَ الجليل؛ أُبيَّ بن كعب رضي الله عنه عن معنى التقوى ومفهومها؟ فقال يا أمير المؤمنين: أما سلكت طريقا ذا شوك؟ قال: بلى، قال: فما صنعت؟ قال: شمرتُ واجتهدت. أي اجتهدتُ في توقي الشوك والابتعاد عنه، قال أبي: فذلك التقوى، والتقوى حساسيةٌ في الضمير، وشفافيةٌ في الشعور، وخشيةٌ مستمرة، وحذرٌ دائم، وتوق لأشواكِ الطريق؛ طريقِ الحياة الذي تتجاذبُه أشواكُ الرغائبِ والشهوات، وأشواكُ المخاوفِ والهواجس، وأشواكُ الفتنِ والموبقات، وأشواكُ الرجاءِ الكاذب فيمن لا يملكُ إجابةَ الرجاء، وأشواكُ الخوف الكاذب ممن لا يملكُ نفعًا ولا ضرًا، وعشراتٌ غيرُها من الأشواك، ولماذا لا نجعل من رمضان فرصة بأن تكون لك أيام تصومها لله رب العالمين فمن صام يومًا في سبيل الله باعد الله بينه وبين النار سبعين خريفًا، فهذه ستة من شوال، ويوم عاشوراء، وعرفة، وصوم الإثنين والخميس، وصيام ثلاثة أيام من كل شهر. فلا تحرم نفسك الدخول من باب الريان، عندما ينعم عليهم المنان بدخول الجنان. فبادر شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وحياتك قبل موتك. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»، فرمضان فرصة للتغيير، ليصبح العبد من المتقين الأخيار، ومن الصالحين الأبرار.

ثمار الصيام

للصوم ثمرة بل ثمار نجنيها، وكلما زارنا رمضان كان له مفعول التغيير في حياتنا، ومن أعظم ثمار الصيام، تربية القلوب على مراقبة الله، وتعويدها على الخوف والحياء منه، ويقول القسطلاني رحمه الله معددًا ثمرات الصوم؛ يقول: منها رقة القلب، وغزارة الدمع، وذلك من أسباب السعادة، فإن الشبع مما يذهب نور العرفان، ويقضي بالقسوة والحرمان، انتهى كلامه رحمه الله، ولكن ما علاقة الشرب والأكل بالتقوى؟ فالأكل والشرب للبطن والتقوى مكانها القلب؛ فما دخل هذا بذاك؟ اسمع رعاك الله الإجابة؛ أليس كثرة الطعام والشراب لها أثر كبير على فساد القلب وغفلته؟ فالبطنة تذهب الفطنة كما يقال، والشبع يُقسي القلب ويُعميه، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، وقال عمرو بن قيس: «إياكم والبطنة فإنها تقسي القلب»، وقال الحارث بن كلدة؛ وهو الطبيب العربي المشهور: «الحمية رأس الدواء والبطنة رأس الداء»، وقال سفيان الثوري: «إن أردت أن يصح جسمك ويقل نومك فأقلل من الأكل»، ولذلك فإن تقليل الطعام والشراب والشهوة، ينور القلب ويوجب رقته، ويزيل قسوته، فالصيام فيه كسب للنفس وتحلية القلب للذكر والفكر، والصيام يضيق مجرى الدم التي هي مجرى الشيطان من ابن آدم، فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر ثورة الشهوة والغضب، ورُوي عن ذي النون المصري رحمه الله وهو العبد الصالح أنه قال: تجوّع بالنهار وقم بالأسحار، ترى عجبا من الملك الجبار، وقال يحيى بن معاذ: من شبع من الطعام عجز عن القيام، فهذه بعض ثمار الصيام نجنيها، وكلما أوشك رمضان على الرحيل كان لها أثر فينا، وكان لها أبعاد في حياتنا، فهل عرفت أيها المسلم الصائم بعد هذا ثمار الصيام؟

ومن يمنعك عن الطعام والشراب؟

لا أحد يستطيع أن يمنعك عن الطعام والشراب، لأنهما من مقومات الحياة وضروراتها، وهما أهم شيء في حياة الإنسان ومن أجلهما يقاتل الإنسان ويضحي، ويتكسب ويعمل ليدفع أثمانهما وإن غلت، وهما يرفعان الأسعار في الأسواق فإن قل الطعام وزاد الطلب غلا الطعام، وهكذا فمن يستطيع أن يمنعك عن الطعام والشراب، لا أحد، ولكن هناك من يستطيع ذلك إنه الله تعالى، فهو الوحيد الذي يمنعك عن الطعام والشراب، وبإرادتك أنت وبرضاك، لا تخاف أحدًا إلا الله، ولو أردت أن تأكل في نهار رمضان فلا أحد يراك إلا الله تعالى، فأنت تستطيع فعل ذلك، ولكنه رمضان الذي فرضه الله عليك، إنه يعلمك التقوى ويعلمك المراقبة لله تعالى، إنه رمضان الذي يمنع عنك الطعام والشراب من الفجر إلى غروب الشمس، فكيف يستطيع رمضان فعل ذلك، وغيره لا يستطيع، وما السر في ذلك، وكيف تمتنع عن الطعام والشراب أيها الإنسان طيلة شهر رمضان، السر في ذلك هو تقوى الله عز وجل، وهو حب الرضا لله عز وجل، لقد ورد في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الصيام جنة، فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إني صائم مرتين والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به والحسنة بعشر أمثالها، فقوله «يترك طعامه وشرابه من أجلي» إشارة إلى أن هذا الترك إنما هو لله تعالى بإخلاص، ولا يقدر على ذلك إلا من أخلص لله تعالى، فأنت تترك أهم مقومات الحياة الطعام والشراب، وحتى الشهوة تتركها لله عزوجل، ولذلك قال تعالى «الصوم لي» فهو من الله وإلى الله تعالى، وأعظم أثر من آثار الصيام تقوى الله التي يزرعها الصيام في نفس الصائم، فما أحلى الطعام وألذ الشراب عندما نتركه من أجل الله عز وجل، فإذا تحقق ذلك الترك

لله، صارت كل ملذات الدنيا ومحرماتها أيسر وأسهل في الترك، فرحبًا بشهر الخير وأهلًا بشهر البركات.

لو كنت صائما

لو كنت صائما لحرصت أن يكون هذا الشهر المبارك نقطة محاسبة لي على جميع ما قمت به من عمل، ولجعلت لأعمالي تقويما، ولحياتي تصحيحا، ولو كنت صائما لحافظت على الصلاة في وقتها وعلى صلاة التراويح جماعة فقد قال صلى الله عليه وسلم: من صلى مع الإمام حتى ينصرف كتب له قيام ليلة، ولو كنت صائما لحذرت من الإسراف في المال، فهذا الشهر هو شهر عبادة وعمل وليس شهر نوم وكسل، لو كنت صائما لأكثرت من الصدقات والقربات ولجعلت السنن فروضا، فأنا أعلم أن هذا الشهر المبارك ضيف راحل فيجب أن أحسن ضيافته، ولو كنت صائما لحرصت على قيام ليالي العشر الأواخر فهي ليالٍ فاضلة وفيها ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، فهذه فرصة لا تعوض فعمر الإنسان يمر سريعا ولا ينتبه الإنسان إلا حين يحضر أجله فيقول ليتني اغتنمت كل لحظة في الدنيا، ولو كنت صائما لعلمت أن العمل أمانة وعبادة، فالله تعالى يحب العمل المتقن، وشهر رمضان شهر عمل وجهاد وإنتاج، ولو كنت صائما لسارعت إلى طلب العفو ممن ظلمته، فالظلم ظلمات يوم القيامة فمن كان له حق عندي فليأخذه مني في الدنيا قبل يوم الحساب حيث لا تنفض الخصومة بالدراهم والدنانير وإنما هي الحسنات والسيئات، ولو كنت صائما لحرصت على تفطير الصائم حتى يكون لي مثل أجره، فإنني أعلم أن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين ويقبل التوبة من التائبين وهو سبحانه شديد العقاب يمهل ولا يهمل، فلو كنت صائما لسارعت إلى التوبة ولعقدت العزم على عدم العودة إلى المعصية، تلك أعمال وغيرها تتزين في شهر

رمضان لكل طالب ومجتهد، فمن كان صائما فلتكن هذه النصائح عقدا يجمع حلقاته في كل يوم من أيام رمضان حتى يكتمل العقد مع آخر يوم من رمضان، فيا من تبحث عن الأجور والحسنات في شهر رمضان فهذه أعمال حري بك أن تحافظ عليها لو كنت صائما.

لعبة الحسنات

إنه شهر الكرم والخير كله، رمضان ضيف كريم يزورنا كل عام شهراً واحدًا، فنستقبله ونكرمه وكل حسب كرمه، ولكن رمضان هذا العام كيف سنستقبله وكيف سنكرمه؟ لا تقل لي لقد امتلأت البيوت بأصناف الأطعمة والأشربة وتسابق التجار لعرض ما يؤكل في رمضان، ولا تقل لي ماذا أعدت القنوات الفضائية من برامج ومسابقات، ولا تقل ما تقدمه المجمعات من موضات وعروض، فتلك طريقة اعتدنا عليها كل عام، بل في كل عام تزيد الغفلة والإعراض عن رمضان، إنني أسأل عن المنافسة في مضمار رمضان، أسأل عن تنافس الصائمين في المسابقات الأخروية، فأين من يتاجر في التجارة الخالدة، وأين غذاء الأرواح والقلوب؟ وأين الاستعداد لموسم الخير والبركات؟ أين كل ذلك في شهر أعد لذلك، ذلك الخير والأجر الذي يتضاعف إلى أضعاف كثيرة، إنها لعبة الحسنات التي لا تمل، فكل حرف من كتاب الله حسنة والحسنة بعشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى، والصيام أحد أعمدة هذه المسابقة ومن صام يومًا في سبيل الله بعّد الله وجهه عن النار سبعين خريفا، وهناك الصدقة في رمضان تتضاعف فيها الحسنات وتزيد وتزيد، فأفضل الصدقة صدقة في رمضان، وهناك الصلوات التي لا تحد بعدد ولا تعد برقم، ولكنها تطوع وقيام وتلاوة وسجود، وتسبيح وتهليل ودعاء ورجاء، وخشوع وقربة، وإحساس ومتعة، كل

ذلك يُدر الخير ويُدر الحسنات، فكم هي هذه الحسنات، ومن يحصيها؟ ومن يعدها؟ ومن يعرف بحرها؟ ومن يستطيع أن يغوص فيها؟ إنه رمضان جعل الحسنة تزيد في العائد بنسب لا يعرفها أهل الإستثمار، وأرباح لا يفهمها أهل الدرهم والدينار، حسنات وأرصدة في بنوك الآخرة، فأين المستثمرون؟ وأين أهل العزم والإرادة، فهذا رمضان وهذه أدواته الإستثمارية، وهذه منتجاته الإيمانية، فيا من تريد زيادة أرصدته وارتفاع أسهمه ها هي أيام رمضان ولياليه قد أقبلت فهي مواسم المرابحة والتجارة الفاضلة، فماذا أنت فاعل؟ وما هي مشاريعك في شهر الخير، وما هي خططك في جني الأرباح والحسنات، فكن مستعدًا متأهبًا فهذه لعبة الحسنات في شهر رمضان، فقم ودع النوم وشمر عن ساعد الجد فقد حانت ساعة الجد.

في رحاب القرآن

أهل القرآن هم أهل الله وخاصته يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن لله تعالى أهلين من الناس قالوا: يا رسول الله من هم؟ قال: هم أهل القرآن أهل الله وخاصته. القرآن العظيم هو كلام الله منه بدأ وإليه يعود وهو مِنَّةُ الله تعالى على عباده الذي محا به عبادة الأوثان وأكرم به نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم وهو المعجزة المستمرة على تعاقب الأزمان والتي تحدى الله بها الإنس والجان وجعله ربيعا لقلوب أهل البصائر والعرفان فلا يَخْلَق على كثرة الرد وتغاير الأوقات والأزمان، وقد يسره سبحانه للذكر فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، وهو الكتاب المحفوظ بحمد الله وفضله الذي وفق لخدمته وحفظه والعناية به من اصطفاه من أهل الحق والإتقان. والقرآن هو المعجزة المستمرة ما استمرت الحياة يقول النبي: ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي فأرجو

أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة. ففي هذا الحديث فضيلة عظيمة فما من نبي إلا أعطي من المعجزات ما آمن عليه البشر ثم لما مات الأنبياء لم تبق لهم معجزة بعدهم إلا ما يحكيه أتباعهم عما شاهدوه في زمانهم. وأما الرسول الخاتم للرسالة محمد صلى الله عليه وسلم فإن معظم ما آتاه الله وحيا قد نقل إلينا متواترا في كل وقت كما نزل وهذه المعجزة مستمرة إلى يوم القيامة، فهذا شهر القرآن فينبغي أن يعرف القرآن في هذا الشهر فهو شهر تتضاعف فيه الحسنات فكيف بأحرف القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها لا أقول (الم) حرف ولكن: ألف حرف ولام حرف، وميم حرف. وقد أوصى رسولنا بالقرآن فقد قال طلحة بن مصرف: سألت عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم أوصى؟ فقال: لا. فقلت: كيف كتب على الناس الوصية أو أمروا بالوصية؟ قال: أوصى بكتاب الله. فيا أهل رمضان عليكم بالقرآن فله حقوق علينا وواجبات يقول النبي صلى الله عليه وسلم خيركم من تعلم القرآن وعلمه ويقول عمر رضي الله عنه: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قد قال: إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين.

الذي أُنزل فيه القرآن

ليالي رمضان مضيئة بالصلاة والتهجد مما يميز رمضان عن غيره من أشهر العام، ويأتي القرآن الكريم على قائمة الأعمال في شهر رمضان، فما أحلى أن يقرأ القرآن في الشهر الذي نزل فيه، يقول ابن عباس بأن القرآن نزل مرتين المرة الأولى عندما نزل من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا حيث نزل بكامله في ليلة واحدة وهي ليلة القدر وفي هذا يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١]، وأما المرة

الثانية عندما نزل مفرقا على الرسول صلى الله عليه وسلم حسب الأحداث والوقائع في ثلاث وعشرين سنة، وفي هذا يقول الله تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٦]، إننا بحاجة إلى القرآن كحاجتنا إلى الماء بل إلى الحياة، إن الله تعالى يقول ﴿الرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ [الرحمن: ١-٣]، فلماذا قُدِّم تعليم القرآن على خلق الإنسان؟ لأن التعليمات التي جاءت في هذا القرآن الكريم لا يمكن أن يوجد الإنسان بدونها لذلك قدمت على وجود الإنسان، فوجود الإنسان من دون هذه التعليمات والتوجيهات وهذا المنهج وجودٌ عابث لا قيمة له، فما قيمة الإنسان وهو كالدابة الضالة لا تعرف طريقها، وما قيمة الإنسان وهو كالتي تَخْبِط خبط عشواء؟ راقب الناس، راقب الضالين، راقب التائهين، راقب الشاردين، تجد الإنسان ضائعًا لا يعرف لماذا هو في الدنيا، ساعةً يُقبل على لذاته ليقتنصها، وساعةً يقبل على جمع الدرهم والدينار، ساعةً يكون مع زيد وساعة مع عبيد، فإنسان من دون قرآن هلاك ودمار وشقاء وضياع وقلق، فعليك بالقرآن، فمن أين أتيت القرآن فأنت رابح، إن قرأته فأنت رابح، وإن حفظته فأنت رابح، وإن جوَّدته فأنت رابح، وإن فهمته فأنت رابح، وإن درَست علومه فأنت رابح، وإن فسَّرته فأنت رابح، وإن طبَّقته فأنت رابح، فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب) بيتٌ خربٌ مهجور ما قيمته، فخذ من القرآن في شهر القرآن ما يروي ظمأك ويزين حياتك، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

لمن هجر القرآن

نقول لمن هجر القرآن ها هو شهر القرآن فماذا تنتظر، ونقول لمن هجر القرآن قراءة وتدبرًا، وحفظًا وعملًا حتى أصبح القرآن نسيًا منسيًا، أن يكون هذا الشهر بداية للتغيير، فترتب لنفسك جزءًا من القرآن، لا تنفك عنه بأي حال من الأحوال، ولا تنس الفضل الجزيل لمن قرأ كلام الله الجليل يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها لا أقول الم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف»، والقرآن يشفع لك يوم القيامة يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي ربي إني منعته الطعام والشهوة، فشفعني فيه، ويقول القرآن: رب منعته النوم بالليل، فشفعني فيه، قال: فيشفعان» رواه أحمد. قال الألباني رحمه الله: أي يشفّعهما الله فيه ويدخله الجنة. لقد أدرك سلفنا الصالح عظمة هذا القرآن، فعاشوا معه ليلًا ونهارًا. قال وهيب بن الورد: قيل لرجل ألا تنام؟ قال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، عجبا طار نومه بسبب القرآن وأناس ينامون والقرآن يصدع على أسماعهم، وقال أحمد بن الحواري: إني لأقرأ القرآن، وأنظر في آية، فيحير عقلي بها، وأعجب من حفاظ القرآن، كيف يهنئهم النوم، ويسعهم أن يشتغلوا بشيء من الدنيا وهم يتلون كلام الله، أما إنهم لو فهموا ما يتلون، وعرفوا حقه، وتلذذوا به، واستحلوا المناجاة به، لذهب عنهم النوم فرحًا بما رزقوا، فما موقفك أنت، رعاك الله، من القرآن؟ فإذا لم تقرأ القرآن وإذا لم تختم القرآن وإذا لم تتدبر ما في القرآن، وأنت في شهر القرآن فمتى إذن؟!

ألم وأمل

حل الضيف بأنواره وهدايته حل برحماته وبركاته والمسلمون بين ألم وأمل، فرمضان بين الألم والأمل، ألم فيما يحل بالأمة من عالم الضياع، وألم النفوس الغافلة في الشهوات، وألم الغفلة واللهو والسهر، وألم في ملء البطون، وألم في التثاقل عن العبادات والقرآن في شهر القرآن والفرقان، آلام تتجدد في كل ليلة، آلام تتزايد في كل لحظة، شباب لم يفهموا من رمضان إلا الغفلة والإعراض وتأجيج الشهوات وإشعال الغرائز طال عليهم الليل فقطعوه بالشهوات، وطال عليهم النهار فقتلوه بالنوم العميق حتى مدفع الإفطار، ولكن هناك أمل في رمضان يعيد النفوس إلى صفائها، وأمل في التوبة، وأمل في العودة إلى الله، وأمل في تصحيح المسار وأمل في الدمعة والخشية، وأمل في الدعاء والاستغفار والذكر، وأمل في القيام للتهجد، وأمل في الغفران والرضوان والعتق من النيران، فيا أيها الغافل كفاك هجرا وغفلة فها هو رمضان بين يديك فخذ منه ما يرضي الله تعالى فأفضل الصدقة صدقة رمضان، ومن الأعمال الرمضانية تفطير الصائمين وابتغاء ما وعد به سيد المرسلين، يقول صلى الله عليه وسلم (من فطر صائما كان له مثل أجره من غير أن ينقص من أجر الصائم شيئًا)، ومن الأعمال كذلك الخلق الحسن في رمضان من صدق اللسان والعفو والتسامح، قال صلى الله عليه وسلم: (من لم يدع قول الزور أو العمل به والجهل فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)، فهذا أضاع صيامه فقد أفطر على ما حرم الله وصام عما فرضه الله عليه وصدق فيه قول الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه (رب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش)، فالصيام يغير الحال من حال إلى حال فهو يغير النفوس ويطهرها من الغفلة إلى الخشية، ومن الإعراض إلى الإقبال، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الذنب إلى التوبة، ومن القسوة إلى الدمعة، ومن البخل إلى الجود والصدقة، ومن هجر القرآن إلى التدبر

والختمة، فهذا رمضان بين الألم والأمل، فليكن شهر رمضان كله أملًا، وكفانا ألمًا وحسرة.

ماذا حصل في رمضان

في أيام رمضان يرجو الإنسان أن تكون كلها أيام خير وأن لا يقع فيها ما يخالف جو رمضان المفعم بالإيمان والتسامح والرحمة والإحسان، ولكن في بعض النفوس جرأة على رمضان فتجد تلك النفس الأمارة بالسوء تزيّن لصاحبها المنكر والذنوب وخصوصًا في شهر رمضان المبارك، ومن المواقف التي لفتت الأنظار أن بعض الجرائد اليومية طالعتنا بخبر في رمضان أن ولدًا يرفع دعوى في القضاء المستعجل لطرد والده وأنه قام بقطع الكهرباء عن والده لإجباره على الخروج من البيت، خبر يقرأه الصائم في أيام رمضان فيجد في نفسه ضيقا وحزنا لمثل هذا الظلم، فمهما فعل الوالد فمكانته تبقى شامخة ومهما استولى وتولى من أموال ولده فالولد وما يملك لأبيه، وحتى لو كان الأب ظالما لولده فمعاشرته بالمعروف واجبة، بل حتى ولو كان الأب كافرًا، فالله تعالى يقول ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥]، فهل من المعروف طرد الوالد من البيت، هذا ما حصل في رمضان، موقف آخر أن رجلا في رمضان أراد شراء دواء من الصيدلية فأعطى الوصفة الطبية للصيدلي الذي أحضر الأدوية، ولما أخبر المريض بسعر الدواء وهو ستة وثلاثون دينارا، قال المريض إن سعر الدواء هذا غالٍ ولا أستطيع أن أدفعه فانصرف دون أن يأخذ الدواء وهو مريض ومحتاج للدواء، وهنا تذكرت حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عندما جعل مسئولية سد حاجة المحتاج مسئولية الجميع، ولو أن واحدًا في المجتمع بات جائعا فالكل في المجتمع مسئولون وآثمون، يقول صلى الله عليه وسلم «أَيُّمَا أَهْلُ

عَرْصَةٍ - منطقة أو حي أو سكن-أَصْبَحَ فِيهِمْ امْرُؤٌ جَائِعٌ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُمْ ذِمَّةُ اللَّهِ تَعَالَى»، للأسف أن هذا حصل في رمضان، وإن كان هذا قد حصل في رمضان، فما الذي قد يحصل في غير رمضان، تلك أعمال ومشاهد ومفارقات تقع ونحن المسئولون عنها فكيف الحساب؟ وأين الثواب؟ أخشى أن نخرج من ذمة الله تعالى فنكون من الهالكين.

العشر الأخيرة

بدأت العشر الأخيرة من شهر رمضان العظيم يشع نورها، وبدأ رمضان يشير هو الآخر بقرب الرحيل، وهكذا رمضان يأبى دائمًا إلا أن يكون ضيفا خفيفًا، والعشر الأخيرة منه ليست بأفضل من أوله أو أوسطه، فكل أيام رمضان مواسم وبركات، ولكن هي ليلة القدر التي تزينت بها العشر الأخيرة فجعلتها تكتسب الأفضلية، وعادة ما تكون الخواتيم عليها العبرة وعليها تكون النتيجة، فما هي قيمة العمل إذا كان أوله خيرًا وآخره شرًا، وما هي قيمته إذا كان أوله اجتهادًا وآخره نومًا وكسلًا، إنها مواسم تجعل البضائع فيها غالية، فالثمر عند حلول موسمه يزداد غلاؤه، وكذلك الأعمال عند حلول رمضان وهو موسمها تزداد أجرًا وحسنات، لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيش العشر الأواخر من شهر رمضان وكأنها البداية، فإذا دخلت العشر شمر عن ساعد الجد وترك النوم وقام ليله، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها، وعنها قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم يخلط العشرين بصلاة ونوم فإذا كان العشر شمر وشد المئزر، فهذه العشر كان يجتهد فيها صلى الله عليه وسلم أكثر مما يجتهد في غيرها من الليالي والأيام، ومن وظائف هذه العشر الأخيرة الصلاة والقرآن والذكر والصدقة وغيرها، فهذه استعدادات

الرسول صلى الله عليه وسلم نفهمها من خلال ما أشارت إليه الأحاديث من إيقاظ أهله وإحياء ليله، وشد مئزره واعتكافه صلى الله عليه وسلم بل حتى وصاله صلى الله عليه وسلم الصيام حيث كان يواصل ولا يأكل شيئًا أبدًا لمدة أيام وهذا من خصائصه، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم واصل في رمضان فواصل الناس فنهاهم، فقيل: إنك تواصل، فقال: وأيكم مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني، فهذا منهج التضحية والصبر يقوده رسول الإسلام صبرًا واحتمالًا، فماذا عزمت أيها الصائم عليه وقد بدأت العشر الأخيرة، لعلك ترى في منهج الرسول صلى الله عليه وسلم في كيفية التعامل مع هذه العشر قدوة وعبرة؟

فضائل ليلة القدر

خص الله تعالى هذه الليلة بخصائص، منها أنه نزل فيها القرآن، قال ابن عباس أنزل الله القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفصلًا بحسب الوقائع في ثلاث وعشرين سنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصفها الله تعالى بأنها خير من ألف شهر في قوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣]، ووصفها بأنها مباركة في قوله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وأنها تنزل فيها الملائكة والروح، أي يكثر تنزل الملائكة في هذه الليلة لكثرة بركتها، والملائكة يتنزلون مع تنزل البركة والرحمة، كما يتنزلون عند تلاوة القرآن، ويحيطون بحلَق الذِّكْر، ويضعون أجنحتهم لطالب العلم تعظيمًا له، وقوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾ [القدر: ٤]، الروح هو جبريل عليه السلام، وقد خصَّه بالذكر لشرفه، وقوله تعالى ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٥]، وصفها الله تعالى بأنها سلام، أي سالمة، لا يستطيع الشيطان أن يعمل فيها سوءا، أو يعمل فيها أذى، بل تكثر فيها السلامة من العقاب

والعذاب بما يقوم به العبد من طاعة الله عز وجل، وفي سورة الدخان يقول تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، أي يفصل من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمرُ السنة وما يقع فيها، وما يكون فيه من الآجال والأرزاق، وما يكون فيه إلى آخره كل أمر محكم لا يبدل ولا يغير، وكل ذلك مما سبق في علم الله تعالى وكتابته له، ولكن الله تعالى يُظهر للملائكة ما سيكون فيه، ويأمرهم بفعله، مما هو مندرج ضمن وظيفتهم.

إنها ليلة فيها فضل لا ينتهي، يغفر الله تعالى لمن قامها إيمانًا واحتسابًا، يغفر له ما تقدم من ذنبه، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، وقوله إيمانًا واحتسابًا، أي تصديقًا بوعد الله بالثواب عليه، وطلبًا للأجر لا لقصد آخر من رياء أو نحوه، هذه ليلة القدر، ليلة ذات شأن وقدر، وقد أنزل الله تعالى في شأنها سورة تتلى إلى يوم القيامة، وتلك هي خصائصها، فكيف يكون نصيبك منها؟

ليلة القدر

تدور الليالي والأيام ويطل علينا شهر رمضان الكريم عبر نافذة الزمن لينشر فينا أصول الهداية من صفاء العقيدة وتنظيم العبادة وتزكية الأخلاق ونحن المسلمون في كل أنحاء المعمورة نتذكر هذه الفضائل الربانية الجليلة كلما هب علينا شهر رمضان المبارك بنسيمه المنعش المفعم بالنور الملائكي الذي يضيء ضواحي المجتمع المسلم، وفي هذا الشهر ليلة وضاءة كريمة هي ليلة القدر يقول تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ١-٥] فأسماها سبحانه بليلة القدر

لعظم قدرها وفضلها، كما أسماها بالليلة المباركة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، ومن مزايا هذه الليلة أن الله سبحانه وتعالى جعل العمل فيها خيرا من العمل في ألف شهر، فمن عمل الصالحات كتلاوة القرآن الكريم وتدارس معانيه والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين وإحياء الليل بالصلاة والتضرع بالدعاء والانغماس في بحور الذكر كان عمله خيرًا من ألف شهر وقد ورد في فضلها عدد كبير من الأحاديث الصحيحة من ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: من قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غفر الله له ما تقدم من ذنبه. والمراد بقيامها إحياء ليلتها بالعبادة، وقراءة القرآن الكريم، والذكر، وغير ذلك من أنواع الطاعات وأقل ذلك صلاة العشاء والصبح في جماعة قال سعيد بن المسيب: «من شهد العشاء من ليلة القدر فقد أخذ حظه منها»، وهو مستنبط من قول النبي صلى الله عليه وسلم: من صلى صلاة المغرب والعشاء الآخرة من ليلة القدر في جماعة فقد أخذ بحظه منها. وقالت السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قلت يا رسول الله إذا وافقت ليلة القدر فما أقول؟ قال: قولي اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني. وقال عليه الصلاة والسلام: إن هذا الشهر قد حضركم، وفيه ليلة خير من ألف شهر، من حرمها فقد حرم الخير كله، ولا يحرم خيرها إلا كل محروم. وكان صلى الله عليه وسلم يلتمسها في كل عام، ويرصد من فضلها ما لا يرصده من باقي الليالي، ولأجل موافقتها كان يعتكف في شهر رمضان المبارك واعتكف الناس معه فصادفها في ليلة إحدى وعشرين من ذلك الشهر وأمر أصحابه أن يلتمسوها في العشر الأواخر، وليلة القدر من خصوصيات هذه الأمة، وسبب هذا الامتياز ما رُوي من أنه كان في بني إسرائيل رجل يقوم الليل حتى يصبح، ثم يجاهد حتى يمسي، استمر على هذا الحال لمدة ألف شهر، فتعجب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون من ذلك فأنزل الله سبحانه هذه الآية ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٣] وقيل: إن النبي صلى الله عليه وسلم أُرِيَ أعمار الناس، فاستقصر أعمار أمته وخاف ألا يبلغوا من الأعمال ما بلغه سائر الأمم فكانت هذه المنحة

العظيمة، وعلى هذا فمن أحيا هذه الليلة كل سنة فكأنه رزق أعمارًا كثيرة، ومن أحيا الشهر لينالها بيقين فكأنه أحيا ثلاثين قدرا، وليلة القدر باقية إلى ما شاء الله سبحانه وتعالى وقد أخفاها الله تعالى ليجد الناس في طلبها وقيل إن الحكمة في إخفائها ليعظم الناس جميع ليالي الشهر الفضيل، فالعبد إذا لم يتيقن ليلة القدر فإنه يجتهد في الطاعة في جميع ليالي رمضان راجيا أن يصادفها.

أطِلّي ليلةَ القدرِ

نعم أطلي علينا ليلة القدر، يا درة الأيام وغرة الأعوام أطلي علينا في سماء العمر القصير، ليطول ويطول فأنت ليلة ولكن بألف شهر، ليلة تجعل العمر مديدا، وبالعمل كثيرًا، فعمل تلك الليلة كعمل ليالٍ عديدة، أنت أمنيتي، أنت رجائي، أنت أملي، أنت مقصدي بين الليالي، أنت أنت ليلة القدر، ليلة وضاحة فيها تنزل الملائكة يقودها جبريل في حفل بهيج ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤]، لقد نزل القرآن في تلك الليلة يقول الله تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾ [الدخان: ٣] هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر وهي في شهر رمضان المبارك ليست في غيره قال الله تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقد سميت الليلة بهذا الاسم لأن الله تعالى يقدّر فيها الأرزاق والآجال وحوادث العالم كلها، فيكتب فيها الأحياء والأموات والناجون والهالكون والسعداء والأشقياء والعزيز والذليل وكل ما أراده الله تعالى في تلك السنة، كما قال تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤]، لقد أظهر الله عظمة هذه الليلة فقال جل وعلا ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ٢-٣]، فمن قدم فيها عملا متقبلا فقد صار عمله يساوي عبادة ألف شهر، وذلك ثلاثة وثمانون عامًا وأربعة أشهر، فهذا ثواب كبير، وأجر عظيم

على عمل يسير قليل، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه فهذه الليلة البهيجة يحييها الإنسان تصديقًا بوعد الله بالثواب وطلبًا للأجر، فأطلي علينا ليلة القدر، وأنيري طريق العمر وسطري على صفحاته أسطر الجد والعمل، فمن تحرى ليلة القدر فقد أصابها سواء علم بها أم لم يعلم إذ العبرة بالاجتهاد والإخلاص، فأطلي ليلة القدر، أطلي يا نور البدر في الليل، أطلي أنت سلام، سلام حتى مطلع الفجرِ، سلامٌ يغمرُ الدنيا، سلام يغشي الكون بالطهر وينشر نفحة القرآن والإيمان والخير، فأطلي ليلة القدر.

سياسة القبول

يتفاخر الناس بكثرة الأعمال وكثرة الطاعات في شهر رمضان فيختلط الرياء بعملهم، والبعض يظن أن كثرة الأعمال هي التي تدخله الجنة، ولا يعلم أنه إنما سيدخل الجنة برضا الله عز وجل لا بعمله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن نعيم الجنة الذي لا ينقطع فسأله عبد الله ابن مسعود يا نبي الله ألا ندخل الجنة بأعمالنا، فقال صلى الله عليه وسلم: لا يدخل الجنة أحد بعمله، ولكن يدخلها برحمة الله، فقال معاذ بن جبل حتى أنت يا رسول الله؟ فقال الذي لا ينطق عن الهوى صلى الله عليه وسلم: حتى أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته، ثم ذكر صلى الله عليه وسلم أن جبريل قال له يا محمد والذي بعثك بالحق نبيا إن لله عبدًا من عباده عبد الله تعالى خمسمائة سنة على رأس جبل في البحر وسأل ربه أن يقبضه ساجدًا حتى يبعثه الله وهو ساجد، ففعل، فوقف بين يدي الله تعالى، فقال تعالى أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فقال العبد يا رب بل بعملي فأنا عبدتك خمسمائة عام، فيقول الله تعالى: حاسبوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله، فوجدوا أن نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمسمائة

سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا، فيقول الله عز وجل أدخلوا عبدي النار، فيُجرّ إلى النار فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول الله عز وجل: ردوه، فيقف بين يديه فيقول يا عبدي من خلقك ولم تك شيئًا؟ فيقول أنت يا رب، فيقول تبارك وتعالى من قواك خمسمائة سنة؟ فيقول أنت يا رب، فقال الله عز وجل فذلك رحمتي، وبرحمتي أُدخلك الجنة، ثم قال جبريل إنما الأشياء برحمة الله يا محمد، تلك حكمة الله تعالى وهو الذي يقبل الأعمال وهو الذي يردها، فقد يقبل الله تعالى ركعة خالصة من شخص ويرد صلاة قيام بعشرين ركعة، وقد يقبل الله صدقة بتمرة ويربيها حتى تكون كجبل أحد، وقد يرد صدقة بالملايين، بل إنه تعالى قد يقبل صدقة على زانية، ويرد صدقة على فقير خالطها شيء من الرياء، وقد ذكر صلى الله عليه وسلم صدقة الرجل الذي تصدق على غني وسارق وزانية وأن الله تعالى تقبل صدقته فعلى الغني لعله يتذكر، وعلى السارق لعله يستعف وعلى الزانية لعلها تستعف، تلك سياسة القبول عند الله تعالى لا يعلمها أحد، وسبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ.

وماذا بعد رمضان

ها نحن ودعنا رمضان المبارك ونهاره الجميل ولياليه العطرة، وها نحن ودعنا شهر القرآن والتقوى والصبر والجهاد والرحمة والمغفرة والعتق من النار، فماذا جنينا من ثماره

الطيبة، وظلاله النيرة، هل تحققنا بالتقوى وتخرجنا من مدرسة رمضان بشهادة المتقين؟ هل تعلمنا فيه الصبر والمصابرة على الطاعة، والبعد عن المعصية؟ هل ربينا فيه أنفسنا على مجاهدة شهواتنا وانتصرنا عليها؟ إن شهر رمضان هو مدرسة إيمانية ومحطة روحية للتزود من التقوى لمواجهة المغريات طيلة العام، إن رمضان هو مدرسة للتغيير نُغير فيه من أعمالنا وسلوكنا وعاداتنا وأخلاقنا المخالفة لشرع الله جل وعلا، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، أخشى أن يكون البعض ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا﴾ [النحل: ٩٢]، لقد دعانا الله تعالى إلى عبادته في كل العام في رمضان وغير رمضان فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، لقد كان السلف الصالح يدعون الله ستة أشهر أن يبلغهم شهر رمضان، ثم يدعون الله ستة أشهر أن يتقبل منهم، فما بال فئة من الناس ما إن يخرج رمضان حتى يقبلوا على الآثام بلا حياء، فهل يليق برمضان شهرِ الحسنات والرحمات أن نفعل بعده تلك المعاصي والذنوب؟ أين ليالي رمضان التي كانت تقضى بين مصل للقيام وقارئ للقرآن والأذكار ومستغفر بالأسحار، أين ليالي رمضان وقد كانت تقضى بين ساجد خاشع وقائم خاضع؟ أين كل ذلك؟ بل أين أثره؟ إن العمل يجب أن يستمر في رمضان وغيره، ويجب أن يتبع رمضان عمل صالح ويدوم يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من صام رمضان وأتبعه ستا من شوال فكأنما صام الدهر. تلك هي الاستقامة على التقوى والعمل الصالح بقية العام فربّ رمضان هو ربّ بقية الشهور والأيام قال تعالى ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].

عرفتَ فالزم

ها هو رمضان قد انتهى فمن كان يعبد رمضان فإن رمضان قد فات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، لقد انتهى شهر الصيام، انتهى شهر القيام والقرآن، انتهى شهر البر والجود والإحسان، ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر، وبعد رمضان لا بد من تثبيت الهمة والاستقامة على الطاعة، لقد كان رمضان شهر قرآن وتلاوة، فيجب على المؤمن المداومة على القرآن، فإن القرآن فيه حياة القلوب والأرواح والنفوس، فهل يستغني مؤمن عن روحه؟ إن القرآن يهدي للتي هي أقوم فلا تضيعوا هذا الطريق ولا تنصرفوا عنه، إن طرف القرآن بيد الله، وطرفه بأيديكم فإذا تمسكتم بهذا الحبل المتين لن تضلوا، ولن تهلكوا أبدًا، وهل يستغني أحد عن أن يكلمه الله في اليوم مرات، فمن أراد أن يكلم الله فليدخل في الصلاة ومن أراد أن يكلمه الله فليقرأ القرآن، لقد ذاق الناس حلاوة الإيمان وعرفوا طعم الإيمان، هذا في رمضان، حلاوة تشرح الصدر، وسرور يسعد القلب، فيا من صام رمضان عرفت فالزم، الزم هذا الدرب المنير، واستقم على هذا الصراط المستقيم، وعن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما داوم عليه وإن قل، وفي حديث عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عمل عملًا أثبته أي داوم عليه وحافظ عليه، وعن أبي عمرة سفيان بن عبد الله الثقفي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم قل لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحدًا بعدك، قال الحبيب صلى الله عليه وسلم: قل آمنت بالله ثم استقم، أي استقم على درب الإيمان، واستقم على طريق التوبة، واستقم على طريق الاستغفار، واستقم على طريق قيام الليل، واستقم على طريق الإحسان، قال جل وعلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا

﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٠-٣٢].

يا ليلة العيد

تلك ليلة بهيجة، ليلة ننتظرها لتجدد الأمل فينا، يا ليلة العيد كم جمعت من أناس تفرقوا، وكم غنى الطير بعد هجران، يا ليلة العيد يا نور العين يا عيد يا غالي يا شاغل الفكر والبال، عدت إلينا يا عيد، شعيرة عظيمة وقربة كريمة، وفرحة عامرة بإتمام الصيام والتوفيق للصيام والقيام، فلك منا كل سلام، والعيد اسم لكل ما يُعتاد ويعود ويتكرر، لقد دلّ قوله صلى الله عليه وسلم: «إن لكل قوم عيدًا وهذا عيدنا» بأن المسلمين مختصون بعيدين لا غير عيد الفطر والأضحى لما جاء عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ وَلَهُمْ يَوْمَانِ يَلْعَبُونَ فِيهِمَا فَقَالَ مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ قَالُوا كُنَّا نَلْعَبُ فِيهِمَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ. وهذان العيدان هما من شعائر الله التي ينبغي إحياؤها وإدراك مقاصدها واستشعار معانيها، ويبدأ عمل العيد من ليلة العيد حيث الذكر والتهجد والإغتسال والتبتل فمن أحيا ليلة العيد لم يمت قلبه يوم تموت القلوب، أقبلت ليلة العيد رغم السعادة العارمة والإحساس البهيج، ولكنني أجد في القلب وحشة وفيه حسرة، إنها حسرة الفراق والوداع لشهر دام ثلاثين يوما مليئة بالعمل والجد والعبادة والطاعة، فإذا هذه الأيام تمضي ونقف نودع الشهر كما يودع الحبيب حبيبه، فلا أوحش الله منك يا شهر الصيام، ولكن لنا لقاء ولنا في العيد تعويض فهكذا تجري السنن وهكذا قضى رب العباد أن يأتي رمضان ويرحل، والنفس لا تشتاق إلا لمن يرحل ويعود، فيأتي العيد بكل جديد وتجديد، ولكن ثمة وحشة أخرى

في ليلة العيد إن إخوانا لنا يمر عليهم العيد وهم في حزن وألم وفراق وعدم، وتلك مأساة في الأمة الإسلامية تجعلنا نشارك إخواننا أحزانهم وهمومهم، ولنا في القدس والعراق إخوان نرجو ونتمنى أن يفرج الله همهم وينصرهم ويثبتهم، ولله در القائل:

يمرُّ علينا العيدُ مُرًّا مضرَّجًا * بأكبادنا والقدسُ في الأسْرِ تصرخُ
عسى أنْ يعودَ العيدُ باللهِ عزّةً * ونَصْرًا، ويُمْحى العارُ عنّا ويُنْسَخُ

وفي العيد فرحة

أطل فجر العيد على الصائمين فأيقظهم وهم ما زالوا في غمرة الصيام والقيام فقال قوموا فقد طُوي كتاب الشهر وسجلت في صفحاته الأعمال، لقد كان للصائمين سطورٌ من الأجور والثواب وكان للمذنبين سطورٌ من الحرمان والأسى، فقوموا إلى صلاتكم أنتم أيها الصائمون فقد خرج رمضان وأنتم مغفور لكم، فأنتم من يفرح اليوم بالعيد، أليس للصائم فرحتان يفرحهما فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، فهذه فرحة عند الفطر يوم يوفى الصابرون بأحسن ما عملوا، في هذا اليوم ترى وجوه الصائمين مسفرة ضاحكة مستبشرة، أما العاصون فلا يحق لهم أن يفرحوا اليوم وقد حرموا الأجر وخرج رمضان وقد رغمت أنوفهم فلم يغفر لهم وليتهم ندموا على فراق الحبيب رمضان وأبدوا الندامة والحسرة وأقلعوا عن الذنوب والآثام كلا، بل هاهم اليوم في العيد يعصون الله فلا حياء يردعهم، ولا رمضان يمنعهم ولا شوال وقد ورد في الأثر أن من عصى الله يوم العيد فكأنما عصاه يوم الوعيد.

فدع عنك هؤلاء العصاة وأقبل بنفسك في العيد وأنت مبتهج سعيد ففي يوم الفطر الأزهر وعيد الله الأصغر ينشر الله رحمته ويفيض نعمه على أهله وخاصته يباهي بهم الملائكة فيقول يا ملائكتي ما جزاء الأجير إذا عمل عمله، فيقولون إلهنا وسيدنا جزاؤه

أن يوفى أجره فيقول الله تعالى: أشهدكم يا ملائكتي أني قد جعلت ثوابهم بصيامهم رمضان رضاي ومغفرتي، فتنشر الملائكة أجنحتها على السكك والطرقات وينادون بصوت يسمعه جميع الخلائق إلا البشر يا أمة محمد أبشروا وارجعوا من مصلاكم مغفورا لكم، تلك هدية الله في العيد السعيد يوم الهدايا ويوم العطايا فأي عطية وأية هدية أعظم من أن يغفر الله لعبده ويتقبله عنده ويعتق رقبته، من هنا تأتي فرحة المؤمن الصائم فيا لها من فرحة تبعث في الوجدان شوقا إلى رمضان ورغبة أن يكون العام كله رمضان ولكن تلك حكمة الله تعالى أن يجعل للطاعات مواسم تروح وتأتي ولكن ليت شعري من يدركها قبل فوات الأوان؟

باقة عيد الفطر

في العيد باقة من القربات والطاعات تتزين بفرحة وسرور وابتهال وتكبير، وترسل هذه الباقة العطرة إلى كل عنوان وبيت سهر أهله ليالي رمضان، وصاموا نهاره، وقرءوا القرآن فاستحقوا هذه الباقة الجميلة في يوم العيد، عيدُنا جديدٌ في يومه، أصيلٌ في نفسه، فله ارتباطٌ قويّ بالفرح بالصيام، فللصائم فرحتان يفرحهما، فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه، وفي عيدنا تجديدُ اللقاء وصلةُ الأرحام وتقوية أواصر المودَّة بين الإخوة، وتفريج همّ المهمومين وكرب المكروبين والتيسير على المعسرين، لتكون فرحة العيد فرحةً شاملة للجميع، أفراحنا ليست تحلّلًا من قيودِ الشرع، ولا طيًّا لبساط العبادة، ولا هدمًا لبناء الأعمال، أفراحنا ليست لإطلاق أيدينا وألسنتنا في المنكرات فالمسلم زكيّ القلب، مهذَّب النفس والسلوك، ويأتي عيد الفطر ليزين حياتنا الرتيبة المثقلة بعناء العمل، فينعش طاقاتنا ويجدد نشاطنا بعد صيام شهر رمضان الذي زكى النفوس وطهر الأرواح، وصفى ما علق بالنفس من وساوس وأدران، فصار الإنسان بعد رمضان

أكثر قوة وصمودا أمام مغريات الشيطان طوال العام، باقة العيد هذه تهدى لكل من غفر له ذنبه في رمضان، ولكل من قبل عمله، ويحرم من هذه الباقة من فاته رمضان ورغم أنفه فلم يدرِ ما رمضان، نخرج عنه رمضان بحسرة وندم وحرمان، باقة العيد هذه ترسل لكل قائم صائم تمنى العام كله رمضان لما فيه من الخير العميم، والأجر الكريم، لا شك أن كل مسلم يرجو أن تصله باقة العيد هذه وقد أصبح وأمسى مغفورا له فنال جائزته من يد الله مباشرة فالعيد يوم الجوائز والحوافز، باقة العيد فيها من الورود والزهور والإكليل والعطور والهدايا ما يرسم الفرحة في قلوب صبرت على رمضاء رمضان فنالت الرضوان، وتفجرت فيها ينابيع الإيمان، فما أحلى هذه الباقة التي ترسل لكل مؤمن صبيحة العيد عند التهليل والتكبير تقف الملائكة عند الطرقات تقدم باقة العيد لكل مصل تقول: يا عباد الله أبشروا فإن ربكم قبل عملكم وغفر ذنبكم، فهنيئا لمن وصلته هذه الباقة الزاهية الجميلة، وهنيئا لمن أرسلت له فليت هذه الباقة ترسل إلى عنواني.

عيدية وهدية

العيد يمتاز بالهدايا والعطايا وإدخال الفرح والسرور في قلوب الناس، فالفرحة عند الفطر فرحة عارمة وفرحة لا توصف بإتمام العمل في رمضان ورجاء القبول في العاجلة والآجلة، والدعاء أساس الطاعة والعبودية، فالذي يدعو ربه إنما هو خاضع له متعبد له متذلل له ومستسلم لأمره سبحانه وتعالى، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يدعون الله تعالى إذا نزلت بهم المحن وأحاطت بهم الإحن وهم يعلمون عليهم الصلاة والسلام أن دعوتهم لا ترد، وهذا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم عندما عاد من الطائف مهموما دعا فقال: (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم

الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو يحل بي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك)، دعاء الكرب يرفع الكرب ويزيل الهم، وهذا نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام عندما التقمه الحوت وسمع تسبيح الحصى في قعر البحر فزع و ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وورد في فضل هذا الدعاء بأنه لم يدع بها مسلم في شيء قط إلا استجاب له، وورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لقد كان دعاء أخي يونس عجبا: أوله تهليل، أوسطه تسبيح، وآخره إقرار بالذنب ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] ما دعا بها مهموم ولا مغموم ولا مديون في يوم ثلاث مرات إلا استجيب له، حديث وإن كان فيه ضعف ولكنه يصلح للإستشهاد به في الفضائل، وهذا نبي الله أيوب عندما مسه المرض ونال منه، لجأ إلى ربه، قال تعالى ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤]، فهذه ثلاثة أدعية احفظها أيها القارئ فهي هدية عيد الفطر وحسبك بها من هدية وعيدية.

العيد حياة وتجديد

وفي العيد حياة وأي حياة، بهجة وسعادة، إحساس ومشاعر، أخوة ومحبة، إنها الأعياد أقوى وأحلى المناسبات العملية لتقوية العلاقات الإنسانية، وأفضل أرضية للأذواق القلبية، وأفضل جو لنشر المحبة والتعاون والامتزاج، وفي ساعات العيد

ودقائقه سمو للمحبة يعلو إلى زرقة السماء، ويصل إلى صفرة الشمس، وينافس أنوار القمر، إننا في العيد نأخذ نصيبنا من موائد الفكر والمشاعر ونستمع إلى تناغم أرواحنا، وما إن تبزغ شمس العيد ويرتفع التكبير ونؤدي عباداتنا وصلاتنا بإحساس وشعور، وعندما تحيطنا التكبيرات والتهليلات من كل صوب أيام التشريق، فيأتي العيد بطعمه الفريد، ومذاقه الخاص، وجوِّه المتميز، وينسكب إلى أفئدتنا موجة إثر موجة، لتغرق أرواحنا في نفحات الإيمان وتعيش جو الآخرة، عند ذلك نشعر بأن القيود التي تربطنا مع هذه الدنيا الفانية ترتخي وتخل قيدًا إثر قيد، ونحسب أنفسنا وكأننا في عالم آخر جديد، نحسب كل هذا التناغم وهذا الجو المفعم بالحب، ونرى أن كل دقيقة تعبر عن البهجة في العيد، وكأنها غيث في كل قطرة منه رحمة من الله تعالى على قلوبنا الظامئة للعيد منذ سنوات، ليغسل أغصان أرواحنا التي يبست، وليعيدها إلى الخضرة والنضارة والحياة، فتظهر من فروعها زهور الأمل في أعماق صدورنا، ولنبدأ الحياة من جديد في يوم سعيد، ونحن نرى على الدوام أن الأعياد بالنسبة لأصحاب القلوب المؤمنة فيها إشباع لآمالهم الأخروية، ولأشواقهم القلبية، ولولَعِهم الذي لا يعرف الفتور، ومن يستطيع أن يعرف عدد الأشواق التي نصل إليها، في العيد، إنها أشواق بحر ومحيط لا يعرف ساحله، ففي العيد أحاسيس تنبع وتصب في صدور طاهرة، وفي العيد نسمات تهب على قلوب متعطشة للتجديد وللإنتعاش، ففي العيد حياة وتجديد، فكن من العيد في شوق ولهفة، فالعيد في معناه الزمني قطعة من الزمن تُنسينا هموم بقية الأزمان طوال العام، ثم نعود ثانية لنعيش العام من بدايته، لكن بحياة جديدة، وأمل جديد.

في رمضان وغير رمضان

الله أكبر كبيرًا والحمد لله كثيرًا وسبحان الله وبحمده بكرة وأصيلًا، بهذا التكبير تعتلي الأصوات يوم العيد وتزداد النفوس شوقا على قبول الأعمال، فاليوم عيد وغدا عيد، وكل يوم نتقرب فيه إلى الله عيد، اليوم عيد من قُبل عمله ولا عيد لمن رده عمله ورفض عطاءه وقيل له أنت مطرود ومحروم من الجوائز، نعم إنه يوم الجوائز يوم النتائج لمن قدم عملا صالحا مخلصا لله تعالى، كل مخلوق في الكون يوم العيد مبتهج فالسماء بالملائكة مكتظة تصافح الناس تقول اغدوا إلى رب كريم يمن بالعطاء ويعطي الجزيل، وفي الأرض أناس يبتهجون ويفرحون فرحة الفطر بعد الصيام والقيام، الكل يهنئ أخاه بالعيد، رحل رمضان ولم يمضِ على رحيله إلا القليل! ولربما عاد تارك الصلاة لتركه، وآكل الربا لأكله، ومشاهد الفحش لفحشه، وشارب الدخان لشربه. ها نحن ودعنا شهر القرآن والتقوى والصبر والجهاد والرحمة والمغفرة والعتق من النار فماذا جنينا من ثماره اليانعة، وظلاله الوارفة؟! هل تحققنا بالتقوى وتخرجنا من مدرسة رمضان بشهادة المتقين؟! أم أن البعض بعد رمضان يعود إلى الذنب والعصيان، إن العبد المؤمن هو الذي يستمر على طاعة الله، ويثبت على شرعه، ويستقيم على دينه، لا يراوغ روغان الثعالب، يعبد الله في شهر دون شهر، أو في مكان دون آخر بل يعلم أن ربّ رمضان هو ربّ بقية الشهور والأيام، كتب عمر بن عبد العزيز إلى الأمصار: يأمرهم بختم شهر رمضان بالاستغفار والصدقة وقال: قولوا كما قال أبوكم آدم ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وكما قال إبراهيم ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢]، وكما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وكما قال ذو النون: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، هذه أدعية الأنبياء ليتنا نواظب عليها في رمضان وغير رمضان.

الباب السادس

الحج ومواسم العام

(١٤ مقالة)

بركة الزمان

في كل زمان بركة وأعظم الزمن بركة هو عشر ذي الحجة، إذ لها مكانة عظيمة عند الله تعالى، تدل على محبته لها وتعظيمه لها، فهي عشر مباركات كثيرة الحسنات، قليلة السيئات، عالية الدرجات، متنوعة الطاعات، وفي الطاعة بركة، وأعظم بركة في الطاعة هي في العشر من ذي الحجة، فقد أقسم الله تعالى بها فقال ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ٢]، ولا يقسم تعالى إلا بعظيم، ومما يدل على ذلك أن الله لا يقسم إلا بأعظم المخلوقات، كالسماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والرياح، ولا يقسم إلا بأعظم الأزمان، كالفجر والعصر والضحى والليل والنهار والعشر، ولا يقسم إلا بأعظم الأمكنة، كالقسم بمكة، وله أن يقسم من خلقه بما يشاء، ولا يجوز لخلقه أن يقسموا إلا به، فالقسم بها يدل على عظمتها ورفعة مكانتها وتعظيم الله لها، ومن فضائلها أن الله تعالى قرنها بأفضل الأوقات، والقرين بالمقارن يقتدي، فقد قرنها بالفجر وبالشفع والوتر وبالليل، ومن فضائلها أن الله تعالى أكمل فيها الدين؛ إذ تجتمع فيها العبادات كلها من صلاة وصوم وذكر، ومن فضائلها أن الله أتم فيها النعمة، ومن تمام النعمة أن الله أظهر الإسلام على جميع الأديان، ومن تمام النعمة منع الكفار من دخول الحرم واختصاص المسلمين بذلك، فتوحدت صفوف المسلمين حتى أصبحوا كالجسد الواحد، ووحدوا معبودهم، وتوحد دينهم، وتوحدت كلمتهم، وتوحد طريقهم، ومن فضائلها أن العبادات تجتمع فيها ولا تجتمع في غيرها، فهي أيام الكمال، ففيها الصلوات كما في غيرها، وفيها الصدقة لمن حال عليه الحول فيها، وفيها الصوم لمن أراد التطوع، أو لم يجد الهدي، وفيها الحج إلى البيت الحرام ولا يكون في غيرها، وفيها الذكر والتلبية والدعاء التي تدل على التوحيد، واجتماع العبادات فيها شرف لها لا يضاهيها فيه غيرها ولا يساويها سواها، ومن فضائلها: أنها أفضل أيام الدنيا على الإطلاق، دقائقها وساعاتها

وأيامها وأسبوعها، فهي أحب الأيام إلى الله تعالى، والعمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى، لقوله صلى الله عليه وسلم: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله تعالى من هذه الأيام» يعني أيام العشر، قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء»، وفضائل العشر كثيرة لا ينبغي للمسلم أن يضيِّعها، بل ينبغي أن يغتنمها، وأن يسابق إلى الخيرات فيها، وأن يشغلها بالعمل الصالح.

نداء إبراهيم

قال الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه. ما يزال وعد الله يتحقق منذ إبراهيم عليه السلام إلى اليوم، وإلى الغد، وما تزال أفئدة الناس تهوي إلى بيت الله الحرام، وتشتاق إلى رؤيته والطواف حوله، وعشرات الآلاف من الناس يتوافدون من آفاق الأرض البعيدة، تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام منذ آلاف الأعوام. ليشهدوا المنافع الكثيرة، فالحج موسم تجارة وموسم عبادة تصفو فيه الأرواح وتستشعر قربها من الله في بيته الحرام وهي تطوف حول البيت وتستروح الذكريات، وتتذكر المواقف والأطياف تتذكر طيف إبراهيم عليه السلام وهو يودع البيت وفلذة كبده إسماعيل وأمه، ويتوجه بقلبه الخافق الواجف إلى الله تعالى ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، يتذكر طيف هاجر الأم وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع

في تلك الحرة الملتهبة حول البيت، فلما فقدت الماء وطفلها يصيح وقد أنهكه العطش فأخذت المسكينة تهرول بين الصفا والمروة وقد أنهكها الجري وهدَّها الجهد، وأضناها الإشفاق على طفلها، ثم ترجع لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع وإذا هي زمزم ينبوع الرحمة في صحراء الجدب والقحط، يتذكر الحاج طيف إسماعيل مع والده إبراهيم وهما يرفعان القواعد من البيت وفي نداء الخليل دعوة إلى الزيارة يرسلها عبر الزمان ولكل مكان وفي كل عام يتجدد النداء وتتجدد الاستجابة، وتمر السنين وتتعاقب الذكريات حتى نصل إلى خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم يتدرج في طفولته وصباه فوق ذلك الثرى، حول البيت وهو يرفع الحجر الأسود بيديه الكريمتين، وهو يصلي، وهو يطوف، وهو يخطب وهو يعتكف، وما زال النداء وما زالت الأطياف تتوالى وما زال الحجاج يسمعون نداء إبراهيم. اللهم يسر للحجاج حجهم، وسهل لهم أمورهم، اللهم آمين.

مع موكب الحجيج

الحج مدرسة تربوية جامعة يحصل فيها تهذيب النفوس وتزكيتها والحج عبادة من أطول العبادات زمنا فهو يصل في المعتاد إلى خمسة أيام يصاحبها تغيير في حال الحاج فهو يلتزم الورع والاعتزال عن ملذات الدنيا وزينتها ويترك ما ألفته حياته الرتيبة من رفاهية في المسكن والمأكل والمشرب فإذ به في الحج يعيش حياة تقوم على الإخلاص والتزكية والروح الجماعية المتواصلة والتواضع والمساواة لا ينشغل فيها اللسان بذكر الدنيا وصفقاتها ولا ينطق بآفاتها ومغرياتها فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج وإنما ينشغل اللسان بالتلبية والتكبير والتهليل فهذا حال الحاج طيلة أداء المناسك إلى أن يرجع بأثر من التقوى والسمو الروحي فيرجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

الحج هو تلك الرحلة الفريدة في عالم الرحلات فيها ينتقل المسلم ببدنه وقلبه إلى بلد الله الحرام يرفع يد التضرع وبإيمان لا تشوبه شائبة من شك أو ريبة يظهر عنوان التسليم لله ويؤدي المناسك بكل تفان وإخلاص، فيا ضيف الرحمن ما الذي جاء بك من أقصى الدنيا تاركا أهلك وديارك وما الذي أتعب نفسك لقطع المسافات وابتعاد الشقة وأنت أشعث أغبر أليس هو الإيمان أليست هي الطاعة لله أليست هي القدوة برسول الله فأبشر يا من طرقت باب الله فأنت أقبلت على رب كريم ومعبود عظيم لا يردك خائبا ولكن بأجر ومغفرة.

يقف الحاج أمام بيت الله الحرام لا يرجو إلا الله ولا يرفع حاجته إلا لله تعالى فهو قاضي الحاجات، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع لا يرى في الناس أمامه إلا الحاجة لله فلا الغني ولا القوي مميز في الحج الكل سواسية وإن تعددت ألوانهم وتباينت لغاتهم وتفاوتت مراكزهم الكل يرفع يد الحاجة إلى الله وهو في وسط بيت الله وقد حج سليمان بن عبدالملك أمير المؤمنين في ذلك الوقت فبينما هو يطوف بالبيت رأى في الطواف سالم بن عبدالله بن عمر ورأى حذاءه مقطعًا وعليه ملابس لا تساوي ثلاثة دراهم فاقترب منه وسلم عليه فقال له ألك حاجة أقضيها وهنا نظر سالم بن عبدالله نظرة استغراب وقد علا وجهه شيء من الذهول والغضب وقال له: ما تستحي من الله أنا في بيت الله وتريد مني أن أرفع حاجتي إلى غير الله؟ وهنا تمنى سليمان لو أن الأرض ابتلعته ولم يقف في هذا الموقف الحرج ثم ترك سالما يواصل طوافه فلما خرج سالم من الحرم تبعه سليمان وقال له مرة ثانية: يا سالم أبيت أن تعرض عليّ حاجتك وأنت في الحرم فاسألني الآن فأنت خارج الحرم فقال له سالم هل أرفع إليك حاجة من حوائج الدنيا أم حاجة من حوائج الآخرة فقال سليمان بل حاجة من حوائج الدنيا أما حوائج الآخرة فلا يسأل فيها إلا الله وهنا يتعجب سالم فيقول له: يا سليمان والله ما

طلبت حاجة من حوائج الدنيا من الذي يملكها وهو الله تعالى فكيف أطلبها ممن لا يملكها.

إن هذا الموقف العظيم وهو من مواقف الحج الجليلة ليؤكد ذلك الإيمان العميق والثقة المطلقة بالله فهو النافع وهو الضار وهذا المعنى يتجلى في الحج والملايين والألوف المؤلفة من الحجاج ترفع يدها إلى السماء لا ترجو أحدا من ملوك الدنيا ولا تخاف أحدا من فراعنة الدنيا بل تتوجه بقلبها وقالبها إلى الله ترفع شعار التسليم المطلق والثقة المطلقة والإيمان المتكامل بأن الله هو الرزاق وأن غيره من البشر لا يملكون نفعا ولا ضرا وبهذا الإيمان تهتف ألسنة الحجاج وتترنم العبارات وتدوي مكة بارتفاع الأصوات تنادي:

إلهنا ما أعدلك	*	مليكك كل من ملك
لبيك قد لبيت لك	*	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	*	ما خاب عبد سألك
أنت له حيث سلك	*	لولاك يا رب هلك
لبيك إن الحمد لك	*	والملك لا شريك لك
والليل لما أن حلك	*	والسابحات في الفلك
وكل من أهلَ لك	*	سبح أو لبى فلك
يا مخطئا ما أغفلك	*	عجل وبادر أجلك
اختم بخير عملك	*	لبيك إن الحمد لك
والملك لا شريك لك	*	والحمد والنعمة لك

الحج صناعة

صناعة الحج تكون بتوظيف معانيه وما فيه من مناسك وما فيه من تأليف وتلطيف لأجواء المحبة الإسلامية بين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إن أعداد المسلمين تتكاثر يوما بعد يوم لأن هذا الإسلام دين ينتشر ويكثر معتنقوه فهو في ازدياد دائم، ولكن كيف للمسلمين أن يلتقوا وكيف لهذه الأعداد أن يجتمعوا إنه الحج يجمع ما لا يمكن جمعه، ويؤلف ما لا يمكن تأليفه، وتأتي صناعة الحج كصناعة أصيلة للعزة الإسلامية والدعوة العالمية، فيتضح من خلال اجتماع الحجيج في صعيد واحد على اختلاف أجناسهم وألوانهم وتعدد ألسنتهم ولغاتهم يرتدون لباسًا واحدًا ويعبدون إلهًا واحدًا ويقتسمون شربة الماء ولقمة العيش يتجاورون في السكن والمبيت والإقامة والترحال في تلك المشاعر المقدسة يعانق المسلم أخاه المسلم، فعملية توظيف الحج لمصلحة الإسلام وبناء الأمة عملية هامة، بدءًا من تحقيق التوحيد ومرورًا بإحياء سنة الاتباع وانتهاء بنهضة الأمة ووحدتها وسيادتها وريادتها وما ذلك على الله بعزيز، كما تأتي صناعة الحج في توظيف أذان إبراهيم عليه السلام في الدعوة إلى التوحيد الذي انطلق صداه من المدرسة الإبراهيمية ليصل إلى رسول الإنسانية محمد صلى الله عليه وسلم فيأتي منه الإعلان الصارخ والنبأ العظيم بتجريد التوحيد لله رب العالمين إنه الإعلان للتوحيد منذ اللحظة الأولى للدعوة المحمدية، هذا التوحيد وهو من صناعة الحج تجده مطلبا يتنافس فيه الحاج بالنسك وحتى اللحظة الأخيرة التي يفرغ فيها منه، فتلبيته توحيد وطوافه توحيد وسعيه توحيد ووقوفه يوم عرفة توحيد ومبيته عند المشعر الحرام توحيد ورميه الجمار توحيد وحلقه ونحره توحيد وإفاضته توحيد ووداعه توحيد كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] فلا خير في الدنيا بلا توحيد ولا نصيب

في الآخرة بلا توحيد فمن أجله أسست الملة ومن أجله شرعت القبلة، هذه صنعة الحج التي تؤثر في النفس تأثيرا كبيرا طوال العمر فهو في العمر مرة ولكنه يتجدد كل مرة، فسبحان الذي وضع للحج مناسك وجعل الوقوف بعرفة نموذجا حيا ليوم النشور والحساب، فيا صانع العبادة والحج أتقن صناعتك.

حج مبرور

ما أكثر الناس في الحج يقدرون بالملايين، ولكن ما أقلهم في فهم الحج ومعانيه، وما أقلهم في أداء الحج بإخلاص، فليس كل حاج حجه مبرورًا، وليس كل حاج حجه مقبولًا، وليس كل من سافر وركب فقد حج، فقد يحج ويصل إلى مكة، ولكنه ما حج وإنما حج البعير وحج الركب، فالأمر كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لمجاهد حين قال: ما أكثر الحاج قال: ما أقلهم، ولكن قل: ما أكثر الركب، تلك هي عاداتنا في كل عام من الحج، وقد يكون حج العام فيه شيء من الخوف بالمرض المعدي، ولكن ما يهم في هذا كله أن نفهم الحج، حتى نؤديه كما أراده الله تعالى، وكما وجه نبيه صلى الله عليه وسلم حينما قال: (لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه)، ولقد استوعب الصحابة رضي الله عنهم ذلك الأمر، فقال الفاروق حين قبّل الحجر: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك، فالعجب أن الحج نظام وطهارة، وإيمان وإخلاص، وبر وصلة، وتلبية وتكبير، ونحن نرى في الحج من البعض من يدفع ويخالف النظام، وهناك المخالفات الكثيرة، فمن الطهارة إلى أوساخ الطريق وما يرميه البعض، ومن الإيمان والإخلاص إلى الرياء وحب الشهرة والظهور في الحج، ومن البر والصلة إلى التدافع والخلاف، ومن التلبية والتكبير إلى الغيبة والانشغال بالدنيا وملذاتها، فهذا ما يقوم به البعض في

الحج، ولكي نفهم الحج، وحتى يكون حجنا حجًا مبرورًا، علينا بالإكثار من ذكر الله والتعود على النظام والتربية على الانضباط، وعلى الحاج تعميق الأخوة الإيمانية، والوحدة الإسلامية، وعليه التربية على الاستسلام والخضوع لله تعالى، والبذل والسخاء، والتربية على الصبر بأنواعه، والتربية على التواضع، والرفق واللين والسكينة وكظم الغيظ وترك الجدال والمخاصمة، وتعظيم شعائر الله وحرماته، وتحقيق التقوى واستشعار حقيقة الحج وغاياته، إذا خرج الرجل حاجًّا بنفقة طيبة ووضع رجله على الركب، نادى: لبيك اللهم لبيك، ناداه من السماء: لبيك وسعديك، زادك حلال، وراحلتك حلال، وحجك مبرور، وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله على الركب، فنادى: لبيك، ناداه منادٍ من السماء: لا لبيك ولا سعديك، زادك حرام، ونفقتك حرام، وحجك غير مبرور.

دروس في الحج

عمر وما أدراك ما عمر، إنه الخليفة الثاني، والفاروق الذي ملأ الدنيا عدلًا، إنه دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال اللهم انصر الإسلام بأحد العمرين فكان عمر، لقد ملأ الدنيا عدلًا ونورا وصلاحا، لقد كان لعمر مواقف في الحج تأبى الأقلام إلا أن تسطرها، ويأبى التاريخ إلا أن يسجلها، ونحن نعيش موسم الحج، فمن الحري بنا والجدير أن نذكرها، لنعيش مشاعر الحج في جو مفعم بالإيمان والشوق للمشاعر والمناسك.

لقد حج عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة من السنوات وهو أمير للمؤمنين يحج وهو العادل لم يظلم، ولم يخذل، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض، يحج البيت ولم يلطخ يده بدماء المسلمين ولم يأت إلى الحج وهو مرتكب للآثام أو عاص لله، بل إنه يحج مع رعيته في صفاء ونقاء وعدل ومساواة، وبعد أن فرغ من حجه،

جلس في الأبطح واتكأ اتكاءة حزينة، وبجواره ابنته حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، ثم رفع عمر يده إلى الله تعالى، ويقول: اللهم إنه رق عظمي، وشاب رأسي ودنا أجلي، وضاعت رعيتي، فاقبضني إليك غير مفرط، ولا مفتون، اللهم إني أسألك شهادة في سبيلك، وموتا في بلد رسولك، وهنا تستغرب السيدة حفصة، كيف يسأل أبوها الشهادة في المدينة المنورة، والمدينة بلد لا قتال فيه، فكيف ينال عمر فيها الشهادة، فقالت: يا أبتاه كيف شهادة في سبيله وموتا في بلد رسوله، فقال عمر رضي الله عنه: هكذا سألت الله، وأسأل الله أن يستجيب دعوتي، فما حج بعدها أبدا، وحقق الله دعوة عمر حيث قتل رضي الله عنه وهو يصلي الفجر، وتمرغ جبهته لله تعالى، ويدفن بجوار حبيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عن عمر وأرضاه، فهذا درس في الحج، يعلمنا كيف تكون المشاعر والأحاسيس بجوار بيت الله الحرام، وكيف تكون الشهادة في سبيل الله دعوة غالية يرجوها الإنسان، ويسأل الله تعالى أن ينالها بكل فخر واعتزاز.

هنا تسكب العبرات

على صعيد عرفات وبالتحديد يوم عرفة في يوم الجمعة في أعظم وأجل موقف يقفه الإنسان في حياته حيث ترتج عرفات بالدعاء والتهليل من وقت الزوال إلى آخر النهار، وملايين الحناجر ترسل الآهات، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصعد على الجبل ويخطب الناس وهم مائة وعشرون ألفا من الصحابة وقد أصغى الصحابة كلهم إلى هذه الخطبة وكأن الحجر يصغي بل الزمان والمكان كلهم آذان صاغية، خطب صلى الله عليه وسلم خطبة الوداع يودع فيها أمته ويضع في عنقها أمانة التبليغ، وفي هذه الأثناء وفي زحمة الموقف الخالد تنزل آية من أعظم الآيات ودرة من أغلى الدرر ومنة من أعظم المنن ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

[المائدة: ٣]. وهنا يرتعش عمر بن الخطاب وتخنقه العبرة وتنزل دموعه سيلا، لماذا يبكي الفاروق؟ إنها آية رائعة تدل على اكتمال الدين وإتمام النعمة فلم هذه الدموع في هذا المشهد العظيم يا عمر، لقد تعجب الرسول صلى الله عليه وسلم فهمس في أذن صاحبه فقال: ما يبكيك يا عمر؟ فيكفكف عمر دموعه ويقول: يا رسول الله أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال صلى الله عليه وسلم: صدقت. نعم صدقت يا عمر وإن ذلك النقص حدث حيث مات الرسول صلى الله عليه وسلم بعدها بثمانين يوما، فكان الموقف وكانت الخطبة هي خطبة وداع وقد أشهد الرسول صلى الله عليه وسلم كل من حضر في المكان، ومن سيحضر من الأجيال عبر الزمان بأنه بلغ وأنه ترك أمانة التبليغ ماضية في ذممنا إلى يوم الدين ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب. وفي كل عام وعلى صعيد عرفات تتجدد هذه المسئولية في أعناقنا، فهل قمنا بالتبليغ أم أننا تركنا الإسلام بلا دعوة حتى صار الإسلام يوصف بالإرهاب وصارت رموز الإسلام تمس أمام أعيننا فاليوم دعوة إلى حظر حجاب المرأة وغدا دعوة إلى ترك الجهاد وهكذا تنقض عرى الإسلام عروة عروة وآخرها نقضا الصلاة، فهل يوقظ فينا هذا الموقف واجبنا تجاه الدعوة والتبليغ أرجو ذلك. ألا هل بلغت اللهم فاشهد.

طموحات وأحاسيس حاج

وقف الحجاج في صعيد عرفات في تناغم فريد، رب واحد تتجه إليه هذه القلوب بآمالها وآلامها، نداء واحد تتكرر به هذه الألسن، مكان واحد تتجه إليه الجموع من كل فج عميق، وغاية واحدة تصطف لها هذه الملايين في مشهد رائع وبهيج، ولباس واحد يتستر به هؤلاء الخلق وفيهم الغني والفقير، يا له من موقف أذاب كل نعرات الحياة وغرورها، لقد سجلت في هذا الموقف ونحن نودع عرفات بعضًا من أبيات قصيدة تلفظ

بها حاج وهو في عرفات ينظر إلى حال الأمة الإسلامية وقد تكالبت عليها الأمم فمن بين ما قال وأنشد:

نبكي فليس لنا إلا البكاء فما * أضحى لنا اليوم بين الناس من شان
نبكي جراحاتنا في كل ناحية * ولوعة عمت القاصي مع الداني
بتنا يمزقنا جهراً بلا وجل * في الأرض عُبّاد خنزير وصلبان
نبكي لشعب العراق الحر محنته * وما يلاقيه من جوع وحرمان
مجازر ومآسٍ أورثت كمدًا * قلبي وتأبى لذيذ الغمض أجفاني
أبيت جنبي يجافي مضجعي ألمًا * كأنما في فؤادي سم ثعبان
يا للفضيحة كم نمشي منكسة * رؤوسنا اليوم في ذل وإذعان
يا أمتي أملي في الله واتصلي * بحبله واحذري من كل فتان
والله لا عزة ترجى ولا أمل * بفرقة واختلافات وأضغان
الخير في عودة لله صادقة * الخير في سنة مثلى وقرآن
نهر الهداية لا زالت منابعه * تجلو الهموم وتروي الصدر إيمانا
والله ما خاب من يرضى به حكما * سلطانه يتحدى كل سلطان

بأي حال عدت يا عيد

سنستقبل عيد الأضحى المبارك بفرحة نجولة وبسرور مشبع بشيء من الحزن والألم، فإن المسلم لا تكتمل فرحته بالعيد إلا بمشاركة إخوانه المسلمين لهذه الفرحة والبهجة، فلا يقبل المسلم تجاهل إخوته من المسلمين في العالم العربي والإسلامي بل إنه ليهتم بحالهم لأنه منهم ومعهم يعيش الآمال والآلام، فبأي حال عدت يا عيد، ونحن اليوم بعيدون عن الاعتصام بحبل الله، أليس في الحج وحدة العقيدة، وإن أبرز ما تصدق عليه كلمة

المنافع في قوله تعالى ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ [الحج: ٢٨] هي منفعة الوحدة، فالحج يعطي معنى الوحدة المفقودة بيننا، فليس من المعقول ولله الحكمة البالغة أن يكون الحج مجرد أن يطوف المؤمنون بالبيت، أو أن يقفوا بعرفات، فإن الله تعالى يعبد في كل مكان، وإنما الحج وما فيه من شحنة روحية وعاطفة قوية يمثل وحدة أصيلة، تجمع المسلمين من شتات، وتوحدهم بعد فرقة في زمن واحد وفي مكان واحد، فهل أخذنا من الحج والعيد سبيلا للوحدة، ومواجهة الأخطار والأطماع التي تلتف حول الأمة بيد واحدة، وبأي حال عدت يا عيد، وأي نداء يسمع لنا والأمة في فرقة وشتات، وهي بعيدة عن منهج الله تعالى في الوحدة والاعتصام بحبل الله المتين وكتابه المبين وسنة رسوله الأمين، ذلك المنهج الذي يثري الغيرة الإسلامية ويفجر انتفاضة الحق، واستجابة النصرة للمظلوم، وقد وقف رجل على المعتصم فقال: يا أمير المؤمنين كنت بعمورية وجارية من أحسن النساء أسيرة قد لطمها علج في وجهها فنادت: وا معتصماه، فقال العلج وما الذي يقدر عليه المعتصم فزادها ضربا، فقال المعتصم وفي أي جهة عمورية، فقال له الرجل وأشار إلى جهتها، فقال المعتصم لبيك أيتها الجارية لبيك هذا المعتصم بالله أجابك، ثم تجهز في اثني عشر ألف فارس وحاصر عمورية، فقال له بعض المنجمين إنا نراك ما تفتحها، فاغتم وشق عليه ذلك، ولكنه مضى ولم يسمع لهؤلاء، ودخل الحرب وفتح الله عليه، ودخل المعتصم المدينة فسار إلى موضع الجارية، وقال لها هل أجابك المعتصم؟، ثم ملكها العلج الذي كان يضربها والسيد الذي أسرها وجميع ماله.

إن للعيد معانيَ سامية ترتقي في سلم الأدب والأخلاق، فالغني يعطف على الفقير في علاقة تمتزج بروح العقيدة وأخوة الإيمان، وفي العيد تجد العبادات والقربات موسما لها فيتنافس فيه المتنافسون، ويتسابق فيه المسلمون ليقتطفوا ثمرة العمل، وينالوا الثواب والقبول، لقد كان لنا في العيد عنوان الذكريات لحال العزة والكرامة، ونشر الدين

والدعوة فلنكن بحق خير أمة أخرجت للناس، ولنكن شهداء على بقية الأمم، وبأي حال عدت يا عيد.

الرحيل

من منغصات الحياة وأحزانها الوداع والرحيل، لا تدري عندما تودع صديقًا أو حبيبًا تجد في نفسك غصةً وألمًا، وفي كثير من الأحيان تذرف العيون دموع الوداع والرحيل، ومما يدخل ضمن هذا الإحساس توديع الأعوام عاما بعد عام، وها هي السنة الهجرية أوشكت على طي صفحاتها وأوشكت على إلقاء كلمة الوداع على الناس، وها هي تقف أمام الناس وترفع صوتها تقول يا ابن آدم أزِف الرحيل ومضى العام وأنت في غفلة قد أغرتك الدنيا بملذاتها، وقد شهدتُ عليك، ففي أحضان أيامي كانت صولاتك وجولاتك مرة بالمنكر ومرة بالمعروف، وقد أحصيت عليك في ملفك كل ذرة خير وذرة شر، وسأُسلمُ هذا الملف إلى من يحاسبك يوم الوعيد، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، يوم يقف الناس بين يدي الله عز وجل فيحاسبهم على كل صغيرة وكبيرة، هل تذكرت يوم تخلفت عن أداء صلاة، وهل تذكرت يوم نسيت حق الله تعالى في مالك، هل تذكرت يوم رددت يد المساعدة عن أخيك، وهل تذكرت يوم ظلمت ويوم أخلفت ويوم عصيت، كلها أيام وكلها أعمال كانت في زماني، وها هو زماني رحل ولن يعود، وسأُسلمك لسنة هجرية جديدة لتعيش أيامها كما عشت أيامي، فأرها ما لم أره منك من طاعة وقربة ثم توبة، فهي المخلصة لك من آثار وغبار المعاصي، فيا هذا قم من نومك واصحُ من سباتك، أفلا ترى كيف تمر الأيام وتنقضي السنون وهي عمرك الذي يتناقص برحيلها، قم إلى العمل فقد حان وقت الجد وذهب زمان الهزل والكسل، لقد خطب النبي صلى الله عليه وسلم خطبة قبل رحيله

عرفت بخطبة الوداع دعا فيها وأوصى فيها وودع من حضر وأرسل صدى موعظته لمن غاب عبر الأجيال، فهل أنت متعظ، وهل علمت كم غاب من أناس كانوا في بداية العام أقوياء وفي نهايته ضعفاء، وكانوا في بدايته أحياء وفي نهايته أمواتًا، فهل حسِبت نفسك منهم، وهل ظننت أنك تعيش ثانية وقد أنجاك الله وأخرك ولطف بك، فكن لذلك مستغلًا واغتنم فقد تجددت لك الفرصة واعلم بأنها لا تتجدد ولا تتكرر دائمًا، وما رحل صار ماضيًا، وما بقي إنما هو المستقبل، فلك المستقبل فخذ منه ما يرضي مولاك، وإياك أن يكون هذا المستقبل كما كان ذاك الماضي إياك.

ورحل عام

عام مضى بكل ظروفه الحسنة والسيئة، وبقي مظروفه كتب فيه كل ما قمنا به من خير ومن شر والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: خيركم من طال عمره وحسن عمله، وشركم من طال عمره وساء عمله. وسيأتي يوم يفتح فيه هذا الظرف المختوم باسمك أيها الإنسان، وينادى يوم القيامة، يا فلان ابن فلان تعال قف نحاسبك عن كل عام قضيته في الدنيا بكل أشهره وأيامه ولياليه وساعاته، وستخرج بطاقة العمل فيها كل شيء، كما نضع بطاقة الذاكرة في جهاز الكمبيوتر حيث تفتح الملفات فيقرأها الجهاز وإن كان عددها بالآلاف، ولكن كتاب العمل هذا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، إن المسلم الصالح تكون له وقفات دائمة مع نفسه ليحاسبها ويصحح مسيرته ويتدارك خطأه، لاسيما عند انقضاء مرحلة من مراحل عمره، ومن هنا كان لزامًا على كل عبدٍ يرجو لقاء ربّه أن يطيل محاسبته لنفسه، وأن يجلس معها فينظر في كل صفحة من عمره كيف مضت وماذا أودع فيها، يقول أبو حامد الغزالي اعلم أن العبد كما ينبغي أن يكون له وقت في أوّل النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوصية بالحق، فينبغي أن

يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كلّ سنة أو شهر أو يوم، حرصًا منهم على الدنيا، وخوفًا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته، فهي فرصة أن نحاسب أنفسنا ونستدرك ما فاتنا في العام الجديد، كما قال الماوردي: «المحاسبة أن يتصفّح الإنسان في ليله ما صدر من أفعال نهاره، فإن كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكله وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إن أمكن، وانتهى عن مثله في المستقبل» ويقول ابن القيم رحمه الله: «المحاسبة أن يميز العبد بين ماله وما عليه فيستصحب ما له ويؤدي ما عليه؛ لأنه مسافرٌ سَفَرَ من لا يعود». فنزف إلى أنفسنا مضي عام وقدوم عام، ونقول يا نفس اعملي فما زال في العمر بقية.

حصاد العام

عام هجري مضى وتجدد عام آخر، ولكن ليس للتجديد في عمر الإنسان محل، فما مضى من العمر لا يتجدد، فالعام يتجدد وعمر الإنسان لا يتجدد، ولو ذهب الإنسان يجمع حصاد العام فسيجد في سلته من الأعمال ما اقترفته يده وما حصده لسانه وما جمعه من مال وأقوال وأفعال وما تخلق به من خصال، عام هجري مرّ بأحداثه وسلَّم الناس لعام هجري جديد، وفي اختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب وفي تعاقب الشهور والأيام لعبر وعظة، فهل يتعظ الناس بمضي الأعوام ودوران الزمان، وهل راقب الإنسان وحاسب نفسه عند نهاية العام؟ وهل قدم ميزانية عمله للعام القادم؟، كما يفعل التجار من إعداد الميزانية والمحاسبة ومن احتساب الأرباح والخسائر، قال تعالى ﴿يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٤]، وعن عمَرَ رضي الله عنه أنّه قال: حاسِبوا أنفسكم قبل أن تحاسَبوا، وزِنوها قبل أن توزَنوا، فإنّه أهون عليكم في

الحسابِ غدًا أن تحاسِبوا أنفسكم اليومَ، وتزيَّنوا للعرضِ الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، فلتكن لك الدنيا سعة للخير، وليكن العمر فيها زيادة في العمل، فكلما طال العمر زاد العمل، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائِه: «اللهمَّ اجعَل الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خير»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «خيرُكم من طالَ عُمره وحسُن عملُه»، ولا تنس أنك معذور في كثير ولكنك قد عذرت أكثر من مرة حتى لم يبق لك عذر، وستحاسب وقد أقيمت عليك الحجة، يقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: «أعذَرَ اللهُ إلى رجلٍ أخَّر أجلَه حتى بلَغَ السّتّين»، قال النووي «معناه: لم يترك له عذرًا، إذ أمهَلَه هذه المدّةَ»، فذهب العذر وانقضى الدهر، ولم يبق سوى الحساب، فإذا تجدد العام وبدأت أيامه، فخذ منها زادًا وانصب فيها خيمة فهي عما قريب ستزول، فليس لك في الدنيا سوى أيام وبيت ترحل عنه من الدار الفانية إلى الدار الباقية، فهذا حصادك في هذا العام، فلتكن بذور عملك في العام الجديد صالحة لترويها طيلة العام إلى أن يحين وقت الحصاد.

مرحبا بهذا العام

ها نحن وقد أطل عام جديد يضاف إلى ما منّ الله به علينا من فسحة العمر، ويذكرنا بتناقصه وسرعة انقضائه وقرب نهايته؛ ليكون ذلك موضع عظةٍ وعبرةٍ، ونحن نقف اليوم وقفة مع إطلالة عامٍ هجريٍ جديد، لنرى ماذا في تاريخ الهجرة؟ لنرى ما ينبغي أن نتذكره ونعرفه؟ لننظر إلى تاريخ الهجرة لنرى أنه ليس مجرد أرقام، أو أيام تمر، وليس مجرد أعوام، وليس مجرد تاريخٍ نكتبه بهذه الطريقة أو بتلك الطريقة، وليس أوراقًا نقطعها كل يوم من تقويم، وإنما هو أكثر من ذلك وأعظم، إنه ذاكرة أمة تربطها بأعظم حدثٍ غيّر وجه التاريخ الإنساني كله، وارتبط بحادثةٍ كان لها ما بعدها

في شأن البشرية جمعاء لا في شأن أمة الإسلام وحدها، هذا الحدث هو هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة، هذه الهجرة كانت مناهج للتربية فقد كانت عامرة بالعمل والجد والكسب والجهاد والمعاناة، وارتبط تاريخنا بفضل الله عز وجل وبفضل ما أجمع عليه الصحابة رضوان الله عليهم بهذه الهجرة، ولم يرتبط تاريخنا بميلاد أو وفاة، لأن الميلاد والوفاة ليس في ذاته عظيمًا، ولأن الميلاد والوفاة ليس لصاحبه فيه أمر أو عمل، وإنما ارتبط بأعظم وأجلّ ما بذله النبي صلى الله عليه وسلم من عمل أدار به دفة الدعوة في الطريق إلى قيام الدولة، والذي كان له ما بعده وهذه الهجرة عزيمة لا هزيمة، فقد تربى الصحابة واغترفوا من معين الهجرة النبوية دروسا فكانوا يحملون في قلوبهم إيمانًا أرسخ من الجبال الرواسي، وأعلى من القمم الشامخة العالية، ولذلك كانت عندهم عزيمة عظيمة ماضية لم يتراجعوا في رأي، ولم يستسلموا في معركة لأن ذلك الإيمان كان يصبّ في قلوبهم ونفوسهم من القوة والإصرار شيئًا عظيمًا، وهذا عام جديد يحتاج منا التجديد لعزائمنا وقوة إيماننا وثباتنا على مبادئنا، فمرحبا بهذا العام.

التقويم الهجري

لكل أمة من الأمم تقويم تاريخي خاص بها يدل على شخصيتها وهويتها، وأمة الإسلام من أوائل الأمم التي وضعت تقويمًا تاريخيًّا خاصًّا بها وهو التقويم الهجري، قبل أن يستبدل بالتقويم الميلادي، والتقويم الهجري هو تقويم قمري يعتمد على دورة القمر لتحديد الأشهر، والذي أنشأه هو الخليفة عمر بن الخطاب وجعل هجرة الرسول من مكة إلى المدينة في السادس عشر من يوليو عام ستمائة واثنين وعشرين مرجعًا لأول سنة فيه، وهذا هو سبب تسميته بالتقويم الهجري، رغم أن التقويم أنشئ في عهد المسلمين إلاّ أن أسماء الأشهر والتقويم القمري كانت تستخدم منذ أيام الجاهلية، ويتكون التقويم

الهجري من اثني عشر شهراً قمريًا أي أن السنة الهجرية تساوي ثلاثمائة وأربعة وخمسين يومًا تقريبًا، والشهر في التقويم الهجري إما أن يكون تسعة وعشرين يومًا أو ثلاثين يومًا، والأشهر الهجرية هي شهر محرّم وهو أول شهور السنة الهجرية وسُمّي المحرّم لأن العرب كانوا يحرّمون القتال فيه، ثم صفر وسمي صفراً لأن ديار العرب كانت تصفر أي تخلو من أهلها للحرب، وقيل لأن العرب كانوا يغزون فيه القبائل فيتركون من لقوا صفر المتاع، ثم ربيع الأول وسمي بذلك لأن تسميته جاءت في الربيع، ثم ربيع الثاني وسمي بذلك لأن العرب كانوا يرتبعون فيه أي لرعيهم فيه العشب فسُمّي ربيعًا، ثم جمادى الأولى وسمي جمادى لوقوعه في الشتاء وقت التسمية حيث يجمد الماء من البرد، ثم جمادى الآخرة وسمي بذلك لأن تسميته جاءت في الشتاء، ثم رجب وهو من الأشهر الحرم وسمي رجبًا لترجيبهم الرّماح من الأسنة لأنها تنزع منها فلا يقاتلون، ثم شعبان وسمي بذلك لأن الناس يتفرقون فيه ويتشعبون طلبًا للماء، ثم رمضان وهو شهر الصّوم عند المسلمين وسُمّي بذلك من الرمضاء وشدة وقع الشمس فيه وقت تسميته، ثم يأتي شوال وفيه عيد الفطر وسمي بذلك لشولان النوق فيه بأذنابها إذا حملت أي نقصت وجف لبنها، ثم ذو القعدة وهو من الأشهر الحرم سمي بذلك لأن العرب تقعد عن الحرب، ثم ذو الحجة وفيه موسم الحج وعيد الأضحى ومن الأشهر الحرم، وسمي بذلك لأن العرب تذهب للحج في هذا الشهر، هذا التقويم الهجري وهذه أشهره، ليتنا نحفظها، وليتنا نعيدها مُنظمة لحياتنا كما كانت، فمع العام الجديد لا بد من مصالحة وهذه مصالحة مع التقويم الهجري.

الباب السابع

في رحاب السيرة النبوية

(٢٣ مقالة)

من هو؟

هو حبيب الله ومحبوبه، هو أول المسلمين، وأمير الأنبياء، وأفضل الرسل وخاتم المرسلين، هو العظيم المُعظم الذي رفع الله ذكره، فلا يذكر الله إلا ويذكر معه، هو الذي جاهد وجالد وكافح ونافح حتى مكّن للعقيدة الإسلامية النقية أن تستقر في أرض الإيمان، هو الذي نشر دين الله تعالى في دنيا الناس، وأخذ بيد الخلق إلى الخالق، هو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه وجمّله وكمّله، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وعلمه كل علم وأعطاه الحكمة، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣]، وبعد أن رباه اجتباه واصطفاه وبعثه للناس رحمة مهداة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، هو النعمة والمنّة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، هو للمؤمنين شفيع، وعلى المؤمنين حريص، وبالمؤمنين رؤوف رحيم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، على يديه كمل الدين، وبه ختمت الرسالات، هو الداعية إلى الله، الموصل إلى الله تعالى في طريق الله، هو المبلغ عن الله، والمرشد إلى الله، والمبيّن لكتابه والمظهر لشريعته، هو الذي نحبه حبا بكل أنواع الحب، حب الفكر والعاطفة، حب الشوق واللهفة، حب المشاعر والأحاسيس، حب لا يفوقه حب أنفسنا وأبنائنا والدنيا بكاملها، هو سيدنا وحبيبنا وشفيعنا، هو رسول الإنسانية والسلام والإسلام، هو محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة والسلام، اختصه الله تعالى بالشفاعة، وأعطاه الكوثر، وصلى الله تعالى عليه هو وملائكته فقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، صلى الله عليك يا سيدي يا رسول الله، يا ابن

عبد الله ورسول الله، ألا ما أعظم محمدًا حبيبًا ومحبوبًا، وما أعظمه محبًا لأمته، فيا أمة الإسلام صلوا على رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم.

الثاني عشر من ربيع

هو يوم ميلاد خير البشر، وغرة الزمان، وفريد الخلق وأعظم كائن في الأكوان، وهو الخاتم الذي لا نبي بعده، وهو الإمام الذي أمَّ صفوة الأنبياء، ولد الهدى، ولم يكن أي مولد لبشر فحسب، بل كان مولدًا لرسالة يحملها رسول الإنسانية للإنسانية كلها، بل للجن والإنس، رسالة ختم بها الله رسالاته لخلقه، وأنهى بها الله وحيه الذي لم ينقطع عن البشر منذ آدم عليه الصلاة والسلام، إن ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم محفورة في القلوب، احتفلنا بها أم لم نحتفل، نتطلع إليها فنتذكر سيدنا وإمامنا وقائدنا وقدوتنا، الذي أمرنا الله بمحبته، وأوجب علينا طاعته، تذرف الدموع لذكراه، وتخشع القلوب لسيرته، وتتطلع النفوس للقياه، وتتذكره في سنته، إن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من صميم الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما»، وقال صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان أن يلقى في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه»، تلك المحبة المنغمسة في الفؤاد، المتجذرة حتى النخاع، تجعل من المحب يظهر كل ولاء وطاعة، وتجعل عاطفته وأحاسيسه تفيض كل ساعة، بل كل خلية في الجسد لا بد أن تنبض بحب محمد، وكل طرف لا بد أن يتحرك إجلالًا لمن أرسله الله بشيرًا ونذيرًا، إن ذكرى المولد ليست احتفالًا وابتهاجًا فحسب بل هي تجديد العهد والولاء، وهي تخليص النفس من الهوى، والانقياد لسنة المصطفى، وهي اتباع

وتسليم تام، وطاعة مطلقة فلا خيار ولا تردد، وإنما كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فشهر ربيع جاء بالخبر بأن خلاص الإنسانية قد جاء، فمرحبًا بمقدم مخلص الزمان، وسيد الأكوان محمد خير الأنام.

ولد الهدى

شهر ربيع الأول شهر الاحتفال بميلاد خير البشر صلى الله عليه وسلم، وذكرى مولد رسول الله عليه السلام محفورة في القلوب احتفلنا بها أم لم نحتفل كيف لا؟ ونحن نتطلع إليها فنتذكر سيدنا وإمامنا وقائدنا وقدوتنا الذي أمرنا الله بمحبته، وأوجب علينا طاعته، تذرف الدموع لذكراه، وتخشع القلوب لسيرته ونتذكره في سنته، ولكن يبقى السؤال الذي سيظل مربوطا برقابنا حتى نلقى الله، ماذا تعني محبة رسول الله عليه الصلاة والسلام وما معنى تذكر يوم مولده. إن محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من صميم الإيمان، قال عليه الصلاة والسلام: لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وهل تعني محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أن نتذكر يوم مولده بالاحتفال والمدائح النبوية، ثم نعرج على صفاته صلى الله عليه وسلم، فنخرج من هذا كله بالروحانية ظانين في أنفسنا أننا أعطينا رسول الله عليه السلام حقه، ثم نعود إلى دنيانا، غافلين عن سيرته، مضيعين أحكامه، كيف نقابل الله ورسوله يوم القيامة، وقد عصينا وتخلينا، كيف نقابل الله ورسوله يوم القيامة، وقد أهملنا وضيعنا، لقد أتانا الرسول عليه الصلاة والسلام بالمحجة البيضاء، فأين نحن منها الآن؟ عمل ثلاث عشرة سنة كاملة بأيامها من أجل إقامة دولة للإسلام، ولم يلق ربه إلا بعد أن شرع لنا أحكامها، وأمرنا أن نحمل رسالته من بعده، لنكون شهداء على الأمم، ويكون هو علينا

شهيدًا، فأين نحن من هذا؟ وماذا سيشهد علينا رسول الله أمام رب العزة في موقف الحشر العظيم؟ أمرنا بالعزة، وها نحن نتجرع المهانة في كل يوم، فأين نحن من عزته؟ أمرنا أن نحافظ على أخوتنا في الإسلام، وأن نكون وحدة واحدة، وأن نكون يدًا واحدة على من يريد شق صفنا، فأين نحن من ذلك كله؟ زرع فينا الشرف والكرامة والتضحية بالغالي والنفيس، من أجل العرض، ومن أجل الغيرة، وها نحن أعراضنا تنتهك في كل مكان، فأين نحن من هذا كله؟ فماذا أنت فاعل أيها المسلم إن تذكرت يوم مولد رسول الله عليه الصلاة والسلام ويوم وفاته. سأترك لمحبة رسول الله في قلبك أن تتولى الإجابة نيابة عنك.

الربيع تشعشع

وأكرم الخلق على الله محمد يا سيد البشر، فقد حباك الله نورا وجلالا، بميلادك في ربيع كانت الهداية تشع والنور يزداد شعاعا، فهذا نور طه الحبيب المصان، فمرحبا بمقدمك يا خير البشر، أنت الذي كانت رسالتك لنا نورا وطريقا ومنهجا ونبراسا، دعوت إلى الله فكانت دعوتك حقًا وصدقًا وعدلًا، بلغت فكانت بلاغاتك صدى يسمعها الحجر قبل البشر، يا الله كم أنت في الخلود باق، هذا ذكرك مرفوع مع ذكر الله تعالى، هذا مقامك محفوظ، كم نحن في شوق إلى لقياك، يا حبيبي يا رسول الله كم أنا متلهف إلى زيارتك، كم أنا متعطش إلى سنتك، كم أنا مشتاق إلى جوارك، إن القلوب قد تختلف والطبائع قد تتعدد والأمزجة قد تتضارب والعواطف قد تهيج، ولكنها تجتمع على حب محمد، فلا تختلف إلا النفوس المريضة الكافرة التي لا تبصر بعين، ولا تسمع بأذن، ولا تفقه بقلب ولا عقل، دع عنك هؤلاء فقد حرموا حب محمد وأي حرمان بعده، في شهر ربيع تزين الزمان بقدوم سيد الزمان، وملأ النور

النواحي برسول الله، مرحبا يا نبي الإسلام، يا رسول الله سلام عليك، يا حبيب الله سلام عليك، صلوات الله عليك، مرحبا مرحبا يا نور عيني، مرحبا مرحبا جد الحسين، يا قرين الروح لك منا كل تقدير، ويا حبيب القلب لك منا كل الحقوق، كم أخشى أن نقف في الموعد عند الحساب، كم أخشى أن لا ننال شفاعة محمد، أخشى أن نكون ممن يشهد عليهم الزمان والمكان، فبينا رسول الرحمة والرأفة جالس ينتظر أمته في الحساب، يقول يا رب أمتي أمتي، فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، وهو رسول الله يذود عن أمته، ويدفع عنهم خشية أن يقعوا، ولكنهم يتفلتون منه، كم هو الموقف عصيب، لقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما كان ابن مسعود يقرأ قول الله تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، فذرفت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال حسبك يا ابن مسعود.

محمد المثل الأعلى

كلما أشرق شهر ربيع أشرق معه عصر جديد، لقد رفع محمد صلى الله عليه وسلم لواء الحق وأعلى منار العدل والحرية، محمد صلى الله عليه وسلم الذي جسد الإنسانية في شخصيته، خُلُقه نابع من القرآن فهو خافض الطرف نظرته إلى الأرض أكثر من نظرته إلى السماء، كان يمشي وراء أصحابه، يبدأ من لقي منهم بالسلام، طويل السكوت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله، يُعَظِّم النعمة وإن صغرت، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها، ضحكه التبسُّم، إذا انطلق فعليه البهاء، وإذا صمت فعليه الوقار، أجود الناس، يعطي عطاء من لا يخشى الفقر، ما سئل عن شيء قط فقال: لا، وما خُيِّرَ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، كان خُلُقه القرآن، لا يتكلف في لباس أو طعام، يأكل ما يجده، فإن لم يجد بات طاويًا، وربما شَدَّ على بطنه الحجر من

شدة الجوع، وهو الذي يستطيع أن يَمُدَّ بصره نحو السماء داعيًا بما يريد فيُسْتَجاب دعاؤه في الحال، ولكنه مخلوق فريد من البشر، الدنيا ليست أكبر همه، ولا نهاية المطاف عنده، وإنما هي لحظة عابرة، محمد صلى الله عليه وسلم في بيته يخصف نَعْلَه ويُرَقِّع ثوبه ويحلب شاتَه، يقول أنس بن مالك رضي الله عنه خدمت النبي عشر سنين، فما قال لي: أفٍّ قط، ولا قال لشيء صنعتُه: لِمَ صَنَعْتَه؟ ولا لشيء تركتُه: لِمَ تَرَكْتَه؟ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت السوق مع رسول الله ليشتري سراويل، فوثب البائع إلى يَدِه يُقَبِّلُها، فجذب النبي صلى الله عليه وسلم يده ومنعه قائلًا: هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك، إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فأردت أن أحملها فأبى، وقال: صاحب الشيء أولى بِحَمْلِه، محمد صلى الله عليه وسلم مع أصحابه لا يحب أن يقوم له أحد، وإذا بلغه من أحد شيء يكرهه نبَّه إلى هذا الخطأ بقوله: ما بال أقوام يفعلون كذا دون أن يذكر اسم المخطئ، إنه صلى الله عليه وسلم ينزل في سويداء القلب، وفي الوجدان شعور من حب مقدس يشدنا إليه، ويربطنا به قائدًا وهاديًا وسراجًا يضيء حياتنا، ويأخذ بيدنا نحو الكمال، فأنت معنا يا رسول الله تعيش فينا دمًا يجري في عروقنا، وحبا يسري في نفوسنا، ونبضا في الفؤاد يحرك شجوننا، فنحن على دربك، ونحن على خطاك.

أحبك يا محمد

محمد في القلوب المؤمنة راسخ في أعماقها، متأصل في جذورها، يجري حبه في دمها، في شهر ربيع الأول يوم الميلاد وبزوغ البدر، يوم النور المتلألئ، يوم عرفت الدنيا الخلاص من غيابات الجب المظلمة والوثنية الضالة، يوم جاء الإيمان في أبهى حلة، لقد ولد الهدى وعلم الهدى محمد صلى الله عليه وسلم، إن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم

يقتضي طاعته صلى الله عليه وسلم فيما أمرنا به، ونتجنب ما نهانا عنه، إن طاعة محمد صلى الله عليه وسلم هي طاعة لله، يقول الله جل وعلا ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، ويقول جل جلاله ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، وحذرنا من مخالفة أمره، فقال جل جلاله ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، قال الإمام أحمد رحمه الله: الفتنة الشرك لعلّه إذا رد بعض قوله صلى الله عليه وسلم أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك، ومن الإيمان به صلى الله عليه وسلم محبته فمحبته أصل الإيمان، وكمالها من كمال الإيمان، ولا بد أن يحب المسلم محمدًا محبة فوق محبة الأهل والولد والوالد والناس أجمعين يقول صلى الله عليه وسلم لما قال له عمر: يا رسول الله، والله إنك لأحب الناس إليّ إلا من نفسي، قال: «لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك»، قال: يا رسول الله وأنت الآن أحب إلي من نفسي، قال: «الآن يا عمر»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين»، هذه المحبة لمحمد صلى الله عليه وسلم ليست دعوى تُدَّعى، ولكنها حقيقة للمؤمن، فما كل من ادعى محبَّته كان صادقًا في ذلك، فلا بد من ابتلاء وامتحان، فالمحب الصادق له صلى الله عليه وسلم هو الذي يمتثل أوامره، ويجتنب نواهيه، ويتأدب بآدابه، ويتخلق بأخلاقه، ويعلم أنه صلى الله عليه وسلم لا يقول إلا الصدق والحق، فإني أحبك يا محمد حبا جما، أحبك يا محمد حبا لا يفوقه شيء، أحبك يا محمد حبا لا يضاهيه شيء، أحبك يا محمد حبا لا يدانيه شيء، أحبك يا محمد حبا لا يزحزحه شيء، أحبك يا محمد، أحبك يا محمد.

أنت مع من أحببت

في ذكرى مولد الرسول صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول، تشتاق القلوب وتهفو إلى تجديد محبتها للرسول صلى الله عليه وسلم، فتزداد ميلا إليه يتجلى فيه إيثاره عليه الصلاة والسلام على كل محبوب من والد وولد، بل من الناس أجمعين، وإن الإيمان ليزداد حلاوة بحبه صلى الله عليه وسلم، ويسمو الشعور الوجداني، فيجده المؤمن في قلبه، وتهفو عاطفته التي تجيش بها نفسه، فيزداد بها ارتباطا وثيقا برسول الله عليه الصلاة والسلام يقول عليه الصلاة والسلام: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار. إن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أصل عظيم من أصول الإيمان يتوقف على وجوده وجود الإيمان، ولذلك يقول الرسول عليه الصلاة والسلام: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده ومن الناس أجمعين)، ومحبته عليه الصلاة والسلام وطاعته هي من محبة الله، يقول الله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣١-٣٢]، فهذه محبة الرسول صلى الله عليه وسلم ليست محبة شوق وحس فحسب، بل هي محبة يفنى فيها كل محبوب، فلما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد عمر بن الخطاب قال عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال عليه الصلاة والسلام: الآن يا عمر.

فمحبته صلى الله عليه وسلم إيمان يتفجر، وشوق يتجدد، وصحبة لا فراق فيها، ومعرفة تزيد صاحبها تعلقا بحبيبه، فكيف لنا أن نزيد من هذه المحبة؟ وكيف نغذي جذورها

حتى تبقى راسخة في قلوبنا؟، إن هذه المحبة تزيد بكثرة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم، ومطالعة سيرته، وشمائله والإقتداء بهديه، هكذا تتجدد المحبة وتنمو في القلوب، وهكذا يزداد الوجد فيثمر طاعة لله ولرسوله، فيكون المحب مع من أحب، جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل متى الساعة؟، فقال له وماذا أعددت لها، فقال ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله فقال له صلى الله عليه وسلم: أنت مع من أحببت.

مهر حواء

يقول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] ورد في هذه الآية الكريمة مجموعة من الفضائل للصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فمن صلى على رسول الله فهو عند الله تعالى من المؤمنين فالخطاب في الآية الكريمة للمؤمنين بقوله يا أيها الذين آمنوا، ومن صلى على النبي كان في معية الله ومع الملائكة في الصلاة على أشرف الخلق فمن منا لا يرغب بالقرب من الله تعالى، كما تحل له شفاعة النبي الكريم يقول صلى الله عليه وسلم: إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا علي فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشرا ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة. كما أن المصلي على الرسول يكون مع الذاكرين لأن الصلاة على النبي المصطفى بأبي هو وأمي من الذكر لله تعالى ويحيي الله تعالى رسوله فيرد عليه السلام وكأنه حيٌ يخاطبه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يسلّم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام. والمصلي على النبي لا يكون من البخلاء لأنه صلى الله عليه وسلم قال: البخيل من ذكرت عنده فلم يصل علي. ويقول

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلي على نبيك صلى الله عليه وسلم وقد ذكر ابن الجوزي في بستان الواعظين ورياض السامعين أن آدم عليه الصلاة والسلام رفع رأسه فنظر إلى ساق العرش فوجد مكتوبًا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فقال آدم: يا رب من هذا الذي كتبت اسمه مع اسمك، فقال الله تعالى: يا آدم هو نبيي وصفوتي وهو حبيبي، لولاه ما خلقتك ولا خلقت جنة ولا نارا، فلما خلق الله سبحانه حواء نظر آدم إليها فقال: يا رب زوجني منها، فقال الله تعالى: وما مهرها يا آدم؟ فقال يا رب ما أعلم، قال الله تعالى: يا آدم صل على محمد عشر مرات، فصلى آدم عليه كما أمره الجبار جل جلاله، فزوجه الله سبحانه منها وكان صداقها الصلاة على المختار مهرا لأمة الملك الجبار، فكيف لا تكون صلاتنا عليه مهرا للحور العين في دار القرار، لأنه صلى الله عليه وسلم قال: أكثركم عليّ صلاة أكثركم أزواجا في الجنة. ونص هذا المهر: اللهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم انك حميد مجيد.

إلا الرسول

نعم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ففداه أبي وأمي وعرضي ونفسي وكل ما أملك، أمام هذه الهجمة الشرسة التي يقوم بها أهل الحقد والضغينة من أعداء الإسلام والمسلمين من وصف الرسول صلى الله عليه وسلم والاستهزاء به في رسم كاريكاتير يصفه بالإرهابي والسفاح وعاشق النساء، نقول لهؤلاء موتوا بغيظكم واصطلوا بحقدكم، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كريم أكرمه الله وأنزله منزلة لا يرقى إليها أي نبي من أنبيائكم، ولكننا لا نفعل كفعلكم، فنحن كما قال الله تعالى ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾

[البقرة: ٢٨٥]، ومنزلة نبينا هي المنزلة العالية على كل الأنبياء والمرسلين، فهو الخاتم الذي لا نبي بعده، وهو إمام الأنبياء والمرسلين، وهو طيب الذكر، فالله تعالى يقول ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤]، يقول مجاهد أي لا يذكر الله إلا ذكرت معه، نعم فنحن لا نقول لا إله إلا الله إلا قرنا بذلك محمد رسول الله، فهي شهادة الإسلام، إن ما يقوم به هؤلاء الذين يدعون إلى تقارب الأديان من طعن في الرسول الأعظم والاستهزاء به، لدليل على حقدهم، وأنهم ليسوا إلا دعاة فرقة وتمزق، ونقول لهؤلاء الحاقدين إننا نستنكر ونندد بعملكم، وندعو الله أن يرد كيدكم وحقدكم، ونقول لكم إن رسولنا صلى الله عليه وسلم ليس كما تخيلتموه في خيالكم وفي رسوماتكم القبيحة، فهو بعيد كل البعد عن سخافاتكم، ولستم بأكثر حقدًا وكراهية من قريش حينما سبوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أن السب واللعن الموجه إلى شخصيته لا ينطبق عليه أبدًا، فهو بعيد عن ذلك، فقد قال صلى الله عليه وسلم «ألا ترون إلى قريش يسبون مذمما ويلعنون مذمما وإنما أنا محمد»، نعم هو محمد المصان والمعصوم من الله تعالى، ليس إرهابيًا ولا ساحرًا ولا مجنونًا ولا سفاكًا، ورسوماتكم هذه لا تمثل شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل هي صور أملاها عليكم خيالكم الفاسد واعتمدها الشيطان لكم، وإن دلت على شيء فهي تدل على ما في قلوبكم من حقد وكمد، ورسولنا لن تصلوا إليه، فهو ليس في مستوى خيالكم، ولكن الله رفع ذكره صلى الله عليه وسلم رغم أنوفكم وأنوف الحاقدين والجاحدين، فهاهم المسلمون يصدحون باسمه على مآذنهم في كل مكان، فنقول لهؤلاء لن نسمح لكم، فكل شيء يهون إلا الرسول.

كلمات

ما أكثر الكلمات، وما أكثر الصفحات التي تحتويها هذه الكلمات، قد تكون الكلمات كثيرة، وقد تكون العبارات عديدة، ولكن على كثرتها لا تعطي المعنى المطلوب، بينما قد تكون الكلمات قليلة ومعدودة ومع ذلك فهي تعطي المعنى المطلوب، ولكن ليس كل إنسان يستطيع أن يُطوع الكلمات ويخلق منها العبارات والجمل، إلا من أُعطي فن اللغة وتشرَّب من منابعها، وعرف الفصيح منها والبليغ، ولكن أن يكون رجلٌ أميٌ لا يعرف القراءة والكتابة، يُنسِّق الكلمات ويجمعها، ويصيغ منها الأحاديث الخالدة فتلك معجزة ولا شك، وهذا لرسولنا صلى الله عليه وسلم فقد أوتي جوامع الكلم، ولو نظرت إلى أحاديثه وكلماته لميزتها وعرفتها، وخذ مثلًا لذلك حديث ابن عباس عندما كان رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا غلام إني أعلمك كلمات احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف، هذه الكلمات في هذا الحديث تمثل دستورًا متكاملًا في التربية والتعليم، وهي غرس للعقيدة في نفوس الصبيان وفي مرحلة التلقي والتعليم، قال لابن عباس: يا غلام إني أعلمك كلمات، ولم يقل له أعلمك كتابًا ومراجع علمية، ومطولات ومقالات، وإنما قال صلى الله عليه وسلم: «كلمات»، هذه الكلمات المعدودة هي والله مراجع ومجلدات وهي كتب وموسوعات، ولكنها غاية في الاختصار المفيد، وليس الاختصار المُخِل، وقد جمعت هذه الكلمات كُلَّ معاني العقيدة، من صدق الامتثال لأوامر الله تعالى، وصدق الاستعانة بالله عز وجل والتوكل عليه، والتعلق به تعالى وسؤاله وحده لا شريك له، ثم الثقة المطلقة بالله عز

وجل فهو النافع والضار، وغيره لا يملك ضرًا ولا نفعًا، ثم الإيمان بالقضاء والقدر وما هو مكتوب، وأن الآجال والأرزاق كتبت وحفظت، وكُلُ ما هو كائن ويكون، كُلُ ذلك كان في رحلة ومسافة قصيرة، وعلى ظهر دابة، وهي كلمات، ولكنها قد تضمنت كل معاني التربية والتوجيه، فيا غلام هذه كلمات فاحفظها واعتقد بها، فهي مناهج في التربية والتعليم.

كان معي في الجنة

كم نحن نتعلم من روضة المصطفى صلى الله عليه وسلم دروسا، ومن ومضات رحمته صلى الله عليه وسلم دروس عجيبة فقد قال عن نفسه في الحديث عَنْ أَبِي صَالِحٍ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَادِيهِمْ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ»، وروى عن ربه الحديث القدسي: «يا عبادي، إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي»، وبيّن النبي عليه الصلاة والسلام وأرشد المؤمنين إلى التزام الرحمة، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمْ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شُجْنَةٌ مِنْ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ، وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ»، وبيّن صلى الله عليه وسلم أن الرحمة خير من الإفراط في العبادة، فقد خرج صلى الله عليه وسلم عام الفتح إلى مكة في رمضان، وصام الناس، ولما رأى بعض الناس قد شقّ عليهم الصيام بسبب وعثاء السفر دعا بقدح من ماء، فرفعه حتى نظر الناس إليه، ثم شرب، فلما قيل له: إن بعض الناس ما يزال صائمًا، قال: أولئك العصاة، وجاء رجل يسرع الخطى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، يغشاه فرح كبير، تغمره الفرحة ليبايع النبي عليه الصلاة والسلام على الهجرة معه، وعلى الجهاد في سبيل الله تحت رايته، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: أَتَى رَجُلٌ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي جِئْتُ أُرِيدُ الْجِهَادَ مَعَكَ، أَبْتَغِي وَجْهَ اللَّهِ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَقَدْ أَتَيْتُ، وَإِنَّ وَالِدَيَّ لَيَبْكِيَانِ، قَالَ: فَارْجِعْ إِلَيْهِمَا فَأَضْحِكْهُمَا كَمَا أَبْكَيْتَهُمَا، ترك أبويه يبكيان لفراقه، فرفع النبي عليه الصلاة والسلام قيمة بر الوالدين على الجهاد في سبيل الله، إن بسمة تعلو شفة أب حنون، وتكسو وجه أم متلهفة لا تقدَّر عند النبي عليه الصلاة والسلام بثمن، حتى حينما يكون الثمن جهادًا في سبيل الله، فهذا رسول الرحمة ما أعظمه، فيا من تدعي محبة المصطفى كن رحيما وفق سنته صلى الله عليه وسلم وقد قال: «من أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة».

ذريني أتعبد الليلة

لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل، والتأمل عبادة عظيمة فهو يورث الحكمة ويحيي القلوب، ويغرس فيها الخوف والخشية من الله عز وجل، ولما سئلت أم الدرداء عن أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت التفكر والاعتبار، وعن عطاء قال «دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها، فقالت لعبيد بن عمير قد آن لك أن تزورنا، فقال أقول يا أمه كما قال الأول» زُر غِبًّا تزدد حبًّا، قال فقالت: دعونا من رطانتكم هذه، فقال ابن عمير أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فسكتت، ثم قالت: لما كانت ليلة من الليالي قال: يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي قلت والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك، قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض، فجاء بلال يؤذنه بالصلاة، فلما رآه يبكي قال يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا، لقد نزلت عليّ الليلة آية، ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

﴿وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، فالتفكر من أفضل العبادات وهي تسمو بالإنسان وترفعه إلى حقيقة الوجود ومصير الخلود، وتعرفه بالخالق جل وعلا وتبين له حقيقة المخلوق، وجاء عن عمر بن عبد العزيز أنه تفكر وتأمل يوما ثم قال: قبور خرقت الأكفان ومزقت الأبدان، ومصت الدم، وأكلت اللحم، ترى ما صنعت بهم الديدان؟! محت الوجوه، وكسرت الفقار، وأبانت الأشلاء، ومزقت الأعضاء، ترى أليس الليل والنهار عليهم سواء، أليس هم في مدلهمة ظلماء، كم من ناعم وناعمة، أصبحت وجوههم بالية وأجسادهم عن أعناقهم نائية، قد سالت الحدق على وجوههم دمًا صديدًا، ثم لم يلبثوا والله إلا يسيرًا، حتى عادت العظام رميمًا، ثم قال: ليت شعري كيف ستصبر على خشونة الثرى، وبأي خديك سيبدأ البلى.

يا بني

عن أنس بن مالك قال قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المدينة وأنا يومئذ ابن ثمان سنين، فذهبت بي أمي إليه، فقالت يا رسول الله إن رجال الأنصار ونساءهم قد أتحفوك غيري ولم أجد ما أتحفك به إلا ابني هذا فاقبل مني يخدمك ما بدا لك، قال فخدمت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عشر سنين فلم يضربني ضربة قط ولم يسبني ولم يعبس في وجهي، وكان أول ما أوصاني به أن قال يا بني اكتم سري تكن مؤمنا، فما أخبرت بسره أحدا وإن كانت أمي وأزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم يسألنني أن أخبرهن بسره فلا أخبرهن ولا أخبر بسره أحدا أبدا، ثم قال يا بني أسبغ الوضوء يزد في عمرك ويحبك حافظاك، ثم قال يا بني إن استطعت أن لا تبيت إلا على وضوء فافعل فإنه من أتاه الموت وهو على وضوء أعطي الشهادة، ثم قال يا بني إن استطعت أن لا تزال تصلي فافعل فإن الملائكة لا تزال تصلي عليك ما دمت تصلي، ثم

قال يا بني إياك والالتفات في الصلاة فإن الالتفات في الصلاة هلكة فإن كان لا بد ففي التطوع لا في الفريضة – وذلك قبل أن يحرم الالتفات في الصلاة -، ثم قال لي يا بني إذا ركعت فضع كفيك على ركبتيك وافرج بين أصابعك وارفع يديك عن جنبيك فإذا رفعت رأسك من الركوع فكن لكل عضو موضعه فإن الله لا ينظر يوم القيامة إلى من لا يقيم صلبه في ركوعه وسجوده، ثم قال يا بني إذا سجدت فلا تنقر كما ينقر الديك ولا تقع كما يقع الكلب ولا تفترش ذراعيك افتراش السبع وافرش ظهر قدميك الأرض وضع إليتيك على عقبيك فإن ذلك أيسر عليك يوم القيامة في حسابك، ثم قال لي يا بني بالغ في الغسل من الجنابة تخرج من مغتسلك ليس عليك ذنب ولا خطيئة، قلت بأبي وأمي ما المبالغة؟ قال تبل أصول شعرك وتنقي البشرة، ثم قال لي يا بني إذا قدرت أن تجعل من صلواتك في بيتك شيئًا فافعل فإنه يكثر خير بيتك، ثم قال لي يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم على أهلك يكن بركة عليك وعلى أهل بيتك، ثم قال يا بني إذا خرجت من بيتك فلا يقعن بصرك على أحد من أهل القبلة إلا سلمت عليه ترجع وقد زيد في حسناتك، ثم قال لي يا بني إن قدرت أن تمسي وتصبح وليس في قلبك غش لأحد فافعل، ثم قال لي يا بني إذا خرجت من أهلك فلا يقعن بصرك على أحد من أهل القبلة إلا ظننت أن له الفضل عليك، ثم قال لي يا بني إن حفظت وصيتي فلا يكونن شيء أحب إليك من الموت، ثم قال لي يا بني إن ذلك من سنتي ومن أحيا سنتي فقد أحبني ومن أحبني كان معي في الجنة.

حجر لا يضر ولا ينفع

من أصحاب النبي عليهم رضوان الله تعالى إلى جيل القرن الحادي والعشرين، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فهذا خطاب يدعو إلى التأسي والاقتداء بالرسول صلى

الله عليه وسلم، عاجل، فبعد ملاحظة النفور والابتعاد عن منهج السنة والاقتداء بالرسول العظيم، لا سيما في شهر ربيع الأول، فقد لزم التنبيه بضرورة العودة والاقتداء برسول الإسلام، وأن أفضل طريق للعودة يكون من خلال متابعة ومطابقة ما عليه العمل من قبل الصحابة رضوان الله عليهم فقد كانوا في الاقتداء علماء وحكماء، كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء، وقد كان عمر بن الخطاب متبعا مقتديا، وكان اقتداؤه فهمًا عميقًا، بمعنى أنه رضي الله تعالى عنه كان يفهم التأسي سلوكًا اجتماعيًا فيه جانب كبير من متابعة النبي صلى الله عليه وسلم في أخلاقه، وفي شمائله، وفي تواضعه ومحبته، وفي وسطيته وليونته وفي مؤانسته.

إن الاقتداء لا يكون بمنطق العقل المادي بل يكون بالتسليم لكل ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم، فقد لزم التصديق والتسليم، وما كسب المسلم صفة الإسلام إلا بتسليمه لأمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، لقد كان عمر رضي الله عنه حينما يرى النبي صلى الله عليه وسلم يفعل شيئًا فإنه يصدقه ولا يدع مجالا للرأي أن يتسلل إليه، بل إنه يعتقد الحكمة في أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، فعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّهُ جَاءَ إِلَى الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فَقَبَّلَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ، فليس معنى التأسي بالرسول أن أي شيء لا يفهمه عقلك لا تفعله، فحري بك أيها القارئ الكريم وجدير أن تفهم كيفية الاقتداء وتعمل على تفعيل سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم، كما فعل عمر مع الحجر، وفقكم الله وجزاكم خيرا.

حكمة الإسراء والمعراج

في السابع والعشرين من شهر رجب المبارك من كل عام، تتجدد ذكرى الإسراء والمعراج، لقد كان لهذا الحدث العظيم أهميته الكبرى في حياة المسلمين، إنه الحدث الذي يجد فيه المسلم كل معاني الإيمان والتسليم لأمر الله تعالى، وإن كانت العقول لتقف حائرة لهذه الآية الكونية العظيمة، إلا أن حيرتها سرعان ما تزول، عندما تدرك أنها كانت معجزة للرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا كانت معجزة، فذلك يعني تعطل القوانين الكونية، وتوقف نواميس الحياة بأمر الله تعالى، وما دامت القدرة الإلهية شاءت وقضت، فلا معنى لما تفرضه العقول وتثيره من أسئلة، فلا نقبل أن يقال كيف استطاع صلى الله عليه وسلم أن يقطع تلك المسافة بين مكة وبيت المقدس في لحظات؟، وكيف استطاع أن يخترق الجاذبية الأرضية والعروج إلى السماء؟، وكيف تم ذلك بلا سفن فضائية، ثم كيف عاش بلا هواء بعد أن تجاوز غلاف الهواء؟، فهذه الأسئلة ومثلها قد ترد في الذهن، وتبحث العقول عن إجابة منطقية، أو تعليل عقلي لها، إلا أن هذه الأسئلة لا تلبث أن تذوب في غمرة الإيمان بالله القادر على كل شيء، والمؤمن الصادق هو الذي يؤمن بصدق النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أخبر عنه، وهذا الذي جسده أبو بكر رضي الله عنه عندما ذهب إليه الكفار فقالوا له: هل لك في صاحبك يا أبا بكر، يزعم أنه أتى بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة، فقال أبو بكر لئن قاله فقد صدق، فوالله إنه ليخبرني أن الخبر يأتيه من السماء في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، إنه أمين السماء لا يكذب أبدا.

لقد تركت هذه الرحلة الكونية العظيمة دروسا وأبعادا عظيمة وحكما سامية، فبالإضافة إلى كونها تكريما للرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الصلاة فرضت يومها خمسين في الأجر وخمسا في العدد، فهي كذلك تركت أبعادا إيمانية واجتماعية

ودعوية، لقد محصت القلوب وطهرتها من آثار الشك والريب، كما أن إسراء الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماما بالأنبياء، يعطي معنى عظيما غفل عنه المسلمون، وما زالوا يتغافلون عنه، وهو أن الله تعالى جعل بيت المقدس جزءا من أراضي المسلمين، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده هم أصحاب الملك والحق في المسجد الأقصى، فالله تعالى يقول ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ [الإسراء: ١]، فأين المسجد الأقصى الآن؟ وأين القدس التي ارتبطت ارتباطا وثيقا بحادثة الإسراء والمعراج؟، ومتى يحيي المسلمون حادثة الإسراء والمعراج في بيت المقدس، حيث المحطة الثانية التي انطلق منها رسولنا إلى السماوات العلى ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ٨-١١]، واليوم تمر بنا ذكرى الإسراء والمعراج ويحتفل بها المسلمون في أقطارهم، وكل قطرة دم في عروقهم تنادي بهم عودوا إلى معجزة الإسراء والمعراج، واستلهموا منها الدروس والعبر، وصححوا على نهجها المسيرة، فإنها من تدبير العليم الحكيم.

لقد رأى من آيات ربه

﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، في رحلة الإسراء المباركة التي تمت بقدرة الله عز وجل لرسول الله عليه الصلاة والسلام من مكة إلى بيت المقدس، وفي رحلة المعراج وهي رحلة سماوية تمت بقدرة الله عز وجل لرسول الله عليه الصلاة والسلام من بيت المقدس إلى السماوات العلا ثم إلى سدرة المنتهى، لقد رأى صلى الله عليه وسلم مشاهد ومواقف حري بنا أن نقف عندها، فقد أتاه

جبريل بالبراق فكانت تضع حافرها عند منتهى طرفها، وصلى النبي عليه الصلاة والسلام بالأنبياء إماما في بيت المقدس، ثم صعد إلى السماوات العلا واطلع على أهل الجنة واطلع على أهل النار، اطلع على أهل الجنة فرأى رجالا يزرعون يوما ويحصدون يوما كلما حصدوا عاد الزرع كما كان، قال من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله يخلف الله عليهم ما أنفقوا، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام جند الله عز وجل من الملائكة يدخلون البيت المعمور في كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى صلى الله عليه وسلم رجالا وأقواما ترضخ رؤوسهم بالحجارة قال من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين نثاقل رؤوسهم عن الصلاة، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام أقواما يسرحون كما تسرح الأنعام طعامهم الضريع «نبت ذو شوك» قال من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء الذين لا يؤدون زكاة أموالهم، ورأى صلى الله عليه وسلم رجالا يأكلون لحما نتنا خبيثا وبين أيديهم اللحم الطيب النضيج قال من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء رجال من أمتك تكون عند أحدهم المرأة بالحلال فيدعها ويبيت عند امرأة خبيثة حتى يصبح، ورأى النبي عليه الصلاة والسلام نساءً معلقات من أثدائهن قال من هؤلاء يا جبريل؟ قال هؤلاء اللواتي يدخلن على أزواجهن من ليس من أولادهن، كانت مشاهد عظيمة نقلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وآيات رآها صلى الله عليه وسلم، بينها صلى الله عليه وسلم ليحذر أمته والناس من عواقب المعصية والذنوب، فسبحان الذي أسرى بعبده، وسبحان الله كيف نعصيه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يحذرنا العاقبة، فلا تنصرف إلى الذنب وقد علمت شر الجزاء، وكن في طاعة الله تنال خير الجزاء.

درس من الإسراء والمعراج

في حادثة الإسراء والمعراج دروس كثيرة، ولكن هناك درس عظيم يبين لنا أن اليسر مع العسر، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن الله تعالى إذا ابتلى الأمة بشدة ومحنة فالله تعالى قاصد لذلك وأنه يريد أن يبتلينا وأنه يريد منا أن نعود إليه ونتقرب، فالله تعالى إذا أحب قوما ابتلاهم، وأنه تعالى بيده كل شيء، بيده أن يزيح عنهم كل هم ومحنة، ولكن لابد من أن يصطلحوا مع الله تعالى، فهذه الشدة زوالها مرهون بتوبتنا فالكرة في ملعبنا، وإن تعودوا نعد، إن تغيروا يغيّر اللهُ ما بنا، بهذا المعنى يقول الله عز وجل ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥-٦] فلم يقل الله عز وجل بعد العسر يسرًا، وإنما قال (إِنَّ مَعَ) أي أن الشدة يكون معها يسر، وأنه كلما زادت الشدة اقترب اليسر ودنا الفرج فهذا مع ذاك، فعليك أيها المؤمن أن تصطلح مع الله، وعليك أن تتوب إليه، وعليك أن تراجع حساباتك، وعليك أن تجدد حياتك، وأقم أمر الله فيما تملك يكفك الله تعالى ما لا تملك، إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة القرب من الله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فاسع وأنت في الدنيا، وأنت حي، وأنت في أوج شبابك أن تذوق جنة القرب، والله عز وجل جنته في الدنيا في متناول يديك، يكفي أن تضبط جوارحك وأن تضبط عينك وأذنك ولسانك وبيتك وعملك فأنت مع الله، وأنت في جنة القرب، إن الإسراء والمعراج مسح لجراح الماضي، وإكرام وإيناس للنبي صلى الله عليه وسلم وقد جفاه أهل الأرض، ولكنه صلى الله عليه وسلم لجأ إلى القرب من الله تعالى فنصره الله تعالى وطمأنه بأن النصر قادم، فكلما كان الإيمان ثابتا والصبر قائما، فالفرج قريب، فإذا كنت مؤمنًا صادقًا وإذا كنت مؤمنًا منيبًا، تائبًا ومقبلًا، وجاءتك محنة فليكن النبي عليه الصلاة والسلام قدوة لك، تأكد أن بعد هذه المحنة منحة، واعلم

أن للمصيبة حكمة، وأن حكمتها أنها تدفعك إلى باب الله وتقربك إليه، ولذلك لا تعجب عندما ترى أن الله تعالى يبتلي الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، تلك حكمة الله تعالى إنه يحب أنين التائبين، فسبحانه ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

على طريق الهجرة

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وهو مع الرسول صلى الله عليه وسلم في طريق الهجرة الشريفة نزلنا عند شجرة لها ظل، فقال للنبي صلى الله عليه وسلم امكث حتى آتيك وكان يحرسه، فذهب إلى راعي غنم يرعى غنمات له فقال: لمن هي؟ فقال لرجل من أهل مكة أو المدينة، فطلب منه اللبن، فحلب له فوضعه في إداوة وأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فوجده نائمًا فكره أن يوقظه، فلما استيقظ صلى الله عليه وسلم قال أبو بكر: فصببت عليه الماء حتى برد من أسفله فأعطيته النبي عليه الصلاة والسلام حتى رأيت أنه قد شرب من اللبن، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: متى الرحيل؟ فقلت: الآن يا رسول الله، وكان أبو بكر الصديق أكبر من النبي صلى الله عليه وسلم سنًا فكان إذا رآهما الرائي أقبل على أبي بكر فقال: من هذا الذي بين يديك فكان الصديق رضي الله عنه يوري على الناس حتى لا يعرفوا رسول الله فيقول: هادٍ يهديني الطريق فيحسب الحاسب أنه يعني الطريق، وإنما يعني سبيل الخير، حتى قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنورة وكانت الأنصار من الأوس والخزرج من بني عمرو بن عوف يخرجون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم حتى وقت الظهيرة فإذا اشتد الحر عادوا، حتى كان يوم قدومه عليه الصلاة والسلام فرآهما رجل من اليهود فلم يتمالك نفسه أن صرخ في بني عمرو بن عوف أيها العرب هذا جدكم، فأقبلوا على النبي عليه الصلاة والسلام وكانوا لا يعرفونه فظنوا أنه أبو بكر الصديق فكانوا يقبلون على أبي بكر يصافحونه ظنًا منهم

أنه الرسول عليه الصلاة والسلام حتى أتت الشمس على النبي صلى الله عليه وسلم، فوضع الصديق رداءه عليه فعرفوا بأنه عليه الصلاة والسلام فأقبلوا عليه يسلمون عليه ويقبلونه عليه الصلاة والسلام، هذا هو طريق النصر الذي سلكه الرسول عليه الصلاة والسلام، وينبغي ونحن نستقبل مثل هذا العام أن نذكر هذا الكفاح الذي كافحه صلى الله عليه وسلم وأن ننصر دينه كما قال تعالى ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

طلع البدر علينا

في كلّ عام يتجدّد العهد باستمرار المسيرة وينبثق فجر جديد بقيادة خاتم الأنبياء والمرسلين وهو يحمل الرسالة تجاه أهدافها التغييرية الاجتماعية والسياسيّة والأخلاقية، وفي كل عام لنا موعدٌ مع الهجرة النبويّة الشريفة من مكّة وطن الدعوة الأوّل إلى المدينة المنوّرة مشروع الدولة الإسلامية المباركة، إن عام الهجرة النبوية الشريفة إيذان رباني صريح بأن السيادة الكونية الشاملة هي للإسلام والمسلمين، لم تكن الهجرة فرارا من بلد إلى بلد بل كانت انطلاقة جديدة لبناء صرح الإسلام فعند وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة كان أمامه طريق طويل، فهو بصدد بناء المجتمع الإسلامي وترسيخ قواعد الدولة الإسلامية الفتية التي تنطلق منها رسالة الإسلام إلى العالم كله، ومما يستفاد من دروس الهجرة وهي كثيرة الأخذ بالأسباب، فإن الله تعالى كأنه يقول لنبيه صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة يا محمد إن لكل دعوة صعابًا ولكل نصر عمل إننا يا محمد باستطاعتنا أن ننقلك من مكة إلى المدينة بالبراق كما فعلنا في الإسراء

والمعراج حيث نقلناك إلى بيت المقدس ومنه إلينا إلى السموات العلى، ولكن يا محمد هذه حكمتي وهذه إرادتي قضت أنه لا يأتي نصر بلا عمل، ولا سبب بلا مسبب، فقم أنت ورفيقك واخرج مستخفيا، وكن حذرا وأنت في الغار، وقد سمعنا صاحبك يقول وهو خائف لو نظر أحدهم حتى قدمه لرآنا فقلت: ما ظنك باثنين الله ثالثهما، وقلنا: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، ثم دخلت المدينة وبنيت المسجد وآخيت بين المهاجرين والأنصار، وألفت بين قلوب الأوس والخزرج ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، ثم بدأ الجهاد وبدأت الدعوة ونصرنا كم يوم نصرتم دين الله تعالى، وانطلقت الوفود تبشر بالإسلام، ودخل الناس في ديننا أفواجا، وتمت كلمة ربك ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]، فكل عامل لا بد أن يأخذ بالأسباب، ولو شئنا أن نعطل الأسباب لعطلناها يوم الهجرة لك أنت، فأنت أحب مخلوق إلينا وأنت خاتم رسلنا وأنبيائنا، ولكن هذه حكمتنا وهذه إرادتنا. فهل يدرك المسلمون هذا المعنى وهم يعيشون ذكرى الهجرة فيطلع البدر، ويتفجر نور النصر، ويعود الإسلام بدرا يشع نوره كما شع نوره صلى الله عليه وسلم وهو يصل إلى مشارف المدينة المنورة والناس يهتفون طلع البدر علينا.

اللهم اخلف جعفرًا في ولده

قال الله تعالى ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، تلك هي رحمة النبي صلى الله عليه وسلم بأصحابه وحبه لهم حتى إنه قد قيل: إن أرحم الخلق بالخلق هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلك المحبة دليل شاهد أنه صلى الله عليه وسلم توفي وهو راض عن أصحابه رضي الله

عنهم، وخذ مثلا تلك الحادثة وهي استشهاد سيدنا جعفر رضي الله عنه، فعندما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم مصرع سيدنا جعفر بن أبي طالب في مؤتة، وكان قد أبلى فيها بلاءً حسنًا حزن عليه أشد الحزن، وانطلق صلى الله عليه وسلم بنفسه إلى بيت جعفر ليخفف وقع المصاب على أهله وأولاده، فألفى زوجته تتأهب لاستقبال زوجها الغائب، فهي قد عجنت عجينها، وغسلت بنيها، ودهنتهم وطيبتهم وألبستهم، وقالت أسماء زوجة جعفر: فلما أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وجدت هالة من الحزن توشح وجهه الكريم، فسرت المخاوف في نفسي، غير أني لم أشأ أن أسأله عن جعفر مخافة أن أسمع منه ما أكره، وقال: ائتني بأولاد جعفر، فدعوتهم له، فهبوا نحوه فرحين مستبشرين، وأخذوا يتزاحمون عليه، كل يريد أن يستأثر به فأكب عليهم، وجعل يقبلهم، ويتشممهم، وعيناه تذرفان من الدمع، فقالت زوجة جعفر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وصاحبيه شيء؟ قال: نعم، لقد استشهدوا هذا اليوم، عندئذ غاضت البسمة من وجوه الصغار لما سمعوا أمهم تجهش بالبكاء، وجمدوا في أماكنهم، كأن على رؤوسهم الطير، أما رسول الله فمضى وهو يكفكف عبراته، وهو يقول: اللهم اخلف جعفرًا في ولده، اللهم اخلف جعفرًا في أهله، ثم قال: لقد رأيت جعفرًا في الجنة، وله جناحان مضرجان بالدماء، وهو مصبوغ القوادم، ذلك الحب الذي يكنه الرسول لأصحابه نحن اليوم ينقصنا، ينقصنا أن يحب بعضنا بعضًا، ذهب صلى الله عليه وسلم بنفسه ليخفف وطأة الخبر عن أهل جعفر هكذا كانت رحمته بإخوانه، فأين تلك المحبة والرحمة بيننا، وكيف يمكن لنا أن نبني جسور المحبة بيننا وكل الذي بيننا خراب، وكيف نعيد التواصل ونحن في شتات، فلا تقل لي إننا متحدون، وإن كان كذلك فما قيمة الوحدة إن لم يكن الحب أساسها، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا درسا في الحب.

وأزواجه أمهاتهم

إنها منزلة أزواج النبي صلى الله عليه وسلم تلك المنزلة التي قررها القرآن الكريم والتي أرادها الله عزوجل، فلا يشك أحد أن الله تعالى كما اختار نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم لرسالته فهو اختار له أزواجا من بين نساء العالمين، ومعلوم أن الزوجة هي أقرب مخلوق للزوج بل هي أقرب إليه من ثوبه الملتصق بجسده، والزوجة هي منبع الحنان للزوج، وإذا كان الرضيع يأخذ حنانه من صدر أمه، فالزوج يأخذ حنانه من زوجته حتى ولو صار كهلا كبيرا فهو طفل صغير يريد الحنان والعاطفة، ولما كانت الزوجة هي القريبة من الزوج وهي شفاء غريزته وهي المطلعة على كل ذرة من جسده وهي التي تعرف مزاجه وما يسره وما يحزنه، لذلك نهى الله تعالى وبنص القرآن أن تُنكح زوجات النبي صلى الله عليه وسلم من بعده، يقول تعالى ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣]، فزوجات النبي صلى الله عليه وسلم أمهات لنا، والولد لا يعق أمه أبدًا ولا يحل له ذلك، ومن تطاول على إحدى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فقد عقَّ أمه ﷺ وقد أساء لرسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ [الأحزاب: ٦]، والمراد بالأمومة هنا ليست فقط أمومة التحريم بأن يُحرم على الابن نكاح أمه هي كذلك وأعظم فالأمومة تشمل تحريم النكاح تحريمًا أبديًا، وتشمل تكريم الأم والإعتراف بحقها ومنزلتها وذكرها بكل ما هو جميل، وعجبًا للبعض عندما يُسب النبي صلى الله عليه وسلم يتضايق البعض وفيهم من يشتم أزواجه وهن عرضه وأهله، فكيف ينسجم ذلك، بل من سب زوجات النبي صلى الله عليه وسلم فقد سبَّ رسول الله

مباشرة فالرسول وزوجاته بيت واحد، ومن سب البيت فقد سب صاحبه، ولكل زوجة من أزواجه صلى الله عليه وسلم فضيلة ومكانة بدءا بالسيدة الكبرى خديجة فعن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «خير نسائها مريم وخير نسائها خديجة»، وكذا السيدة عائشة رضي الله عنها فعن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه على جيش ذات السلاسل قال: فأتيته فقلت أي الناس أحب إليك؟ قال: عائشة، فقلت: فمن الرجال؟ قال أبوها، فيا من تسب أمهات المؤمنين تأدب مع أمك واحذر عقوقها وهي أمك بنص القرآن إن كنت من المؤمنين ومن المصدقين لكتاب الله تعالى، وحسبك قوله تعالى ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

إن عبدًا خيره الله

قال أبو العتاهية:

اصبر لكل مصيبة وتجلَّد	*	واعلم بأن المرء غير مخلَّد
واصبر كما صبر الكرام فإنها	*	نُوبٌ تنوب اليوم تكشف في غد
أو ما ترى أن المصائب جمة	*	وترى المنية للعباد بمرصد
فإذا أتتك مصيبة تشجى بها	*	فاذكر مصابك بالنبي محمد

وعن أبي مويهبة قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أمرت أن أستغفر لأهل البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلما وقف بين أظهرهم قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنكم ما أصبحتم فيه مما أصبح فيه الناس، لو تعلمون ما نجاكم الله منه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، يتبع أولها آخرها،

الآخرة شر من الأولى، فقال: يا أبا مويهبة، إني قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، وخيرت بين ذلك وبين لقاء ربي عز وجل والجنة، قال: قلت بأبي وأمي فخذ مفاتيح الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي عز وجل والجنة، وعن أبي سعيد الخدري قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، وقال: إن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله، قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عبد خُيِّر، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا، فقال يا أبا بكر لا تبك إن أمن الناس علي في صحبته وماله أبو بكر ولو كنت متخذا خليلا من أمتي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلا سد إلا باب أبي بكر، وتقول عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صحيح يقول: إنه لم يقبض نبي قط حتى يرى مقعده من الجنة ثم يحيا أو يخيَّر، فلما اشتكى وحضره القبض ورأسه على فخذ عائشة غشي عليه، فلما أفاق شخص بصره نحو سقف البيت ثم قال: اللهم في الرفيق الأعلى، فقلت: إذًا لا يجاورنا، فعرفت أنه خُيِّر. تلك للرسول صلى الله عليه وسلم أما أنت أيها المؤمن فليس لك إلا أن تموت فجأة وعلى حين غفلة فلتكن خاتمتك إذن على خير.

إلى الرفيق الأعلى

تمر حياة الإنسان كالسحاب، والسنين تمر عليه وهو في غفلة من أمره، لا يفيق إلا إذا حل الرحيل، وقد فات الفوت، وانقطع الصوت، والإنسان إنما هو أيام كلما رحل يوم منه، رحل بعض منه، وهكذا حتى يذهب كله، وفي آخر لحظة من لحظات الحياة حيث تكون الخاتمة وهي الصفحة الأولى من عالم الآخرة، وهي أهم صفحة في حياة

الإنسان، فالعبرة بالخواتيم، وليست العبرة بغيرها، ومن كانت خاتمته طيبة فقد فاز في رحلة حياته التي تقلبت بين الخير والشر، فكيف يستعد الإنسان عندما ينتقل إلى الرفيق الأعلى كما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم مات كما مات الناس، وفارق الحياة كما فارقها الناس، فهو بشر يموت كما يموت البشر، وهو في سكرات الموت شخُص طرفه إلى السماء، وهو يقول إلى الرفيق الأعلى، إلى الرفيق الأعلى، وهذه الأيام تناسب تلك الأيام التي مات فيها عليه الصلاة والسلام، فإنه مات بعد الحج، فقد حج صلى الله عليه وسلم بالناس فوقف محرمًا في عرفة، حاسر الرأس، أشعث أغبر، فقال وهو يخاطب مائة ألف من المؤمنين: يا أيها الناس! إنكم مسئولون عني غدًا، وأنا مسئول عنكم، فما أنتم قائلون لربي غدًا؟ فقالوا بصوت واحد نشهد أنك بلغت الرسالة، وأديت الأمانة، ونصحت الأمة، فرفع سبابته وقال: اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، اللهم فاشهد، فأنزل الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهذه اللحظات التي عاشها خير البشر محمد صلى الله عليه وسلم كلنا سوف يعيشها، فكيف الرحيل وكيف الاستعداد، ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، فكن على الإيمان دوما، وعش دنياك كأنك تموت حتما، واعمل لآخرتك كأنك تعيش أبدا، فيكون العمل هو الهدف، وزيادة رصيدك هي الشغل الشاغل، وقبل أن تلحق بالرفيق الأعلى فهيئ الزاد، واستعد للقاء، وتزين بعملك، فهو هويتك وهو حجتك، ولن ينفعك نسبك ولا مالك، وقد أوشك العام على الرحيل، والعودة إلى الوراء ضرب من المستحيل، فكن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل قبل أن تنتقل هناك إلى الرفيق الأعلى.

الباب الثامن

من سير الصحابة والسلف الصالح

(٤٠ مقالة)

سباق الصالحين

التنافس على الخيرات هو الذي يشغل بال الصالحين نعم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، أما اليوم فالتنافس على المادة أصبح الشغل الذي يشغل بال الأغلبية من الناس، فشتان بين سباق إلى الخير وسباق إلى الدنيا وزينتها، كان عمر رضي الله عنه يقول كنت أتمنى أن أسبق أبا بكر، وفي يوم أمر النبي صلى الله عليه وسلم الناسَ بالصدقة، وكان عند عمر مال حاضر من ذهب وفضة، فقال في نفسه اليوم أسبق أبا بكر، فأقبل على ماله فقسمه نصفين وأبقى نصفًا لعياله، وجاء بنصف ماله إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فلما وضعه بين يديه رفع صلى الله عليه وسلم بصره إليه، ثم قال ماذا تركت لأهلك؟، قال يا رسول الله تركت لهم مثله، ثم جلس عمر ينتظر أبا بكر، فإذا أبو بكر قد جاء بصرة عظيمة، فوضعها بين يدي النبي عليه السلام، فقال له صلى الله عليه وسلم ماذا تركت لأهلك؟ قال أبو بكر: تركت لهم الله ورسوله، فنظر إليه عمر ثم قال: والله لا سابقت أبا بكر بعد اليوم أبدًا، تنافس عجيب إلى الخير وأي تنافس!، بل انظر إلى صورة أخرى من صور التنافس الحارّ، يوم وقف النبي عليه السلام أمام جموع المسلمين في معركة أحد يعرض سيفه صلتًا، ويصيح بجموع الأبطال، من يأخذ هذا السيف بحقه، عندها تتسابق الأكف، وتتطاير الأبصار، وتشرئب النفوس، عجبًا على ماذا يتسابقون؟، فيقفز من بينهم أبو دجانة ويقول وما حقه يا رسول الله، فيقول النبي عليه السلام ألا تضرب به مسلمًا، ولا تفر به من بين يدي، ثم أخذ أبو دجانة عصابة حمراء فربطها على رأسه، وقام يمشي ويتبختر مستبشرًا فرحًا، ويضرب به هام الكفار حتى انثنى، بل انظر إلى النبي عليه السلام وهو يحدث أصحابه عن يوم القيامة ويخبرهم أن من أمته سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فيعجب الصحابة بهذا الفضل العظيم، ويقفز عكاشة بن محصن

رضي الله عنه سريعًا، ويقول يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم ويفوز بها عكاشة، ثم يأتي آخر يقول: ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: سبقك بها عكاشة. نعم سبق عكاشة فدخل الجنة بغير حساب، وفاز أبو دجانة بسيف النبي الأواب، وارتفع أبو بكر على جميع الأصحاب، همتهم واحدة، وأنت يا فلان أفلا نظرت إلى نفسك، كيف هي همتك إذا رأيت من سبقك إلى الخير، أم إلى الدعوة إلى الله، أم إلى النفقة في سبيل الله هل تلاحقه لتسبقه، فهذا السباق مشروع والسرعة فيه مشروعة، ولكن ما هي همة المتسابق؟

من يسبق أبا بكر

كان عمر يسابق أبا بكر في فعل الخير، وكلما حانت الفرصة للمنافسة كان عمر على أهبة الاستعداد لعله يفوز في أحد المواقف، ولكنه يخسر دائمًا حتى أعلن استسلامه وأنه لن يستطيع أن يسابق أبا بكر أبدًا، ولما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الصدقة، قال عمر اليوم أسبق أبا بكر، فجاء عمر بنصف ماله، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وماذا تركت لأهلك؟ فقال تركت لهم نصف مالي وتصدقت بالنصف الآخر، ثم جاء أبو بكر بماله يتصدق بماله كله، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم وماذا تركت لأهلك يا أبا بكر؟ فقال تركت لهم الله ورسوله، فقال عمر والله لا أسبق أبا بكر بعد اليوم، ورغم ذلك كانت المسابقة بين عمر وأبي بكر مستمرة، فعمر يراقب عمل أبي بكر لعله يسبقه في يوم، ولكن النتائج دائمًا ما تكون في صالح أبي بكر، فمن يسبق الصديق؟ ولو وُضع إيمان الأمة في كفة وإيمان أبي بكر في كفة لرجحت كفة أبي بكر، وما زالت المسابقة محتدمة بين عمر وأبي بكر الصديق، ففي عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه كان عمر بن الخطاب يراقب ما يفعله أبو بكر الصديق ويأتي بضعف ما يفعل حتى ينال الخير

ويسبقه إلى أعلى مراتب الجنة، وفي أحد الأيام كان عمر يراقب أبا بكر الصديق في وقت الفجر، وشد انتباهه أن أبا بكر يخرج إلى أطراف المدينة بعد صلاة الفجر ويمر بكوخ صغير ويدخل به لساعات ثم ينصرف لبيته، وهو لا يعلم ما بداخل البيت ولا يدري ما يفعله أبو بكر الصديق داخل هذا البيت لأن عمر يعرف كل ما يفعله أبو بكر الصديق من خير إلا ما كان من أمر هذا البيت الذي لا يعلم عمر سره، مرت الأيام وما زال خليفة المسلمين أبو بكر الصديق يزور هذا البيت، وما زال عمر لا يعرف ماذا يفعل الصديق داخله إلى أن قرر عمر بن الخطاب دخول البيت بعد خروج أبي بكر منه ليشاهد بعينه ما بداخله وليعرف ماذا يفعل فيه الصديق رضي الله عنه بعد صلاة الفجر، حينما دخل عمر في هذا الكوخ الصغير وجد سيدة عجوز لا تقوى على الحراك كما أنها عمياء العينين ولم يجد شيئًا آخر في هذا البيت فاستغرب ابن الخطاب مما شاهد، وأراد أن يعرف ما سر علاقة الصديق بهذه العجوز العمياء، فسأل عمر العجوز: ماذا يفعل هذا الرجل عندكم؟ يقصد أبا بكر الصديق، فأجابت العجوز: والله لا أعلم فهذا الرجل يأتي كل صباح وينظف لي البيت ويكنسه ثم يعد لي الطعام وينصرف دون أن يكلمني، فجثم عمر بن الخطاب على ركبتيه وأجهشت عيناه بالدموع وقال عبارته المشهورة، لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أبا بكر، وهكذا جاءت النتيجة لصالح أبي بكر الصديق فمن يسبق أبا بكر؟

مع الفاروق عمر (1)

في المواقف العمرية قمم من العدل، وشيم من الأخلاق، وجرأة من الحق على النفس وهي في عليائها، وتواضع للإنصاف ولو كان على الأهل والأبناء، تلك القمم العمرية، يشتاق لسماعها كل محب للإنصاف والعدل، وعلى طريقة الفاروق مناهج

ومدارس من التربية والتعليم يُطلقها عملاق الإسلام سيدنا عمر رضي الله عنه وأرضاه في حياته لا يجد التاريخ مادة يسجلها كتلك التي يتفنن الفاروق عمر في الإبداع فيها، فحينما أفاء الله على المسلمين في عهده خيرًا كثيرًا، وامتلأ بيت المال بالمال، أشار عليه نفرٌ من أصحابه أن يقوم بإحصاء الناس، ورصد أسمائهم في ديوان، حتى ينالوا جميعًا رواتبهم السنوية في نظامٍ مُحْكَم، واختير لهذه المهمة عقيل بن أبي طالب أخو سيدنا علي وجبير بن مطعم، ومخرمة بن نوفل، وكانوا أعلم الناس بأنساب قريش، وأكثرهم معرفةً بالمسلمين، جلسوا يدونون الأسماء بادئين ببني هاشم، ثم بآل أبي بكر، ثم ببني عدي آل عمر، فلما طالع أمير المؤمنين الكتاب رده إليهم، وأمرهم أن يقدموا على آل عمر كثيرين ممَّن هم قبلهم، وذكر عائلتهم، وقال: ضعوا عمر وقومه في آخر الأسماء وعلم بنو عدي بهذا، فذهبوا إليه راجين أن تظل أسماؤهم في مقدمة الديوان كي ينالوا مناصبهم والمال الوفير، وقالوا له: ألسنا أهل أمير المؤمنين؟ فأجابهم عمر: بخٍ بخٍ بني عدي، أردتم أن تأكلوا على ظهري، وأن أهب لكم حسناتي، لا والله، لتأخُذُنَّ مكانكم، ولو جئتم آخر الناس، وحين زار الشام جيء له بطعامٍ طيِّب مختلفٍ ألوانه، وبدلًا من أن يقبل عليه، وينعم بمذاقه رمقه بعينين باكيتين، وقال: كل هذا لنا، وقد مات إخواننا الفقراء لا يشبعون من خبز الشعير؟! هؤلاء الصحابة الذين ماتوا في بدر وفي أحد والخندق تألم من أجلهم، كل هذا لنا وإخواننا ماتوا فقراء لم يشبعوا من خبز الشعير؟!، كيف يطيب لعمر هذا الطعام وهو دائمًا يستحضر رعيته وإخوانه كرقباء يحاسبونه في حركاته وسكناته، وما يزال الحديث متواصلًا ممتعًا والشوق يزداد لمزيد من النماذج العمرية، لكل طالب ومعلم ومرب ومصلح طريق في فهمها والإعجاب بها.

مع الفاروق عمر (2)

يبدو أن بعضهم قال: يا أمير المؤمنين إن الناس خافوا منك، خافوا من شدتك فقال رضي الله عنه: بلغني أن الناس هابوا شدتي، وخافوا غلظتي، وقالوا: قد كان عمر يشتد ورسول الله بين أظهرنا رسول الله رحيم، لطيف، حليم، وعمر شديد، ثم اشتد علينا وأبو بكرٍ والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه فكيف؟ فقال سيدنا عمر: ألا مَن قال هذا فقد صدق فإني كنت مع رسول الله عونه وخادمه، وكان عليه السلام مَن لا يبلغ أحدٌ صفته من اللين وكان كما قال الله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكنت بين يديه سيفًا مسلولًا حتى يغمدني أو يدعني فأمضي، فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راضٍ، الحمد لله على ذلك كثيرًا، وأنا به أسعد، كنت سيفًا بيد رسول الله فكان يغمدني أو يستعملني، ثم ولي أمر المسلمين أبو بكر فكان مَن لا تنكرون دعته، وكرمه، ولينه، فكنت خادمه، وعونه، أخلط شدتي بلينه، فأكون سيفًا مسلولًا حتى يغمدني، أو يدعني فأمضِي، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عزَّ وجل وهو عني راضٍ، الحمد لله على ذلك كثيرًا وأنا به أسعد، ثم إني قد وليت أمركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أُضعِفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدي، فأما أهل السلامة، والدين، والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم لبعض، ولست أدع أحدًا يظلم أحدًا، أو يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض، حتى يذعن للحق، وإني بعد شدتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف، وأهل الكفاف والتقوى ولكم عليَّ أيها الناس خصالٌ أذكرها لكم فخذوني بها أي حاسبوني عليها لكم علي ألا أجتبي شيئًا من خراجكم، وما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم علي إذا وقع في يدي منها شيء ألا يخرج مني إلا في حقه، ولكم علي أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم، إن شاء الله تعالى، ولكم علي أن أسد ثغوركم، ولكم علي ألا ألقيكم في المهالك

وإذا غبتم في البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا، فاتقوا الله، وأعينوني على أنفسكم بكفها عني، وأعينوني على نفسي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يعني أنتم عاونوني، مروني بالمعروف وانهوني عن المنكر.

مع الفاروق عمر (3)

كم هو سهل على القلم أن يجد ضالته في سيرة الفاروق عمر والتي لا تخلو من موقف أو قصة أو عبرة أو حكمة تشد القارئين وتكون مادة للمتعلمين، استمع لهذه القصة، فقد قدم المدينة بعض التجار في إحدى الأمسيات، وخيَّموا عند مشارفها، فاصطحب أمير المؤمنين عبد الرحمن بن عوف ليتفقد أمر القافلة، سمع بقافلة جاءت إلى المدينة، وخيمت في ظاهرها، فقال لعبد الرحمن بن عوف: اذهب بنا لنتفقد هذه القافلة، وكان الليل قد تصَرَّم، انقضى جزءٌ منه، واقترب الهزيع الأخير منه، وعند القافلة النائمة اتخذ عمر وصاحبه مجلسًا على مقرُبةٍ منها، وقال عمر لعبد الرحمن: فلنمضِ بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا، الجماعة نائمون كلهم، قال له: اقعد نحرس الضيوف، يعني من ذئب، لهم غنم، وهم مخيِّمون، قال له: فلنمضِ بقية الليل هنا نحرس ضيوفنا، بإذن الله طبعًا، وإذا هما جالسان سمع صوت بكاء صبي بالقافلة، فانتبه عمر وصمت، وانتظر أن يكف الصبي عن بكائه، ولكنه تمادى فيه، فمضى يسرع صوبه، وحينما اقترب منه سمع أمه تُنهنه، أي تسكته، ولكن لا ترضعه، قال لها: اتقِ الله، وأحسني إلى صبيكِ، ثم عاد إلى مكانه، وبعد حين عاود الصبي البكاء، فهرول نحوه عمر، ونادى أمه: قلت لك اتقِ الله، وأحسني إلى صبيك، وعاد إلى مجلسه، بيد أنه لم يكد يستقر حتى زلزله مرةً أخرى بكاء الصبي، فذهب إلى أمه وقال لها: ويحك إني لأراك أمّ سوء ما لصبيك لا يقر له قرار؟ أي ما ترضعينه؟ فقالت وهي لا تعرف من تخاطب، قالت: يا عبد الله قد أضجرتني،

إني أحمله على الفطام فيأبى، سألها عمر: ولمَ تحملينه على الفطام؟ قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم، قال وأنفاسه تتواثب، بدأ يلهث: وكم له من العمر؟ قالت: بضعة أشهر، قال: ويحك لا تعجليه، أرضعيه، يقول صاحبه عبد الرحمن بن عوف: فصلى بنا الفجر يومئذٍ، وما يستبين الناس قراءته يقرأ ويبكي بالصلاة. ما فهم الناس الآيات من غلبة البكاء، فلما سلّم قال: يا بؤسًا لعمر، كم قتل من أولاد المسلمين يا بؤسًا لعمر، ثم أمر مناديًا ينادي في المدينة: لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام، فإنا نفرض من بيت المال لكل مولودٍ في الإسلام، ليس لكل واحد فُطم، ولكن لكل واحد ولد، ثم كتب بهذا إلى جميع ولاته في الأمصار.

من أين لك هذا؟

كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص وهو يومئذ والي مصر هذه الرسالة: من عبدالله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص سلام الله عليك، أما بعد: فقد بلغني أنه فشت لك الفاشية من خيل وإبل وبقر وغنم وعبيد وعهدي بك قبل ذلك أن لا مال لك. فأنى لك هذا، ولقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك، ولكني قلدتك رجاء غنائك فاكتب إلي من أين لك هذا المال؟ وعجل.

فكتب عمرو بن العاص رده بهذه الرسالة: أما بعد فإنه قد أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه فاشية مال فشا لي، وإنه يعرفني قبل ذلك ولا مال لي، وإني أُعلِم أمير المؤمنين أني ببلد السعر فيه رخيص، وإني أعالج من الحرفة والزراعة ما يعالج أهله، وفي رزق المؤمنين سعة، والله لو رأيت خيانتك حلالا ما خنتك.

ولكن سيدنا عمر لم يقتنع برد عمرو بن العاص، فكتب إليه ثانية ونص الرسالة: أما بعد فإني لست من تسطيرك الكتاب، وتشقيقك الكلام في شيء، ولكنكم معشر الأمراء

قعدتم على عيون المال، ولن تعدموا عذرا، وإنما تأكلون النار، وتتعجلون العار، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة فسلم إليه شطر مالك.

تلك هي سياسة عمر العادلة، وقد كان الوالي صادقا في رده ولكن عمر هو عمر أبى إلا أن يصادر ثروته ويقسم نصفها على المسلمين، فسياسة من أين لك هذا، عمر أسسها ووضع مبادئها، ورسم أهدافها، فالمسئول لا يجوز له أن يغتني من منصبه، ولا يمكن أن تكون المسئولية مصدرا للثراء والغنى بل هي تكليف وأمانة، وهي يوم القيامة خزي وندامة إلا من أخذها بحقها. تلك سياسة الدنيا وسياسة الدين، فمن أين لك هذا، سؤال محاسبة قبل الحساب، ولكن من يتقبل أن يسأل هذا السؤال.

خطبة للفاروق

يقول الفاروق في خطبة له: «أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه، الذي بطاعته يكرم أولياءه، وبمعصيته يضل أعداءه، فليس لهالك معذرة في فعل ضلالة حسبها هدى، ولا في ترك حق حسبه ضلالة، تعلموا القرآن تعرفوا به، واعملوا به تكونوا من أهله، فإنه لم تبلغ منزلة ذي حق أن يطاع في معصية الله، واعلموا أن بين العبد وبين رزقه حجابا، فإن صبر أتاه رزقه، وإن اقتحم هتك الحجاب، ولم يدرك فوق رزقه، وإياكم وأخلاق العجم، ومجاورة الجبابرة، وأن تجلسوا على مائدة الخمر، وأن تدخلوا الحمام بغير مئزر، وإياكم والصغار أن تجعلوه في رقابكم، واعلموا أن سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر، ولا يحل لك أن تهجر أخاك فوق ثلاثة أيام، ومن أتى ساحرا، أو كاهنا، أو عرافا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، لا يخلون رجل بامرأة، فإن الشيطان ثالثهما، ومن ساءته سيئة وسرته حسنة، فهو أمارة المسلم المؤمن، وشر الأمور مبتدعاتها، وإن الاقتصاد في سنة خير من الاجتهاد في بدعة،

وحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا، وتزينوا للعرض الأكبر، يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية، عليكم بالقرآن، فإن فيه نورًا وشفاء، وغيره الشقاء، وقد قضيت الذي علي فيما ولاني الله عزَّ وجلَّ من أموركم، ووعظتكم نصحا لكم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم». فهذه توجيهات بأحكام الشريعة الإسلامية، يبينها سيدنا عمر رضي الله عنه، فهو يدعو رعيته إلى الالتزام بأمور دينهم، ويلاحظ من خلال هذه الخطبة أن سيدنا عمر كان يربط خطبته بالواقع، لاحظ ذلك عندما يقول «وأن تدخلوا الحمام بغير مئزر»، فذلك يدل على أن الخطبة كانت قريبة من الواقع، وأنها تناقش أمور الحياة اليومية والعملية، أضف إلى ذلك حرص الفاروق عمر على أمته في دعوته لهم إلى التآلف ونشر المودة والرحمة بين المسلمين، وهناك أيضًا محاسبة النفس في الدنيا قبل الآخرة، ومما يلاحظ في الخطبة مدى تأثر سيدنا عمر بأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في التعبير والأسلوب، مما جعل الخطبة تزداد قوة في التعبير وحجة في الاستدلال.

التقوى ها هنا

خرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإذا هو بضوء نار ومعه عبدالله ابن مسعود، فاتبع الضوء حتى دخل دارا، فإذا بسراج في بيت فدخل وذلك في جوف الليل، فإذا شيخ جالس وبين يديه شراب وقينة - وهي الجارية المغنية -، فلم يشعر الشيخ الكبير حتى هجم عليه عمر، فقال عمر: ما رأيت كالليلة منظرا أقبح من شيخ ينتظر أجله، فرفع رأسه إليه، فقال: بل يا أمير المؤمنين، ما صنعت أنت أقبح، تجسست وقد نهى الله عن التجسس فقال تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] ودخلت بغير إذن، فقال عمر: صدقت ثم خرج عاضا على ثوبه يبكي وقال: ثكلت عمر أمه إن لم يغفر له ربه، هذا

الرجل كان يستخفي من أهله، فيقول: الآن عمر رآني فيتتابع فيه، وهجر الشيخ الكبير مجلس عمر حينا، فبينا عمر بعد ذلك جالس إذ جاء الشيخ شبه المستخفي حتى جلس في أخريات الناس، فرآه عمر، فقال: علي بهذا الشيخ. فقال عمر: ادنُ مني، فما زال يدنيه حتى أجلسه بجنبه، فقال: أدنِ مني أذنك، فالتقم أذنه فقال: والذي بعث محمدا بالحق رسولا ما أخبرت أحدا من الناس بما رأيت منك ولا ابن مسعود، فإنه كان معي، فقال الرجل العجوز، يا أمير المؤمنين أدنِ مني أذنك، فالتقم أذنه، فقال ولا أنا والذي بعث محمدًا بالحق رسولا ما عدت إليه حتى جلست مجلسي هذا، فرفع عمر صوته يكبر، فما يدري الناس من أي شيء يكبر. في هذه الحادثة معانٍ سامية من المصداقية والسرية التامة وستر المسلم على أخيه المسلم زلاته وشطحاته، مثل هذه الأبعاد الاجتماعية والسلوكية تجعل المجتمع يعيش تحت ظل التقدير والاحترام ونبذ الاتهام وظن السوء بالآخرين، تلك أخلاق لا نرى لها صدى في مجتمعاتنا ولا نرى لها بريقا سوى التجريح والتعريض والتشهير للناس، بل المؤمن ستر وغطاء لأخيه يستر عليه عيوبه ويغفر له زلاته، ويلتمس له الأعذار والمبررات لتبقى أخوة الإسلام مشعة بالخلق متماسكة بالمحبة، وكما قال الرسول صلى الله عليه وسلم: ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا كما أمركم. المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ها هنا التقوى ها هنا، إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم.

أعز الناس صعلوك يساوي الملوك

معانٍ عظيمة بها ارتقى المسلمون، يوم كان الناس في المرتبة شرفاء متساوين في القدر والمنزلة لا يفضل أحد على أحد وإنما هم كأسنان المشط، لا فضل لسيد على عبد

ولا لأبيض على أسود، هذه المعاني جعلت الإنسان يعرف حقيقته التي قد يغفل عنها عندما ترفعه الدنيا وهو وضيع، وعندما يجده الناس وهو صعلوك، وعندما ينفخ فيه المادحون وهو لا يساوي جناح بعوضة، وعندما يزنه الناس بميزان الحسب والنسب وهو لا يزن عند الله تعالى حبة خردل، هذا الإنسان لا يمكن أن يكون في مرتبة الشرف إلا بعمله وتقواه، فمن حوله من الناس من الأهل والأقارب والأصدقاء قد يصفونه ويعرّفونه بأعظم الصفات، ولكن عندما يبقى وحيدا أمام الله فمن يصفه ومن يُعرفه، هنا في هذا المقام ليس له إلا عمله، فهو بطاقة هويته وهو شخصيته وسيرته وأهله وكل شيء في حياته، يروى أن ملك الغساسنة واسمه جبلة بن الأيهم أعلن إسلامه وجاء مسلمًا فرحب به عمر رضي الله عنه، وكان ملك الغساسنة هذا يطوف حول الكعبة وفي أثناء طوافه داس بدوي من فزارة طرف ردائه، فالتفت جبلة ملك الغساسنة نحو البدوي وضربه ضربة هشمت أنفه، فما كان من هذا البدوي إلا أن شكا ملك الغساسنة إلى عمر رضي الله عنه، فاستدعى عمر جبلة ملك الغساسنة إلى مجلسه، ودار بينهما حوار، قال عمر لجبلة أصحيح ما ادعى هذا الفزاري الجريح؟ قال جبلة: لست ممن يكتم شيئًا، أنا أدبت الفتى وأدركت حقي بيدي، قال عمر: أرض الفتى فما زال ظفرك عالقًا بدمائه أو يهشمن الآن أنفك، وتنال ما فعلته كفك؟ فقال جبلة: كيف ذاك يا أمير؟ هو سوقة وأنا عرش وتاج، كيف ترضى أن يخر النجم أرضا، قال عمر: نزوات الجاهلية، ورياح العنجهية، قد دفناها وأقمنا فوقها صرحًا جديدا وتساوى الناس أحرارًا لدينا وعبيدا، قال ملك الغساسنة: كان وهمًا ما جرى في خلدي أنني عندك أقوى وأعز، أنا مرتد عن الإسلام إذا أكرهتني، فقال عمر: أعز الناس عبد صعلوك تساوى عندي مع الملوك، قصة تعكس قمة المعاني العظيمة في مساواة الناس، فكيف والناس اليوم مراتب ومنازل قد تصدع بهم بنيان المساواة والتساوي في كل شيء إلا العمل.

أريد رجالا كأبي عبيدة

الرجال أغلى من الذهب في ساعة العسرة وساعة الحاجة، ولكن قد يأتي زمان قلما تجد في الرجال رجالًا، أو تجد ولكنهم قليل، وقد قال الله تعالى ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣]، إن الأمة القوية لا تنهض إلا برجالها، ولا تتقدم إلا بسواعد رجالها، ومن ينظر إلى صفحات التاريخ سيجد رجالا وأسماء كالقمم، فما الذي يصنع الرجال وما الذي يخلد ذكراهم، إنه العمل والتضحية، وكلما كان العمل كبيرا وكانت التضحية عظيمة، كلما لمع الاسم واشتهر صاحبه، وكلما تميز الرجل في عطائه كلما خلد اسمه، فهو يموت ولا تموت ذكراه، ويحيا بقوله وفعله وتردد الأجيال عمله على مر التاريخ، فكم من شهيد مازال التاريخ يذكره، وكم من مجاهد ما زالت الأجيال تذكره، وكم من عالم ما زال العلم يتوجه، وكم من حاكم ما زالت الشعوب تمجده، كلهم ماتوا، ولكنهم باقون بعملهم وعلمهم وتضحياتهم، إلا أنه في فترة من فترات التاريخ قد تصاب الأمم بالعقم فلا رجال يولدون وإن ولدوا فالعقم في العطاء وفي الإنتاج، ولو كنت متمنيا لتمنيت رجالا يصنعون القمم، وقد روي أن عمر قال لأصحابه يومًا: تمنوا فقال رجل منهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله عز وجل، فقال: تمنوا، فقال رجل آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا وجوهرًا أنفقه في سبيل الله عز وجل وأتصدق به، ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين، فقال عمر: لكني أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة رجالًا مثل أبي عبيدة بن الجراح، فالرجال هم سواعد البناء بقوتهم يعلو البنيان ويزهو، وبضعفهم يتصدع البنيان ويهوي، والرجل أغلى من الذهب واللؤلؤ والجواهر كلها، فاليوم تفتقر الأمة في نهضتها إلى رجال يتربون في مدرسة النبوة وفي دار الأرقم بن أبي الأرقم، والأمة اليوم تحتاج إلى دعاة يتخرجون من مدرسة محمد صلى الله عليه

وسلم أساسها العلم والوسطية والعدل، والأمة اليوم بحاجة إلى أمثال هؤلاء الرجال فأين هم؟

من أين لي ثمن الحلوى؟

إذا خلوت في ظلمة والنفس داعية إلى الطغيان، فاستح من نظر الإله وقل لها: إن الذي خلق الظلام يراني، فأعظم مقامات العبادة هو التفكر، ثم الخوف من الله الجليل، وقد حضرت الوفاة أبا بكر رضي الله عنه، فدخلت عليه ابنته عائشة رضي الله عنها وأرضاها، فقالت: يا أبتاه! فغضب، ونظر إليها، وقال: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ق: ١٩-٢١]، وقد دخل أبو بكر مع الصحابة، ليتنزهوا في بستان من بساتين المدينة، فرأى طائرًا على نخلة، فبكى، فقال الصحابة: ما لك يا خليفة رسول الله؟ قال: أبكي لهذا الطائر، يأكل من الشجر، ويرد الماء، ويموت، ولا حساب ولا عذاب، فبكوا رضوان الله عليهم، فهم ينظرون إلى الحساب وموقفهم بين يدي الله سبحانه وتعالى، وقام هارون الرشيد فخلى قصوره، وزين دوره، وجمع الناس في مهرجان، ثم أدخل عليه الناس أفواجًا أفواجًا، فأتى أبو العتاهية الشاعر الزاهد، فقال له هارون: أمدحت هذا اليوم المشهود؟ قال: نعم مدحته، قال: وماذا قلت فيه؟ قال: قلت: عش ما بدا لك سالمًا في ظل شاهقة القصور، قال: ثم ماذا؟ قال: يجري عليك بما أردت مع العشية والبكور، قال: ثم ماذا؟ قال: فإذا النفوس تغرغرت بزفير حشرجة الصدور، قال: ثم ماذا؟ قال: فهناك تعلم موقنًا ما كنت إلا في غرور، فبكى هارون الرشيد حتى أغمي عليه، وأمر بالزينة أن تخلع، فتلك قضية التفكر تجعل الإنسان ينظر إلى مصيره يقول علي رضي الله عنه: (لا يخافن أحدكم إلا ذنبه، ولا يرجون إلا ربه)

وكانوا رضي الله عنهم دائمًا يشعرون برقابة الله، ووحدانيته، ويخافونه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىَ، يقول أسلم مولى عمر: (خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه، بعد أن انتصف الليل، فقال لي: يا أسلم! الحقني فإني أتفقد الناس) هذا في عام المجاعة -عام الرمادة- يوم أن جاع الناس فجاع عمر معهم، ويوم أن تعب الناس تعب عمر معهم، ويوم أن سهر الناس سهر عمر معهم. لما اشتهت زوجه الحلوى فقال لها من أين لي ثمن الحلوى، فأشتريها؟

بين علي والحسن

سأل أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه أسئلة تتعلق بالأخلاق لابنه الحسن فدار بينهما هذا الحوار الجميل، قال أمير المؤمنين يا بني ما السداد؟، فقال الحسن: يا أبت السداد دفع المنكر بالمعروف، فقال سيدنا علي: ما الشرف؟، فقال الحسن: الشرف اصطناع المعروف، فقال أمير المؤمنين ما المروءة؟، فقال الحسن: العفاف وإصلاح المرء ماله، فقال أمير المؤمنين ما الدنية؟، فقال الحسن: النظر في اليسير ومنع الحقير، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه ما السماحة؟، فقال الحسن: البذل في العسر واليسر، فقال أمير المؤمنين ما الشح؟، فقال الحسن: أن ترى ما في يديك شرفا وما أنفقته تلفا، فقال أمير المؤمنين ما الإخاء؟، فقال الحسن: الوفاء في الشدة والرخاء، فقال سيدنا علي رضي الله عنه وما الجبن؟، فقال الحسن: الجرأة على الصديق والنكول عن العدو، فقال سيدنا علي: ما الغنيمة؟، فقال الحسن: الرغبة في التقوى، والزهد في الدنيا، فقال أمير المؤمنين ما الحلم؟، فقال الحسن: كظم الغيظ، وملك النفس، وقال أمير المؤمنين ما الغنى؟، فقال الحسن: رضا النفس بما قسم الله لها وإن قل، فقال أمير المؤمنين وما الفقر؟، فقال الحسن: شره النفس في كل شيء، فقال أمير المؤمنين وما الذل؟، فأجاب الحسن:

الفزع عن الصدمة، فقال أمير المؤمنين ما الكلفة؟، فقال الحسن: كلامك فيما لا يعنيك، وقال أمير المؤمنين رضي الله عنه ما المجد؟، فقال الحسن: أن تعطي في الغرم، وتعفو عند الجرم، فقال أمير المؤمنين ما العقل؟، فقال الحسن: العقل حفظ كل ما استوعيته، فقال أمير المؤمنين ما الحزم؟، فقال الحسن: طول الأناة والرفق بالولاة، فقال أمير المؤمنين رضي الله عنه وما الغفلة؟، فقال الحسن: تركك المسجد واتباعك المفسد، فقال سيدنا علي رضي الله عنه فما الجهل؟، فقال الحسن: سرعة الوثوب على الفرصة، قبل الاستمكان منها والامتناع عن الجواب، ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وإن كنت فصيحا، فهذا حوار يعرض قمة الأخلاق بتفسير بديع، فهل أبناؤنا على هذا المستوى من الأخلاق عندما نحاورهم؟

خطبة لسيدنا علي

أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة، فمن تركه رغبة عنه، ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وديّث بالصَّغار والقماءة، وضرب على قلبه بالإسهاب، وأديل الحق منه، بتضييع الجهاد، وسيم الخسف، ومنع النصف، ألا وإني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلا ونهارا، وسرا وإعلانا، وقلت لكم: اغزوهم قبل أن يغزوكم، فوالله ما غزي قوم قط في عقر دارهم، إلا ذلوا، فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت عليكم الغارات، وملكت عليكم الأوطان، وهذا أخو غامد وقد وردت خيله الأنبار، وقد قتل حسان بن حسان البكري، وأزال خيلكم عن مسالحها ولقد بلغني أن الرجل منهم يدخل على المرأة المسلمة، والأخرى المعاهدة، فينتزع حجلها وقلبها، وقلائدها، ورعثها، ما تمتنع منه إلا بالاسترجاع والاسترحام، ثم انصرفوا وافرين، ما نال رجلًا منهم كَلْم، ولا أريق لهم

دم، فلو أن امرأ مسلما مات من بعد هذا أسفا ما كان به ملوما، بل كان به عندي جديرا، فيا عجبا والله يميت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم، وتفرقكم عن حقكم، فقبحا لكم وترحا، حين صرتم غرضا يرمى، يغار عليكم ولا تغيرون، وتغزون ولا تغزون، ويعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر، قلتم هذه حمارة القيظ، أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء، قلتم هذه صبارة القر، أمهلنا ينسلخ عنا البرد كل هذا فرارا، من الحر والقر، فإذا كنتم من الحر والقر تفرون، فأنتم والله من السيف أفر! يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال، لوددت أني لم أركم ولم أعرفكم، معرفةً والله جرّت ندمًا وأعقبت سدما، قاتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحا، وشحنتم صدري غيظا، وجرعتموني نغب التهمام أنفاسا، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب، لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراسا، وأقدم فيها مقاما مني، لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنذا قد ذرفت على الستين، ولكن لا رأي لمن لا يطاع .

هذه صفات المتقين

سأل همام عليا كرم الله وجهه عن صفات المتقين فقال له صف المتقين كأن أنظر إليهم، فقال سيدنا علي: هم الذين منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضوا أبصارهم عما حرم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم، نزلت أنفسهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء، لولا الأمل الذي كتب الله لهم لم تستقر أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقا إلى ربهم، عظُم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، قلوبهم محزونة وشرورهم مأمونة، وأجسادهم نحيفة، وحاجاتهم

خفيفة، وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصيرة، وأعقبتهم راحة طويلة، تجارة رابحة يسّرها لهم ربهم، أرادتهم الدنيا فلم يريدوها، وأسرتهم ففدوا أنفسهم منها، أما الليل فصافون أقدامهم يرتلون أجزاء القرآن ترتيلا، فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا، وتطلعت أنفسهم منها إليها تشوقا، وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها بمسامع قلوبهم، وظنوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم، فهم جاثون على ركبهم يطلبون من الله فكاك رقابهم، وأما النهار فحكماء علماء، أبرار أتقياء، قد براهم الخوف بري القداح، ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، لا يرضون من أعمالهم القليل، ولا يستكثرون الكثير، فهم لأنفسهم متهمون ومن أعمالهم مشفقون، إذا زكى أحدهم خاف مما يقال له، فيقول أنا أعلم بنفسي من غيري، وربي أعلم بي مني بنفسي، اللهم لا تؤاخذني بما يقولون واجعلني أفضل مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، فمن علامة أحدهم أنك ترى له قوة في الدين، وحزما في لين، وإيمانا في يقين، وحرصا في علم، وعملا في حلم، وقصدا في غنى، وتجملًا في فاقة، وخشوعا في عبادة، وصبرا في شدة، وطلبا في حلال ونشاطا في هدى، وتحرجًا عن طمع، يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل، يمسي وهمه الشكر، ويصبح وهمه الذكر، يبيت حذرا، ويصبح فرحا، حذرا من الغفلة، وفرحا بما أصاب من الفضل والرحمة، إذا استعصت عليه نفسه فيما يكره لم يعطها سؤلها فيما تحب، يمزج الحلم بالعلم، والقول بالعمل، تراه قريبا أمله، خاشعا قلبه، قانعة نفسه، سهلا أمره، الخير منه مأمول، والشر منه مأمون، إن كان في الغافلين كتب في الذاكرين، يعفو عمن ظلمه، ويعطي من حرمه، ويصل من قطعه، نفسه منه في عناء، والناس منه في راحة، أتعب نفسه لآخرته، وأراح الناس من نفسه.

يا دنيا غُرّي غيري

الدنيا وردت في القرآن بأوصاف كثيرة، فقد وصفها القرآن بأنها متاع قليل، قال تعالى ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، ووصفها القرآن بأنها دار لهو وتفاخر، فقال تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ووصفها كذلك بأنها دار الغرور، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]، ووصفها بأنها دار ابتلاء، فقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧]، والدنيا تغري كل إنسان بمفاتنها وجمالها، والإنسان الضعيف هو من يقع في حبائلها، وقد دخل ضرار الصدائي على معاوية بن أبي سفيان فقال له: يا ضرار، صف لي عليًا، قال اعفني يا أمير المؤمنين قال: لتصفنّه، قال: أما إذ لا بد من وصفه، فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلًا، ويحكم عدلًا، يتفجر العلم من جوانبه، وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها، ويستأنس بالليل ووحشته، وكان غزير العبرة، طويل الفكرة، يعجبه من اللباس ما قصر، ومن الطعام ما خشن، وكان فينا كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيانا وقربه منا لا نكاد نكلمه هيبة له، يعظم أهل الدين، ويقرب المساكين، لا يطمع القوي في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله. وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، قابضًا على لحيته يتململ تململ السليم، ويبكي بكاء الحزين، ويقول: يا دنيا غُرّي غيري إليّ تعرضت أم إليّ تشوقت؟ هيهات هيهات!! قد باينتك (أي طلقتك) ثلاثًا لا رجعة فيها فعمرك قصير، وخطرك حقير، آه

من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن، كان والله كذلك، فيا دنيا لن تنالي مني، ولن تُغريني بشيء، فما لكِ وما لي، ودعيني وحالي، وغُرّي غيري.

الحسين أمة وحده

كلما عادت ذكرى عاشوراء إلا وتشتاق القلوب لإحياء ذكرى الحسين بن علي سيد الشهداء، لقد كان الحسين أمة وحده، ففي مسيرته إلى الحق، وتضحيته الكبرى التي خطها بدمائه الزكية معالم ومنابر، وقمم من المعاني والسلوك، التي لا يرقى إليها ولا يصل إليها إلا الحسين، فهو من تربى تحت يد الرسول صلى الله عليه وسلم، وأحاطه برعايته وبلمسات النبوة، وكان لحمه ودمه من دمه، وشبهه من شبهه صلى الله عليه وسلم، وهو ابن بنته وقطعة قلبه صلى الله عليه وسلم، وهو سيد شباب الجنة، وهو سبط من الأسباط، وهو ريحانة رسول الله من الدنيا، من أحبه الله تعالى، قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا، لقد رسم الحسين رضي الله عنه منهجا للجهاد، وأفضل الجهاد، فأفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فكانت حركة الحسين للحق بالتضحية والثبات رمزا للجهاد المثمر كل حين، ولقد برزت نتائج ذلك عبر التاريخ، فمهما قدمت الناس من شهداء، ومهما ضحت الأمهات بأبنائها، وأخرجت البيوت من شبابها، فلا يوجد أغلى من الحسين شهيدا قدمه بيت النبوة للحق، وهذا دافع يعطي لقافلة الشهداء أن تستمر لتحرير الحق من قيود الباطل، ولتحرير الأرض المغتصبة من يد العدو الغاصب، ودحر العدو الغازي في فلسطين وفي سائر بلاد الإسلام، لقد سبق الحسين رضي الله عنه السبق كله إلى الشهادة، وترك الشهداء وراءه يقتفون أثره، ومهما سبقوا فهم تبع له، بينما كانت الخيبة

والعار لقاتلي الحسين، فبأي وجه ينظرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، قال إبراهيم النخعي لو كنت فيمن قاتل الحسين ثم أدخلت الجنة لاستحييت أن أنظر إلى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن ابن عباس رضي الله عنه قال رأيت الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام بنصف النهار أشعث أغبر معه قارورة فيها دم يلتقطه، قلت يا رسول الله، ما هذا، فقال دم الحسين وأصحابه لم أزل أتتبعه منذ اليوم، ولنا في الحسين وآل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم مدرسة عامرة بالأخلاق والفداء والتواضع، فأخلاقه هي من أخلاق النبوة التي سرت في أبناء فاطمة وعلي، الذين أخذوا من جدهم رسول الله خلق القرآن وأدب الرحمن، فقد حكي أنه وقع بين الحسين وأخيه محمد ابن الحنفية كلام، فانصرفا متغاضبين، فلما وصل ابن الحنفية إلى منزله أخذ رقعة وكتب فيها، من محمد بن علي بن أبي طالب إلى أخيه الحسين، أما بعد فإن لك شرفا لا أبلغه وفضلا لا أدركه، فإذا قرأت رقعتي هذه، فالبس رداءك وسر إلي وترضني، وإياك أن أكون سابقك إلى الفضل الذي أنت أولى به مني، فلما قرأ الحسين الكتاب لبس رداءه ثم جاء إلى أخيه فأرضاه، فهذا فضل الحسين فمن يبلغ فضله؟، فرضي الله عن الحسين فهو أمة وحده ولنا فيه أسوة حسنة في البذل والعطاء والتضحية.

مصعب الخير (1)

هذا رجل من أصحاب محمد غرّة فتيان قريش وأكثرهم جمالا وشبابا يقولون عنه إنه أعطر أهل مكة وُلد في النعمة وغذيّ بها، وشبّ تحت خمائلها، إنه الفتى المدلل حديث الناس في مكة ولؤلؤة مجالسها إنه مصعب بن عمير سفير الإسلام الأول، إن قصة مصعب وفضائله تجعله أسطورة من أساطير الإيمان، فيا له من فتى عظيم صاغه

الإسلام ورباه محمد عليه الصلاة والسلام، مصعب الخير هكذا كان يلقب بين المسلمين، إن قصة حياته لشرف لكل شاب مسلم لقد أسلم مصعب فعلمت به أمه وكانت تحبه حبا شديدا فحاولت أن تثنيه عن الإسلام فقالت يا بني ماذا تريد من هذا الدين أتريد أن تمنع نفسك من الرفاهية والشهوات وما أنت فيه من غنى إن هذا الدين يبعدك عنها ويمنعك منها وأنت تعلم أن الحياة لا تصفو إلا بهذه الأمور، ولكن مصعبا رضي الله عنه يعلم أن ما حرمه الله عليه في الدنيا سوف يجده عند الله في الجنة، فلما لم يستجب لقولها ضيقت عليه ومنعته من كل نعيم كان فيه حتى وصل الحال إلى سجنه ولقد عانى معاناة شديدة وهو يعذب والسبب في ذلك أنه رفض حياة الرفاهية مقابل الإسلام، تصوروا عندما تغير به الحال وهو الشاب الناعم الطري الذي نشأ في أحضان النعمة والترف لم يثنه شيء من ذلك عن دينه يقول عنه سعد بن أبي وقاص: وأما مصعب بن عمير فإنه كان أترف غلام بمكة بين أبويه فيما بيننا، فلما أصابه ما أصابنا من شظف العيش، لم يقو على ذلك، فلقد رأيته وإن جلده ليتطاير عنه تطاير جلد الحية ولقد رأيته ينقطع به فما يستطيع أن يمشي، فنعرض له القسيّ ثم نحمله على عواتقنا. ومع هذا الألم صبر وصابر محتسبا الأجر عند الله سبحانه، كيف لو حدث مثل هذا لبعض شبابنا اليوم هل تظنون أنه سوف يثبت على دينه أو يبدل حياة الرفاهية، ونحن نرى من الشباب من يتخذ الدنيا غاية وينسى حق الآخرة.

مصعب الخير (2)

إذا أردنا أن ننهض بشباب الأمة فيجب علينا أن نربيهم على سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، لقد خرج مصعب من النعمة الوارفة التي كان يعيش فيها وأصبح الفتى المُعَطّر المتأنق لا يُرى إلا مرتديا أخشن الثياب، يأكل يوما ويجوع أياما،

خرج يوما على بعض المسلمين وهم جلوس حول رسول الله. فما إن رأوه حتى حنوا رؤوسهم وذرفت عيونهم ذلك أنهم رأوه يرتدي جلبابا مرقعا باليا، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه، حين كان يلبس أنعم الثياب وأطيب العطور، ثم رآه رسول الله وتألقت على شفتيه ابتسامة وقال لقد رأيت مصعبا هذا. وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه. ثم ترك ذلك كله حبا لله ورسوله. اختاره الرسول صلى الله عليه وسلم لأعظم مهمة في حينها أن يكون سفيره إلى المدينة، يعلم الأنصار وهو يعلم أنه قادر وكفء لهذه المهمة الدبلوماسية، وحمل مصعب الأمانة مستعينا بالله فقام يدعو الناس ويعلمهم دين الحق فدخلوا في دين الله وذات يوم فاجأه أسيد بن حضير سيد بني عبد الأشهل بالمدينة، فجاء شاهرا حربته غضبا على هذا الذي جاء يفتن قومه عن دينهم ويدعوهم لهجر آلهتهم، وما إن رأى المسلمون أسيدا متوشحا غضبه حتى وجلوا، ولكن مصعب الخير ظل ثابتا ووقف أمام أسيد، فقال أسيد ما جاء بكم إلى حيّنا. تُسفِّهان ضعفاءنا، اعتزلانا إذا كنتما لا تريدان الخروج من الحياة، فقال مصعب أولا تجلس فتستمع فإن رضيت أمرنا قبلته وإن كرهته كففنا عنك ما تكره، هنالك أجابه أسيد قائلا: أنصفت وألقى حربته إلى الأرض وجلس يصغي، ولم يكد مصعب يقرأ القرآن، ويفسر الدعوة التي جاء بها حتى أخذت أسارير أسيد تبرق وتشرق وتتغير ولم يكد مصعب يفرغ من حديثه حتى هتف به أسيد بن حضير وبمن معه قائلا: ما أحسن هذا القول وأصدقه كيف يصنع من يريد أن يدخل في هذا الدين، فقال له مصعب يطهر ثوبه وبدنه ويشهد أن لا إله إلا الله، فغاب أسيد عنهم غير قليل ثم عاد يقطر الماء الطهور من رأسه. ووقف يعلن أن لا اله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، وسرى الخبر في المدينة فجاء سعد بن معاذ وأصغى لمصعب واقتنع ثم أسلم سعد بن عبادة. وجاء أهل المدينة يقولون هيا إلى مصعب فلنؤمن معه فإن الحق يخرج من بين ثناياه. فيا شبابنا ماذا قدمتم اليوم للدعوة وقد كان مصعب سفيرها الأول!

ليتني مثل مصعب (3)

احتدم القتال في غزوة أحد، وخالف الرماة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد أن كان المسلمون منتصرين أول النهار أصبحوا منهزمين آخره، ويفاجأ المسلمون بفرسان قريش تغشاهم من أعلى الجبل، ومزقت الفوضى والذعر صفوف المسلمين، وأحاط المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم يريدون أن ينالوا منه، وأدرك مصعب بن عمير ذلك، فحمل اللواء عاليا، وكبَّر ومضى يصول ويجول وكل همِّه أن يشغل المشركين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وثبت مصعب، فأقبل أحد المشركين فضربه على يده اليمنى فقطعها ومصعب يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ثم أخذ مصعب اللواء بيده اليسرى وحَنَا عليه، ثم ضرب رضي الله عنه على اليسرى فقطعت، فَحَنَا على اللواء وضَمَّه بعَضُدَيْه إلى صدره وهو يقول: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ووقع مصعب الخير وسقط اللواء واستشهد وهو محتسب محب لله ولرسوله، وبعد انتهاء المعركة جاء الرسول وأصحابه يتفقدون أرض المعركة ويودعون شهداءها من بينهم مصعب ولم يجدوا ما يكفنونه به يقول خبّاب رضي الله عنه هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله، نبتغي وَجْه الله، فوقع أجْرُنا على الله، فمنا من مضى ولم يأكل من أجره في دنياه شيئًا، منهم مصعب بن عمير قُتِلَ يوم أُحُد، فلم يُوجد له شيء يكفن فيه إلا نَمِرَة، فكنا إذا وضعناها على رأسه تَعَرَّت رجلاه، وإذا وضعناها على رِجْلَيْه بدا رأسه، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: اجْعَلوها مما يلي رَأْسَه، واجعلوا على رجليه من نبات الإذْخِر، وقد مثّل المشركون بجثمانه تمثيلا أفاض دموع الرسول عليه السلام وأوجع فؤاده، وقال وهو يقف عنده: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، ثم نظر صلى الله عليه وسلم إلى بردته التي كُفِّن فيها وقال: لقد رأيت بمكة وما بها أرق

حُلَّة ولا أحسن لِمَّة منك، ثم ها أنت ذا شَعِث الرأس في بُرْدَة، وهتف الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: إن رسول الله يشهد أنكم الشهداء عند الله يوم القيامة. أليس مصعب خير قدوة لشبابنا اليوم بدلا من أولئك ذوي الترف واللهو وأهل الغفلة الذين يتخذهم البعض قدوة ويتمنى أن يكونوا مثلهم؟! فليتني مثل مصعب.

اهتز عرش الرحمن لموته (1)

هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس، الأوسي الأنصاري، صحابي من أهل المدينة، وهو سيد الأوس، أسلم على يد مصعب بن عمير الذي أوفده الرسول صلى الله عليه وسلم للدعوة في المدينة قبل الهجرة، ولما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم آخى بينه وبين سعد بن أبي وقاص، وعندما خرج المسلمون إلى بدر لملاقاة المشركين واستشار النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار، فقال سعد: آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك مواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يا رسول الله لما أردت، فنحن معك فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوًا غدًا، إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، لعل الله يريك فينا ما تقر به عينك، فَسِر بنا على بركة الله، فَسُرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله، وحمل سعد لواء الأوس في المعركة، وأبلى بلاءً حسنًا، وشهد أحدًا مع النبي صلى الله عليه وسلم، وثبت معه حين ولى الناس، وأبدى شجاعة فائقة، وشهد الخندق وأصابه سهم في ذراعه فقطع أكحله، فقال سعد: اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئًا فأبقني لها، فإنه أحبّ إليّ أن أجاهدهم فيك من قوم آذوا نبيك وكذبوه وأخرجوه، اللهم إن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لي شهادة، ولا تُمتني حتى تُقّر عيني من بني قريظة، ثم حُمل إلى المسجد، فأقام له النبي صلى الله عليه

وسلم خيمة فيه ليعوده من قريب، ثم كواه النبي صلى الله عليه وسلم بالنار مرتين فانتفخت يده ونزف الدم، فلما رأى سعد ذلك قال: اللهم لا تخرج نفسي حتى تُقر عيني من بني قريظة، فما قطر عرقه قطرة بعدها، ولما حاصر النبي صلى الله عليه وسلم بني قريظة طلبوا منه أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ، وكانوا مواليه وحلفاءه في الجاهلية. فجاء سعد فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: احكم فيهم، قال: فإني أحكم أن تقتل الرجال وتُقسم الأموال وتُسبى الذراري، فقال صلى الله عليه وسلم: لقد حكمت فيهم بحكم الله ورسوله.

اهتز عرش الرحمن لموته (2)

سيدنا سعد بن معاذ رضي الله عنه ما زال في المسجد يمرض من جرحه الذي أصيب به، حيث أصيب في أكحل ذراعه، وكانت العرب تعلم أن من أصيب في هذا الموضع لا ينجو منه، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يزور سعدا، فجاء يوم الرحيل حيث دخل صلى الله عليه وسلم يبكي وأبو بكر يبكي وعمر، وبينما هو بينهم انفجر الدم من عرقه واحتضنه النبي صلى الله عليه وسلم: فجعلت الدماء تسيل على رسول الله، وجعل أبو بكر وعمر يبكيان ويسترجعان ففاضت روح سعد رضي الله عنه على إثرها، فحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم تغسيله ودفنه، ولما وضع في قبره كبّر رسول الله، وكبر المسلمون حتى ارتج البقيع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تضايق القبر على صاحبكم وضم ضمة، لو نجا منها أحد لنجا سعد، ثم فرج الله عنه، ولما انصرف من جنازته ذرفت دموعه صلى الله عليه وسلم حتى بلّت لحيته، وندبته أمه فقال صلى الله عليه وسلم: كل نادبة كاذبة إلا نادبة سعد، وأُهدي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبَ حرير جعل الصحابة يتعجبون من لينه وحسنه، فقال صلى الله عليه وسلم: مناديل سعد

في الجنة أحسن من هذا، يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه كنت ممن حفروا لسعد قبره، وكنا كلما حفرنا طبقة من تراب، شممنا ريح المسك حتى انتهينا إلى اللحد، وكان مصاب المسلمين في سعد عظيما، ولكن عزاءهم كان جليلا، حين سمعوا رسولهم الكريم يقول: لقد اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ.

إن السيرة العطرة لهذا الصحابي الجليل تجعلنا نستصغر أنفسنا أمام هذه التضحية العظيمة لدين الله تعالى، وهكذا ستجد في سيرة الصحابة رضي الله عنهم مادة غزيرة في معاني التضحية والصبر والعطاء والنصر، تلك المعاني التي غابت عنا، أو قل غبنا عنها لشاغل من الضعف والاستسلام وهوان أنفسنا علينا، مما جعل العدو يطمع فينا، فمن يكون في منزلة سعد تشيعه الملائكة، ويهتز لموته عرش الرحمن، من؟

بناء شامخ

إن البناء لا يصمد أمام عوامل الهدم والتعرية ما لم تكن لبناته متراصة وأساسه متينا، وكذلك النفوس فهي كالأبنية، فهذا بناء شامخ متماسك، وهذا بناء هابط، وآخر بناء متصدع، وآخر بناء آيل للسقوط، وهكذا الأنفس، أبنية متفاوتة، ويمكن للبناء أن يتم ترميمه وإصلاح ما تصدع منه، وكذلك النفس يمكن إصلاح ما تصدع منها وما تهالك منها، والنفس معرضة مع الزمن للضعف، كما البنيان معرض للتهالك والضعف، ولكن من بنى نفسه بناء قويا فلن يتأثر، ولقد تعرض البناة لأنفسهم في كل العصور لمواقف فنجحوا فيها بفضل الله تعالى، ها هو سعد بن الربيع يختبر في بناء نفسه، فقد وقع جريحا من جرحى أُحد به سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، لم يبقَ له في هذه الدنيا وما فيها من أهل ومال ومتاع إلا لحظات، فعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أُحُد لطلب سعد بن

الربيع رضي الله عنه وأرضاه في القتلى، وقال لي: إن رأيته فأقرِئْه مني السلام، وقل له يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني كيف تجده؟ قال زيد: فجعلت أبحث عنه في القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، وبه سبعون ضربة، فقلت له: يا سعد إن رسول الله يقرئك السلام، ويقول: أخبرني كيف تجده؟ قال: وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم السلام وعليك السلام، قل له: إني والله لأجد رائحة الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيكم عين تطرف، ثم فاضت روحه رحمه الله، لقد ثبت سعد وهو في آخر لحظة لأن بناء نفسه كان شامخًا، وأوصى من خلفه، وعلَّم غيره دروس الثبات وهو يودِّع الدنيا، ما أوصى بأهله وماله بل أوصى برسول الله صلى الله عليه وسلم، كان همُّه أعلى وأغلى وأحلى همُّه الرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم، فرَضِيَ الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأوانا ومأواه.

دعوة لحضور حفل زفاف

نعم هذه دعوة لحضور حفل زفاف الصحابي الجليل جليبيب، لنتابع فقد قال أنس بن مالك رضي الله عنه: كان رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقال له جليبيب، كان في وجهه دمامة، وكان قصير القامة، وكان فقيرًا، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: يا جليبيب، ألا تتزوج؟ قال: يا رسول الله من يزوجني؟ وأنا كما ترى لا بيت، ولا مال، فالتفت جليبيب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: إذًا تجدني كاسدًا يا رسول الله، فقال عليه الصلاة والسلام: غير أنك عند الله لست بكاسد، وفي يوم من الأيام جاء رجل أنصاري قد توفي زوج ابنته وكانت فائقة الجمال، فجاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام يعرضها على النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له النبي: نعم، ولكن لا أتزوجها أنا، فردّ عليه الأب: من تُزوجها إذًا يا رسول الله؟ فقال: جليبيبًا،

فقال: جليبيب يا رسول الله؟! أتزوجها جليبيبًا وأنا أعرضها عليك؟ انتظر حتى أستأمر أمها، فقال لها: إن النبي عليه الصلاة والسلام يخطب إليك ابنتك، قالت: نعم، ونعم لرسول الله، فقال لها: إنه ليس يريدها لنفسه، قالت: لمن؟ قال: يريدها لجليبيب، قالت: لجليبيب؟ لا والله لا أزوج جليبيبًا، وقد منعناها فلانًا وفلانًا وفلانًا، فاغتم أبوها لذلك، ثم قام ليأتي النبي عليه الصلاة والسلام، فصاحت الفتاة من خدرها، وقالت لأبويها: من خطبني إليكما؟ قال: خطبك رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: أفتردّان على النبي عليه الصلاة والسلام خطبته؟ ادفعاني إلى رسول الله، فإنه لن يضيعني، قال أبوها نعم، ثم ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام، ليزوجها جليبيبا، ولكنه لم يجد شيئًا يملكه ليكون مهرًا، فجمع له الصحابة بعض المال، وفي يوم عرسه دعا داعي الجهاد، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حينما علم أنها قبلت به دعا لها، وقال: اللهم صب عليها الخير صبًا، ولا تجعل عيشهما كدًا كدًا، فلما نادى منادي الجهاد، ودخل المعركة استشهد وقتها في يوم عرسه، فقال عليه الصلاة والسلام: من تفقدون؟ قالوا: هؤلاء الذين فقدناهم فلان وفلان وفلان، قال: ولكنني أفقد جليبيبًا، فقوموا نلتمس خبره، ثم قاموا يبحثون عنه في ساحة القتال، وطلبوه مع القتلى، ثم مشوا فوجدوه في مكان قريب قد استشهد، فوقف النبي عليه الصلاة والسلام على جسده المقطع، ثم قال: أنت مني وأنا منك، ثم تربع عليه الصلاة والسلام جالسًا بجانب هذا الجسد، ثم حمل هذا الجسد، ووضعه على ساعديه، وأمرهم أن يحفروا له قبرًا، قال أنس: فمكثنا والله نحفر القبر وجليبيب ما له فراش غير ساعدي النبي عليه الصلاة والسلام.

ذو البجادين

كم من عبر وعظات ودروس كثيرة في موقف من مواقف البطولة التي يقفها أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، وللأسف أن كثيرًا من أسماء الصحابة رضوان الله عليهم لا يعرفها الكثير منا، وإن البعض ربما يعرف أسماء المشاهير من الفنانين ونحوهم أكثر مما يعرف أسماء صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يخفى أن عمل اليوم والليلة هو رصيد الآخرة، ومن سهر الليل وظمأ النهار والتصقت جبهته بالتراب كان في مقام الأمير وإن لم يكن أميرًا، وكان في مقام الأغنياء وإن لم يكن غنيا، وها هو الصحابي الجليل ربيعة بن كعب الأسلمي قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي سل فقلت أسألك مرافقتك في الجنة، قال: أو غير ذلك، قلت: هو ذاك، قال: أعني على نفسك بكثرة السجود، هذا الصحابي تسامت همته حدود الأرض وارتفعت حيث الجنة ومرافقة الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، بطولات يصنعها الإيمان بأعجوبة، وهذا صحابي واسمه ذو البجادين قد يكون الاسم غير معروف كما أشرت، وهو شاب من شباب مكة أُخذ ماله وخُلعت ثيابه لا لشيء سوى أنه أعلن إسلامه، وسبب تسميته بهذا الإسم هو أن أمه أعطته بجادًا لها وهو كساء فشقه نصفين فاتزر بواحد وارتدى الآخر وذلك عندما أراد المسير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، ويحكي ابن مسعود رضي الله عنه حكايته فيقول قمت في جوف الليل في غزوة تبوك، فرأيت شعلة من نار في ناحية المعسكر قال فاتبعتها أنظر إليها فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما يحملان جنازة يدليانها في القبر، فقال ابن مسعود من هذا يا رسول الله؟ قال أخوك عبد الله ذو البجادين توفي هذه الليلة، فلما أنزله رسول الله في قبره رفع كفيه وقال: اللهم ارض عنه فإني أمسيت عنه راضٍ، اللهم ارض عنه فإني أمسيت عنه راض فبكى ابن

مسعود وقال: ليتني كنت صاحب الحفرة. فأي فوز أعظم من هذا الفوز وأي شيء أفضل من أن يرضى الله ورسوله، وهذا شاب لم يجد ثوبا سوى ما قدمته أمه له ليكون له سترا ويكون له كفنا ويكون له عزة وكرامة جعلت ابن مسعود يتمنى أن ينالها، فيا شبابنا من يتمنى أن يكون مثل ذي البجادين.

غدا نلقى الأحبة

بلال بن أبي رباح هو مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو أول من رفع الأذان في مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم الذي شُيد في المدينة المنورة، واستمر في رفع الأذان لمدة تقارب العشر سنوات، كان صوته الجهوري يصدع من على المسجد، وقد ارتبط صوته بحقبة زمنية وضاءة، وشموخ في القمة، وصدى في مراتب المجد، وصوت كنور السنا والبرق، حتى إنه لا يكاد يذكر أذان بلال إلا بالحقبة الزمنية التي ارتبط بها وهي زمن العز والكرامة والدعوة والنصر زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تأثر بلال بذلك فبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم رفض بلال أن يؤذن ثانية، أو لعل نفسه لا تسعفه أن يقف ثانية ويؤذن، فهو كلما تذكر الحبيب المصطفى هاجت شجونه ودمعت عيونه، وبح صوته، ولذلك ذهب بلال رضي الله عنه إلى أبي بكر رضي الله عنه يقول له يا خليفة رسول الله إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أفضل عمل المؤمن الجهاد في سبيل الله، قال له أبو بكر فما تشاء يا بلال؟ قال أردت أن أرابط في سبيل الله حتى أموت، قال أبو بكر ومن يؤذن لنا؟ قال بلال رضي الله عنه وعيناه تفيضان من الدمع إني لا أؤذن لأحد بعد رسول الله، قال أبو بكر بل ابق وأذن لنا يا بلال، قال بلال رضي الله عنه: إن كنت قد أعتقتني لأكون لك فليكن ما تريد، وإن كنت أعتقتني لله فدعني وما أعتقتني له، قال أبو بكر بل أعتقتك لله يا بلال، فسافر إلى

الشام رضي الله عنه حيث بقي مرابطًا ومجاهدًا، وبعد سنين رأى بلال رضي الله عنه النبي صلى الله عليه وسلم في منامه وهو يقول ما هذه الجفوة يا بلال؟ ما آن لك أن تزورنا؟ فانتبه حزينًا، فركب إلى المدينة، فأتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وجعل يبكي عنده ويتمرّغ عليه، فأقبل الحسن والحسين فجعل يقبلهما ويضمهما فقالا له نشتهي أن تؤذن، فعلا سطح المسجد ليؤذن فلمّا قال الله أكبر الله أكبر، ارتجّت المدينة فلمّا قال أشهد أن لا إله إلا الله زادت رجّتها فلمّا قال أشهد أن محمدًا رسول الله بكى الصحابة الذين كانوا أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلال رضي الله عنه يؤذن، بكوا كما لم يبكوا من قبل أبدا، وعند وفاته رضي الله عنه تبكي زوجته بجواره، فيقول: لا تبكي غدًا نلقى الأحبة محمدًا وصحبه.

يرحم الله أبا ذر

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال يتخلف الرجل فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان فيقول دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك فيه غير ذلك فقد أراحكم الله منه، حتى قيل: يا رسول الله، تخلف أبو ذر رضي الله عنه وأبطأ بعيره، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوه إن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك فيه غير ذلك فقد أراحكم الله منه، وأبطأ بعير أبي ذر، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فجعله على ظهره فخرج يتبع رسول الله ماشيا، ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض منازله ونظر ناظر من المسلمين، فقال يا رسول الله هذا رجل يمشي على الطريق، فقال رسول الله هو والله أبو ذر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده، فضرب الدهر من ضربته، وسير أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت

أوصى امرأته وغلامه إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني فضعاني على قارعة الطريق فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر، فلما فعلوا به ذلك طلع ركب فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود رضي الله عنه في رهط من أهل الكوفة، فقالوا: ما هذا؟ فقيل جنازة أبي ذر، فاستهل ابن مسعود رضي الله عنه يبكي، فقال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: يرحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث وحده. قصة الولاء والمحبة والصدق تجدها في صدق هذا الصحابي الذي أبى أن يتخلف عن مشاركة رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، فإذا عجزت الوسيلة وأبطأ البعير، فلم تعجز الحيلة، درس من دروس الولاء وحب الانتماء والتضحية، نقولها لمن تباطأت همته وقل عطاؤه لهذا الدين، كن كأبي ذر، يلحق بالركب ماشيا على قدميه ليشق طريقه ويرسم أنموذجا رائعا بأن العطاء لا يقف عندما تعجز الوسيلة، بل إن الله تعالى جعل لنا من القدرات ما نصنع به العجائب، فرحم الله أبا ذر.

هذا فتى من اليمن

لقد أوصى رسولنا صلى الله عليه وسلم بالشباب خيرًا، فقد قال: «أوصيكم بالشباب»، وفي السيرة النبوية أن وفدًا من أهل اليمن سألوا النبي عليه الصلاة والسلام عن القرآن والسنن، فازداد النبي عليه الصلاة والسلام بهم رغبة، وأمر بلالًا أن يحسن ضيافتهم، فأقاموا أيامًا، وأكرمهم رسول الله، ثم قال: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم، غلام يرعى الإبل، هو أَحْدَثُنا سنًا، فقال عليه الصلاة والسلام: أرسلوه إلي، فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقضِ حاجتك منه، فإنا قد قضينا حوائجنا منه، فلما جاء الغلام الشاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا

رسول الله إني امرؤ من بني أبذى، وإنك قد قضيت حاجات الناس فاقضِ حاجتي، فقال صلى الله عليه وسلم وما حاجتك؟ قال: إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي، وإني والله يا رسول الله ما أقدمني من بلادي إلا أن تسأل الله عز وجل أن يغفر لي ويرحمني وأن يجعل غناي في قلبي، فقال عليه الصلاة والسلام وقد أقبل على الغلام: اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناه في قلبه، ثم أمر بمثل ما أمر لرجل من أصحابه، فانطلقوا راجعين إلى أهلهم، ثم عادوا ثانية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم بمنى سنة عشر، فقال صلى الله عليه وسلم: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟ قالوا: ما رأينا مثله قط، ولا سمعنا بأقنع منه فيما رزقه الله عز وجل، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوهم، وما التفت إليهم، فقال عليه الصلاة والسلام: إني لأرجو أن يموت جميعًا، فقال أحدهم: يا رسول الله، أو ليس يموت الرجل جميعًا؟ قال عليه الصلاة والسلام: تتشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله يدركه في بعض تلك الأودية، فلا يبالي الله عز وجل في أي أوديتها هلك، فقالوا: فعاش ذلك الغلام على أفضل حال وأزهده في الدنيا، وأقنعه بما رزق، فلما توفي النبي عليه الصلاة والسلام، وارتد أهل اليمن عن الإسلام قام هذا الشاب في قومه فذكرهم بالله وبالإسلام، فعادوا إلى الإسلام ولم يرجع منهم أحد، فعجبا للشباب كم لهم همة وطاقة، فهذا الشاب وبدعاء النبي صلى الله عليه وسلم كان داعيًا لله تعالى مجاهدا في الدعوة ولولاه لبقي أهل اليمن على ارتدادهم، فيا أيها الشباب همتكم في الدعوة وهمتكم في القناعة والزهد، ولكم في فتى اليمن هذا عبرة وعظة.

ليتني أقبّل هذا الرأس

التمسك بالمبادئ أمر لا مساومة فيه، فكيف إذا كانت هي مبادئ الإسلام التي لا يمكن أن يتنازل عنها مسلم تحت أي ظروف، كما لا يمكن أن تتأثر بأي عقبات أو شدائد، لأنها كانت تغرس في القلوب إلى الجذور فما كانت تهتز أبدا، ومن المواقف التي نقف لها إجلالا وهيبة ذلك الموقف المليء بالعزة والشرف وهو لسيدنا عبدالله بن حذافة فعندما أرسل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جيشا إلى الروم كان فيهم عبدالله بن حذافة وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسره الروم، فذهبوا به إلى ملكهم، فقالوا له: إن هذا من أصحاب محمد، فقال له الملك: هل لك أن تتنصر وأشركك في ملكي وسلطاني؟ فقال له عبدالله: لو أعطيتني جميع ما تملك وجميع ما ملكته العرب على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما فعلت، فقال الملك الطاغية إذن أقتلك، فقال عبدالله: أنت وذاك، فأمر به فصلب، وقال للرماة: ارموه قريبا من يديه وقريبا من رجليه وذلك لترهيبه، وهو يعرض عليه النصرانية ويهدده بالقتل ولكنه يأبى، ثم أمر به فأنزل، ثم دعا بقدر فيه ماء وأشعل النار من تحته، ثم دعا بأسيرين من المسلمين فأمر بأحدهما فألقي فيها، وعبدالله ينظر والملك الطاغية يعرض عليه النصرانية ولكنه يأبى، ثم أمر الملك أن يلقى عبدالله في القدر، فلما حمل إلى القدر بكى، فقيل له: إنه قد بكى، فظن أنه جزع، فقال الملك: رده، فعرض عليه النصرانية مرة ثانية، فأبى، فقال له إذن ما أبكاك؟ فقال: أبكاني أني قلت في نفسي تلقى الساعة في هذه القدر فتذهب، فكنت أشتهي أن يكون بعدد كل شعرة في جسدي نفس تلقى في سبيل الله، فقال له الملك الطاغية: هل لك أن تقبّل رأسي وأخلي سبيلك، فقال له عبدالله: وكذلك جميع أسرى المسلمين، فقال الملك نعم وجميع أسرى المسلمين، قال عبدالله: فقلت في نفسي عدو من أعداء الله أقبل رأسه ويخلي عني وعن أسرى المسلمين لا أبالي، فدنا منه فقبل رأسه،

فدفع إليه الأسرى وأخلى سبيلهم، فلما قدم عبدالله ومعه أسرى المسلمين إلى عمر بن الخطاب فأخبر عمر بخبره مع الملك الطاغية، فقال عمر: حق على كل مسلم أن يقبل رأس عبدالله بن حذافة وأنا أبدأ، فقام عمر فقبّل رأس عبدالله. ذلك الرأس الذي قبّله عمر، ليتني أقبّله فقد كان صاحبها صلبا في المواقف رغم المغريات ورغم الترهيب، إلا أن نفوسا تربت على الصمود في الشدائد حري أن تقبل رؤوسها.

حتى لا يُشمت في الإسلام وأهله

أرسل عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان يأمره بغزو الروم، وبأن يولي على الجيش عبد الله بن حذافة السهمي، فخرج الجيش لغزو الروم، فغزاهم وأوقع بهم، ولكن عبد الله بن حذافة وثلة قليلة كانت معه وقعوا في الأسر فأخذوهم أسرى إلى هرقل ملك الروم، فأراد هرقل أن يشمت بالإسلام والمسلمين الذين فعلوا بجيشه ما فعلوا، وأراد هرقل أن يختبر عبدالله بن حذافة ويرى ما يصنع الإيمان بهؤلاء الذين حيروا الدنيا بقوتهم وشجاعتهم، فدفع هرقل عبد الله بن حذافة إلى أحد رجاله وأوصاه أن يجيعه، ثم يطعمه لحم خنزير، فأجاعه الرجل وكان كل يوم يأتيه بلحم خنزير فيضعه أمامه ليأكله، ولكن عبد الله كان يُعرض عنه ويقول هذا طعام لا يحل لنا أكله، ومضت على ذلك أيامٌ حتى شارف على الهلاك، فأخبر الرجل هرقل بذلك، فقال له: أطعمه ثم أعطشه وأعطه خمرًا ليشربها بدلًا من الماء، ففعل الرجل ذلك، لكن ما ظنكم بصاحب رسول الله أيُشمِت به الروم؟ كان يعرض عن الخمر ويقول هذا شراب لا يحل لنا شربه، حتى شارف على الهلاك، فأخبر الرجل هرقل بذلك، وقال له إن كانت لك في الرجل حاجة فأطعمه ما يريد ودعه يشرب ما يريد قبل أن يهلك، فقال هرقل دعه يأكل ويشرب ما يريد إنني بلوته بالضراء وسألبوه بالسراء، أرسلوا إليه أفخر

الطعام والشراب والثياب ففعل الرجل ذلك ولكن عبد الله ما كان يلتفت إلى شيء من ذلك بل كان لا يأكل إلا قوتًا ولا يشرب إلا كفافًا، ولا يبدل ثوبه إلا إذا اتسخ، عند ذلك أرسل إليه هرقل وقال له: قد بلوتك بالضراء وبالسراء فصبرت، فهل لك أن تقبّل رأسي وتنجو بنفسك؟ -فهو يريد أن يشمت بالإسلام - فقال عبدالله: لا لا أقبّل رأسك لأنجو بنفسي، فقال له فهل لك أن تقبّل رأسي وأدفع لك كل أسير من المسلمين عندي؟ قال نعم، فقبّل عبد الله بن حذافة رأس هرقل، ودفع إليه هرقل جميع أسرى المسلمين الذين عنده وكانوا ثمانين رجلًا، فعاد بهم إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعندما قصّ القصة على عمر، قام عمر وقبّل رأسه، وقال له يرحمك الله، ما منعك إذ بلغ بك الجهد ما بلغ أن تأكل لحم الخنزير وتشرب الخمر، قال: والله يا أمير المؤمنين، لقد علمت أن ذلك موسَّعٌ لي فيه، ولكنني كرهت أن يشمت الروم وهرقل بالإسلام وأهله.

من رعي الغنم إلى قيادة الأمم

الأمة الإسلامية في بداية عهدها كانت متمسكة بالدين، ومعتزة بالوحي العظيم، كانت تبتغي العزة بهذا الدين، فنصرها الله تعالى، لقد كان رستم قائد فارس، قائد كبير، وتحت يديه مئتان وثمانون ألفًا من الجنود، يقول لسعد بن أبي وقاص القائد المسلم: أرسل إلي من جنودك رسولًا أكلمه، وقف سيدنا سعد على أبواب مملكة قائد جيشها رستم، فأرسل له سعد رضي الله عنه ربعي بن عامر، وعمره ثلاثون عامًا، شاب من فقهاء الصحابة، قال له سعد: اذهب، ولا تغير من مظهرك شيئًا، لأننا قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله، درس بليغ، لأننا قوم أعزنا الله بالإسلام، ومهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله، فخرج ربعي بفرسه الهزيل، وثيابه الرثة،

ورمحه البسيط، فلما سمع رستم أن وافد المسلمين سوف يدخل عليه جمع حوله الأسرة الحاكمة والوزراء والجنود، واستعدوا، ليرهبوا هذا الوافد، لعله يتلعثم، فلا يستطيع الكلام، فلما جلس رستم قال: أدخلوه علي، فدخل يقود فرسه، واعتمد برمحه على بسطهم ليظهر لهم أن الدنيا حقيرة، وأنها رخيصة، وأنها لا تساوي عند الله شيئًا، ومن علامات رخصها وحقارتها أن الله أعطاها لمن لا يحب، وجعل سعد بن أبي وقاص ينام على الثرى، فلما وقف أمامه قال له رستم: اجلس، قال ربعي: ما أتيتك ضيفًا حتى أجلس، إنما أتيتك وافدًا، قال رستم: والترجمان بينهما: ما لكم أيها العرب، ما علمنا قومًا أذل منكم، ولا أقلّ منكم شأنًا، أنتم أهل جعلان، تطاردون الإبل في الصحراء، فما الذي أتى بكم؟ قال ربعي: نعم أيها الملك، كنا كما قلت وزيادة، كنا أهل جهالة، نعبد الأصنام، يقتل القريب قريبه على شاة، ولكن الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة. هكذا نهضت الأمة يوم كانت متمسكة بدينها، كنا رعاة غنم فأصبحنا قادة أمم، فلما تركنا ديننا، وانغمسنا في المعاصي والآثام، وانشغلنا عن الأشياء النفيسة بالأشياء الخسيسة تفنن أعداؤنا في إفقارنا، وفي إضلالنا، وفي إفسادنا، والأخبار بين أيديكم والواقع خير دليل فمتى نعود إلى قيادة الأمم.

أمي صاحبة الضفيرة

التضحية للدين هي أهم ما يقدمه الإنسان، لأن الإسلام إنما قام بتضحية أبنائه الذين باعوا أنفس ما عندهم فاشتراه الله تعالى بأغلى الأثمان إنها الجنة، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، تنقل لنا أخبار التاريخ أنه يوم القادسية والناس تأتي لسعد بن أبي وقاص قائد المسلمين تتبرع بالأموال للإعداد للمعركة، أتته امرأة فقيرة

وهي تبكي وتقول له إنها لا تملك شيئًا لكي تعطيه، ولكنها قطعت ضفيرة شعرها حتى يتخذ هذه الضفيرة لجامًا لفرسه، فلعلها تشارك بهذا في نصر المسلمين، وقبل بدء المعركة تقدم أحد الغلمان الصغار متلهفا للمشاركة في الجهاد، تقدم من سعد وطلب منه أن ينضم إلى الجيش، فرده سعد قائلًا له إن هذا الأمر للرجال، فرد الغلام ردا قويا تفاجأ سعد منه، حيث قال الغلام: وما لك أنت يا سعد، الأمر بيني وبين الله، إن الله اشترى وأنا بعت، فما دخلك أنت بيني وبين الله، فضمه سعد للجيش وليلة المعركة أتى هذا الغلام سعدا، فقال له: يا سعد لقد رأيت رؤيا عجيبة، رأيت أني أسير في حدائق ليست من حدائق الدنيا، وأرى أنهارا ليست كأنهار الدنيا، وأرى نساء ليست كنساء الدنيا، فقال سعد: الله أكبر، أُراها الشهادة فقال له الغلام: فهل تريد مني شيئًا يا سعد؟ فقال سعد: نعم إذا التقيت برسول الله صلى الله عليه وسلم، فأبلغه مني السلام، وقل له إن سعدا يقول لك جزاك الله عنا خيرًا يا رسول الله فلقد وجدنا ما وعدتنا حقًا، فقال له الغلام: وأنت يا سعد أبلغ هذه الرسالة لأمي، أنني قد وجدت ما وعدني الله حقًا، إني أرى بعيني الجنة، فتعجب سعد من الغلام كيف له أن يعرف من هي أمه حتى يبلغها وصيته فقال له ومن هي أمك؟ فقال له الغلام: صاحبة الضفيرة، تلك هي التضحية لدين الله تعالى، بدأت بالكبار والصغار، فالكل يعطي ويبيع نفسه رخيصة لله تعالى، بدءًا بالأم والولد والأسرة بكاملها، فكم تستطيع الأم أن تغرس في وليدها حب التضحية لدين الله تعالى، فيا ليت كل أم كصاحبة الضفيرة.

أنا ابن صاحبة الشكال

والشكال هو العقال يربط به الفرس، وقد كان في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم رجل يقال له أبو قدامة الشامي وكان يحب الجهاد في سبيل الله، جاءته امرأة

فقالت: يا أبا قدامة سمعتك وأنت تتحدث عن الجهاد فخذ قطعة من شعري فقد رزقني الله من الشَّعر ما لم يُرزقه غيري من النساء، وقد قصصته وعفرته بالتراب، فخذه شكالًا للفرس حتى يصيبه الغبار في سبيل الله، فأنا امرأة لو كان عليّ جهاد لجاهدت، وناولتني الشكال، وقالت: اعلم يا أبا قدامة أن زوجي استشهد وخلف لي غلامًا من أحسن الشباب وقد تعلم القرآن والفروسية والرمي على القوس وهو قوام بالليل صوام بالنهار وله من العمر خمس عشرة سنة، فلعلي أرسله معك يجاهد في سبيل الله وأنا أسألك بحرمة الإسلام، لا تحرمني من الثواب، فانطلق أبو قدامة مجاهدًا، فلما صار في أحد الحصون إذا بفارس يهتف: يا أبا قدامة قف علي قليلًا يرحمك الله، فوقفت حتى أنظر من هذا، وإذا أنا بفارس قد دنا مني وعانقني، وقال: الحمد لله الذي لم يحرمني صحبتك ولم يردني خائبًا، قلت للصبي أسفر لي عن وجهك، فأسفر عن وجهه فإذا به غلام كأنه القمر ليلة البدر وعليه آثار النعمة، قلت للصبي: ألك والد؟ قال: لا بل أنا خارج معك فلعل الله يرزقني الشهادة كما رزق أبي، قلت للصبي: ألك والدة؟ قال: نعم. قلت: اذهب إليها فاستأذنها فإن أذنت لك وإلا فأقم عندها فإن طاعتك لها أفضل من الجهاد فالجنة تحت ظلال السيوف وتحت أقدام الأمهات. قال: يا أبا قدامة أما تعرفني قلت: لا. فقال الغلام سألتك بالله لا تحرمني الغزو معك في سبيل الله، فإن أمي قد أقسمت على أن لا أرجع، وقالت: يا بني إذا لقيت الكفار فلا تولهم الدبر وهب نفسك لله فإذا رزقك الله الشهادة فاشفع فيّ فإنه قد بلغني أن الشهيد يشفع في سبعين من أهله، فقبله أبو قدامة وضمه مع الجيش، فلما دار القتال، وسقط من سقط من المسلمين، وبينما كان أبو قدامة يتفحص الجرحى ودماؤهم تسيل على الأرض ووجوههم لا تُعرف من كثرة الغبار والدماء، يقول أبو قدامة فبينما أنا أجول بين القتلى وإذا أنا بالغلام بين سنابك الخيل قد علاه التراب وهو يتقلب في دمه، ويقول: أبا قدامة،

فأقبلت عليه عندما سمعت صياحه فلم أعرف وجهه لكثرة الدماء والغبار، فقلت: من؟ فقال: يا عم أنا ابن صاحبة الشكال.

حوار هادئ

يقول ابن عباس دخلت على الخوارج وهم الذين خرجوا على سيدنا علي كرم الله وجهه، فقالوا مرحبًا بك يا ابن عباس ما جاء بك؟ فقلت: أخبروني ما تنقمون على ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأول من آمن به؟ قالوا ننقم عليه ثلاثًا، قال وما هنّ؟ قالوا أولهن أنه حكّم الرجال في دين الله، وقد قال الله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، فما شأن الرجال والحكم بعد قول الله عز وجل، قال قلت وماذا؟ قالوا وقاتل ولم يَسْبِ ولم يغنم، لئن كانوا كفارًا لقد حلت له أموالهم ولئن كانوا مؤمنين لقد حرمت عليه دماؤهم، قال قلت وماذا؟ قالوا محا نفسه من أمير المؤمنين فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير الكافرين، قال قلت أعندكم سوى هذا؟ قالوا حسبنا هذا، قال أرأيتم إن قرأت عليكم من كتاب الله المحكم، وحدثتكم من سنة نبيه صلى الله عليه وسلم ما ينقض قولكم أترجعون؟ قالوا نعم، قال أما قولكم حكّم الرجال في دين الله، فإن الله تعالى يقول ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ٩٥]، إلى قوله ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ [المائدة: ٩٥]، وقال في المرأة وزوجها ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٣٥]، أنشدكم الله أحكم الرجال في حقن دمائهم وأنفسهم، وإصلاح ذات بينهم أحق أم في أرنب ثمنها ربع درهم وفي بضع امرأة وأن تعلموا أن الله لو شاء لحكم ولم يصيّر ذلك إلى الرجال، قالوا اللهم في حقن دمائهم وإصلاح ذات بينهم، قال وأما قولكم قاتل ولم يسب ولم يغنم، أتسبون أمكم عائشة وتستحلون منها ما تستحلون من غيرها؟ فإن قلتم نعم فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها ليست أم المؤمنين فقد

كفرتم، وخرجتم من الإسلام، إن الله يقول ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، فأنتم مترددون بين ضلالتين فاختاروا أيهما شئتم، فنظر بعضهم إلى بعض، قال وأما قولكم محا نفسه من أمير المؤمنين، فأنا آتيكم بما ترضون، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا قريشًا يوم الحديبية أن يكتب بينه وبينهم كتابًا فكاتب سهيل بن عمرو وأبا سفيان، فقال اكتب يا علي هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقالوا والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال والله إني لرسول الله حقًا وإن كذبتموني، اكتب يا علي محمد بن عبد الله، فرسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفضل من علي رضي الله عنه وما أخرجه من النبوة حين محا نفسه، فرجع منهم ألفان، وبقي منهم أربعة آلاف فقتلوا على ضلالة.

إذا لقيت أويس القرني

إن الله تعالى قد يُعلي إنسانًا قد يراه الناس وضيعًا، ويضع إنسانًا قد يراه الناس كبيرًا، تلك حقيقة نتعرف لها من خلال قصة أُويس القرني، فقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر رضي الله عنه وسيدنا علي إذا لقيتما أويسا فاسألاه أن يستغفر لكما ويدعو لكما، فإن له أما وبه بياضا، فمن هذا الإنسان الذي يستغفر لعمر عملاق الإسلام، ولعلي فارس الإسلام، وهما من المبشرين بالجنة، لقد بدأت رحلة البحث عن أويس، فقد مكثا رضي الله تعالى عنهما عشر سنين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم يترقبان أويسا في الحج، إلى أن جاءت السنة التي بعد ذلك، فجاء وفد من اليمن، فقال سيدنا عمر لرئيس الوفد بعد أن دعاهم إلى وليمة، هل فيكم رجل أشهل فيه بياض، فقال الرجل لعلك تعرفه هو خامل الذكر يرعى إبلًا لنا، فذهبا إليه فقال له عمر

ما اسمك، فقال أنا عبد الله، فقال سيدنا علي: لقد علمنا أن كل من تحت السماء عبيد لله، ولكن ما اسمك الذي سمتك به أمك، فقال من أنتما؟ فقال سيدنا عمر أنا عمر وهذا علي، فقام ووقف على رجليه، فقال أمير المؤمنين وصهر رسول الله، جزاكما الله عن الإسلام خير الجزاء، لقد نلتما شرف الصحبة أما أنا فلم أرَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له سيدنا عمر يا أويس كيف تتصور رسول الله، فقال أتصوره نورا يتلألأ يملأ الأفق، فبكى عمر رضي الله عنه شوقًا للرسول صلى الله عليه وسلم، فقال عمر إن رسول الله طلب أن تستغفر لنا وتدعو لنا، فقال إني لا أخص أحدا بالدعاء ولكن أعمم، فقال عمر رضي الله عنه عظني يا أويس، فقال اطلب رحمة الله عند طاعته، واحذر نقمته عند معصيته، ولا ينقطع رجاؤك منه، فقال عمر إلى أين تريد أن تذهب؟ فقال أريد الكوفة، فقال أفلا نأمر لك بصلة، فقال لا، فقال أفلا نكلم لك والي الكوفة، فقال: أريد أن أكون من دهماء الناس خامل الذكر ثم مضى لسبيله، وقد مات أويس في خيمة للمسلمين خامل الذكر لا يعرفه أحد. إن هذه القصة تؤكد لنا بأن من الناس من يكون مكانه عند الله عاليا، فهل رأيت أويس القرني لم ير وجه النبي صلى الله عليه وسلم ويخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر وعليا، وهما من هما، ويأمرهما إذا لقيا أويسا أن يستغفر لهما ويدعو لهما، إن أمثال أويس لا شك أنهم كثيرون وأن الله تعالى يحبهم لطهارة قلوبهم وأعمالهم وإن كانوا من دهماء الناس، هذه هي المعايير الحقيقية التي يجب أن يُعرف بها الإنسان، فلا المال ولا المنصب ولا الجاه أو النسب معايير يعتبرها الله تعالى فتأمل ذلك.

صبرًا يا أمتي

أصيب عروة بن الزبير وهو شقيق الخليفة عبدالله بن الزبير بمرض في رجله وقد حُشد له الأطباء من كل مكان ليداووه من هذا الداء الذي أصاب رجله، وخرج الأطباء وقد قرروا أنه لا بد من قطع رجله، ويصف لنا التاريخ هذه العملية التي تمت قبل ألف وثلاثمائة سنة وعرضوا عليه الخمر ليسكروه فلا يحس بألم القطع، فأبى وقال لا أستعين على قدر الله بمعصية الله فأرادوا أن يسقوه المرقد (البنج) فقال لا إني ما أحب أن أسلب عضوا من أعضائي، وأنا لا أجد ألما أحتسبه عند الله، فقالوا كيف تحتمل القطع وأنت صاح واع، فقال لهم إني سأدخل في ذكر الله فإذا رأيتموني استغرقت في الذكر فشأنكم بها، وبدأ يذكر الله باللسان والقلب والجوارح وهو غارق في نشوة الذكر، فلما رأوه استغرق في الذكر بدأت العملية وقطعوا اللحم بالسكين المحمي بالنار حتى إذا بلغوا العظم نشروه بالمنشار وهو يهلل ويكبر وقد تصبّب عرقًا ثم جاءوا بالزيت فكووه به فأغمي عليه، فلما أفاق أخذ رجله وقد أصبحت قطعة لحم وعظم وقام يقبلها ويقول أما والذي حملني عليك إنه ليعلم أني ما مشيت بك إلى معصية قط، وبينما هو في هذه الغمرة إذ بصوت ينادي أن ابنه محمدًا رمحه فرس في الإسطبل فمات من ساعته، وهكذا تجتمع المصائب، من لحظات قطعت رجله والآن ينعى إليه ولده وقرة عينه ما هذه المصائب، ولكن عروة بن الزبير قال محتسبا: اللهم إن كنت أخذت طرفا فلقد أبقيت أطرافًا، وإن كنت أخذت ولدًا فلقد تركت أولادًا، ولك الحمد على ما أعطيت وما أخذت، أمام هذا الدرس العظيم في الصبر، دعوة للصبر والرضا رغم ما يحل بالأمة الإسلامية من محن وابتلاء واعتداء واحتلال وإبادة وانتهاك للحرمات، فصبرا يا أمتي فإنكِ على الحق.

ومن يتق الله

لما ولّي الحجاج العراق، وطغى في ولايته وتجبر، كان الحسن البصري أحد الرجال القلائل الذين أدوا أمانة النصح، وصدعوا بكلمة الحق، فعلم الحجاج أن الحسن البصري قد ناله في مجلس عام، ماذا فعل؟ دخل الحجاج إلى مجلسه وهو يتميز من الغيظ، وقال لجلاده: تبًا لكم وسحقًا، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة، ويقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد فيكم من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينكم من دمه يا معشر الجبناء، ثم أمر بالسيف والنطع تمهيدًا لقتله، وأمر بإحضاره لقطع رأسه، فجاء، ولما وصل الحسن إلى مجلس الحجاج، ورأى السيف والسياف والنطع ممدودًا حرك شفتيه، ولم يدر أحد ماذا قال، أقبل على الحجاج، وعليه جلال المؤمن، وعزة المسلم، ووقار الداعية إلى الله، فلما رآه الحجاج على هذه الحالة هابه أشد الهيبة، وقال له: هاهنا يا أبا سعيد، أي تعال اجلس هنا، فما زال يوسع له، ويقول: هاهنا، والناس لا يصدقون ما يقول، طبعًا طلب ليقتل، والنطع جاهز، والسياف جاهز، وكل شيء جاهز لقطع رأسه، فكيف يستقبله الحجاج، ويقول له: تعال إلى هنا يا أبا سعيد، تعال إلى هنا يا أبا سعيد، حتى أجلسه على مجلسه، ووضعه جنبه، ولما أخذ الحسن مجلسه التفت الحجاج، وجعل يسأله عن بعض أمور الدين، والحسن يجيبه عن كل مسألة بجنان ثابت، وبيان ساحر، وعلم واسع، فقال له الحجاج: أنت يا أبا سعيد سيد العلماء، ثم دعا بغالية، وهي نوع من أنواع الطيب، وطيب له بها لحيته وودعه، ولما خرج الحسن من عنده تبعه حاجب الحجاج، وقال له: يا أبا سعيد، لقد دعاك الحجاج لغير ما فعل بك، ودعاك ليقتلك، والذي حدث أنه أكرمك، وإني رأيتك عندما أقبلت، ورأيت السيف والنطع قد حركت شفتيك فماذا قلت؟ قال الحسن: لقد قلت: يا رب يا وليّ نعمتي، يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي في وحشتي، اجعل نقمته علي بردًا وسلامًا كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

سعيد ابن جبير والحجاج

سعيد ابن جبير تابعي جليل أراد الحجاج أن يكرهه على شيء ليس قانعًا به، فتوارى عنه، فأرسل إليه جنوده وأمرهم أن يسوقوه مقيدًا إلى مدينة واسط، وألقوا القيد في يديه على مرأى من بعض أصحابه حتى طلعت عليه بنية صغيرة له، فرأته مقيدًا، والجنود يسوقونه، فتشبثت به، وجعلت تبكي وتنشج، فنحاها عنه برفق، وقال لها: قولي لأمك يا بنية: إن موعدنا الجنة إن شاء الله تعالى، ثم أدخلوه على الحجاج، فقال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير، قال: بل شقي بن كسير، قال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك، قال: ما تقول في محمد؟ قال: سيد ولد آدم، النبي المصطفى، خير من بقي من البشر، وخير من مضى، حمل الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح لله ولكتابه ولعامة المسلمين، قال: فأي خلفاء بني أمية أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقهم، قال: فأيهم أرضى للخالق؟ قال: علم ذلك عند ربي الذي يعلم سرهم ونجواهم، قال: فما تقول فيّ؟ قال: أنت أعلم بنفسك، قال: بل أريد علمك أنت؟ قال: إذًا يسوءك ولا يسرك، قال: لا بد من أن أسمع منك، قال: إني أعلم أنك مخالف لكتاب الله تعالى، تقدم على أمور تريد منها الهيبة، وهي تقحمك في الهلكة، وتدفعك إلى النار دفعًا، قال: أما والله لأقتلنك، قال: إذًا تفسد علي دنياي، وأفسد عليك آخرتك، قال: اختر لنفسك أية قتلة شئت؟ قال: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة، قال: أتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فأقبله من الله وحده أما منك فلا، فاغتاظ الحجاج، وقال: السيف والنطع يا غلام، ليقتله، فتبسم سعيد، فقال له الحجاج وما تبسمك؟ قال: عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك، قال: اقتله يا غلام، فاستقبل القبلة، وقال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، قال: حرفوه عن القبلة، فقال سعيد بن جبير: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ

وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، قال: كبوه على الأرض، قال: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه: ٥٥]، قال: اذبحوا عدو الله، فما رأيت رجلًا أدعى منه لآيات القرآن الكريم، فرفع سعيد كفيه، وقال: اللهم لا تسلط الحجاج على أحد بعدي، قال: فلم يمضِ على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عشر يومًا حتى مرض الحجاج، واشتدت عليه وطأة المرض، فكان يغفو ساعة، ويفيق أخرى، فإذا غفا غفوة استيقظ مذعورًا، وهو يصيح: هذا سعيد بن جبير أخذ بخناقي يقول: فيمَ قتلتني؟ ثم يبكي، ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير، ردوا عني سعيد بن جبير، فلما قضى نحبه، ووري في ترابه رآه بعضهم في المنام، فقال له: ما فعل الله بك فيمن قتلتهم يا حجاج؟ قال: قتلني الله بكل امرئ قتلة واحدة، وقتلني بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

ميثاق العلماء

مر سليمان بن عبد الملك المدينة فأقام فيها أياما فقال هل في المدينة رجل أدرك أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا له: أبو حازم فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له: يا أبا حازم ما هذا الجفاء؟ فقال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني فقال أتاني وجوه المدينة ولم تأتني، فقال أعيذك بالله أن تقول ما لم يكن، إن الجفاء يكون بين الأصحاب وإني ما عرفتك قبل هذا اليوم، فقال سليمان أصاب الشيخ وأخطأت أنا.

ثم قال يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال لأنكم خربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلى الخراب، فقال أصبت يا أبا حازم فكيف القدوم غدا على الله؟ فقال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال ليت شعري ما لنا عند الله؟ فقال اعرض عملك على كتاب الله،

فقال في أي مكان من كتاب الله أجده؟ فقال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣-١٤]، فقال سليمان وأين رحمة الله؟ فقال: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، فقال: وأي الأعمال أفضل؟ فقال: أداء الفرائض مع اجتناب المحارم، قال سليمان وأي صدقة أفضل؟ فقال: جهد المقل ليس فيه منٌّ ولا أذى، قال أي القول أعدل؟ فقال: قول الحق عند من تخافه أو ترجوه، فقال أي الناس أعقل؟ فقال: رجل عمل الخير ودل الناس عليه، فقال: وأيهم أجهل؟ فقال من جارى أخاه في هواه وهو ظالم فباع آخرته بدنيا غيره، فقال سليمان أصبت فما تقول فيما نحن فيه من الملك؟ فقال أبو حازم: أوَتعفيني؟، فقال: لا ولكن نصيحة تلقيها إلي، فقال أبو حازم يا أمير المؤمنين إن آباءك قهروا الناس بالسيف، وأخذوا هذا الملك عنوة من غير مشورة من المسلمين ولا رضا فقال رجل من جلسائه بئس ما قلت يا أبا حازم فقال له كذبت إن الله أخذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتمونه، فقال سليمان: فكيف لنا أن نصلح فقال: تدعون الكبر وتمسكون بالمروءة وتقسمون بالسوية، فقال سليمان: هل لك أن تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك، فقال: أعوذ بالله أخشى أن أركن إليكم قليلا فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات، فقال سليمان ارفع إلينا حوائجك فقال: هل تستطيع أن تنجيني من النار وتدخلني الجنة فقال سليمان: ليس ذلك لي فقال: ما لي حاجة غيرها فقال سليمان: ادع لي فقال أبو حازم: اللهم إن كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وإن كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى.

ولما خرج من عنده بعث إليه بجائزة سنية فردها، وكتب إليه إن كان هذا المال عوضا لما نصحتك فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحل منه، وإن كان لحقٍّ لي في بيت المال فلي فيه شركاء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي به حاجة.

فهل راجع علماء الأمة ميثاقهم الذي أخذه الله عليهم والأمة وقياداتها في تخبط وخلاف ووسط ظلام معتم لا يرون فيه موضع قدمهم؟ فأين الأنوار التي يهتدى بها في ظلمات البر والبحر؟

ما تقولون في هذا الرجل

قال رجل لأبي حنيفة إني لا أرجو الجنة ولا أخاف النار، وآكل الميتة، وأشهد بما لم أرَ، ولا أخاف الله، وأصلي بلا ركوع ولا سجود، وأبغض الحق، وأحب الفتنة، فقال له أبو حنيفة وكان يعرف الرجل شديد البغض له: يا فلان ما سألتني عن هذه المسألة ولك بها علم، قال: لا ولكن لم أجد شيئًا أشنع من هذا فسألتك عنه فكيف تجيبني؟ فقال أبو حنيفة لأصحابه ما تقولون في هذا الرجل فقالوا هو شر رجل وهذه صفة كافر فتبسم أبو حنيفة وقال: لقد شنعتم القول فيه، ثم قال هو والله من أولياء الله الصالحين حقًا، ثم قال للرجل: إن أخبرتك أنك من أولياء الله الصالحين حقًا تكف عني شرك قال: نعم.

فقال أبو حنيفة أما قولك لا يرجو الجنة ولا يخاف النار فإنه يرجو رب الجنة ويخاف رب النار، وأما قولك لا يخاف الله، فإنه لا يخاف ظلمه ولا جوره، قال الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وقولك يأكل الميتة فهو يأكل السمك، وقولك يصلي بلا ركوع ولا سجود، فقد جعل أكثر عمله الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وقد لزم موضع الجنائز فهو يصلي عليها ويعتبر بقصر أمله ويصلي على كل مسلم ومسلمة، ويدعو للأحياء والأموات، وأما قولك يشهد بما لم ير فهي شهادة الحق يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله، وقولك يبغض الحق فهو يحب البقاء حتى يطيع الله، ويكره الموت وهو الحق، قال الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]،

وأما الفتنة فإن القلوب مجبولة على حب المال والولد وذلك من الفتنة العظيمة على قلوب المؤمنين، قال الله تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن: ١٥]، قال: فرجع الرجل عن بغضه لأبي حنيفة رضي الله عنه وتاب إلى الله عز وجل.

خطبة تاريخية

من الخطب التي تذكر المسلمين بأمجادهم، خطبة اخترت جانبا منها، وهي خطبة ألقيت بعد تحرير مدينة القدس من الصليبيين في شهر رجب سنة 583ه، وقد ألقاها القاضي محيي الدين محمد بن علي، فافتتحها بتلاوة كلّ آيات الحمد التي وردت في القرآن الكريم، ثم قال: الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكفّار بمكره الذي قدّر الأيام دولًا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاء على عباده من ظلّه، وأظهر دينه على الدين كلّه، أحمده على إظفاره، وإعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره، وتطهير بيته المقدّس من أدناس الشك وأوضاره، أيها الناس: أبشروا برضوان الله الذي هو الغاية القصوى والدرجة العليا، لما يسرّه الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة من الأمّة الضالة، وردّها إلى مكانها من الإسلام بعد ابتذالها في أيدي المشركين قريبًا من مائة عام، والمسجد الأقصى، فهو موطن أبيكم إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومعراج نبيكم محمد عليه الصلاة والسلام، وقبلتكم التي كنتم تصلّون إليها في ابتداء الإسلام، وهو مقرّ الأنبياء، ومقصد الأولياء، ومدفن الرسل، فلولا أنكم ممّن اختاره الله من عباده، واصطفاه من سكّان بلاده، لما خصّكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها جارٍ، ولا يباريكم فيها مُبارٍ، فطُوبى لكم من جيشٍ ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية والواقعات البدرية والعزمات الصدّيقية والفتوحات العمُرية والجيوش العثمانية والفتكات العلوية، جدّتم للإسلام أيام

القادسية، والملاحم اليرموكية، والمنازلات الخيبرية، والهجمات الخالدية. فجزاكم الله عن نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم أفضل الجزاء، وشكر لكم ما بذلتموه من مُهجكم في مقارعة الأعداء، وتقبل منكم ما تقرّبتم به إليه من إهراق الدماء، وأثابكم الجنة دار السعداء.

الباب التاسع

الأسرة والمرأة والشباب

(١٦ مقالة)

أترضاه لأمك

تلك هي توجيهات النبي صلى الله عليه وسلم لشاب جاء يطلب الإذن له بالزنا، وهي جريمة ذات شأن خطير تضرب المجتمع في مقتل، ومما يلفت الانتباه ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم من خلال تحريك مشاعر الغيرة لدى الإنسان، فكما أنه يغار فكذلك الآخرون يغارون، وهذا هو العلاج الأول لمثل هذه الخطيئة، فبالإيمان العامر والغيرة الفاعلة يقف الإنسان أمام هذه المحارم ولا ينتهكها، فعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: إِنَّ فَتًى شَابًّا أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ، قَالُوا: مَهْ، مَهْ، فَقَالَ: ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا قَالَ: فَجَلَسَ، قَالَ: أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لابْنَتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، يَا رَسُولَ اللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: ولا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لأُخْتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لأَخَوَاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ، قَالَ: أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ قَالَ: لا وَاللَّهِ، جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاءَكَ، قَالَ: وَلا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ، قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ، وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ، فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ، هذه التربية النبوية نحن اليوم بحاجة إليها في ظل بروز المغريات وسهولة الانزلاقات في وحل الشهوة، والشاب اليوم قد يكون معذورًا بل هو معذور فإذا كانت المغريات تحوم حوله والفتنة ترقص أمامه فكيف يصبر، وقد ورد في الحديث الموقوف بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله ليعجب من شاب ليست له صبوة، أي ليس له ميلٌ إلى الهوى، وهذا من النوادر أن تجد شابًا صامدًا أمام الفتن فذلك صعب، ولذلك تعجب الله تعالى من شاب ليست له هفوة إلى الحرام، ومن هنا يستحق الشاب الصامد والصابر في عصر الفتن، أن يكون

من أولئك السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، من بين السبعة (شاب دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)، فرفقًا بالشباب فهم وصية النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أوصى بالشباب خيرًا، وحتى لا تغتال العفة في عصر الفتنة، فلندعُ الشباب إلى نصف الدين وهو الزواج، ولندع أولياء الأمور إلى تيسير أمور الزواج، قبل أن يتجاوز الخطوط الحمراء كل ضعيف مفتون، فيقع المحظور، فلا أحد يرضاه لأمه ولا أحد يرضاه للمجتمع بأسره.

الرسالة الأخيرة

هذه رسالة إلى الشباب، جعلتها أخيرة لعلها تجد فيهم من يسمع ومن يتعظ، وإلا فالرسائل التي أرسلت إلى شبابنا كثيرة، ولكنها لم تجد صدى، ولم تجد من يفهمها من شبابنا، إنكم أيها الشباب قوة الأمة ونخرها وذخرها وسندها، ولذا كان لا بد من رسالة خاصة نخاطبكم فيها، رسالة تقوم على الصدق والمحبة، عنوانها الصراحة والتجرد، فكن أيها الشاب مع الله يكن الله معك، أحبب لله يحبك الله، اعبده واذكره واشكره، ناده وقل اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، وأبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، قل وردد اللهم إني عبدك، ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي في يدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتبك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء همي وغمي. إنك أيها الشاب عزيز بدينك وشخصيتك، فلماذا تبتعد عن دينك ومبادئك، هل نظرت إلى أصدقائك، هل هم صالحون؟ أم هم أصدقاء سوء؟ فالمرء على دين خليله ولينظر أحدكم من يخالل.

هل أنت أيها الشاب ممن يرتاد المساجد؟ أم أنت ممن يرتاد الأسواق، أو ممن يجاهر بالمعاصي، أو ممن يقلد الغرب، أو ممن يفعل المنكرات، أسفي أن تكون الإجابة نعم أنا من هؤلاء، الذين يجرون خلف كل ناعق، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لتتبعنَّ سننَ من كان قبلكم شبرًا شبرًا، وذراعًا ذراعًا، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟، قال: فمن، فتذكر أيها الشاب أنك ستأتي يوم القيامة بصحيفة أعمالك، فهل تحب أن ترى فيها ما اقترفته من ذنوب، وما قلدت به أهل الغرب، هل تحب أن ترى في صحيفتك الأخلاق المحرمة، وما فعلته من تضييع لدينك وعبادتك، أم تريد في صحيفتك العمل الصالح والمعروف والعبادات والنوافل، أترك الجواب لك، فهذه رسالة أخيرة.

التربية قبل التعليم

قيل لولا المربي ما عرفت ربي، مثل يردده العرب يبين أهمية التربية، ودور المربي في توجيه الأبناء إلى طريق الخير والمعرفة، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من كانت له بنت أو بنتان رباهما، فأحسن تربيتهما، وزوجهما فأحسن تزويجهما دخل بهما الجنة)، إن التربية يجب أن تسبق التعليم، وعملية التربية ليست بالعملية السهلة كما يظن البعض، إن التربية لها أصول ترتكز على قيم إنسانية من الحرية والمسئولية والشعور بالرقابة الذاتية وتنمية العقل والنفس وغرس الخلق والطبائع السليمة واجتثاث الطبائع المريضة وتنمية الفكر، حتى يكون الإنسان متكاملا في شخصيته وفكره وخلقه ودينه، وأفضل وسيلة للتربية الرفيعة أسلوب الوسط، فخير الأمور أوساطها، فينبغي للمربي أن يكون سخيا لا يبلغ حد السرف، شجاعا لا يبلغ حد التهور، حليما لا يبلغ حد الضعف، منتصرا لا يبلغ حد الظلم، ومتواضعا لا يبلغ حد الغرور والكبر، وعليه أن ينظر إلى

عيوبه أولا، قبل أن يربي غيره، وعليه أن يصلح نفسه أولا، ثم يشرع في التربية، فإن عين المتربي معقودة عليه، وقد قال عمرو بن عتبة لمعلم ولده ليكن إصلاحك لنفسك، فإن عيون الطلاب معقودة بك، فالحسن عندهم ما صنعت، والقبيح عندهم ما تركت، علمهم كتاب الله، وزدهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه، ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب مشغلة للفهم، فالتربية عملية تحتاج إلى اهتمام ومعرفة بأساليبها، ويجب أن نربط التربية في العصر الحديث بالأساليب المتطورة والمتحضرة، وليس معنى ذلك التخلص من خصوصياتنا وأصالتنا، ولكننا نسعى إلى بناء مجتمع، يقوم أفراده على التدريب الفكري والبدني المتحضر وإتقان العمل، بما يحقق كرامة الإنسان، وعلو شأنه، وبما يخدم دينه ومجتمعه، وللتربية طرق وأنواع، وقد قيل إن التربية تأتي من نوعين، تربية تأتي من الآخرين، وتربية تأتي من النفس، وعندما سئل ابن المقفع من الذي أدبك كل هذا الأدب، فقال نفسي، فقيل له أيؤدب الإنسان نفسه بغير مؤدب، قال نعم، كنت إذا رأيت في غيري حسنا تبينته، وإن رأيت قبيحا أبيته، فبهذا أدبت نفسي، ومع بداية العام الدراسي الجديد أود أن أهمس في آذان المربين بخطورة العملية التربوية، وأهميتها وأنها من أسمى الغايات، وأقدس المهمات، وسيسألون عنها يوم الحساب، فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم إن التربية تأتي قبل التعليم، فما قيمة العلم إن كان الإنسان ضالا في فكره وعقيدته، ولعل صناع الحدث والقرار اليوم خير دليل على فساد الإنسانية في عصر التقدم والمدنية.

شبابنا والفراغ

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك)، والفراغ هو تلك الساعات الطويلة الضائعة التي لا تُشغل بأي نشاط مفيد، وهو نعمة يجب استثمارها قبل فواتها، وإذا لم تستثمر فيما يصلح الشباب، ويمني مواهبهم وقدراتهم، فإن الفراغ يكون سلاحا مضادا يفسد الشباب ويهلكهم، ولقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس، الصحة والفراغ)، ومعنى ذلك أن الفراغ كالسلعة التجارية إما أن تبيعها بربح أو خسارة، فإن استثمرت الفراغ فيما ينفع، فإنك بعت بربح، وإن استثمرته فيما يضر، فإنك بعته بخسارة فادحة، وبعض شبابنا لا يجد ساحة رحبة يملأها بالفواحش والذنوب، مثل ساحة الفراغ، فواجب علينا أن لا نهمل الفراغ، بل ندعو إلى استثماره بشتى الطرق الحديثة والمتطورة، فيمكن تغطيته بالتربية الرياضية، وإقامة المعسكرات الشبابية، والبرامج الدينية، وتعليم القرآن وكيفية تجويده ودراسة القراءات فيه، وكذلك دراسة الدعوة الإسلامية وكيفية نشرها، وتثقيف الشباب دعويا، ودراسة فن الخطابة والصحافة والتأليف والبحث العلمي، والمسرحيات الهادفة، كما يمكن ملء أوقات الفراغ بالقراءة والاطلاع في الكتب والمجلات المفيدة، وهكذا يُسد الفراغ بما يعود على الشباب بالخير والمنفعة، والشباب الواعي هو الذي يعلم أن حياته كلها عمل وواجبات وحقوق لأمته، وهو الذي يعلم أن العمر الذي يعيشه سوف يسأل عنه، فكيف قضيتم عمر الشباب، وكيف قطعتم رحلة الدنيا، وكيف أنفقتم شبابكم؟ عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسده فيم أبلاه.

المرأة الصالحة من هي؟

المرأة هي نصف المجتمع، والنساء شقائق الرجال، وهن وصية الرسول صلى الله عليه وسلم يوم وقف مودعا أمته، حيث قال: أوصيكم بالنساء خيرا، والمرأة هي الأساس في المجتمع وهي نظامه ومؤسسته، وقد قيل بيت بلا امرأة كبئر بلا دلو، فالمرأة عامل أساسي في مسيرة الدنيا، ولا يمكن أن نُتصوَّر حياة بلا امرأة، بل المرأة خير ما في هذه الدنيا من مال ومتاع، ولذلك عندما سُئل الرسول صلى الله عليه وسلم عن خير متاع الدنيا فقال: المرأة الصالحة، وورد في مثل أن كنوز الدنيا بأسرها لا تساوي المرأة الفاضلة المتعلمة، فواجب علينا أن نعرف للمرأة حقها ونصيبها مما قرره الشرع لها، فيا أيها الرجل صن المرأة واحفظ كرامتها تكن لك نورا وسعادة في الدنيا وفي الآخرة أمينة ومخلصة عند الممات، فلما مات الأحنف بن قيس في الكوفة مشى في جنازته مصعب بن الزبير بغير رداء، وقال مات سر العرب، فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت: لله درك من مُجَنٍّ في جَنَن ومدرج في كفن، نسأل الذي فجعنا بموتك وابتلانا بفقدك، أن يجعل سبيل الخير سبيلك، ودليل الرشد دليلك، وأن يوسع في قبرك، ويغفر لك يوم حشرك، فقد كنت في المحافل شريفا، وعلى الأرامل عطوفا، وإني لقائلة حقًا، ومثنية صدقًا، وهو أهل لحسن الثناء، وطيب الدعاء أما والذي كنت من أجله في عدة ومن الحياة في مدة، ومن المقدار في غاية، ومن الإياب إلى نهاية، لقد عشت حميدا مودودا، ومت سعيدا مفقودا ثم انصرفت وهي تقول:

لله درك يا أبا بحر	*	ماذا تغيّب منك في القبر
لله درك أي حشو ثرى	*	أصبحت من عرف ومن نكر
إن كان دهر منك جر لنا	*	حدثا به وهنت قوى الصبر
فلكم يد أسديتها ويد	*	كانت ترد جرائر الدهر

ثم انصرفت فسئل عنها، فإذا هي امرأته وابنة عمه، فقال الناس: ما سمعنا كلام امرأة قط أبلغ ولا أصدق منه.

إلى شبابنا مع التحية

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: اغتنم خمسا قبل خمس حياتك قبل موتك وصحتك قبل سقمك وفراغك قبل شغلك وغناك قبل فقرك، وشبابك قبل هرمك، فالإنسان الفطن هو الذي يغتنم الفرص قبل فواتها، وقد دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى اغتنام الفرص واعتبر الشباب غنيمة والهرم يبدد هذه الغنيمة الغالية، فكيف يغتنم الإنسان هذه النعمة قبل أن ينزل عليها الهرم فلا يبقي منها ولا يذر؟

فترة الشباب من أعظم الفترات التي يمر بها الإنسان في رحلة حياته، فهي فترة النضوج والقوة والإرادة والاستعدادات التامة لمواجهة تقلبات الحياة وظروفها القاسية، وهي زهرة يانعة وسط البستان، فإن ذبلت وضعف عودها، أصبح البستان باهتا لا جمال له ولا يشد الناظرين، وهكذا الإنسان بعد مضي مرحلة شبابه يبدو باهتا هزيلا.

إن الشباب هم مستقبل الأمة وبناة العقيدة وحراس الأدب والشرف، لقد استعان الرسول صلى الله عليه وسلم بالشباب في حمل راية الإسلام، فمنذ انطلاقة أول شعلة للدعوة الإسلامية كان عليه الصلاة والسلام محاطا بثلة من الشباب اعتمد عليهم في نقل رسالته وتبليغ دعوته إلى مشارق الأرض ومغاربها، وكانت دار الأرقم بن أبي الأرقم مدرسة الإسلام الأولى، كانت تعد هذا الشباب بتوجيهات الرسول صلى الله عليه وسلم، فكان يعلمهم القرآن، ويبين لهم تعاليم الإسلام، وكان يحقنهم حُقَنًا إيمانية تعمر القلب، وتبعث فيهم الانتعاش، وتوقظ فيهم الإحساس والوجدان، وتربي فيهم الضمير،

وتقوي فيهم الإرادة، يقول جندب بن عبد الله: «كنا شبانا أقوياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأوتينا القرآن فازددنا به إيمانا».

فإلى شبابنا الإسلامي أضع هذه الكلمات الغيورة الحريصة، وأتمنى من شباب الإسلام أن ينهج النهج القويم، ويمشي في الصراط المستقيم، ويغترف من معين الله عز وجل الذي لا ينضب أبدا ولا يجف عطاؤه، هذا رجاؤنا أن يعود الشباب المسلم أسودًا عزيزة تبرز أنيابها ومخالبها أمام خصومها وأعدائها، وتذود عن حمى الإسلام وتسهر على أمنه وتحيطه بالرعاية والاهتمام، فاغتنم شبابك قبل هرمك.

بين رجل وامرأته

يروى إنّ القاضي شريحا لقيه صديقه الفضيل، فقال: يا شريح كيف حالك في بيتك؟ قال: والله منذ عشرين عامًا لم أجد ما يعكر صفائي، قال: وكيف ذلك يا شريح؟، قال: خطبت امرأة من أسرة صالحة، فلما كان يوم الزفاف، وجدت صلاحًا وكمالًا، فصليت ركعتين شكرًا لله على نعمة الزوجة الصالحة، فلما سلمت من صلاتي، وجدت زوجتي تصلي بصلاتي، وتسلم بسلامي، وتشكر شكري، فلما خلا البيت من الأهل والأحباب، دنوت منها فقالت لي: على رِسلك يا أبا أمية، وقامت فخطبت، فقالت: أما بعد، فيا أبا أمية، إنني امرأة غريبة لا أعرف ما تحب ولا ما تكره، فقل لي ما تحب حتى آتيه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أمية، لقد كان لك من نساء قومك من هي كفء لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفء لي، ولكن كنت لك زوجة على كتاب الله وسنة رسوله، ليقضي الله أمرًا كان مفعولًا، فاتق الله فيّ، وامتثل قوله تعالى ﴿فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة: ٢٢٩]، ثم قعدت، قال: فألجأتني إلى أن أخطب، فوقفت وقلت: أما بعد، فقد قلت كلامًا إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك

ذخرًا وأجرًا، وإن تدعيه يكن حجة عليك، أحب كذا وكذا، وأكره كذا وكذا، وما وجدتِ من حسنة فانشريها، وما وجدتِ من سيئة فاستريها، إنّ المرأة المؤمنة ستّيرة لا تفضح زوجها، فقالت: كيف نزور أهلي وأهلك؟، قال: نزورهم غبًا مع انقطاع بين الحين والحين لئلا يملّونا، قالت: فَمَن مِن الجيران تحب أن أسمح لهن بدخول بيتك ومن تكره؟، قال: بنو فلان قوم صالحون، وبنو فلان قوم غير ذلك، قال: ومضى علي عام عدت فيه إلى البيت، فإذا أم زوجتي عندنا، رحبت بها أجمل ترحيب، وكانت قد علمت من ابنتها أنها في أهنأ حال، قالت: يا أبا أمية، كيف وجدت زوجتك؟، قلت: والله هي خير زوجة، فقالت: يا أبا أمية، ما أوتي الرجال شرًا من المرأة المدللة فوق الحدود، فأدب ما شئت أن تؤدب، وهذب ما شئت أن تهذب، ثم التفتت إلى ابنتها تأمرها بحسن السمع والطاعة، ومضى عليّ عشرون عامًا لم أجد ما يعكر صفائي إلا ليلة واحدة، كنت فيها أنا الظالم، انتهى، فيجب أن نحرص على بيوتنا، وعلى تماسك بيوتنا، وعلى سعادتنا الزوجية، لأنه إذا صلحت الأسرة صلح المجتمع، فالأسرة هي اللبنة الأولى، فحافظ على بيتك، وحافظي على بيتك.

كن أسدًا لا ذئبًا

لا يمكن أن يكون نجاح بلا عمل ولا يمكن أن يكون عمل بلا علم واجتهاد، والبطالة عبارة عن اختلال في ميزان الأيدي العاملة وفرص العمل وقد عرف البعض البطالة بأنها وفرة في الأيدي العاملة مقابل فرص قليلة في العمل، والبطالة صنفت من بين المشاكل الاجتماعية المعقدة التي تعاني منها الكثير من الدول، ولكن في شريعتنا الإسلامية لا توجد مشكلة معقدة بل كل ما هو شائك ومعقد تعالجه الشريعة لأنها الخالدة والصالحة لكل زمان ومكان.

إن شريعتنا الإسلامية عالجت البطالة بأكثر من طريق فقد دعت إلى العمل والسعي بإخلاص وكرهت الكسل والاتكالية ودعت إلى المشاركة بين المال والعمل بواسطة المضاربة كما فرضت الزكاة كمورد وحافز على الاستثمار لأن المال المكنوز تأكله الزكاة فتجبر صاحبه على تحريكه واستثماره في المشاريع مما يعني تشغيل الأيدي العاملة. كما دعت الشريعة إلى حرية النشاط الاقتصادي وفتح الأسواق للعاملين بلا قيود وضوابط إلا ضوابط الشريعة كتحريم الربا والاحتكار والظلم والغش والتحايل.

إن العاطل عن العمل عليه أن لا ينتظر الآخرين ليضعوا اللقمة في فمه، بل عليه البحث والجد والاجتهاد للحصول على أي نشاط وأي فاعلية اقتصادية فأغلب الذين ملكوا الملايين كانوا في بداية حياتهم صغارا فمنهم من كان خياطا ومنهم من كان نجارا ومنهم من كان حمالا وما عاب أحد منهم عملا إلى أن ارتقى ووصل، وشريعتنا الإسلامية وهي الشريعة العادلة لا تفرق بين عمل وعمل ولا بين وزير وأجير فكلاهما في نظر الشريعة عامل والناس سواسية كأسنان المشط، وقد دخل أبو مسلم الخولاني على معاوية فقال له السلام عليك أيها الأجير فثار الناس حوله وقالوا بل قل أيها الأمير، فقال بل أيها الأجير وأعادها ثانية وثالثة، ثم قال ما أنت إلا أجير استأجرك رب هذه الغنم فإن أنت داويت مرضاها ورددت أولاها على أخراها وفاك سيدك أجرك وإن أنت لم تفعل عاقبك سيدك فقال معاوية دعوا أبا مسلم فإنه أعلم بما يقول، فأطلق كلمة أجير على أمير المؤمنين مما يدل على أن الشريعة لا تفرق بين الأعمال فما هي إلا مسئوليات متفاوتة وإن أكرمكم عند الله أتقاكم.

فنداء إلى الشباب أن يجدوا ويبحثوا وإلى المسئولين أن يفتحوا النشاط الاقتصادي بحرية وبلا قيود وأن يعمل الشباب ولا ينتظروا أحدا ليلقي عليهم الفتات بل يجب أن يكون الشاب أسدا يسعى لفريسته بكل عزيمة وإصرار وقد حكي أن رجلا جمع مالا وذهبا لولده من أجل طلب العلم فوصاه وقال يا بني عليك بالجد والاجتهاد في طلب

العلم فخرج الولد من أجل طلب العلم وبينما هو في الطريق إذ وجد ذئبا يكاد يموت من الجوع ثم لاحظ أسدا ينقض على فريسته فلما أكل الأسد رمى فتات الفريسة على الذئب فأكل، فقال الولد في نفسه ولماذا أعمل وأتعلم وقد تكفل الله برزق عباده كما تكفل برزق هذا الذئب فهم راجعا إلى بيته ففوجئ أبوه، وقال: لماذا رجعت؟ فقال رأيت أسدا يصطاد فريسة وقد سخره الله لإطعام ذئب، فعلمت أن الله لا ينسى عباده كما لم ينس هذا الذئب، فقال الأب يا بني أردتك أسدًا تأكل من فتاتك الذئاب وما أردتك ذئبًا تأكل من فتات الأسود، فاخرج يا بني واسعَ وتعلم واعمل.

عروس اليوم مطلقة الغد

جلس سعيد بن المسيب في حلقته في المسجد فقام أحد تلاميذه يسأله فقال: يا أبا محمد إن رجلا يلح علي في صداق ابنته ويكلفني ما لا أطيق، فأخبرنا كيف كان صداق أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم وصداق بناته، فقال سعيد بن المسيب روينا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان ينهى عن المغالاة في الصداق ويقول: ما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زوج بناته بأكثر من أربعمائة درهم ولو كانت المغالاة بمهور النساء مكرمة لسبق إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وروينا عن رسول الله أنه قال: خير النساء أحسنهن وجوها وأرخصهن مهورا، فقام سائل آخر فقال: يرحمك الله يا أبا محمد كيف تكون المرأة الحسناء الجميلة رخيصة المهر وحسنها وجمالها هو الذي يغليها على الناس، فقال الشيخ: انظر كيف قلت أهم يساومون في بهيمة لا تعقل أو بضاعة يغلي فيها الناس حسب رغباتهم، إنما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن خير النساء من كانت في أخلاقها كجمال وجهها والعقل جمال، وهذه إن أصابت الرجل الكفء يسرت عليه ثم يسرت لأنها تعتبر نفسها إنسانا يريد إنسانا، وهذه لا

يكون رخص مهرها إلا دليلا على ارتفاع القيمة في عقلها ودينها أما الحمقاء فجمالها يأبى إلا مضاعفة الثمن لحسنها وهي بهذا المعنى من شرار النساء ليست من خيارهن ولقد تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض نسائه على عشرة دراهم وأثاث بيت، وكان الأثاث رحى يد، وجرة ماء، ووسادة من أدم حشوها ليف، وأولم على بعض نسائه بمدين من شعير وعلى أخرى بمدين من تمر وما كان به صلى الله عليه وسلم الفقر ولكنه يشرع بسنته ليعلم الناس أن المرأة للرجل هي نفس لنفس لا بضاعة لشاريها، ومهرها الحقيقي ليس هذا الذي تأخذه قبل أن تحمل إلى دار زوجها ولكن مهرها الصحيح هو معاملتها تأخذه يوما فيوما فلا تزال بالمعاملة الحسنة عروسا، أما ذلك الصداق من الذهب والفضة فهو صداق يهلك ويبلى أفلا ترى هذه الغالية في مهرها قد تكون عروس اليوم مطلقة الغد.

وصية أم

إن الأم هي مدرسة لابنتها، والبنت على أمها تنقلب، وهي قدوتها ومثلها الأعلى، بل هي هي في الهيئة والشكل، وربما في العقل والتفكير، وربما في الخصال والطبائع، ثم تنطلق البنت بعد ذلك في تكوين شخصيتها المستقلة، ولكن مع التأثر الكبير بأمها، وهذه وصية أم لابنتها تضع لها دستور الزوجية وتربيها عليه، وهي بهذا تتفوق على كثير من الأمهات الغافلات اللاتي يهملن بناتهن حتى إذا تزوجت إحداهن كانت خرقاء لا تعلم ماذا تصنع لزوجها، وماذا تعطيه، وكيف تسعده، وقد تفشل في حياتها الزوجية بسبب جهلها في فن التعامل مع الزوج، وإليك أو إليكن هذه الوصية ونصها:

أي بنية! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك، ولكنها تذكير للغافل، ومعونة للعاقل، ولو أن المرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها، وشدة حاجتها إليهما، كنت أغنى الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

أي بنية! إنك فارقت الجو الذي منه خرجت، وخلفت العش الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فأوصيك وصايا عشر:

أما الأولى والثانية فالخشوع له بالقناعة وحسن السمع له والطاعة، وأما الثالثة والرابعة فالتفقد لمواقع عينه وأنفه فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب الريح.

وأما الخامسة والسادسة فالتفقد لوقت منامه وطعامه فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة فالاحتراس بماله والإرعاء على حشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير. أما التاسعة والعاشرة فلا تعصين له أمرًا ولا تفشين سره فإنك إن خالفت أمره وغرت صدره، وإن أفشيت سره لم تأمني غدره، ثم إياك والفرح بين يديه إن كان مهمومًا، والكآبة بين يديه إن كان فرحا.

فليت الأمهات كهذه الأم توصي ابنتها قبل أن تزفها إلى بيت الزوجية، وترسم لها طريق السعادة بحرص واهتمام، فبهذه الوصية تسعد البنت ويسعد الزوج.

جهاد المرأة

إنه ليس جهاد الكر والفر وحمل السلاح ومقارعة الأبطال في ساحة الوغى، وإنما هو جهاد من نوع آخر يحتاج إلى مجاهدة النفس، كما يحتاج المقاتل في المعركة إلى صبر

النفس وحملها على المكاره، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (جهاد المرأة حسن التبعل) أي أن أفضل عمل للمرأة وينزلها منزلة الجهاد طاعتها لزوجها وحسن تزينها له فيصدق بها قوله صلى الله عليه وسلم عن أفضل النساء (التي تطيع زوجها إذا أمر وتسره إذا نظر)، وقال صلى الله عليه وسلم لإحدى نساء الصحابة رضي الله عنهم (أذات بعل؟ قالت نعم، قال صلى الله عليه وسلم كيف أنت له؟ قالت لا آلوه (أي لا أقصر في طاعته) إلا ما عجزت عنه، فقال صلى الله عليه وسلم فانظري أين أنت منه فإنه هو جنتك ونارك)، وقال صلى الله عليه وسلم (لا تؤذي امرأة زوجها في الدنيا إلاّ قالت زوجته من الحور العين لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا)، وقال صلى الله عليه وسلم (ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رؤوسهم شبرًا: رجل أم قومًا وهم له كارهون وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط وأخوان منصرمان)، تلك هي طاعة الزوج وكأن المرأة يجب أن تفرغ نفسها لهذه الطاعة كيف لا وهي في جهاد ومعانقة للملائكة التي تدعو لها كل يوم أن يعينها الله تعالى على هذا الجهاد فإن هي نشزت أو ترفعت عن طاعته لعنتها الملائكة حتى تصبح وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم (إذا دعا الرجل امراته إلى فراشه فلم تأته فبات غضبان عليها لعنتها الملائكة حتى تصبح)، بل إن صلاتها لا تقبل منها حتى ترجع إلى طاعة زوجها يقول صلى الله عليه وسلم (اثنان لا تجاوز صلاتهما رؤوسهما عبد آبق «هارب» من مواليه، وامرأة عصت زوجها حتى ترجع)، بل إن طاعة الزوج وحقه يفوق حق الوالدين لأن المرأة ما دامت في عصمة زوجها فهو أولى بالطاعة من غيره، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم (أي الناس أعظم حقًا على المرأة، قال زوجها قلت: فأي الناس أعظم حقًا على الرجل قال أمه)، فحق الزوج عظيم على زوجته قال صلى الله عليه وسلم (حق الزوج على زوجته لو كانت له قرحة فلحستها ما

أدت حقه)، فيا أيتها المرأة انظري كيف أنتِ بالنسبة لزوجك أمام هذه الأحاديث النبوية الشريفة؟

كونوا عونا لإخوانكم

كثيرون هم الشباب الذين زلت أقدامهم وضلوا، وانجرف في تيار المعصية وإعصار الهوى، وقليلون هم أولئك الذين ينصحون الشباب، ويرشدونهم إلى طريق الصواب، ولذلك برزت في المجتمع ظاهرة الشباب الضائع الذي لا هدف له سوى السير خلف ركب المعصية حيث صار ركب التحضر الزائف والمدنية الغربية المسيطرة على فكر الشباب وتوجهاتهم، مع أن الشاب لو وجد يدا تحن عليه لما انجرّ خلف المغريات، ولو وجد ناصحا يعينه بالنصيحة لما انخدع أمام الشهوات، ولو وجد واعظا يوقظ فيه الضمير لما تاه وسط المثبطات، وقد أعجبتني قصة أبي حنيفة مع شاب منغمس في هواه، فقد كان هذا الشاب قريبًا وجارًا لأبي حنيفة النعمان وكان مغنيا وكان دائمًا مزعجا لأبي حنيفة وله أغنية مشهورة، «أضاعوني وأي فتى أضاعوا»، في أحد الأيام لم يسمع صوته، فغلب على ظنه أنه مسجون، فذهب إلى صاحب السجن، وتوسط له، وأخرجه، وأركبه خلفه على دابته، وقال: يا فتى، هل أضعناك؟ يقول هذا الفتى: والله منذ أن أخرجني أبو حنيفة من السجن عاهدت الله على التوبة، فهؤلاء الشباب الشاردون لو أن من حولهم لهم صدر واسع، وقلب كبير، ورؤية بعيدة لوجدوا من يستوعبهم، إن الشباب يعلمون أنهم منحرفون، ولكن المجتمع نبذهم، وأهانهم، وابتعد عنهم، لو وجدوا من يرعاهم، من يقبلهم، من ينصحهم، لانقادوا للحق ورجعوا تائبين، وهذا سيدنا عمر له صديق غرق في الخمر، أرسل له كتابًا، أما بعد، أحمد الله إليك، غافر الذنب، قابل التوب، شديد العقاب، ذي الطول، فبكى، وبكى، وبكى حتى تاب بهذا الكتاب، فلما

بلغته النتيجة، قال: هكذا اصنعوا مع أخيكم إذا ضلّ، كونوا عونًا له على الشيطان، ولا تكونوا عونًا للشيطان عليه، فهذا دور يستحقه الشباب ولكن من يقوم بهذا الدور، ونحن نجد في المربين انشغالا وغفلة، فيا من يهمهم أمر الشباب، كونوا لهم عونا ولا تعينوا الشيطان عليهم.

إليكِ أيتها الزوجة مع التحية

تأتي العلاقات الزوجية في طليعة الهيكل التنظيمي في المجتمع، فالأسرة ما هي إلا نواة في المجتمع، ولكي تقوم العلاقات الزوجية على المودة والسكن والرحمة لا بد من صيانة أسرار البيت، ولما كانت أغلب الخلافات بين الزوجين سببها عدم حفظ أسرار البيت، وقد وجه الله تعالى في كتابه العزيز إلى أمرين هما كالجناحين بهما يطير الزوجان إلى سماء السعادة والصفاء، فقد قال الله تعالى يصف الزوجة الصالحة ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فهنا يصف المولى عز وجل الزوجة بأنها قانتة أي طائعة لزوجها، وهذه الكلمة فيها إبداع قرآني عجيب فهو تعالى لم يقل طائعات وإنما قال قانتات، مع أن الطاعة قد تعطي المعنى ولكنها كلمة ناقصة لأن المرأة من الممكن أن تطيع زوجها وقد تكون مكرهة على طاعته، بينما كلمة «قانتات» كلمة لها تركيبة نفسية عجيبة فهي تدل على الطاعة مع الرغبة والإرادة والمحبة والمودة مع الأحاسيس والمشاعر التي تدفع الزوجة إلى التفاني في طاعة الزوج، فهذه لفتة قرآنية راقية في المعنى والأسلوب وهي صفة لا توصف بها إلا الزوجة الصالحة وهي التي إذا نظر إليها زوجها أسرته وإن غاب عنها حفظته في نفسه وماله، وأما الصفة الثانية فهي قوله تعالى ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤] أي تحفظ سر زوجها وماله فلا تظهره لأحد، فأسرار البيت أمانة وإفشاء السر خيانة للأمانة، ولو نظرنا قليلا إلى قوله تعالى

﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤] لوجدنا كذلك إبداعا قرآنيا، فالله تعالى سمى الخصوصية بين الزوجين وما يدور بينهما من خلاف سماه «غيبا» وهذه الكلمة قوية جدًّا، فلماذا لم يقل الله تعالى حافظات للسر، وإنما قال تعالى ﴿حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ [النساء: ٣٤] لأن الغيب أقوى من كلمة السر، فالسر قد يفشى بين اثنين وثلاثة، أما الغيب فإنه لا يحل إظهاره لأحد سوى الله تعالى، والغيب هو ما يجب أن يغيب عن الناس جميعا إلا عن الله تعالى، لأنه لا يعلم الغيب إلا الله تعالى، فكأن الله تعالى يقول للزوجة الصالحة: إن ما يدور بينك وبين زوجك إنما هو غيب يجب أن يغيب عن جميع الخلق إلا عن الله تعالى، فهاتان صفتان القنوت وحفظ الغيب وهما من الصفات البسيطة التي تستطيع أي زوجة أن تتصف بهما، ولكن أثر هاتين الصفتين عميق في توثيق الصلة بين الزوجين وتحقيق السكن والمودة والرحمة، وهي من آيات الله تعالى التي تنثر الورود والرياحين بين دفتي كتاب السعادة الزوجية.

الميثاق الغليظ

الارتباط بين الرجل والمرأة ارتباط مقدس وهو أساس هذه الحياة، والله سبحانه وتعالى خلقنا معشر الرجال والنساء من نفس واحدة، وهذه النفس الواحدة هي آدم، فالرجال ليسوا خلقًا مستقلًا وكذلك نوع النساء ليس خلقا مستقلًا، فلو كان النساء خلقن في الأصل بمعزل لكان هناك من التنافر والتباعد ما الله تعالى أعلم به ولكن كون حواء قد خلقت كما جاء في الحديث الصحيح من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام، فهذا يعني أن المرأة في الأصل قطعة من الرجل، ولذلك حن الرجل إلى المرأة وحنت المرأة إلى الرجل وتجانسا معا، ومن رحمة الله سبحانه وتعالى أن جعل التكاثر من التقاء الرجال والنساء لقاء يكون فيه الإفضاء الكامل، والالتصاق الكامل وذلك ليحقق قول

النبي صلى الله عليه وسلم: «النساء شقائق الرجال»، فالرجل والمرأة وجهان لعملة واحدة. أو شقان لشيء واحد، وهذا الخلق على هذا النحو من أعظم آيات الله سبحانه وتعالى، كما قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٩٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ومما يؤسف له أن الكثير من المقبلين على الزواج لا يعرفون الحقوق والواجبات المرتبطة بهذه العلاقة المقدسة، بل مما يؤسف له أن حالات الطلاق بلغت نسبة كبيرة، تنذر بخطر يهدد المجتمع، ولا أدري لم التعقيد في هذه العلاقة والله تعالى جعلها علاقة تقوم على أساس المحبة والمودة، وأن الخلاف بين الزوجين وارد، ولكن المصالحة والتفاهم وارد كذلك، وممكن أن نضع العلاج للشقاق بين الزوجين من خلال ثلاثة أمور ليبقى هذا الميثاق غليظا ومترابطا وهذه الأمور نجدها في قوله تعالى ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤] فالصلاح والقنوت وحفظ أسرار بيت الزوجية هي ثلاثة أمور كالأثافي تستقر عليها القِدر فلا تنكفئ، فالمرأة الصالحة والرجل الصالح، وحفظ السر بين الزوجين وعدم السماح للآخرين بالتدخل فيما بينهما، والطاعة المتبادلة بين الزوجين كل ذلك هو رحيق المحبة بينهما، ومتى كانت العلاقة بينهما تقوم على هذا الأساس فلن تجد زوجين متنازعين ولن تجد نسبا للطلاق مخيفة، وسيبقى هذا الميثاق غليظا ما بقيت هذه الأمور الثلاثة قائمة.

همسة

هذه همسة في أذن شاب أغرته الدنيا بشهواتها وغرائزها وسطوتها وقوتها، إن الشاب قد يكون قويا بقوة عقيدته كما يكون ضعيفا بضعفها، ولكن بجوار الإيمان تخل عقدة الدنيا، وتنحني مطواعة لقوة إيمان الشاب، فالإيمان عند المؤمن هو السيد المطاع الآمر، والغرائز في خدمته لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تعس عبد البطن، وتعس عبد الفرج، وتعس عبد المال، وتعس عبد الخميصة، وعُباد الدنيا من الشباب كثير، والمنخدعون بها أكثر، وخير مثال نغرسه في أعماق أعماق الشباب، سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام شاب مؤمن، أخضع غريزته لإيمانه، فخلد الله ذكره، وسجل قصته لتكون هدى ونبراسًا للآخرين، شاب في ريعان الشباب، وفي مقتبل العمر، أوتي من الجمال وامتلأ فتوة ونشاطًا، وأذن الله أن يبتلى بخدمة امرأة في بيت العزيز، ولكن شبابه وجماله أغرى به هذه المرأة التي هي ذات منصب وجمال، السيدة الأولى زوجة عزيز مصر راودته عن نفسه، وغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، كان الموقف دقيقًا، ولا ريب أن الفتنة التي تعرض لها هذا النبي الكريم لم تكن من الفتن التي تعرض للمرء ساعة من حياته، هي فتنة تصاحبه صباح مساء في حله وترحاله، لم تكن فتنة امرأة من بنات الليل وبائعات الهوى، بل كانت فتنة امرأة ذات منصب وجمال، هي سيدة البيت، وامرأة العزيز، وهو غلام بيع بثمن بخس دراهم معدودة، لم يعرف له أهل، ولا بيت، مجرد خادم في بيتها، من شأنه أن يُؤمَر فيأتمر، فماذا صنع هذا الفتى الأعزب الغريب شديد الجمال مع سيدة ينبغي أن يطيعها، وليس من صالحها أن يفشو الخبر؟ ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، إنه أمام امتحانين، إما أن يلبي رغبتها فيسقط من عين الله، وإما أن يمتنع فمصيره السجن، هذا الامتحان درس لكل شاب الآن، لكل شاب يسمعني، نبي عظيم كان خادمًا، فأصبح

عزيز مصر، رأته خادمة في القصر، وقد أصبح عزيز مصر، لقد قالت كلاما أحب أن أهمس به في آذان شباب اليوم، قالت: سبحان من جعل العبيد ملوكًا بطاعته، وسبحان من جعل الملوك عبيدًا بمعصيته، فبطولتك أن تكون مستقيمًا.

قصة حب

أهواكَ يا بشرُ دون الناس كلهم * وغيركَ يهواني فيمنَعُهُ صدّي
تمرُّ ببابي لست تعرفُ ما الذي * أكابدُ من شوقي إليكَ ومن بُعدي
فيا ليتني أرضٌ وأنتَ أمامها * تدوسُ بنعليك الكرامِ على خدّي

هذا ما قالته هند في حب بشر الأسيدي عندما رأته وهو مارٌ ببابها قاصدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تعد تملك إلاّ أن تنظر إليه دومًا، ومن فرط حبها أرسلت جارية برسالة إلى بشر تخبره بحبها له فلما قرأ بشر الرسالة وما فيها من حب وشوق، سأل الجارية هل سيدتك عذراء أم ذات بعل، فقالت الجارية بل هي متزوجة وزوجها موجود في المدينة، فلما سمع ذلك دعا هند إلى التوبة والاستغفار والاعتصام بكتاب الله تعالى، ولكنها لم تستسلم وأرسلت جاريتها مرارًا وفي كل مرة يردها ويدعوها إلى تقوى الله عز وجل، فلما أيست منه مرضت بسبب الهجر وحلف أن لا يمر بباب هند ولا يقرأ لها كتابًا، فلما امتنع عنها كتبت له:

سألت ربي فقد أصبحتَ لي شجنًا * أن تُبتلى بهوى من لا يُباليكا
حتى تذوقَ الذي ذقتُ من نَصَبٍ * وتطلب الوصل ممن لا يواتيكا
وتشتكي محنة في الحب نازلة * وتطلب الماء ممن ليس يسقيكَ
بلاك ربي بأمراض مسلسلة * وبامتناع طبيب لا يداويكَ

وأما بشر فقد خاف على نفسه من الفضيحة فارتحل إلى مكة، ومرضت هند وبعث زوجها بالأطباء فقالت له إن دواءها في هواء مكة، فأخذ دارًا في مكة لتكون قريبة من بشر، ولكن زوجها كشف قصتها مع بشر فغضب وطلق زوجته، ثم ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكيه، فجاء بشر وجثا أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وحلف أنه ما كفر بالله ولا كذب برسوله، حتى نزل جبريل عليه السلام وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالقصة، فقال صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الذي جعل من أمتي نظير يوسف الصديق، ثم بعد هذه الحادثة هاج بشر بحب هند وانتظر انتهاء عدتها ليخطبها، لكن هند رفضت أن تتزوجه بعد أن فضحها عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتنقل الروايات أنهما ماتا بعد ذلك شوقا وحبًا، قصة حب فيها من العبرة ما يؤكد صبر الشاب، فليت شبابنا مثل بشر في الصبر والتَّمَنُّعِ عن ملذات الدنيا وشهواتها.

الباب العاشر

العلم والدعوة وقضايا الأمة

(٣٤ مقالة)

الأدب قبل الطلب

ساعة يخلو فيها الإنسان لطلب العلم خير من ساعة يلهو فيها، لقد كان العلماء يسابقون إلى طلب العلم، وكان للمعلم مكانة وهيبة، والأمثلة المضيئة التي تصوّر رفعةَ ومكانة المعلّمين عديدة، وسموّ آداب المتعلمين كثيرة، فهذا طالب العلم الإمام الشافعي رحمه الله يخبر عن حاله مع شيخه الإمام مالك رحمه الله حين كان يقرأ الموطأ عليه قائلًا: «كنت أصفح - يعني أقلّب - الورقةَ بين يدي مالك رحمه الله صفحًا دقيقًا هيبةً له لئلا يسمع وقعَها»، وهذا الربيع بن سليمان رحمه الله تلميذ الإمام الشافعي وأحد رواة مذهبه يقول: «والله ما اجترأتُ أن أشرب الماء والشافعي ينظر إليَّ هيبة له»، وهذا الإمام الحافظ شعبة بن الحجاج يقول رحمه الله: «كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبدًا ما دام حيًا»، وهذا الإمام أحمد رحمه الله يقول لابن شيخه الإمام الشافعي رحمه الله يقول: «أبوك من الخمسة الذين أدعو لهم كل سحر»، قال: لم ذاك؟ قال أحمد: «إن الشافعي كان كالشمس للدنيا، وكالعافية للبدن، فانظر هل لهذيْن من خلَف»، وكان بعض السلف رحمه الله إذا ذهب إلى معلّمه تصدَّق بشيء ثم قال: اللهم استُر عيبَ معلِّمي عني، ولا تُذهب بركةَ علمه مني.

أي هَمّ هذا؟

ما الذي يهمك في هذه الحياة؟ وما الذي يشغل بالك؟ هموم كثيرة، ولكن أي هَمّ يستحق أن يشغل بالك، إذا سألت أحدا ما هو الهَمّ الذي يشغلُك؟ قد يقول البعض إن همي هو هم الوظيفة، وآخر ربما يقول إن همي الحقيقي هو السعي في طلب الرزق، وثالث يقول إن همي الذي يسيطر على كياني هو هم الزواج، ورابع يقول إن همي الذي

يسيطر علي هو هم الأولاد وتأمين مستقبلهم ومعيشتهم، وخامس ربما يقول إن همي أن أبني لي بيتا، وهكذا للناس في همومهم مذاهب شتى، ولكن قلما تجد من يقول إن همه الأول الذي يشغله هو هم الإسلام، فأي هم هذا؟، وأي شغل هذا؟ إنه هم الدين، هم الدعوة، وهم الأمة، وهم العقيدة، إنني أجد أن الهموم تشعبت واختلفت، ولكن الإسلام هو الهم الذي يجب أن يأخذ كل اهتمامنا، وقد جاء عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: من جعل الهموم هما واحدا، هم آخرته، كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك، فهنا يؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم بأن الهم الوحيد الذي يستحق أن نُوليه اهتمامنا هو هَمّ الآخرة، وأما من تعددت همومه فربما هلك في أحدها، وانشغل بها فخسر آخرته بدنياه، إن هَمّ الإسلام الذي يتعرض للغربة والتغريب، وهَمّ الأمة الإسلامية التي تضطهد، وهَمّ الدعوة الإسلامية وما تواجهه من عراقيل، كلها هموم تستحق أن يعمل من أجلها الإنسان، أليس خيرًا للمسلم أن يحاسب نفسه، ماذا قدم للإسلام اليوم؟، ووالله إن القلوب لتعتصر أمام الفرقة والتشتت الذي تعاني منه الأمة، ولا شك أن هذا هم داخل في هموم الإسلام اليوم، هَمّ ما بعده هَمّ، أن تجد المسلم رخيصًا إلى درجة الذل والهوان على أيدي أعداء الإسلام، وهمٌ ما بعده هَمّ أن تجد الصورة الناصعة للإسلام تُشوه، ويوصف الإسلام بأنه دين التطرف والتشدد والارهاب، ماذا فعلنا اليوم أمام هذه الهموم، لا تقل إن هَمّ طلب الدنيا أكبر من هم الآخرة، فهذا كلام لا يقوله إلا المتغافل عن دينه، فالعمل لهذا الدين هو الهم الذي يجب أن نسعى لتحويله إلى سعادة، أما الدنيا وشواغلها وملذاتها فليست هما يشغلنا، فأي هَمّ هذا الذي يشغلنا إذا لم يكن هَمّ الدين الإسلامي والعمل له، قال تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

دعوا الدين كما هو

طريق فهم الدين ميسر، ولكن قد يفهم البعض الدين كما تشتهيه نفسه، وكما يتفق مع هواه، فيُسخر الدين لمصلحته، ويتخذ منه أداة تدعم آراءه وأهدافه الشخصية، وتلك آفة إذا صار الدين يقاد ولا يقود، إن الإسلام يقوم على شريعة واضحة تستمد أحكامها من نصوص شرعية، وهي كذلك واضحة في الدلالة والمفاهيم، قد تتفرع إلى عدة معان، ولكنها لا تخرج عن قواعد اللغة، ولا أحب الاختلاف في الدين، فقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك، قال صلى الله عليه وسلم (إنما هلك اليهود والنصارى بسبب كثرة اختلافهم على أنبيائهم ورسلهم)، ولكن مع الاتجاهات المعاكسة في فهم المعايير الصحيحة، صار الدين يساق وفق الأهواء، ولكننا نقول دعوا الدين كما هو، نفهمه وفق سنة النبي صلى الله عليه وسلم، بلا مراء بلا جدل، نتفق حيث تجمعنا النصوص على فهم واحد، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه، تلك قاعدة أساسية في توحيد الأمة، ولكننا للأسف نرددها ولا نطبقها، وكأننا لا نفهم إلا لغة الإختلاف والإعجاب بالرأي، نختلف في كل شيء حتى هلال رمضان لا يوحدنا، ولا هلال شوال، قد نتفق في بعض أمور الحياة، ولكننا لا نتفق في أمور الدين، بل إن البعض يفهم أن الدين ثوب يمكن تفصيله وفق المقاسات والأذواق، وأن النصوص طيعة تقبل التلون، وإن لم تقبل قمنا بتطويعها لتنصاع لشهواتنا حتى انقطع الحبل الذي يعصمنا من الفرقة، وتلك مصيبتنا في ديننا، ولا أجد ما يعيد بناءنا المتحد، ووحدتنا المنشودة، ما دام أهل الجهل في ضيق من التفكير، لا تتسع صدورهم للخروج منه، بل الأدهى والأمر أن أهل الجهل يُفتون بغير علم حتى ضلوا وأضلوا، فأقول بصوت عال دعوا الدين كما هو يقود حياتنا في كل مجالاتها وصنوف أنشطتها، ولا نختلف أبدا، فالقرآن جعل الخلاف

معصية توجب العذاب الأليم، يقول تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥].

استعينوا بالصبر والصلاة

تتوالى المحن على الأمة الإسلامية وتنزل بأرضها النوائب وكأنها على موعد من تلك المصائب التي تنخر فيها كما ينخر السوس في الخيزران، ترى ما الذي أحل بنا وما السبب في استسلامنا وتخاذلنا، أيعقل أن تكون أمة القرآن وأمة الحضارة والمجد وأمة أعظم الأنبياء وخاتمهم صلى الله عليه وسلم تصل إلى هذه الحالة المزرية من التهاون والوهن والاستسلام وكأنها تساق سوق الأغنام يقودها راعيها وهي لا تدري هل يسير بها إلى المرعى أم إلى المسلخ، نعم لأننا ابتعدنا عن منهج السماء وهانت علينا أنفسنا فهانت هي على عدونا واتخذ من ضعفنا قوة ومن فرقتنا وحدة له ولقد رأينا مدى الفرقة والتمزق الذي تعيشه الأمة الإسلامية رأينا كيف تتكالب عليها الأمم وتسلب خيراتها وتنتهك حرماتها وهي إلى اليوم لم تعرف من هو عدوها ومن صديقها وتلك الطامة الكبرى أنك لا تميز بين من يبغي لك الخير ومن يبغي لك الشر. أما والحالة هذه والمنطقة تسمع طبول الحرب تتصاعد وتقترب منها شيئًا فشيئًا حيث بات لا مفر منها ولا مفر من عواقبها فكيف نصنع، بمن نستعين وعلى من نتوكل سوى الله تعالى الذي أراد أن يمتحن صبرنا ويمحص إيماننا فأراد أن يبلونا بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وأراد أن يتخذ منها شهداء فعلينا الإستعانة بالله والصبر وعلينا بالصلاة، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فالصلاة هي الواعظ الذي يرفع معنوياتنا وفي الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر صلى، والصبر صبران فصبر على ترك المحارم وصبر على

فعل الطاعات والقربات، والثاني أكثر ثوابًا لأنه المقصود وهناك صبر ثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب، كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الصبر في بابين: الصبر لله بما أحب وإن ثقل على الأنفس والأبدان، والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء، فمن كان هكذا فهو من الصابرين، فليكن ذلك محرضا يشعل حماسنا ويقوي صبرنا لنصمد أمام الهوس الأمريكي المتعطش للحروب ولميادين القتال ليتخذ منها حقل تجارب لأسلحته في سبيل حماية مصالحهم وهيمنتهم وتنفيذ مبادئ الصهيونية العالمية وليذهب الناس كلهم بعد ذلك أبوا أم رضوا، فتلك أفعال الجاهل متى ساد بجهله وذلك حال الأمة متى ضاع منها دينها ويبقى الزمن يشيعها حتى يبعث الله قوما ليسوا أمثالهم.

إذا ضاع في أمة دينها * وساد بها الفاجر الجاهل
فقد ضاع في الأرض سلطانها * ومات بها الحاكم العادل
وناحت على مجدها النائحات * وشيعها الزمن الهازل

اقرأ

لا يخفى أن أول كلمة نزلت من السماء عبر الوحي، هي كلمة «اقرأ»، وهي المهمة الأولى للرسالة الخاتمة، التي جاء بها نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، فكانت القراءة مفتاح باب العلم، ولكن هل نحن نقرأ، للأسف أننا أمة اقرأ لا نقرأ، لقد حث القرآن على طلب العلم، فقال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، وقال صلى الله عليه وسلم: من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، يقول العلماء إنه يجب على الإنسان أن يقرأ في كل دقيقة ألف كلمة، وهذا أمر ممكن، فلو نظرنا إلى صفحة كتاب، سنجد أنها تحتوي في الأغلب على 20 سطرًا، في

كل سطر 12 كلمة، فيكون عدد الكلمات في الصفحة الواحدة تقريبا 240 كلمة، أي أن الإنسان مطالب أن يقرأ في كل دقيقة ما لا يقل عن أربع صفحات، وهذا ليس ضربًا من المستحيل، إذا علمنا أن العين تحتوي على 130 مليون مستقبل ضوئي، فذلك ممكن، ولكن لماذا نقرأ؟ وماذا نقرأ؟ أما لماذا نقرأ، فالجواب، نقرأ لنتعلم، والعلم والمنهج العلمي ينقسم إلى قسمين علم شرعي ثابت لا يقبل الزيادة أو النقصان، والدليل على ذلك، قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وعلم تجريبي دائم التطور والنمو، مثل علم الفيزياء والكيمياء والأحياء، أما ماذا نقرأ، فقد قال الله تعالى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]، إن هذه الآيات تشير إلى حقيقة علمية، وهي خلق الإنسان من علق، وهذه ما هي إلا معلومة علمية، ثم تأتي الآيات بعدها لتؤكد كرم الله في تعليم الإنسان ما لم يعلم، مما يدل أن الإنسان مطالب بالقراءة، ليتعلم ويتحصل على المعلومات بطريقة معينة وموضوعية، وهي التفكير العلمي الذي هو مجموعة من الخطوات المتسلسلة التي تقود إلى حل مشكلة أو حقيقة علمية، والحقيقة العلمية في العلوم التجريبية هي ما يستنتجه العقل مما تدركه الحواس، وأدوات العلم ووسائله تعتمد على وسيلتين، هما الملاحظة الدقيقة والتجربة، وأدوات العلم هي العقل والحواس الخمسة وقوة التصور والخيال، أعتقد أن القراءة غائبة عن أمتنا التي لا تقرأ، ولا تنظر، ولا تبحث، ولا تحب حتى أن تسأل، أو حتى تتساءل عن الحقائق العلمية، فكان حالنا في ظل غياب القراءة أننا في المؤخرة، وفي ذيل الأمم لا نرى سوى ظلام الجهل، فعجبا لأمة خاطبها القرآن في أول خطاب بكلمة «اقرأ»، ولكنها اليوم لا تقرأ.

الصديق الذي لا يمل

لا يوجد مثل الكتاب صديقا لا يمل، فالكتاب خير جليس نجالسه، وخير صديق نصادقه، وهو مخزن العلوم والمعارف ومستودع الفنون والحكم، لقد مر الكتاب بمرحلة هجره الناس وعزفوا عنه، ورغم هذا الصد والهجران إلا أن الكتاب يبقى هو الصديق الحميم، قد يمله البعض ولكنه لا يملهم، قد يضيق على البعض تصفحه، ولكنه لا يضيق عليهم، ففي كل وقت حاضر بلا مواعيد وبلا استئذان، إنه فعلا الصديق الذي لا ينافقك، ولا يعاتبك إذا جفوته، يقول الجاحظ: هل سمعت بمعلم تحلى بخلال كثيرة، وجمع أوصافا عديدة، عربي فارسي يوناني هندي سندي رومي، إن وعظ أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع، وإن ضرب أوجع، يفيدك ولا يستفيد منك، ويزيدك ولا يستزيد منك، إن جد فعبرة، وإن مزح فنزهة، قبر الأسرار، ومخزن الودائع، قيد العلوم، ومنبع الحكم، ومعدن للمكارم، مؤنس لا ينام، يفيدك علم الأولين، ويخبرك عن كثير من أخبار المتأخرين، إن أطلت إليه النظر أطال إمتاعك، وشحذ طباعك، وبسط لسانك، وجود بيانك، ونخم ألفاظك، إن ألفته خلد الأيام ذكرك، وإن درسته رفع في الخلق قدرك، وإن نعته نوه عندهم باسمك، يُقعد العبيد في مقاعد السادات، ويجلس السوقة في مجالس الملوك، فأكرم به من صاحب، واعزز به من موافق.

فليتنا نصالح الكتاب، ونتخذ عهدا على أنفسنا أن نقرأ ونطلع حتى ندخل إلى عالم الكتاب لينقلنا إلى سالف العصور، ويرينا عجائب الزمان والمكان، وينقلنا من ظلام الجهل إلى نور المعرفة، فهو غذاء العقول، وهو الرفيق في السفر والعدة في الحضر، وليكن أول كتاب نصالحه هو كتاب الله تعالى، حيث يقول الله تعالى ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾ [المزمل: ٢٠]، ويقول صلى الله عليه وسلم: (اقرؤا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعا)، فهذا كتاب الله فيه كل ما يحتاجه الإنسان في حياته ومعاشه، فيجب أن

نلازمه، ففيه من النفائس ما يعيد بناء هذه الأمة وتاريخها وحضارتها وانتصاراتها، ثم هناك من الكتب في مختلف التخصصات ما ينمي المواهب، ويوجه القدرات والإمكانيات لتصب في خدمة الإنسان ومجتمعه، فخير جليس في الزمان كتاب، والقراءة لا تأتي ثمارها ما لم يرتبط بها فهم ومعرفة، فالفهم يعطي للكتاب ذوقا، ويعطي للكلمات هدفا وغاية، ولذلك قيل لا تقل كم كتابا قرأت، ولكن قل كم كتابا فهمت، وهكذا يقود الكتاب صاحبه إلى أن يوصله إلى مراتب السمو والنجاح، وفي حوار كان بين الكتاب والسيف، فقال الكتاب للسيف أريد أن يقرأني الناس في حمايتك حتى يكونوا في أمن وسلام، فقال السيف وأريد أن يحملني الناس وأنا في ظلك حتى تحملني يد الحق والعدل، ولا تحملني يد الباطل والظلم، فهذا الكتاب هو الصديق الذي يجب أن نرافقه، لأنه صديق لا يمل.

العلم يرفع أقواما ويضع آخرين

العلم له فضل وشرف رفيع، فكم من وضيع رفعه العلم درجات لا يبلغها وجهاء المال ولا أهل الأنساب الرفيعة، والعلم شرَف آدم حين علمه الله الأسماء كلها، وبالعلم فاز أهل الدرجات، يقول الله تعالى ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] ولو لم يكن العلم أشرف شيء في الحياة لما علَم الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد من العلم حيث قال تعالى ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]، إن العلم تاج مرصع بالحكمة والمعرفة والتقدير واحترام الناس، هذا التاج ليس حكرا على أهل الجاه والغنى والملوك، لا إن هذا التاج يوضع على رأس من ملك العلم، وإن كان ابن من هو، وقد سأل عمر أحد ولاته أن يستخلف أحدا على أهل الوادي يريد مكة، فقال إني استخلفت ابن أبزى، رجلًا من موالينا، فقال عمر استخلفت عليهم مولى،

فقال يا أمير المؤمنين إنه قارئ لكتاب الله عالم بالفرائض قاصٍ للأحداث الماضية، فقال عمر أما إن نبيكم قد قال: يرفع الله بهذا الكتاب أقواما، ويضع آخرين. فلينظر كيف يرفع العلم مولى من موالي العرب إلى مقام عليتهم وأشرافهم وجعله واليا عليهم وحاكما فيهم يدينون له بالطاعة ويعترفون له بالفضل والولاء.

وقد نادى منادي خليفة المسلمين سليمان بن عبدالملك، نادى في الناس أن لا يفتي في المناسك إلا عطاء، فأقبل الناس عليه مثل الغمام، مَن عطاءٌ هذا يا ترى الذي يكرمه الخليفة فيوكل إليه أمور الفتيا للحجاج والمعتمرين، عطاء هذا مولى أسود كأن رأسه زبيبة أعمى أشل أعرج، فما هي الميزة التي أوصلته إلى هذه المنزلة هل كثرة ماله لا، هل شهرة نسبه، لا، هل نوعية جنسيته، لا، إذن ما هي هذه الميزة التي ترفع الإنسان إلى هذه المنزلة إنها العلم، وبينما الخليفة سليمان بن عبدالملك الذي عين عطاء للإفتاء في المناسك تعرض في نسكه لمسألة فاحتاج أن يسأل، فذهب إلى عطاء مباشرة، فإذا الناس صفا كل يريد أن يسأله، فقال له عطاء ارجع وقف في الصف حتى يأتي دورك، فوقف الخليفة في الصف إلى أن جاء دوره، فسأل عطاء ثم رجع الخليفة مباشرة إلى أبنائه فأخذهم في زاوية من زوايا الحرم، وهمس في آذانهم جميعا قائلا يا بني عليكم بالعلم فوالله ما ذللت لأحد من الناس إلا لهذا العبد، هكذا كان عطاء ثقة فقيها عالما، كثير الحديث، قال عنه أبو جعفر الباقر ما بقي أحد في زمانه أعلم بالمناسك منه، وقيل إنه حج سبعين حجة وقد عاش مائة سنة.

إن العلم سبب في تقدم الأمم، كما أن الجهل سبب في تخلفها، ولعل من أهم الأسباب التي جعلت الأمة تتراجع، وتصبح فريسة للطامعين هو تخلفها عن ركب العلم واتكالها على غيرها من أهل الاستعمار الذين يتربصون بالأمة الإسلامية لسلب خيراتها وثرواتها، لذلك فالخروج من هذا التخلف المذل إنما يكون بالسعي لطلب العلم، وتسخيره لخدمة الدين والأمة، وأن يكون هذا العلم سلاحا نواجه به أعداءنا، فالعلم يرفع أقواما،

ولو كان العلم رايتنا لرفعنا إلى درجات عالية ومنزلة سامية، فهل نعود ثانية لنرتقي إلى المجد والعزة من خلال سُلم العلم؟

بين القوة والحق

أصبح واضحا لكل متبصر أن الحق لا يؤخذ إلا بالقوة في زمن غلب فيه الظلم والاستبداد، أصبحت القوة شرعًا في هذه الدنيا، القوة بكل أنواعها، قوة العلم، وقوة المال والإتحاد، وقوة الجيوش، وقبل ذلك كله قوة الإيمان وقوة الإرادة.

إنما الحق لمن يأخذه لا لمن يطالب به ويتغنى بذكره، فالحق والقوة يخرجان من مشكاة واحدة، وصاحب الحق هو القوي، لا يستطيع أحد منازعته في حقه، أما الضعيف الذي يجري خلف الطغاة والجبابرة يطالب بحقه فسيطول جريه، ومهما جرى، فلن يأخذ من حقه إلا القليل، إن القوة هي شعار الإسلام، فالمؤمن القوي أحب إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، ولذلك سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ربه تعالى، فقال ﴿وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]، والسلطان النصير هو القوة الغالبة، والله تعالى أمرنا بإعداد القوة بكل ما نستطيع، تلك القوة التي تُدخل الرهبة في العدو، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، إن مرحلة الذل والهوان وضياع الحق والكرامة التي تعيشها الأمة الإسلامية إنما هي بسبب غياب قوتهم وضعف سلاحهم، ولن يعود للأمة مجدها إلا ببناء القوة التي بها يواجهون عدوهم الذي لا يتعامل إلا بمنطق القوة فهو يتجاهل كل الأعراف الدولية والإنسانية، متخذا من فرعون طاغية الزمان، قدوة في الظلم والإعجاب بنفسه. عندما قال ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، فلا بد من عودة إلى القوة، وأول خطوة إلى القوة تكون في بناء وحدتنا. وترك خلافاتنا، ونسيان أخطائنا،

ومتى ما كنا يدا واحدة، فإننا سنكون قوة يحسب حسابها، أما إذا كنا فرقا مختلفين فسيجد عدونا من ذلك فرصة لينال منا.

قال المدائني لما اشتغل عبدالملك بمحاربة مصعب بن الزبير اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا: هذه فرصة العرب متشاغلون في حرب بعضهم البعض، فالرأي أن تهجم عليهم في بلادهم وهم منشغلون ببعضهم، فقال لهم الملك أنتم خاطئون، وليس هذا برأي فقالوا كيف؟ فدعا بكلبين فحرّش بينهما، فاقتتلا قتالا شديدا، ثم دعا بثعلب فوضعه بينهما، فلما رأى الكلبان الثعلب، تركا ما كانا فيه، وأقبلا على الثعلب حتى قتلاه، فقال لهم ملك الروم هذا مثلنا ومثل العرب، فرجعوا عن رأيهم، فهل نحن مستعدون أن نتناسى خلافاتنا، ونتفق على عدونا؟، ونأخذ حقنا بقوتنا ووحدتنا، فالحق والقوة وجهان لعملة واحدة.

في حب الوطن

حب الوطن هو ذلك الإحساس العميق والشعور الفياض بالانتماء إلى الوطن إنه المقر الذي يجد فيه المواطن الأمن والطمأنينة والاستقرار، إنه كالهواء للإنسان لا بد منه وإلا أصبح الإنسان كطير بلا فضاء أو كسمك بلا ماء، وإذا أردت أن تعرف حب الوطن فانظر إلى حجر أم تربي وليدها وتنشئه للوطن، وانظر إلى كد الأب وكفاحه عندما يخرج من الصباح ليعود آخر النهار يحمل رزقه ورزق أبنائه، وانظر إلى العامل الذي يعمل في المصنع، وإلى الزارع الذي يزرع ويحرث الأرض، وإلى المعلم الذي يعلم في المدرسة والجامعة، وإلى الطبيب الذي يعالج في مستشفاه، وإلى الجندي الذي يحمل سلاحه ليذود عن أرضه ووطنه، هذا هو الوطن إنه الحضن الدافئ والشعور بالانتماء والولاء والإخلاص والأمن والطمأنينة، إن حب الوطن يأتي من عقيدة المؤمن الذي

يؤمن بأنه لا بد للإنسان من أرض ينتمي إليها ويذود عن حماها ويصيب من خيراتها ويقيم عليها دين الله تعالى وينطلق من خلالها لنشر الدعوة إلى الله تعالى ولذلك هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم لإقامة وطن ودعا الله تعالى فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون: ٢٩]، ويقول صلى الله عليه وسلم من قتل دون أرضه فهو شهيد، إن المؤمن الصادق في حبه لوطنه ليس ذلك الذي يدعي حب الوطن ويتظاهر بحب الوطن لكنه يخون الوطن أو تجده يسرق من خيرات الوطن وثرواته أو تجده يفسد في شوارعه وطبيعته وبيئته أو تجده يعمل على التفريق بين أبنائه، بل لا يحب الوطن من يقطع شجرة من أشجاره بقصد الإفساد، أو من يعبث بمرفق من مرافقه التي تعكس حضارة البلد وثقافته أو حتى من يكتب على الحائط بقصد التخريب وتشويه صورة البلد، كل تلك الأمور الصغير منها والكبير لا تصدر ممن يحب الوطن، إن الوطن نعمة يجب أن نحافظ عليها وكلنا مسئول عن كل شبر منه، ولا نجد حرجا في الاحتفال بيوم يخصص لحب الوطن ولكن يجب أن لا يخالف ذلك معتقدا من المعتقدات الشرعية أو ضابطًا من الضوابط الشرعية فإن التزمنا بذلك فإنه يحق لنا أن نفرح بحب الوطن بل أقول إن كل يوم من أيام العام يعتبر يوما وطنيا يجب أن نحتفل فيه ونظهر فيه حب الوطن من خلال التفاني في العطاء وصدق الولاء للوطن هذه المعاني العظيمة بحاجة أن نعمر بها القلوب ونؤكدها كرموز يجب التضحية من أجلها في زمن أصبح فيه الدفاع عن الوطن يعد من الإرهاب.

موسم جديد

تبدأ مرحلة العودة إلى المدارس حيث موسم العلم الجديد الذي ينتظر رواده من طلبة العلم المتعطشين لمناهله حتى يرتووا منه نبعا صافيا من الآراء الحكيمة والمعاني

الكريمة فينشروا على أرض الفكر بذور الخير وسنابل البركة وثمار الأدب والفن والسياسة والاجتماع والأخلاق فضلا عن العلوم اللغوية والتربوية النافعة، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سلك سبيلا يلتمس به علما، سهل الله له به طريقا إلى الجنة. وقد قيل لكل شيء طريق وطريق الجنة العلم، إن أبناءنا الذين نعدهم اليوم بالعلم هم حملة رايات المستقبل وهم بناة الحضارة التي نرجو أن يعود صرحها المفقود في الأندلس وعلى مشارف الصين حيث ما زالت أطلالها بادية ترجو من يعيد تحديثها، إن أبناءنا اليوم أمامهم موسم جديد من العلم يحتاج منهم إلى جهد وصبر ومصابرة في الحفظ والبحث والمعرفة، وأما الكسل والنسيان فآفة تزيل العلم وتمحو الحفظ لذلك أوصي ونحن نستقبل موسما علميا جديدا بحفظ دعاء أهل العلم الذي يعين على الحفظ فما أحلى أن يرتبط تحصيل العلم بالله تعالى وطلب الاستعانة منه، فإذا أردت أيها التلميذ ألا تنسى حرفا فاستعن بالله، وقل قبل القراءة: اللهم افتح علينا حكمتك، وانشر علينا رحمتك يا ذا الجلال والإكرام، وإذا أردت أن ترزق الحفظ فقل خلف كل صلاة مكتوبة آمنت بالله الواحد الأحد الحق لا شريك له وكفرت بما سواه.

إن أهل العلم في سمو ومنزلة لا ينالها سواهم إلا بالعلم فهم شيدوا التاريخ وبنوا صرحا شامخا حتى بلغ ذروة المجد فلهم العزة والفخر ولله در القائل إذ يقول:

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم * على الهدى لمن استهدى أدلاء
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه * والجاهلون لأهل العلم أعداء
ففز بعلم تعش حيا به أبدا * والناس موتى وأهل العلم أحياء

وفي كتب الأدب أن طالبا قال لأستاذه ما معنى فاض الإناء؟ فقال الأستاذ: هذا مجاز في كل أمر تجاوز حده، ألم تسمع قول الشاعر:

شكوت وما الشكوى لمثلي عادة * ولكن تفيض النفس عند امتلائها

فقال الطالب: ولكني أعرف أوعية لا تمتلئ، وآنية لا تفيض، قال الأستاذ مبتسمًا: وما هي؟ فقال التلميذ: خزائن الأغنياء التي مهما يوضع فيها من المال فهي ناقصة، وجهنم التي يقال لها: ﴿هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠] وعقول العلماء التي لا تبلغ حظا من المعرفة إلا طمعت في أكثر منه، فموسم سعيد ومفيد من العلم وعودة حميدة، وكل عام وأنتم بخير.

يا خليفة الله أين أنت؟

هو الإنسان هو خليفة الله في هذه الأرض سلطه الله عليها وأعطاه القدرة على تسخيرها وتسخير سائر ما في الكون لمنافعه بما وهبه الله له من الحواس والعقل، وسائر الصفات الجسمية والعقلية التي تجعله أهلًا ليكون خليفة لله، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، وفكرة الخلافة الإنسانية التي قررها القرآن الكريم من أهم الأفكار التي تقوم عليها النظرية الإسلامية في مختلف جوانب الحياة، وهي تمثل المنطلق الذي يحدد العلاقة بين الإنسان وربه جل وعلا وبين ما سخره الله له من أموال وطيبات في الأرض، إن فكرة الخلافة في الإسلام فكرة اعتقادية ذات انعكاسات على تصرفات الفرد لأنها تقيد الإنسان بقيود الحلال والحرام في حمل الخلافة، وإذا كان المستخلف هو الله تعالى فإن الخليفة هو الإنسان عليه مسئولية عظيمة في الالتزام بأوامر المستخلف لكي يكون أهلًا للخلافة، ومن أهم النتائج التي تترتب على مبدأ الخلافة الإنسانية في الأرض أن كل ما في الأرض والكون مسخر للإنسان ليتمكن من تحقيق هذا الاستخلاف ويعبر القرآن عن ذلك فيقول تعالى: ﴿وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾

[إبراهيم: ٣٤]، فيا خليفة الله أين أنت؟ أين حق الخلافة اليوم؟! وقد ظهر الفساد في البر والبحر وتلوثت حياة البيئة والفطرة بالسموم وظهرت الأوبئة والأوجاع والآفات الاجتماعية، وسادت الحروب وسفكت الدماء، وظهر الظلم في مشارق الأرض ومغاربها، وضعف الإيمان وانتشرت الفواحش والذنوب، حتى أصبح الخليفة خارجا عن نطاق الخلافة وقيودها، وأخشى أن ما قالته ملائكة الرحمن قد صدق في البعض منا ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

يا وطني!

يا وطني، يا أرضي وانتمائي، يا عشق وهيامي، يا داري وسلامي، يا وطني لك مني كل التفاني، كلمات في حب الوطن، تفرض صداها كلما اقترب الشعور بتحرر الوطن واستقلاله، في يوم العيد الوطني تجديد للعهد وإصرار على الولاء والتضحية، وقد جاء الإسلام داعما لفكرة حب الأوطان، وحتى يتحقق حب الوطن عند الإنسان لا بُد من تحقق صدق الانتماء إلى الدين أولًا، ثم الوطن ثانيًا، إذ إن تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف تحُث الإنسان على حب الوطن؛ ولعل خير دليلٍ على ذلك ما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه وقف يُخاطب مكة المكرمة مودعًا لها وهي وطنه الذي أُخرج منه، فقد روي عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمكة: «ما أطيبكِ من بلد، وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أن قومي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيركِ»، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مُعلم البشرية يُحب وطنه لما قال هذا القول الذي لو أدرك كلُ إنسانٍ مسلمٍ معناه لرأينا حب الوطن يتجلى في أجمل صوره وأصدق معانيه، ولأصبح الوطن لفظًا تحبه القلوب، وتهواه الأفئدة، وتتحرك لذكره المشاعر، وذلك دور عظيم لكل معلم وواعظ أن يقوم بغرس حب الانتماء

الإيجابي للوطن، وتوضيح معنى ذلك الحب، وبيان كيفيته المُثلى من خلال مختلف المؤسسات التربوية في المجتمع كالبيت، والمدرسة، والمسجد، والنادي، ومكان العمل، وعبر وسائل الإعلام المختلفة مقروءةً أو مسموعةً أو مرئية، فيا أيها المواطن أنت مطالب بالعمل لتجعل حياة الإنسان خاصة والمجتمع بعامة كريمةً على أرض الوطن، ولا يُمكن تحقيق ذلك إلا عندما يُدرك كل فردٍ ما عليه من الواجبات فيقوم بها خير قيام، وتكون تربية أبناء الوطن فاعلة تقوم على تقدير خيرات الوطن ومعطياته والمحافظة على مرافقه ومُكتسباته التي من حق الجميع أن ينعُم بها وأن يتمتع بحظه منها كاملًا غير منقوص، ولا ينحصر حب الوطن في الجانب العاطفي، بل يتجاوزه إلى الجانب العملي من خلال التصدي لكل أمر يترتب عليه الإخلال بأمن وسلامة الوطن، والعمل على رد ذلك بمختلف الوسائل والإمكانات الممكنة والمُتاحة، والدفاع عن الوطن عند الحاجة إلى ذلك بالقول أو العمل. فيا وطني لك كل حبي وانتمائي في يوم عيدك.

وقل ربي زدني علما

ليس العلم بكثرة الاجتهاد والحفظ والقراءة فحسب، بل هو هبة من الله تعالى لمن علم الله فيه الصدق والإخلاص والصلاح، فالله عزَّ وجلَّ يؤتِي العلمَ مَن يشاء ويُلقي الفهمَ في قلبِ من يشاء من عبادِه المتقين، وقد قال جلَّ جَلالُه: ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩] قال القرطبي رحمه الله: يكون في أهلِ التقوى فراسةٌ دِينيةٌ وتوسُّماتٌ نورية، وذلك فَضلُ الله يؤتيهِ مَن يشاء... وعلى الجملة فقضاءُ سليمان في هذه القصة تضمَّنها مَدحُه تعالى له بقوله تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء: ٧٩]، فهذا وعد من الله تعالى وبشارة لأهل التقوى أن يهبهم منه علما وفهما،

فمن اتقى الله زاده الله من العلم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، قال القرطبي في قوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وَعْدٌ من الله تعالى بأن من اتقاه علمه: أي يجعل في قلبه نورا يفهم به ما يلقى إليه، وقد يجعل الله في قلبه ابتداء فُرقانًا: أي فَيْصَلا يفصل به بين الحق والباطل. ومنه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، ومعناه وعد من الله تعالى بأن من اتقاه علمه وجعل في قلبه نورًا يفهم به ما يُلقَى إليه وفرقانًا يفصل به بين الحق والباطل، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، فبتقوى الله تزدادُ المعارف، وقال تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩] قال ابن عباس هي في الذين يعملون بما يعلمون والذين جاهَدُوا في طاعَة الله لَنَهْدِيَنَّهم سُبلَ ثَوابِنا، يقول عبد الله بن الزبير: تقول الحكمةُ: مَن طلبَنِي فلم يجدني، فلْيَطْلُبْنِي في مَوضِعَين: أنْ يَعمَلَ بأحْسَنِ ما يعلَمُه ويَجتنِبَ أسوأ ما يَعلَمُه، فرَحِمَ الله عَبدًا لم يعتمد على عقلِه، بل استَعانَ بربِّه ونَصَبَ بين عَينيه رحمة الله تعالى وتقواه، فمن هنا يأتي العلم، والعلم بحر لا ساحل له، وقل ربي زدني علما.

وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا

في غمرة الغلاء الفاحش بدأ الناس يجدون ثقلا في العيش وتوفير مستلزمات الحياة، ولقد أصبح الغلاء واقعا، وأصبح التعامل معه أمرا لا مفر منه، فكيف يمكن للإنسان أن يقلل من وطأة الغلاء، إن المسألة لا تعدو كونها مسألة سلوكية، فالغلاء وإن كان له بعض المعالجات الاقتصادية ولكن يأتي العلاج سلوكيا بالدرجة الأولى، وأعني بذلك سلوك الاستهلاك، وقد وصف الله عباد الرحمن فقال في صفاتهم ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧]، فهذه الآية تعطي ميزانا دقيقا

للاستهلاك، فالإنفاق وهو هنا بمعنى الاستهلاك يكون بالقوام والقوام ميزان دقيق بكفتين كفة الإسراف وكفة البخل والتقتير، والقوام بين هاتين الكفتين، فلا إسراف ولا تقتير، ولكن وسطية وقوام، وهذه الوسطية تجعل الغلاء يتراجع من تلقاء نفسه، لأن الإنسان سيقلل الإقبال على ما لا حاجة له، وهذه سياسة ديناميكية ترتبط بالعرض والطلب فإن زاد الطلب وقل العرض ارتفعت الأسعار وإذا قل الطلب وزاد العرض قلت الأسعار، وقد كان توجيه سيدنا عمر يقوم على هذه السياسة عندما جاءه الناس يشتكون أن الجزارين رفعوا سعر اللحوم، فقال سيدنا عمر أرخصوا أنتم، فقال الناس وكيف نرخصه وهو ليس بأيدينا، فقال سيدنا عمر اتركوه لهم، أي لا تقبلوا عليه فيزيد الطلب وترتفع الأسعار، أو تأتي سياسة الاستبدال لبعض السلع لتواجه الغلاء فينخفض سعرها، ومن ذلك أن سيدنا علي رضي الله عنه في عهده اشتكى الناس غلاء الزبيب فقال رضي الله عنه أرخصوه بالتمر، أي استبدلوه ببضاعة أخرى وهي التمر، وفي هذا وذاك المسألة سلوكية، فالإنسان عندما يكتفي بالقليل أو يستبدل بعض السلع بغيرها يحتاج إلى خلق من الصبر والتعاون والرضا بما قسمه الله تعالى، وعدم الإسراف والترف، وعليه أن يلبس لباس القوام في البذل والإنفاق، هذه السلوكيات تجعل ميزان الحياة قائما دون ميل أو انحراف، فمن أراد أن يحارب الغلاء فليلتزم بقوله تعالى في صفات عباد الرحمن ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

رصيد الفطرة

الفطرة أصل الإنسانية، وهي تولد مع الإنسان، وهي نور يرى بها الإنسان الحقيقة عندما يتجرد من أهوائه، ولذلك كان خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للمشركين

الغارقين في عبادة الأوثان يحرك الفطرة في نفوسهم، نعم إنها الفطرة الموجودة في كل إحساس ومشاعر، إذا خاطبها الإنسان نطقت بالحق تلقائيا دون تعصب، ولذلك فإن النبي صلى الله عليه وسلم عندما جاءه الشاب الذي يقول: ائذن لي في الزنا يا رسول الله! فكيف خاطبه صلى الله عليه وسلم؟ فهل كلمه عن أضرار الزنا على الفرد والمجتمع؟ أم حدثه عن النار وعذاب القبر وعن الموت والحساب والعقاب؟ لا لم يكن خطابه صلى الله عليه وسلم يقوم على التهويل والتخويف، بل إنه صلى الله عليه وسلم خاطب فطرة هذا الشاب التي لا ترضى الزنا للقريب فسأله صلى الله عليه وسلم: هل ترضاه لأمك؟ لأختك؟ لعمتك؟ لخالتك؟ حتى الكافر الفاجر لو تسأله هل ترضى الزنا لأمك أو لأختك؟ قال بالفم الممتلئ لا وألف لا، إذن كان خطاب النبي صلى الله عليه وسلم للفطرة، وبهذا الخطاب نجح صلى الله عليه وسلم في إقناع كبار الصحابة بالإسلام، فالمطلوب اليوم من الدعاة استغلال الفطرة الموجودة في نفوس الناس، فالناس فطرهم الله على حب الخير وعلى كلمة الحق وعلى مبادئ من القيم الفاضلة والأفعال الحميدة، أما الفسوق والعصيان فهذه أشياء تصادم الفطرة ويأباها أصحاب الفطر السليمة، وهكذا يولد الإنسان على الفطرة، وتبقى الفطرة في داخله قد يغطيها ركام هائل من الغفلة ومع مرور الزمان تبقى الفطرة نائمة إلى أن تنفض عنها غبار الغفلة فتستيقظ وتنطق بالحق وتجعل صاحبها يعود إلى أصله وفطرته التي فطره الله عليها، ولعل الخطاب الإسلامي المتجدد للغرب يجب أن ينطلق من هذا المنطلق، ويجب أن يستفيد من رصيد الفطرة لدى الناس جميعا، فكل إنسان يولد على الفطرة.

تجارة مع الله

في ظل استفحال الأزمة المالية العالمية، وتتبع أجهزة الإعلام في شرح تداعيات وأبعاد وآثار هذه الأزمة المالية، أصبح الناس في حيرة من أمرهم وقد شغلتهم هذه الأزمة والكل يترقب ممن له مشاركات في أسهم أو مساهمات في بنوك أو ودائع ونحو ذلك، مما يؤكد بأن عقلية الإنسان هي عقلية تجارية من الأساس، فهو يحب المال حبا جما ويحب الربح ويكره الخسارة وهذه طبيعة مركبة في الإنسان وفي فطرته، ولذلك خاطب الله تعالى الإنسان بمفهوم تجاري فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣]، فهذا الخطاب التجاري جعل الناس في تحفز وترقب، والسؤال جاء تشويقيا «هَلْ أَدُلُّكُمْ»، والإنسان يحب الربح، وتؤلمه الخسارة، وهذه التجارة مع الله تجارة رابحة فيها أرباحٌ طائلة ورأس مالها الإيمان بالله تعالى ورسوله والجهاد في سبيل الله تعالى بالمال والنفس، وقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم فهو المشتري بربح وأي ربح أعظم من الجنة التي أعدها الله تعالى للمتقين، إن عالم التجارة اليوم يقوم على أساس الربح بنسب سنوية قد تصل إلى 12 % من رأس المال وهذه النسبة تجعل المستثمر يقبل المخاطرة بماله في سبيل الحصول على هذه النسبة كربح وهو مندفع إلى ذلك بفطرته في حبه للمال، وربحه مهما حصل فله حد وسقف، أما إذا تاجر الإنسان مع الله فربحه ليس له حد، ولا نهاية له ويصعب على العقل البشري أن يتصوره فهذه النسبة لا توجد في أرقام لا صفر ولا أصفار، وإنما عطاء الله مستمر لا حد له، فهذه هي التجارة مع

الله تعالى تجارة مضمونة لا خسارة فيها بل كلها ربح وخلود ونعيم أبدي، وهي تجارة كلفتها محدودة، وربحها غير محدود، لذلك أذكى تاجر على الإطلاق هو الذي يتاجر مع الله، وأحمق إنسان هو الذي يستغني عن فضل الله.

الإسلام هو الحل

مع بروز الأزمة المالية العالمية، وفشل الأنظمة الرأسمالية، تعالت الأصوات تقول إن الإسلام هو الحل، الإسلام هو الحل، ولكن كيف يكون الإسلام حلا لمثل هذه الأزمة المالية الاقتصادية، والأصوات التي تنادي بالحل نقول لها لا شك أن الإسلام هو الحل، ولكن ثمة إشكالية أي إسلام هذا الذي يخلص العالم من أزمته المالية، هل هو الإسلام الذي نطبق بعضه ونعطل بعضه، هل هو الإسلام المجزأ والذي نطبق بعض أجزائه ونهمل بعض أجزائه، هل إسلامنا نحن؟ ونحن لم نعرف من الإسلام سوى الاسم والرسم، إن من يدعي أن الإسلام هو الحل نقول له صدقت، ولكن يجب أن يكون الإسلام بكامله بكل جزئية فيه وبكل حكم فيه وبكل أمر ونهي فيه، وبكل تعاليمه وبكل مبادئه وبكل حدوده، فالإسلام كل لا يتجزأ، ولا يمكن للإسلام أن يعمل مجزأ، فحد السرقة جزء من الإسلام ولكنه لن يعمل ولن يؤثر في المجتمع إذا كان حد السرقة يطبق وتنتشر في المجتمع المجاعة والبطالة والجشع، وكذلك حد الزنا لن يعمل إذا كانت تنتشر في المجتمع الرذيلة والفاحشة، فكذلك الإسلام لن يعالج أزمة مالية إذا كنا نعالج الجانب المالي فقط ونهمل الجانب الأخلاقي، أو إذا كنا نطبق بعض مبادئه ونهمل بعضا آخر، لا أبدا، الإسلام كل لا يتجزأ، إن مصنعا بكامله قد يتوقف عن العمل والإنتاج إذا تعطلت بعض أجهزته، لأنه قائم بكل جزء فيه، فهو متكامل وأي نقص يوقفه عن العمل، فكذلك الإسلام لا يمكن أن يكون حلا إلا إذا طبق بكل

أجهزته الاقتصادية منها والأخلاقية والاجتماعية منها والعقائدية، والسياسية منها والسلوكية، فمن هنا يأتي الحل، وبهذا يستطيع الإسلام أن يعالج مشاكل العالم، كما عالجها رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما بعث والإنسانية كانت تعاني من جهل وتخلف وانحراف، فقوَّم كل ذلك بالدين الإسلامي المكتمل في نصوصه وأحكامه، يقول تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فهذا هو الحل إنه الإسلام فهو كل لا يتجزأ.

الصياد الماهر

الصياد الماهر له مواصفات وخبرة وتجربة في عملية الصيد، فهو حريص أن يختار الأوقات المناسبة والفريسة الصالحة، وهو كذلك حريص أن تكون ضربته الأولى ناجحة لأنه إذا أخطأ في الضربة الأولى التي يقتنص منها، فهو بهذا يضيع على نفسه الجهد والوقت، فهو يحرص كل الحرص على عدم تنفير الصيد وهذه حاسة مهمة، فالصياد يسير على أطراف قدميه، ويتوقى إحداث أصوات تنفر الصيد، بل هو يبالغ في الإحسان في الطُعم الذي يقدمه حتى لا ينفر منه الصيد، وهذه سمة أساسية في الصيد، كما أن هذا الصياد له نفس طويل فلا يدبّ إلى نفسه اليأس بل إذا فاته الصيد عاد مرة ثانية، وإذا كان الموقع غير مناسب، انتقل إلى غيره، لأنه لا بد له من الصيد، فهو لا يستغني عن الموقع لأنه مصدر رزقه، هذه صورة لهذا الصياد الماهر، ولكنني لا أتحدث عن صيد اللؤلؤ، أو عن صيد السمك، أو عن صيد الطيور، إنما أتحدث هنا عن العلماء والدعاة، فالواعظ منهم يصطاد الخلق بشباك الحق، فأنت صياد لكنك تصيد الناس من الفسق إلى الطاعة، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الغفلة إلى التذكّر، فهذه هي مهمتك في هذه الحياة، ولا نرضى لك إلا أن تكون صيادًا ماهرًا وداعيا ناجحا،

ويكفي أن تحظى في آخر الأمر بالثمرة التي ترجوها، فالداعي إلى الله تعالى يصيد الناس ويوجههم إلى الله تعالى، فهو يصطاد الأوقات المناسبة للدعوة والمكان المناسب لنشر الدعوة، والطريقة الصحيحة للتبليغ، وهو يدعو إلى سبيل الله بالأسلوب الأمثل ويسدد ويقارب، ومنهجه في الدعوة هو قول الله تعالى ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، إن عملية الصيد اليوم تحتاج إلى فن ودراية، ولا يكون الصيد أبدا منفرا فالبعض يدعو ودعوته فيها من الغلظة ما ينفر الناس من حوله، ويصور الإسلام بأنه دين التشدد والتزمت، فذلك ليس من الإسلام، ولا الإسلام يدعو إلى ذلك، فما رأيك في هذه الرحلة، ولتكن صيادا ماهرا يعرف كيف يغتنم الفرصة.

قائد الروم يباع بكلب

أمام تراجع الأمة إلى صف التخاذل والاستسلام قد يجد المرء في تاريخ الأمة من أمجاد وانتصارات ما يبعث فيه الأمل بأن النصر وإن تأخر ميلاده إلا أنه سيولد كما يولد الفجر بعد ليل طويل دامس، فقد سجل التاريخ أن ملك الترك ألب أرسلان واجه جيشا للروم قل أن يجمع جيش مثله في التاريخ فقد بلغ عدده ستمائة ألف مقاتل في كتائب متواصلة وعساكر مترادفة لا يحصيهم عدد ولا يدركهم طرف قد استعد بالكراع والسلاح والمجانيق ولم يشك قائد الروم لحظة أن هذا الجيش قد يهزم، وقد تواترت الأخبار إلى المسلمين بقدوم هذا الجيش، فبات المسلمون ليلة يتشاورون في أمرهم فقالوا نخرج ونقاتلهم، فقال ألب أرسلان يا معشر أهل الإسلام أمهلوا فإن هذا اليوم جمعة والمسلمون يخطبون على المنابر ويدعون لنا في مشارق الأرض ومغاربها فإذا زالت الشمس وعلمنا أن المسلمين قد صلوا ودعوا الله أن ينصر دينه حملنا عليهم، وبدأت

المعركة ودارت رحاها وتمكن ألب أرسلان قائد المسلمين من تحديد خيمة ملك الروم فقتلوا من كان حولها ووصلوا إلى الخيمة وتمكنوا من أسر ملك الروم، فنادى المسلمون قتل ملك الروم قتل الملك فسمعت الروم أن ملكهم قتل فتبددوا وتمزقوا كل ممزق وعمل السيف فيهم أياما وأخذ المسلمون أموالهم وغنائمهم وأتوا بالملك أسيرا بين يدي ألب أرسلان والحبل في عنقه قال له ألب أرسلان ماذا كنت تصنع بي لو أسرتني فقال ملك الروم وهل تشك أني قاتلك فقال له ألب أرسلان إنك أقل في عيني من أن أقتلك، فقال لجنوده اذهبوا فبيعوه لمن يزيد فيه فما زالوا يطوفون به الأسواق والخيام من يشتري ملك الروم فلم يدفع فيه أحد شيئًا حتى جاء رجل فقال من هذا فقالوا ملك هل تشتريه فقال إني أشتريه فقالوا له بكم فقال لدي كلب، فباعوه بكلب، وحمل الكلب إلى ألب أرسلان فقال أين ملك الروم فقالوا طفنا به منازل المسلمين فما دفعوا فيه شيئًا سوى رجل اشتراه بهذا الكلب فقال ألب أرسلان لقد أنصف هذا الرجل ملك الروم إن الكلب خير منه ثم أمر بعد ذلك بإطلاقه وذهب إلى القسطنطينية فعزلته الروم وكحلوه بالنار.

إن هذه الحادثة لترفع معنويات المسلمين صادقي الإيمان بنصر الله القريب وأن العزة لله ورسوله وللمؤمنين ولكن بتكاتف القوة الشعبية المسلمة التي تبذل كل أنواع الجهاد بالنفس والمال والدعاء، فليت شعري من يباع بهذه القيمة ومن يشتري ومن يساوم في رجال أخذهم الوهن فأعياهم حتى ركنوا إلى الدنيا فكان الحال هو واقعنا الذي نعيشه هذه الأيام.

مالي لا أرى الهدهد

في قصة سليمان مع الهدهد فوائد، كان الهدهد بطل القصة وسبحان الله، كيف كان الأسلوب الذي اعتمده الهدهد في نقل الأنباء مؤثرا، يقول الله تعالى ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٠-٢٦] والهدهد هو نوع من الطير في رائحته نتن، وفوق رأسه قزعة سوداء، وهو أسود البراثن، أصفر الأجفان، يقتات الحبوب والدود، ويرى الماء من بعد ويحس به في باطن الأرض فإذا رفرف على موضع علم أن فيه ماء، لقد شاهد الهدهد إبان طيرانه قوما يعبدون الشمس فاستنكر ذلك وهو موقف يجب أن نقفه عند كل منكر، وألقى بالنبأ إلى سليمان عليه السلام، باذلا بذلك كل وسعه في تغيير المنكر، وهذا ما يجب أن نقوم به عند رؤية المنكر، ثم جاء خطاب الهدهد وكان مختصرا ومفيدا ولم يكن خطابا طويلا، وقد بدأ خطابه بالتشويق عندما قال ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ﴾ [النمل: ٢٢]، ثم انظر إلى الهدهد حين أخبر سليمان عليه السلام بخبر بلقيس وقومها وكفرهم بالله، لم يقل لسليمان اذهب فأمرهم بالتوحيد والسجود لله، وإنما قال ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ [النمل: ٢٥]، فالهدهد هنا ألمح بالحل، ولم يأمر به، اقترح ولم يفرض، عرض ولم يصرح بالتكليف، وبمثل هذا الأسلوب يمكن أن نكسب الناس، إن طبيعة النفس الإنسانية أنها تنفر من الأوامر الصارمة المتعددة الجازمة، ثم

انظر إلى الهدهد واحترامه لنبي الله سليمان عندما قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، ووصف مكثه بقصر المدة للدلالة على إسراعه خوفا من سليمان، فقد كان الهدهد يهاب سليمان ويحترمه ويقدره، ومع أنه كان في مهمة دعوية إلا أنه مع ذلك حاول إنجازها بأسرع وقت لأنه تذكر أنه خرج في الأصل بغير استئذان، أعتقد أن الدعاة اليوم بحاجة إلى خبرة الهدهد في الدعوة، ما رأيكم؟

دعوها فإنها منتنة

من أصعب المهام التي قام بها الرسول صلى الله عليه وسلم أنه حارب الفتنة وقوض مروجيها، ولمَّ شمل الأمة، من منا لا يعرف المهاجرين والأنصار وفضلهم الكبير على الإسلام، ولكن عندما نادى المهاجر قالوا يا للمهاجرين ونادى الأنصاري يا للأنصار والقصد من ذلك دعوة للتحزب والتمييز فسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما بال دعوى الجاهلية قالوا رجل من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعوها فإنها منتنة، ومن ينظر حوله يرى أن دعوى الجاهلية قد انتشرت وعمَّ فسادها في مختلف المجالات، وصار الناس طوائف وأحزاب، فهذا يُميز بأنه شمالي وهذا جنوبي ناهيك عن الأحزاب في الدولة الواحدة، وعلى المستوى الديني هذا سني وهذا شيعي وهذا صوفي، وعلى مستوى العشائر والأنساب، فُرقة ما بعدها فُرقة، إن الفرقة هي أساس الضعف وأساس استعباد الدول القوية، فأفيقوا يا مسلمون، فهذا عمل فرعون حيث قسم الناس إلى شيع وأحزاب وفرق بينهم ليسيطر عليهم، قال تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]، إن فرعون لما فرق بين بني إسرائيل، وجعل أهلها طوائف متفرقة، استطاع أن يستعبدهم في الأرض، لقد

نهى الإسلام عن الفرقة، ودعا إلى الاجتماع، ولكن قد يسأل سائل كيف نجتمع، وعلى ماذا نجتمع؟، فنقول ما قاله الله تعالى ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرًا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»، فدعوا الفتنة فهي مهلكة، وعليكم بالوحدة فهي جامعة، والتفوا حول كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وما عليكم بعد ذلك من خلاف وفرقة فهي ذنوب توجب العذاب الأليم، قال تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، فاحذر كل دعوة للفرقة، وعليك بدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم يوم أعلنها صراحة «دعوها فإنها منتنة».

ما هذا يا ابن الخطاب؟

وحدة المصدر في التشريع هي النبع الصافي الذي يستقي منه المسلمون عذوبة التشريع والأحكام، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله وسنة نبيه فكان كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم هو المصدر الوحيد للتلقي لدى الصحابة رضوان الله عليهم، فأفكارهم وتصوراتهم وقيمهم وسلوكهم كلها منبثقة من وحي الله تعالى، فالقرآن الكريم كان هو النبع الذي يستقون منه معارفهم وأفكارهم وتوجهاتهم، ولهذا نرى كيف غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما جاءه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه على النبي صلى الله عليه وسلم فغضب النبي صلى الله عليه وسلم وقال

أمتهوكون - متحيرون - فيها يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيا، ما وسعه إلا أن يتبعني، فما هذا يا ابن الخطاب ليس في الإسلام من مصدر للتشريع سوى الكتاب والسنة، وقد كان سيدنا عمر بعد هذا التوجيه وقافا عند كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فكان يطلب من القرآن التشريع، ومن السنة التوثيق، وذلك لكي لا يكون هناك أكثر من مصدر للتلقي وأن يكون القرآن المبارك هو المرتكز والمصدر الذي ينطلق منه المؤمن في بناء تصوراته، وحالنا اليوم يشهد أننا قد جعلنا هناك مصادر متنوعة غير القرآن الكريم نتلقى منها تصوراتنا وقيمنا، فأصبنا من الغرب ومن الشرق من السموم ما يعكر صفو حياتنا، بل انسحب ذلك على مبادئنا وقيمنا وتصوراتنا لهذا كثر النزاع بيننا في قضايا لم يكن يتنازع فيها السلف، فما هذا الاغترار ولماذا نعطل الكتاب ونميت السنة، ونستبدل التشريع الإلهي بتشريع بشري، فأي طريق نسلك إن لم يكن طريق الهداية والذي ينيره القرآن وتنيره سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

دور القصة في الدعوة

القصة صورة جميلة، مألوفة ومقبولة لدى الناس، كلوحة جميلة كلما زادت ألوانها وتعددت أفكارها، كلما جذبت ولفتت أنظار المشاهدين لها، والقصة أسلوب من أساليب الدعوة إلى الله تعالى، وهي فقرات مترابطة، وميزتها أنها تجعل المستمع متحفزاً لكل فقرة فيها إلى أن تصل القصة إلى نهايتها وغايتها، والقصة لا يستطيع كل إنسان أن يحكيها، وليس كل إنسان قادراً على سرد وقائع القصة وتفاصيلها، وخير من قصَّ القصص هو الله سبحانه وتعالى، قال تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾

[يوسف: ٣]، فقد ذكر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم قصص الأنبياء في القرآن الكريم تسلية وتحفيزًا له صلى الله عليه وسلم، وقد فتح القرآن الكريم باب القصص لاستثارة الفكر، وتنشيط الوعي واستنباط الحكمة، وأخذ العبرة، واستنتاج الموعظة، فقدم قصص الأنبياء كنوح وإبراهيم وهود وصالح ويونس ويوسف وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام، كما قدم قصص الملوك كذي القرنين والنمرود وفرعون، وقصص الأقوام والأمم السابقة، كما قصَّ قصصًا تنحصر في مجموعات من الناس كقصة أصحاب الجنة في سورة القلم، أو أفرادًا كقصة الصاحبين المتحاورين في سورة الكهف، وقصة قارون، والقصص في القرآن كثيرة وثرية بمعانيها ودلالاتها وفنية في أساليبها. ومن أراد أن يصل إلى قلوب الناس ويستثير مشاعرهم ويوصل لهم الفكرة والمعلومة بأقصر الطرق فعليه بالقصة، ولكي تنجح القصة في أداء دورها فلا بد لها من عناصر، وأهم هذه العناصر الاختصار والإثارة والفائدة، فكلما كانت القصة قصيرة ومثيرة ومفيدة، كلما كان وقعها أسرع في النفوس، إن استخدام تقنيات بسيطة في صياغة القصة يجعلها قريبة المأخذ، سهلة الفهم، عميقة الأثر، فهذا هو المطلوب اليوم ضمن برامج الدعوة، وهي المادة السهلة التي يجب التركيز عليها من قبل الدعاة، فأين القصة، وكيف يمكن تفعيل دورها في نقل تعاليم وأحكام الدين وفي سرد السيرة والتاريخ، هذا دوركم أيها الدعاة، فالقصة أهم ما تقدمونه للناس.

ما هي العزة؟

سؤال يجيب عليه من عرف العزة وعرف الرفعة، ولا يمكن أن يجيب عليه من عاش الذل والهوان، لقد جعل الله تعالى العزة له ولرسوله وللمؤمنين، والعزة هي الرفعة والبعد عن مواطن الذل والمهانة، والله يأمرنا أن نكون أعزاء، لا نُذل ولا نخضع لأحد

من البشر، والخضوع إنما يكون لله وحده، فالمسلم يعتز بدينه وبربه، ويطلب العزة في رضا الله سبحانه، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨]، أما العزة لله فلأنه سبحانه هو العزيز الحكيم، يعطي العزة من يشاء ويمنعها عمن يشاء، قال تعالى ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وطريق العزة هو الدين الإسلامي والإلتزام بالكتاب والسنة، فهذا الطريق لا يسلكه مسلم إلا عز ولا يخطئه مسلم إلا ذل، يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كنا أذلاء، فأعزنا الله بالإسلام، فإن ابتغينا العزة في غيره أذلنا الله، ومن عزة المسلم ألا يكون مستباحًا لكل طامع، أو غرضًا لكل صاحب هوى، بل عليه أن يدافع عن نفسه وعِرْضِهِ وماله وأهله، ولا يوجد مسلم عزيز يذل نفسه حتى ولو قتل في سبيل عزته وكرامته، ويبدو ذلك واضحًا في موقف الرجل الذي أتى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أرأيتَ إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: فلا تعطِه مالك، فقال الرجل: أرأيت إن قاتلني؟ فقال صلى الله عليه وسلم: قاتلْه، فقال الرجل: أرأيتَ إن قتلني؟ فقال صلى الله عليه وسلم: فأنت شهيد، فقال الرجل: أرأيت إن قتلتُه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: هو في النار، ولكي يحافظ المسلم على عزته، ويجعل دينه عزيزًا ودولته عزيزة، يجب عليه أن يعمل، ويكد ويتعب؛ حتى تتحقق له القوة، فلا عزة للضعفاء الذين يمدون أيديهم للناس ويأكلون بلا تعب، فهكذا يعيش المسلم محتفظًا بكرامته، لا يضعف ولا يلين ولا يتنازل عن شيء من كرامته وعزته من أجل مالٍ قليل، أو عَرَضٍ دنيوي يزول، فهذه هي العزة.

النصر قادم

الحديث عن النصر حديث جميل وممتع، والحديث عن الهزيمة حديث منبوذ وحزين، والإنسان يكره الهزيمة من فطرته ويحب النصر ويسعى له دائمًا، والنصر له جوانب وصور متعددة، فالنصر يكون في قوة العزيمة وقوة القلوب، والنصر يكون مع الصبر ومع الثبات، والنصر مع اليقين، والنصر في العزة، والنصر يأتي مع الكرامة، والنصر في نبذ الهوان، والنصر في عدم الضعف والاستسلام، والنصر في عدم الاستكانة للعدو، قال الله تعالى ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وللنصر طريق يأتي منه، وطريق النصر له بداية وله نهاية، وهو يبدأ بخطوات، وأول خطوات النصر هي حب النصر في القلب، نعم فالذي ليس في قلبه حب النصر فهو منهزم وإن انتصر على أرض الواقع، والذي في قبله حب النصر فهو منتصر، وإن مات أو قتل على أرض الواقع، فالنصر في القلوب هو بداية النصر، ومن قتل على الأرض فلا نستهين به إن كان يدافع عن الحق، فقد يقتل المسلم ولكنه منتصر، كما قال حرام بن ملحان رضي الله عنه لما رأى الدم يخرج من جسده (فزت ورب الكعبة) فهو منتصر ولو جرح أو مات، فقد انتصر بثباته وإيمانه وعدم خضوعه واستكانته، قد يجرح وقد يُشرد ولكن المسلم يبقى قويًا شامخًا لا يقبل الخضوع والاستسلام، فكم من أسير منتصر، وكم من قتيل منتصر، وإن الذين يتطلعون إلى النصر عليهم أن ينتصروا على أنفسهم ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فالإحساس بالنصر نصر وإن خالف الواقع ذلك، والإحساس بالذل ذل وإن خالف الواقع ذلك، ومن كان في نيته حب المشاركة والانتصار فهو مشارك في الأجر ومنتصر في الواقع، ومن حدث نفسه بالشهادة فهو شهيد وإن مات على فراشه، فعن جابر رضي الله عنه قال كنا مع النبي

صلى الله عليه وسلم في غزاة فقال «إن بالمدينة رجالًا ما سرتم مسيرًا ولا قطعتم واديًا إلا كانوا معكم حبسهم المرض»، وعن معاذ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من سأل الله الشهادة مخلصًا أعطاه الله أجر شهيد وإن مات على فراشه)، وعن سهل بن حنيف قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من سأل الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»، فنحن منتصرون ولكن مهلا فالنصر قادم إن شاء الله.

الدعوة الصامتة

الدعوة إلى الله تعالى لا يشترط أن تكون بالكلام ورفع الأصوات، كما لا يشترط أن تكون مباشرة بالحديث، ولكن الدعوة لها أساليب وفنون، وقد تكون الدعوة إلى الله تعالى صامتة، ومن منا لا يحب أن يكون داعيا إلى الله ولكن كيف السبيل إلى ذلك، وكيف تكون الدعوة صامتة، نقول إن الجهر بالدعوة هو الأساس ولكن من الناس من لا يستطيع أن يفعل ذلك، فتجده يحب الدعوة ولكنه لا يملك الإمكانات ولا يملك المقدرة، مع أنني أرى أن الدعوة الصامتة قد تكون أوقع في النفس وأشد على السمع، ولكن كيف نكون دعاة إلى الله صامتين، إن الدعوة الصامتة تكون بالصدق في التعامل لا بالنفاق والمجاملة، إن الدعوة الصامتة تكون بالنظافة في المأكل والملبس وحسن المعاملة مع الناس، كما تكون الدعوة الصامتة بنبذ الغش والكذب والخديعة، إنها دعوة صامتة تتحدث عن نفسها دون كلمة أو عبارة، فيا من تدعو إلى الله اجعل من يراك يتمنى أن يكون مثلك، لا تحدثه عن الإيمان اجعله يستشعره من النور الذي يضيء في وجهك، لا تحدثه عن العقيدة واجعله يعتنقها بثباتك عليها، لا تحدثه عن العبادة واجعله يراها أمام عينيه، ولا تحدثه عن الأخلاق واجعله يحبها

منك، لقد سمعنا كلاما كثيرًا وكثيرًا وآن أوان الصمت، فقد رأينا مسلمين بلا إسلام، ورأينا مصلين يصلون الفروض الخمسة وهم يرتكبون الفحشاء والمنكر والبغي، رأينا اللحى الطويلة وطأطأة الرؤوس والمسكنة في الصفوف، لكننا لم نرَ إسلاما واقعيا، إن الغرب اليوم يريد منا أن نبين له الإسلام واقعيا وعمليا، وكم نأسف عندما نسافر إلى الغرب فنرى من يعاملنا بكل إحترام وتقدير وبكل ما يستوجبه القانون على الجميع، ولكن عندما نسافر إلى بعض الدول الإسلامية لا نرى سوى قلة الإحترام والتقدير، فأين الإسلام الذي ندين به، فلن يجدي الكلام الكثير ولا رفع الأصوات، فنحن نعيش زمن النقل الحي والمباشر لصورة الواقع عبر اللحظات والمحطات، فهذه دعوة صامتة لا تكلف شيئًا سوى أن نكون مسلمين صادقين في العقيدة والعبادة والمعاملات لمن أراد ولمن لم يرد مرددين ألا هل بلغت اللهم فاشهد عندها فقط ستأتي الدعوة بثمارها.

الحق قديم

وأعني بذلك أن الحق لا يمكن أن يتغير، ومهما تجاهل الإنسان الحق، أو ظن أنه ذاهب إلى الماضي، فالحق أقدم من ذلك، وهو ماضٍ في طريقه، ومهما تقادم فهو حاضر، لأن الحق ضد الباطل، والحق أقوى من الباطل، والحق باق والباطل زائل، وانظر إلى الجبابرة والطغاة، كيف كان الناس يخشون أن يقولوا كلمة حق أمامهم، فأين هم الآن، لقد رحلوا، بينما بقي الحق عاليًا مرفوعًا إلى متون السماء، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده، فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق، أو يذكر بعظيم»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «لا يحقرن أحدكم نفسه. قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال: يرى أمرًا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما

منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى»، ويقول صلى الله عليه وسلم: «أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر»، إن الله تعالى أراد للحق أن يكون صعباً عند الناس، ولكنه لا بد أن يقال ولا بد أن ينفذ، تلك هي الدنيا، إن لم يُقَم فيها الحق الآن، فإنه يقوم يوم القيامة، لأن الحق والعدل نافذان مهما طال بهما الأمد، وللحق أهله وناسه، وإن تخاذل أهله وذهب ناسه استبدل الله قومًا غيرهم وأحسن منهم يقيمون الحق ولا يخافون في الله لومة لائم، فلنقف للحق إجلالًا، ولنطبق الحق أقوالًا وأفعالًا، فإن عجزنا أو ذهبنا، فلن يعدم الإسلام رجلًا أو رجالًا خيرًا منا، يرفعون هذا اللواء، فلا يزال خفاقًا إلى السماء بإذن الله، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»، فالحق قائم، وأهله قادمون، أو هم لا يزالون صامدين، أو يبعث الله من عنده من يرفع لواء الحق، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٨].

الوثيقة العمرية

الغلو في الدين أمر مذموم، ونحن أمة وسطية، وهي أهم صفة جعلها الله عز وجل لأمة محمد لأنها ستكون شاهدة على بقية الأمم ولا تستقيم الشهادة ما لم تكن الأمة أهلًا لهذه الشهادة، ولن تكون أهلًا لها إلا إذا كانت أمة وسطًا، يقول تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، لقد احترم الإسلام الإنسان وأكرمه لأنه ابن آدم، والله تعالى يقول ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، فالإنسان كريم بنفسه، لقد منع الإسلام الاعتداء وكره الله المعتدين، وعندما فتح عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس أصدر

الوثيقة العمرية التي أسس فيها القوانين الدولية وقانون حقوق الإنسان، ومما تضمنته هذه الوثيقة: (هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها، وسائر ملتها، إنه لا تسكن كنائسهم، ولا تهدم، ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود)، تلك هي تعاليم الإسلام جسدها عمر رضي الله عنه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يوجه قادة الحروب والفتوحات، وكانت تعاليم الإسلام صريحة وواضحة بعدم قتل طفل ولا شيخ ولا امرأة ولا بهيمة ولا تقطعوا شجرة ولا نخلًا ولا تحرقوه ولا تؤذوا راهبًا أو عابدًا ولا تهدموا معبدًا أو صومعة ولا تجهزن على جريح ولا يُتبعنّ مُدبر ولا يقتل أسير ولا تمثلوا بجثة ولا تسلبوا وتنهبوا ولا تغلوا ولا تغدروا، إنها شريعة محمد ترفع الأغلال، وتضع الإصر والأحمال والأثقال بما جاء به من هذه الشريعة الميسرة وهو يقول: «إن الله لم يبعثني معنتا ولا متعنتا ولكن بعثني معلما ميسرا»، تلك هي الحقائق الغائبة عن المتشددين المتطرفين، وهي كذلك غائبة عن الناس، فنحن أمة الوسط والتسامح كيف سنشهد على الغرب ونحن من تعاليم الإسلام بعيدون.

أمانة الدعوة

الدعوة أمانة في أعناقنا بعد الداعي الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو القائل «بلغوا عني ولو آية»، والدعوة اليوم في ظل مستجدات الاتصال وتطورها، وفي ظل شبكة التقارب بمختلف الأدوات والوسائل المتطورة والتي أصبحت تربط العالم من شرقه إلى غربه، ومن شماله إلى جنوبه، حتى بات العالم كقرية صغيرة ما يحدث في

أي بقعة منها ينقل خبرًا مباشرًا يسمعه كل من في العالم، أصبحت واجبة، وأهم ما في الدعوة اليوم هو التعريف بالرسول صلى الله عليه وسلم لأهل الغرب، فهم لا يعرفون رسولنا ولا يعرفون خلقه، ولا يعرفون تسامحه، ولا يعرفون أنه أنقذ البشرية من الشرك، ولا يعرفون أنه أعاد نقاء الفطرة السليمة، ولا يعرفون صفاته وهي عندهم في كتبهم المقدسة، ولا يعرفون أنه صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة، فأين دورنا اليوم؟ إننا مطالبون بنشر سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم عبر الإنترنت وعبر الفضائيات، عبر الصوتيات، وعبر النشر في المجلات والجرائد، وعبر الكتب الصغيرة منها والكبيرة، وعبر المسلسلات والأفلام والإذاعات، وعبر الفيس بوك واليوتيوب، وعبر البريد الإلكتروني، وعبر الدورات والمحاضرات، فهذه هي الأدوات التي يستخدمها الغرب، وهذه هي الوسائل التي يعرفها الغرب، ولتكن الدعوة بلغتهم وبنفس الأساليب التي يفهمونها ويقبلونها، ولدينا من الإمكانيات والقدرات والأموال ما يجعلنا نستخدم جميع وسائل الاتصال والخروج للفضاء، لنقول للعالم بأسره، هذا هو محمد نبي الإسلام، وهذه تعاليمه، وهذا منهجه، فإن قالوا الإسلام هو الإرهاب، شرحنا لهم، كيف كان صلى الله عليه وسلم يتعامل ويتسامح مع المعادين له، وإن قالوا بأن الإسلام ظلم المرأة شرحنا لهم كيف كان صلى الله عليه وسلم يعامل المرأة وكيف أكرمها الإسلام، فهذا شهر ربيع شهر ميلاده صلى الله عليه وسلم، فهل نشهد ميلاد سيرته وتاريخه وسط الغرب، إنها أمانة، وكل منا سيسأل عن هذه الأمانة، فكلكم مسئول، وكل منا شاهد، والغرب غائب، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول «ليبلغ الشاهد منكم الغائب».

شراب الأمن

من بين نعم الله تعالى على الإنسانية نعمة الأمن، وأن يعيش الإنسان آمنا من غير خوف، فالخوف والحياة لا يجتمعان، قال تعالى ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، فما الذي يريده الإنسان أكثر من أن يعيش بسلام، والاعتداءات والعنف والتخريب والإفساد كل ذلك يقتل الأمن، وإذا مات الأمن مات الإنسان معه، وما الذي يريده من يضرب الأمن؟ فهل نُخرب بلدًا يعيش على أرضه مجموعة من الناس من أجل فكر أو رأي يتبناه بعضهم، فالآراء والأفكار غير مشتركة، ولا يوجد اشتراك في رأي أو فكر بين الناس جميعًا، ولكن هناك اشتراك في السلم والأمن، فكيف نضرب هذا الاشتراك برأي غير مشترك، هذه المسألة تمامًا كمن ركب سفينة على متنها ركاب كثيرون وأثناء الرحلة وقع الخلاف، واختلف الراكبون ففئة أخذت برأي، وأخرى أخذت برأي مخالف فهم لم يشتركوا في رأي، ولكنهم مشتركون في ركوب هذه السفينة ومشتركون في المصير الواحد، وقامت فئة تخرب في السفينة وتفسد فيها، لماذا؟ لأنها رأت رأيًا ولا بد أن يُؤخذ بهذا الرأي، والفئة الأخرى رأت أنه لا بد من المواجهة فالأمر لا يحتمل وأوشك الفريقان على التناحر، وتعالت الأصوات واحتدم النقاش ثم ما لبث أن تطور الوضع إلى القتال، وتدخل أهل الفتنة يشعلون الخلاف لحاجة في أنفسهم، وهنا تدخل ربان السفينة وماسك دفتها، ليقول كلمته ولتكون حاسمة للوضع، فالوضع لا يحتمل فإما أن تغرق السفينة بمن عليها، وإما أن يُؤخذ على يد المتجاوزين، ثم يعود الحوار والخلاف للتداول وفق الطرق السلمية، هذه القصة الخيالية هي أصدق قصة تحاكي الواقع المرير الذي تعيشه مجتمعاتنا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء

مروا على من فوقهم فقالوا لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا، فيا من أراد أن يهدم وطنه بيده، ويا من أراد أن يؤذي إخوانه، حاسب نفسك فأنت في مجتمع آمن والأمن حق للجميع وهو مشترك، مثل الماء لا يمنع منه شارب، وكذلك الأمن لا يمنع منه إنسان، فاسأل نفسك أيها المتجاوز للقوانين هل تمنع الماء عن شارب، فالناس من حقهم أن يشربوا الأمن ويعيشوا بسلام.

غضب الأرض

كثيرة هي المصائب التي تنزل على الإنسان، ولكن عندما نقول بأن المصائب هي نتيجة البعد عن الله تعالى، وهي نتيجة ما يجنيه الإنسان من أخطاء ومعاصٍ، يقول البعض هذا الكلام غير منطقي، وما يحدث من زلازل وكوارث إنما هي أمور طبيعية تتسبب فيها الطبيعة، فالزلازل والأعاصير والسيول وغيرها إنما هي كوارث طبيعية لا دخل للإنسان فيها، ولكننا نقول بأن الله تعالى يقول في كتابه العزيز ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠]، وقال تعالى ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، فلا شك أن وقوع الكوارث وغيرها سببه البعد عن الله عز وجل، إن الذي يحدث في الكون هو من تقدير الله عز وجل وهو من عدله ورحمته سبحانه وتعالى، وقال عليه الصلاة والسلام: كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، إن للمعاصي آثارًا عاجلة وآجلة فاحذر منها، فمن الذي أخرج الأبوين من الجنة إلى دار الدنيا والابتلاء، ومن الذي أخرج إبليس من ملكوت السموات وطرده ولعنه، ومن الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق

الجبال، ومن الذي سلّط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض كأنهم أعجاز نخل خاوية، ومن الذي أرسل على ثمود الصيحة حتى قَطَّعت قلوبهم في أجوافهم وماتوا عن آخرهم، ومن الذي رفع قرى قوم لوط حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم ثم جعلت عاليها سافلها، ومن الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب على رؤوسهم وأمطر عليهم نارًا تلظى، ومن الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ومن الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله، إنه الله تعالى وكان ذلك بسبب ذنوبهم وكفرهم، إن كثيرًا من الناس يظن أن الله لا يقدر عليه وعلى معصيته، ويظن أن الزلازل التي تضرب الناس ما هي إلا كوارث طبيعية، قال تعالى ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧-٩٩]، فاحذر غضب الأرض حين تتزلزل، وحين تخرج أثقالها، وما حواه بطنها، واحذر السيول التي تجري على ظهرها، تلك هي الأرض غضبها زلزال قاتل، وسيول جارفة، فسبحان من أمرها، وسبحان من أوحى لها.

فالحق والحق أقول

كلمة الحق قلما تُسمع اليوم، وقلما تجد من يتقبلها حتى وإن قيلت، وقد صدق عمر فيما ورد عنه أنه قال: كلمة الحق ما أبقيت لي صاحبا، إن كلمة الحق مطلوبة وإن كانت في بعض الأحيان صعبة، فهي أولى من السكوت أو المجاملة، والصديق من صدقك بكلمة الحق لا من جاملك على حساب كلمة الحق، فيجب أن نقول الحق فالله تعالى هو الحق وديننا الإسلامي هو الحق ورسولنا صلى الله عليه وسلم هو الحق، وكل ما يرضي الله تعالى حق، والحق نقيض الباطل فإما الحق ولا شيء سوى الحق وغيره

باطل، لقد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصدع ويقول كلمة الحق وهو أهلها صلى الله عليه وسلم، ومن بعده جاء الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين، يسيرون على منهج الحق ويقفون أمام الباطل فقد جاء عن عبادة بن الصامت أنه قال: بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على السمع والطاعة في المنشط والمكره وعلى أن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم، وعن أبي ذر رضي الله عنه وأرضاه حينما قال: «أوصاني خليلي بخصال وعدد خصالًا ثم قال: وأن أقول الحق ولو كان مرًّا»، فمرّ الحق هو الذي يجعل في القلب حلاوة الإيمان، إن كلمة الحق أمانة، وكلمة الحق حين تقال فإنها تقال لخدمة الحق، فقد تغطي كلمة الحق باطلا كما قيل «كلمة حق أريد بها باطل» بل لا بد لكلمة الحق أن تبني الأصول وإن حطمت الفروع لأن الأصل أهم من الفرع، لقد لعن الله تعالى قوما رأوا الحق فلم يأمروا به ورأوا المنكر وسكتوا عنه، فقال تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨-٧٩]، وفي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل أن الرجل كان يلقى الرجل وهو على المنكر فيقول له: اتقِ الله ودع ما تصنع، ولا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»، فلا سبيل لنهوض هذه الأمة سوى الحق ولكن متى نقول الحق؟

لا ما أقاموا فيكم الصلاة

الطاعة لولي الأمر واجبة، ولا يجوز الخروج عليه بأي حال ما دام يقيم شعائر الإسلام، والناس حسب الطبيعة الاجتماعية مختلفون، فالإنسان اجتماعي بطبعه ولا

يمكن له أن يعيش بلا مجتمع منفردًا منعزلًا عن الناس، بل لا بد له من جماعة، وهذه الجماعة فيها مصالح تتضارب فيما بينها ولا يمكن لهذه الجماعة أن تتحد على رأي في مصالحها والخلاف بينها وارد وقائم ما دام تضارب المصالح قائمًا، قال الله تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨]، وكذلك الخلاف بين الدول فيما بينها، وكذلك الشعوب وحكوماتها، بل كذلك بين الزوج وامرأته، كل ذلك يدخله الخلاف شئنا أم أبينا، ولكن الله تعالى أراد لكل جماعة أن يقودها قائد واحد يتحمل مسئوليتها كما يتحمل قيادتها، ولكي يكون هذا القائد قويًا في أداء مهمته فلا بد من طاعته ومناصرته، ولا بد من الانصياع لسلطته، حتى تستقر الجماعة ويتماسك عودها، وقد جعل الله تعالى طاعة ولي الأمر من طاعته وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتتفرع طاعة ولي الأمر عن طاعة الله وطاعة نبيه صلى الله عليه وسلم ما دام ولي الأمر يقيم شرع الله تعالى وعندها يحرم الخروج عليه ولا تجوز مقاتلته لما في ذلك من الفتن، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ويصلون عليكم وتصلون عليهم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم، قيل يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف، فقال لا ما أقاموا فيكم الصلاة وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه فاكرهوا عمله ولا تنزعوا يدًا من طاعة، فهذا النص النبوي صريح في عدم جواز الخروج على الإمام بأي حال لما في ذلك من الفتن وضياع الحقوق، ودعني أكون صريحا كل الصراحة فهل وجدت فتنة أكبر من فتنة الخروج على سيدنا عثمان رضي الله عنه وقتله، فما الذي حدث بعد ذلك من خلافات وقعت، ومعارك اشتعلت، ودماء سفكت، وصلت بالآلاف أرواح زهقت، لمَ ذلك؟ لأنهم خرجوا على ولي الأمر، وما زال أثر ذلك الخروج عليه إلى يومنا هذا نعاني منه، أليس ذلك صحيحًا، فيا شبابنا احذروا التغرير واحذروا التحريض، وإياكم والتخريب في أرضكم وبيوتكم ووطنكم الذي يجمعكم، وكونوا جميعا خلف قائدكم وحاكمكم، فلله الحمد

دور العبادة في كل مكان قائمة يرفع فيها الأذان وتقام فيها الصلوات، فلا يحق سوى طاعة الحاكم وعدم مخالفته وعدم شق عصا الطاعة، مصداقًا لقوله صلى الله عليه وسلم لمن سأل عن الخروج على ولي الأمر، قال «لا ما أقاموا فيكم الصلاة».

يا أهل الغرب هذا إسلامنا

لا يوجد مثلُ الإسلام دينا محبًا للسلام ومُكرمًا للإنسانية، لا عليك مما يُثار بأن الإسلام والقرآن هما منابع للإرهاب، وسفك الدماء، فكل ما يقال لا يتجاوز أفواه الحاقدين، ولا يمكن أن تطمس الحقائق التي سجلها الإسلام عبر التاريخ وعبر حضارات مازالت منابرها ومآذنها منهم بقريب، كان الطفل الصغير يجد في الإسلام الرعاية وإن لم يكن مسلمًا، وكان الشيخ الكبير يجد في الإسلام التوقير وإن لم يكن مواليا، وكانت المرأة تجد رفعة الرأس في الإسلام وإن لم تكن مسلمة، لقد أسس الدين الإسلامي الحنيف ركائز التعايش السلمي ومبادئ الوئام والعدل والتسامح في التعامل مع غير المسلمين في ظل المجتمع الإسلامي. فالإسلام ساوى بشكل مطلق في تطبيق العدل والمساواة والتسامح بين من هم على ملة الدين الذي ارتضاه لنا رب العزة والجلال، وبين غير المسلمين من الملل والنحل المختلفة الأخرى، يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨]، نعم هو الإسلام دين العدل المجرد من الهوى والطائفية والشنآن والعصبية، يُروى أن طعمة بن أبيرق سرق درعًا لقتادة بن النعمان ثم خبأها عند رجل من اليهود، وتم البحث عن المسروق، فسألوا عنها طعمة فقال: ما لي بها علم، فقال أصحابها: بلى والله، لقد دخل علينا فأخذها، فلما حلف تركوه، واتبعوا الأثر فوجدوا الدرع في منزل اليهودي فأخذوه، فقال اليهودي: ما سرقتها فقد دفعها إليَّ طعمة، فقال قوم طعمة انطلقوا إلى رسول الله ليدافع

عن طعمة ويعاقب اليهودي، ولكن الله أنزل من السماء براءة اليهودي هذا، فقال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، تلك سماحة الإسلام وعدله مع الإنسان دون النظر إلى دينه يهوديًا كان أم نصرانيًا أم مسلمًا، فقد تساوى الناس أمام العدل شيبًا وشبانًا أسيادًا وعبيدًا، فيا أهل الغرب هذا هو الإسلام لو كنتم منصفين.

تم بحمد الله وتوفيقه

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين



osamabahar.com